

مايلز كوبلاند

مؤلف «لعبة الأمم»

اللاعب واللعبة

عالم الاستخبارات الاميركيّة
في اعترافات احد رجاله

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة أ.د/رمزي حكي

القاهرة

اللاعب واللعبة

مايلز كوبلاند

مؤلف «لعبة الأمم»

اللاعب واللعبة

عالم الاستخبارات الأميركية
في اعترافات احد رجالها



يحق الطبع محفوظاً

الطبعة الأولى

١٩٩٠

كلمة الناشر

من «لعبة الأمم» إلى «اللاعب واللعبة»

لا بأس من تذكير القارئ في تقديمنا لهذه «الاعترافات» بالقواعد التي طُلب إليه ان يضعها نصب عينيه فيما لو أراد ان يفهم ما تعنيه «لعبة الأمم» وترمز إليه هذه العبارة التي دخلت القاموس السياسي المعاصر. إنها القواعد الست التالية:

● كل أمة من الأمم تجعل في مقدمة أهدافها البقاء في اللعبة وممارستها وليس إلى الخروج منها.

● تتصرف الأمة في غالب الأحيان على نحو لا يهدف إلى احراز النجاح داخل اللعبة بقدر ما تسعى لضمان استمرار التأييد الجماهيري لزعيمها أو لقيادتها.

● التصريحات الرسمية حول السياسة الخارجية لا يمكن قياسها بصفاء النية، بل قوامها المناورة والمداورة والكتمان والازدواجية: اللاعب الرئيس لا يكشف أوراقه، بل يظهر ما لا يبطن.

● لا تهدف الأمم المتخاصمة من وراء إظهار حسن النوايا والإقرار بوجود أهداف مشتركة سوى إلى تحسين أوضاعها الداخلية أو إلى ممارسة الضغط على فريق ثالث، وقلماً يحدوها الأمل المخلص في تحقيق ما تعلن عنه حقيقة.

● حين تعتمد دولة عظمى إلى مغازلة أمة ضعيفة والتودّد لها، فإن الأمة الضعيفة سوف تلتفت في غالب الأحيان صوب الخصم الرئيس للدولة العظمى بغية إثارة التنافس بين الخصمين وحملها على خطب ودّها لكي تنتهز الفرصة لتحقيق الأرباح والمكاسب.

● عندما تحرز الأمة الضعيفة في اللعبة مركزاً دبلوماسياً وقوة من خلال استغلال مقولة التنافس، فإن من شأنها تبوء مركز استراتيجي يسهم في مساعدتها على نيل المزيد من القوة والنفوذ، وذلك من خلال لجوئها إلى التهديد بالاقدام على مغامرات لا تحبّها الدول العظمى - لأن فهمها للعبة يتطلب ذلك!

هذه هي القواعد التي شرحها مايلز كوپلاند عام ١٩٦٩ في كتابه عن «لعبة الأمم». ولتبسيط الشرح وتلخيص القواعد بعبارة موجزة، يمكن القول إن «لعبة الأمم» هي كناية عن النشاط الذي تمارسه نظارة الخارجية الأميركية في واشنطن من أجل رسم المخططات الملائمة لبسط النفوذ الأميركي على بلدان العالم أجمع عن طريق استخدام السياسة والخداع والحيلة بدلاً من اللجوء إلى إضرام نار الحرب المسلحة. إنها التخطط السياسي لتوجيه الصراع على مناطق النفوذ في العالم من خلال استخدام أساليب الحرب الباردة - وما أكثرها تنوعاً وأوسعها حيلة!

وفي الكتاب الذي بين أيدينا يَبُوح العميل السياسي واللاعب المتمرس في قواعد اللعبة بالكثير من الخفايا والأسرار التي اكتتفت ممارسة اللعبة في بلدان الشرق الأوسط وغيرها من بلدان العالم. ويعترف للمقارئ بوجود أكثر من لعبة يمارسها اللاعب على مختلف الأصعدة وفي شتى المجالات. مثلاً يكشف المؤلف عن «العمل السياسي في الخفاء» والعمليات السرية أو الخفية التي تمارسها أجهزة إدارة اللعبة في الولايات المتحدة وخارجها، هذا بالإضافة إلى الحيل القذرة التي تستخدمها وتلجأ إليها على سبيل التغطية والتمويه، متذرعة ببلوغ الهدف.

ليس الغرض من هذه الكلمة إثقال كاهل القارئ بالشروحات والتعليقات والتنبيهات. ولا حاجة بنا إلى التذكير بتلك الوفرة العارمة من الكثير والترجمات والاقتباسات التي تقذف بها المطابع وتملأ رفوف المكتبات. بل نكتفي بالإشارة إلى دلالة هذه «الاعترافات» التي جرى تعريبها بتصرف دون الاساءة إلى فحواها وتشويه محتواها.

ومن نافل القول إن ناشر الكتاب لا يعتبر ما جاء على صفحات «اللاعب واللعبة» بمثابة «فصل الخطاب»، كما أنه لا يتبنى الآراء والمواقف الواردة في فصوله. إنها وجهة نظر من داخل المؤسسة، يبوح بها أحد اللاعبين الكبار والقدامى على رقعة العمل السياسي الخفي في الشرق الأوسط. ولا غرو فإن القارئ لن يفوته الكشف عن الكثير من الآراء المتحيزة والمعلومات الخاضعة للتلاعب علاوة على «التنظير» المضلل والممل في كثير من الأحيان. فالاطلاع على هذه الاعترافات، بالرغم من اللمسات والشطحات الشخصية التي تشوب مواقف اللاعب وتكتنف مغامراته التنظيرية واستغراقه في السرد - يغدو ضرورة لا بد منها على سبيل أخذ العلم والإلمام بالمخططات التي ترسم للسيطرة على مقدرات بلادنا والتحكم بمصيرنا من خلال التذرّع بتأمين مصالح الدول الكبرى.

إنها اعترافات لاعب متقاعد، واكب أجهزة بلاده منذ انشائها بهدف جمع المعلومات في ظروف الحرب العالمية الثانية وحتى اتساع نطاقها وتشعب اهتماماتها وانتفاخها البيروقراطي، وصولاً إلى اعتماد الحيل القذرة والأساليب اللاأخلاقية في ما يطلقون عليه تسمية «العمل السياسي الخفي». ولا ضير في الاطلاع على تفاصيل السجلات وكيفية وضع السيناريو المطلوب لبلوغ الأهداف المنشودة من وراء ممارسة اللعبة.

المدار

بيروت في ٣٠ أيار (مايو) ١٩٩٠

الفصل الأول

البداية في ولاية الاباما

ضمّ فريق العلماء النفسانيين الذين استجوبوني تمهيداً لتكليفني «بمهمة خاصة» كلاً من : الدكتور أغرتن باللاتشي من جامعة ستانفورد الذي سبق له أن عمل مع فريق الدكتور هنري موراي من جامعة هارفارد، والدكتور موراي مؤلف كتاب «تقويم الرجال» الذي صار فيما بعد من المراجع الكلاسيكية في حقله أثناء الحرب العالمية الثانية. وضمّ أيضاً الرائد وليّم مورغن، وهو عالم نفسي من جامعة ييل درس بإمعان قدرة العملاء على «تحمل الإحباط» في حالات «اليأس من تحقيق الغايات المنشودة». وكانت في الفريق أيضاً الدكتورة مابل تيرنر وهي سيدة لطيفة في العقد السابع من عمرها هبطت في صباها ست مرات وراء خطوط العدو في الحرب العالمية الثانية وحازت على عدد مماثل من الأوسمة تقديراً لشجاعتها وإقدامها وهي أيضاً مؤلفة كتاب ارشادي عنوانه : «العقلية الإجرامية وعمليات التجسس». ذاع صيتها في وكالة الاستخبارات المركزية (سي. آي. إي. - CIA) على أنها امرأة عطوفة متوقّدة الذكاء والتفهم بحيث يعلم كل صاحب خطيئة أن عليه مراجعة خطاياها معها قبل بلوغ مرحلة تحديد اللياقة الأمنية.

عندما بدأت جلسة التقويم كنا قرابة الثمانية أو التسعة رجال نرتدي بدلات من محلات «بروكس اخوان» ومعنا شابة واحدة تضع على عينيها نظارتين وتبدو عليها دلائل الجدية، وهي عائدة حديثاً من حملة تنقيب عن الآثار في شرق افريقيا. ولما حان موعد الامتحان الخطي، أطلت سكرتيرة برأسها من خلف الباب ودعتني دون غيري إلى غرفة مجاورة ليس فيها سوى طاولة واحدة وقلة من الكراسي الخفيفة حيث جلست بمفردي للإجابة عن اسئلة بإحدى كلمتي : «نعم» أو «لا» و ثم لاختيار جواب صحيح من مجموعة أجوبة عن أسئلة أخرى، ثم لسرد ما توحى إليّ بعض الكلمات، وأخيراً مررت باختبار «رورشاخ» وهو عبارة عن سرد ما توحى إليّ بعض بقع الحبر المتناسقة الترتيب على قطعة من الورق. وراحت امرأتان شابتان وجذابتان، عليهما مسحة توميء بانتمائهما إلى الوسط الأكاديمي، تراقباني عن كثب على امتداد الامتحان الخطي. فتارة تقرأ الواحدة منهما ما أسطره على الورق وطوراً تحدّقان بوجهي بإمعان لمراقبة تغيرات قسماته كلما واجهت اسئلة وهما على علم مسبق بما تنطوي عليه من خدعات.

انتهيت من الامتحان الخطي خلال فترة أقصر بكثير من الوقت المحدد له وعدت إلى الغرفة التي كنت فيها مع المرشحين الآخرين فإذا بهم قد ذهبوا كلهم وإذا بي أقف أمام العلماء النفسانيين الثلاثة. بادرتني الدكتورة تيرنر بطلب أن أذكر لها ودون التوقف للتفكير أسماء أشخاص ثلاثة أكنّ لهم البغضاء. لم يخطر ببالي أي اسم وبعد أن حككت رأسي لبضع ثوانٍ أخبرتها بذلك.

قالت : «اسمع الآن، لا بد ان ثمة شخصاً لا تحبه». ومرة ثانية لم أتمكن من تلبية طلبها رغم محاولتي الصادقة، وكان قد شاع بين الناس آنذاك ترديد عبارة اطلقها ول روجرز تقول : لم ألتقي قط شخصاً وبغضته». لم أستطع بالطبع الذهاب إلى ذلك الحدّ في جوابي، ولكن كان باستطاعتي وبكل صدق القول بأنني لم أقابل قط أي رجل - أو امرأة - أمقته. غير ان حدسي فرض عليّ عدم البوح بذلك. فقد كنت قيد الاختبار لكي يسدى إليّ القيام «بمهمة خاصة» لمؤسسة لا تعتبر فيها المحبة المطلقة للانسانية من الصفات المرجّحة.

قلت: «لست من المعجبين جداً بادولف هتلر». لم تحدث ملاحظتي تلك مجرد ابتسامة بل كانت كقول مريض بداء الايدز (أو السيدا): «إنني على الأقل أحافظ على انخفاض وزني». وهنا توجه إليّ أحد الثلاثة ببضعة أسئلة عن معتقداتي الدينية. فقلت في نفسي لقد أدركت الآن ما يرمي إليه بذلك السؤال، وأوضحت له بأن محبتي للإنسانية - أو ان هذا العجز المؤسف عن مقت أي جزء منها - تعود إلى لا شيء لا يتعدى في أهميته نقصاً غدياً وبأن ليست لدي أي قاعدة اخلاقية له على الإطلاق. وأضفت: «فإن كنتم تريدون مني تصفية شخص ما فسأفعل ذلك بكل سرور». وأردفت بابتسامة بريئة: «ولكن لا تطلبوا مني ان أكرهه». جاء الجواب محكماً وحصلت على أول مهمة لي عبر البحار: في دمشق في سوريا حيث مثل ذلك الموقف جوهري.

وهكذا انتقلنا إلى الأسئلة التي حملتني على ذكر جلسة الامتحان هذه في هذا الفصل بالذات. سألني الدكتور باللاتشي «هل تذكر المؤثرات المبكرة في حياتك التي أسهمت في صيرورتك إلى ما أنت عليه اليوم؟» أجبت: «بالطبع، هناك الأنسة إدي والأنسة أرشيبالد والأنسة كالن وشخص أو اثنان غيرهن ولكن الأسماء تفوتني الآن، ولكن كان هن جميعاً تأثيراتهن العميقة». وأوضحت له بأنني ذكرت الأسماء الأولى التي تبادرت إلى ذهني من أسماء معلّمتي في المدرسة الثانوية. قال: «لم يكن هناك رجال؟ هل كان كل الذين علّموك في المدرسة نساء؟» قلت: «أظن كان هناك البعض منهم ولكنهم نكرات وما عدت أذكر أيّاً منهم». قال: «من منهن كانت مثلك الأعلى؟»

قلت: «أظن ينبغي أن أقول الأنسة أرشيبالد». فالينغ ارشيبالد! هل ثمة اسم أفضل؟ كانت تقريباً...» وتوقفت عن الكلام لمشاهدتي دلائل اهتمامهم الشديد، ولكنه كان في غير محله. وأدركت فجأة لآم كانوا يرمون، فقلت: «أعني انها انسانية لطيفة جداً وأعجبت بروح النكتة لديها وبطريقتها في التعاطي مع الناس وغير ذلك. أما مثلي الأعلى فهو دوغلاس فيربانكس. نعم، انه دوغلاس فيربانكس». (نجوت بأعجوبة).

تنفس الجميع الصعداء ذلك ان المهمة التي أعدها لي رؤسائي تتطلب رجولة جدية لا مكان للهو فيها. وعلمت فيما بعد أن العلماء النفسانيين الثلاثة دونوا في ملف تقويمهم لشخصيتي ملاحظات متعددة منها: «علاقات جنسية سليمة جداً» تليها مباشرة عبارة «لا اخلاقياً تماماً». وتبين لي، عندما سرقت ملفي الشخصي من ديوان الوكالة أن نتيجة امتحان «إجاء الكلمات»، ويقع الخبر أظهرت للنساء تأثيراً بالغاً في حياتي، وهو بالطبع أمر لا يزال صحيحاً حتى اليوم. غير ان ما يصح قوله فيّ يصح أيضاً في جميع الشباب الذين ربوا في الاباما خلال العشرينات والثلاثينات. وكانت النساء اللواتي يتمتعن بالذكاء والتربية الرفيعة والجاذبية - وكنا آنذاك ندعوهم «السيدات» - يقبلن بالرواتب المتدنية في قطاع التربية والتعليم التي لم يكن الشباب يقبلونها رغم الحاجة في تلك السنوات العجاف.

بتّ أعلم الآن ماذا حدا بي آنذاك للخروج بذلك الجواب السخيف الذي اعتبرته في حينه يصوّر حقيقة أفكاري. فعندما ذهبت أولاً إلى مكتب الخدمات الاستراتيجية ومنه فوراً إلى وكالة الاستخبارات المركزية ترك في نفسي علم وثقافة كل الذين رأيتهم فيهما انطباعاً عميقاً ليس فقط لكونهم حملة شهادات الدكتوراه بل لكونهم يحملون شهاداتهم تلك من جامعات مثل هارفارد وييل وغيرهما من جامعات الدرجة الأولى. وأدركت كذلك ان الأنسات: إدي وارشيبالد وكالين ودايفس وغايم وكروس وولوي، كنّ جميعاً أشخاصاً ممتازين يعلمن علم اليقين ان ما يجري داخل غرف صفوف المدرسة ليس تلقيناً بل

اكتساباً للمعرفة والعلم وان مهتمهن هي اثاره اهتمامنا بهما وتزويدنا بأصول تصنيف الأمور وتقويمها. استطيع القول الآن دون أن يرف لي جفن بأن «الثقافة» - حسبها تعلمت استعمال هذه الكلمة - التي نلتها انا وغيري في «مدرسة إرسكن رمزي الفنية العالية» في مدينة بيرمنغهام في ولاية الاباما تضاهي تلك التي حصلها الكثيرون من حملة شهادات الدكتوراه سواء من جامعة هارفارد أو ييل أو برنستون الذين عملت معهم لاحقاً في الوكالة أكانوا أرفع أو أدنى مني رتبة.

دعوني أسوق هنا مثلاً بسيطاً. فقد طُلب إلينا في الامتحان استعمال البارومتر (جهاز قياس ضغط الهواء) لتحديد ارتفاع ناطحة السحاب «امباير ستايت» في نيويورك. وفيما راح المرشحون الآخرون يسترشدون بما تعلموه من أصول الرياضيات في جامعاتهم المختلفة خرجت بالجواب الذي نتج عنه استدعائي إلى الغرفة المجاورة حيث خضعت للامتحان الافرادي كما سبق وأوضحت، فقلت: «أبحث أولاً عن المهندس الذي صمّم البناية وأقدم له هدية هي عبارة عن بارومتر جديد وجذاب شرط أن يقول لي الرقم الصحيح لارتفاع البناية». وهذا بالفعل ما كنت لأفعله لو انني واجهت في الحياة الواقعية موقفاً كهذا.

كانت دهشة الأساتذة الثلاثة - باللاتشي ومورغن وتيرنر الذين صاروا فيما بعد من أقرب أصدقائي - كبيرة من جوابي بمقدار ما كانت دهشتي منهم. لقد كان شعوري إذ يحيط بي رجال ونساء من ذوي الكفاءات العلمية الرفيعة مزيجاً من التواضع أمامهم والاحترام البالغ لتفوقهم العلمي من جهة والدهشة المستمرة من إصرارهم على تحويل القضايا البسيطة إلى قضايا معقدة من جهة أخرى. ثم، وبعد عجزهم عن حلها، رغم معرفتهم لمسيباتها، تبقى لديهم غير قابلة للحل. العقلية المماثلة تحيط بي منذ بداية معاطاتي مع وكالة الاستخبارات المركزية. ولدى سؤالي عن المؤثرات الأولى التي عملت في نفسي كان من الطبيعي ان الجواب الأول الذي سبق غيره إلى ذهني جاء متعلقاً بمؤهلاتي الدراسية رغم ادراكي للتفاوت الشاسع بينها وبين تلك التي يتمتع بها أفراد الهيئة الذين يستجوبوني.

لنرى إذاً من جاءت تلك المؤثرات؟ أمّن أبي؟ كلا، فقد كان أكبر سنّاً من والدتي بثمانية عشر أو بعشرين عاماً أي من سن أجداد أترابي لا من سن آبائهم. إن كل ما أذكره عنه انه كان يؤمن بالتلقين لا بالتعليم وانني كنت أقاوم كل شيء أرادني أن ابتلعه ابتلاعاً. فتتج عن ذلك وجود ثغرات في ادراكي حيث ينبغي أن أرى الأمور بجلاء، وتقزّز في نفسي لكل ما هو مفروض عليّ فرضاً. ام انها من أمي؟ أجل، فقد كانت عطوفة وغفورة ومرحة وقصاصة ممتازة، وقادرة على رؤية البقعة المنيرة في أي محنة كالحة، والناحية المضحكة في أي كارثة، وشفوقة في الوقت نفسه على ضحية الكارثة.

أصبت قبل موعد دخولي المدرسة بداء السل الصدري فقضيت سنتين في الفراش. وعندما دخلت المدرسة وجدتني متقدماً جداً عمن هم بعمرهم من أترابي ذلك لأنني قضيت سنتين من الدراسة المكثفة. فعلى يدي عمي التي اعتبرت تعليمي تحدياً لها تعلمت القراءة والكتابة والجمع. وكان هناك أيضاً جارنا المفكر وايتس تايلور الذي أرشدني إلى ماذا أقرأ، كما علمني شقيقي الأصغر، هنتر، وهو الرياضي في حيننا، كيف استغل الرياضة في حياتي المتبرعمة. وهكذا سرعان ما اكتشفت بعد دخولي المدرسة ان الذكاء ليس خطيئة، وان هزال البنية ليس خطيئة هو الآخر، وان اجتماع الذكاء والهزال هما بالنسبة لباقي الطلاب بمثابة الاعلام الحمراء لثور المصارعة. تكيّفي مع واقع ان باستطاعة أخي الذي يصغرني بسنتين أن يصدني كلما حاولت مهاجمته جعّلي ما أنا عليه اليوم. فلما أدركت عدم قدرتي على انتزاع ما أريده منه بالقوة لجأت إلى الحيلة ونجحت فيها، بل تفوقت.

قبل بلوغي العشرين من العمر صار بإمكانني ليس فقط التحايل على شقيقي بل وكذلك على باقي الرفاق والحصول على ما ابتغيه منهم. فقد جعلتهم مرة يقفون طابوراً طويلاً لشراء طوابع بريدية تذكارية مزوّرة، ومرة أخرى لشراء تذاكر يانصيب «لرحلة لغز»، وثالثة لشراء مهيّجات تؤثر في الشباب «المهذبات»، وللإشتراك في «حديقة حيوانات» تجمع فيها حيوانات ولاية آلاباما بواسطة الإفخاخ في وقت غير محدد، على أن يقوم الكشاف المحلي بذلك. ولما انفضح أمري في نهاية المطاف قال المستر تي. سي. يونغ مدير المدرسة ان على ضحايائي ان يشكروني لأنني لقيتكم درساً سيكون بالغ الأهمية وجزيل الفائدة لهم في المستقبل عندما يدخلون العالم الحقيقي. وكان المستر يونغ نفسه أول «مشارك» في «حديقة الحيوان» تلك، وأحد الذين تذوقوا قبل غيره لذة طعم العالم الحقيقي الذي تحدث عنه.

الله، كيف تجرّج الذكريات بعضها بعضاً! جاك هولبندر، نجم حفلة الربيع في المدرسة سجّل حدثاً في التاريخ المسرحي. فقد أصابه انتصاب وشوهد بوضوح من آخر مقعد في القاعة، أثناء تأديته مع فتاة من عمره تدعى مايبل البرناتي أغنية «آه، أوعديني». لم يكن ذلك الفتى المسكين يدرك، لحدّاه سنه، ما حدث له علماً بأنه لا بدّ شعراً بأن لا مساكه بيد مايبل شأناً ما بذلك. ولم تفتن مايبل بدورها لما يجري حولها حتى أخذت همسات الحضور تتحول إلى ضحك ثم إلى قهقهة فانتبهت إلى انتفاخ سروال جاك وصاحت بأعلى صوتها هاربة عن الخشبة لا تلوي على شيء.

أما الفتى المسكين الآخر هرقي مكدرمك فقد اعترته البراغيث - نعم، براغيث! فلم يعد أحد يقترب منه، ناهيك عن الجلوس بقربه في الصف. ولا بدّ أنه كان في ذلك الوقت أتعس فتى في الوجود، لجأ إلى الاستحمام مرتين في اليوم فضلاً عن استعمال جميع أنواع العقاقير المعروفة في حينه، ولكن دون جدوى. وأخيراً عندما علمنا ان البراغيث لا تحبّ سواه ولا تنتقل إلى غيره صرنا نقرب منه أثناء الفرصة غمازحه بشأنها. ولكنها لا تكاد تودعه حتى تعود ثانية متجاهلة باقي الرفاق. وهكذا وبفضل البراغيث صار هرقي للمرة الأولى في حياته محور اهتمام أترابه فأشرقت أساريره بالرضى والارتياح واكتسب ثقة المجتمع. وفي اعتقادي ان عليه الاعتراف بجميل البراغيث لصيرورته أشهر محام تجاري في الولاية.

وكان بيننا أيضاً فتى هزيل البنية قصير القامة يدعى بوريفارد روزيلوم اسمناه «بو» تصغيراً وتحبباً، صار الآن أحد كبار جراحي الدماغ في نيويورك. و«بو» هذا يلثغ بحرفي السين والكاف. وكمثل ديموستين الخطيب، قام بتنمية قدرته الخطابية فبات يسحر المؤتمرات الطيبة ببلاغته وإلقائه وهو يحاضر عن التهابات أطراف الأعصاب وأمراض الغدة النخامية والحركات العصبية اللاإرادية. وكان نطقه ميؤوساً منه كلياً وهو في الثانية عشرة من عمره. في المناسبة التي أشر إليها هنا طلب من «بو» ان يلقي في الاجتماع الدوري الأسبوعي في مدرج المدرسة خطبة الرئيس لينكولن في ذكرى معركة غتيسبرغ.

بدأ الالقاء: «منذ ثمانين وثبع ثنوات . . .» ثم استمر بجدية وبصوت أخذ في الارتفاع حتى كاد يصبح زعيقاً فيما كان المستمعون يضحكون لدى تلفظه بكل كلمة فيها حرف سين أو حرف كاف. ولما ضاق ذرعاً توقف عن الالقاء ونظر إلى الحضور نظرة اشمئزاز وتحدي ثم تفوّه بكلمات صارت فيما بعد كلمات خالدة في المدينة، إضافة إلى ان سلاح الإشارة في الفرقة الحادية والثلاثين من الحرس القومي قد تبناها. صاح قائلاً: «بامتانتم تلتّم أن تلحثوا تفاي!!!» ونزل عن المنبر بخطى ثابتة تنم عن

شعوره . فما كان من الحضور إلا أن نهضوا من مقاعدهم يصفقون له بحماس . وصار «بو» الآن أحد أبطال مدينتنا الاسطوريين .

يبقى سرد بعض ذكرياتي هذه مبتوراً إن أنا تغاضيت عن ذكر رجل طيب حقاً هو الاستاذ الوحيد الذي أتذكره من بين الرجال الذين علّموني في المدرسة . وكان باستطاعتي الافصاح بسهولة باللغة عن انه أدّى قسطاً وفيراً في تكوين شخصيتي لولا ذلك البحر الواسع من العلم والمعرفة الذي أحاط بي أثناء تأدية كل تلك الفحوص والامتحانات في وكالة الاستخبارات المركزية . إنه المدرّب كليّ ، أو «فرد» ، كما صار يسمح لنا بمناداته بعد بلوغنا مرحلة الشباب .

الزمان : أظنه العام ١٩٤٤ . المكان جادة الشانزليزية في باريس . كنت سائراً في ذلك الشارع الشهير وإذا بي أرى المدرّب كليّ مقبلاً عليّ . إنه مثلي برتبة نقيب ، علماً بأن رجلاً يتمتع بذكاء وشخصية كليّ ينبغي أن يكون برتبة عقيد أو أرفع منها . تبادلنا التحية بحرارة صادقة وسألته كيف يريدني أن أخاطبه ، ذلك ان «مستر كليّ» تبدو عبارة سخيفة ومصطنعة في تبادل النكات بين ضابطين من رتبة واحدة ، فقال : ان «فرد» تقي بالغرض . ذهبنا لتناول الغداء وأخبرني قصة مدهشة أعيدها الآن لمصلحة أصدقائنا القدامى في برمنغهام الذين قد يقرأون هذا الكتاب شرط أن يعدوني بالألّ يفشوا سرّها . ولكن لا بد لي من سرد خلفية تلك العلاقة الخاصة التي نشأت بيني وبين المستر كليّ .

خلال العام الدراسي ١٩٣٠ - ٣١ حصل في مدرستنا سلسلة من المزاح ، بعضه بريء والبعض الآخر أقل براءة ، كتبديل العلامات على مسابقات الامتحانات وتعليق نشرات على لوحات الاعلان عن علاقات عاطفية بين المعلمات والمعلمين الشباب ومذكرات تنصح وترشد ضحايا الحب والغرام إلى أساليب اكتساب ودّ الفريق الآخر أو إلى وسيلة للتخلص منه . كل ذلك من باب التسلية واللهو ولكنه ملفت للنظر . استعار الشخص عن تلك التقلّيعات اسم أرسين لوپن ، اللص الباريسي المختص بسرقة التحف الفنية ودارت حول مغامراته قصة احد أول الأفلام السينمائية الناطقة . ولما كنت أحد الطلاب المعروفين بشعورهم بالمسؤولية المجتمعية تقدمت بعدة اقتراحات للقبض على ذلك النذل وذهبت إليّ حدّ انشاء فريق حراسة لمراقبة الردهات حيث توجد لوحات للاعلانات . وفي النهاية قدمت للمستركلي قائمة بافخاخ ، إذا نصبت وخضعت للمراقبة بدقة ، أدت إلى كشف هويّة ذلك المحتال .

أما المستر كليّ الذي كان يعرف سرّاً تلك الهوية - أي أنا - فنصب الأفخاخ في الأمكنة التي تضمن وقوعي فيها وتمكن من ذلك قبل شروعي بحملة دعائية عن علاقة عاطفية بينه وبين الأنسة مون ، معلمة الجغرافيا اللطيفة المعروف عنها انها تكنّ له مودة خاصة . يا له من ثعلب عتيق ! طلب رئيس المدرسة طردي منها عقاباً على أفعالي ، ولكن المستر كليّ كان قد استمتع بتلك الألاعيب انه استطاع انقاذي مما هو أكثر جدية بكثير من البقاء بعض الوقت الاضافي بعد الانصراف ولبضعة أيام في صف معلمة اللغة اللاتينية الأنسة غايم الجميلة فلم اعتبر ذلك قصاصاً صارماً .

هكذا التقينا المستر كليّ - فرد - وأنا في باريس وكان قد بلغني انه مرّ بفترات صعبة . فعلى الرغم من كونه رجلاً شريفاً وعلى الرغم من ان أحداً لا يستطيع أن يتهمه بأي سوء ائتمان سواء من حيث التلاعب بأموال المدرسة أو تضخيم فواتير نفقاته أو حتى خيانة زوجته مع أرملة ثرية ، لم يفقه مجلس أمناء المدرسة كيف استطاع المستر كليّ شراء منزل جميل في حيّ راقٍ وسيارتي بيويك واحدة له والثانية لزوجته . سأفصح الآن سره .

أثناء تناولنا طعام الغداء قال فرد : «سأدلي باعتراف حبسته سرّاً طيلة هذه السنوات . هل سبق

لك أن قرأت مجلة «الشيخ؟» طبعاً، هل هناك من لم يقرأها؟ لقد كانت أكثر المجلات المختصة بقصص الاجرام والتحرّي شعبية، واقتبس عنها برنامج اذاعي اسبوعي مدّته ساعة كاملة اجتذب المستمعين من كل الأعمار مساء كل يوم أحد. حسناً، أين الاعتراف؟ المدرس فرد كلي هو «الشيخ» فقد كان يتقاضى ثلاثة سنتات عن كل كلمة يكتبها للمجلة في قصة مؤلفة من ١٥ ألف كلمة. ولا شك في أن دخلاً متوسطه الاسبوعي ٤٥٠ دولار إضافة إلى راتبه في المدرسة وإلى الاتاوة التي يتقاضاها من المحطة لقاء اذاعة رواياته شكّل في تلك الأيام مدخولاً كبيراً. لقد كنا هو وأنا شخصين متشابهين في التفكير ومختلفين في بعض وسائل التعبير. المدرب كلي صاحب مخيلة غزيرة ومقدام لا يتورّع عن الخوض في أمور يعتبرها العاديون حوله بعيدة عن مناهم إلى حدّ وصف التفكير بها على انه مجرد أحلام قصيّة، ولكنها كانت كافية لجعلهم في سنوات الكساد في الثلاثينات ينعتونه بالطف القسوة الممكنة كقولهم: «إنه رجل طيّب ولكن قدميه ليستا على الأرض». وإذا حذفنا عبارة «إنه رجل طيب» تظل العبارة الثانية هي الصفة التي ألصقها به اساتذتي ورفاقي في الصف والمدرسة.

الفصل الثاني

المدرسة، فرق موسيقى الجاز والجيش الأميركي

لنرى بماذا خرجت من مدرسة رامزي العالية اضافة إلى امتلاكي لنظريات بولن في الجبر وهندسة اقليدس ولنظرية لعبة الرياضيات ولمجموعة التعابير الفلسفية ولنطق الاخلاقيات وما شابه ذلك؟ صحيح بماذا؟ ولكن شغفت بنشاطين غير مدرسين: الأول هَوَسَ بمتابعة ما لدى رفاقي من دراهم الجيب، لأنني كنت قد حفظت عن ظهر قلب تراكيب لعبتي البوكر والبلاك جاك. أما الثاني فكان مبعث أمل لشاب حساس لم يبلغ العشرين من عمره بعد في أيام الكساد الكبير من أعوام الثلاثينات: انه نفخ البوق. لكنني كدت أكفر بالبوق وبالنفخ فيه لأن والدي جعلني أقضي ساعة من التدريب القسري عليه كل يوم. غير ان ميلي الطبيعي للموسيقى وأذني الحساسة جداً بها سهلاً عليّ اتقان العزف والحلول في مرتبة عازف البوق الأول في فرقة المدرسة. ولكن برز في تصرفي الموسيقي شواذ لم أدرك له سبباً إلا بعد ما صرت أباً لعبقري موسيقي: قلت ان والدي أجبرني على قضاء ساعة في التمرين على العزف صباح كل يوم. فكنت أعزف خلالها أحد الألحان المفضلة لديه، نشازاً فقط نكابة به وثاراً من إكراهي على التمرين، وفي الواقع كنت استرق ثلاث أو أربع ساعات من التمرين بعد ظهر كل يوم قابعاً في فناء قاعة الموسيقى في المدرسة.

يعود الفضل في صيرورتي عازفاً مرموقاً لا إلى تلك الساعة الكثيرة التي فرضها أبي عليّ داخل البيت بل إلى ساعات التمرين السري في المدرسة. وما أن أطل العام ١٩٣٢ حتى أصبحت أحد عازفي فرقة الاذاعة المحلية وتعاقدت معنا إحدى شركات العطورات لتقديم اعلاناتها من الاذاعة. تحولت الفرقة المتواضعة إلى فرقة كبيرة وحملني البوق إلى جامعة الاباما التي دخلتها وكلّي تصميم على متابعة الدروس فيها إلى أن اغاظني عازف السكسوفون الكبير، جيرى جيروم، حتى الجنون. ففي كل مرة زعق فيها بوقي بنوتة نشازاً، نظر إليّ جيرى نظرة اشمئزاز وتوقف برهة عن العزف ليهزّ رأسه ثم عاود العزف وكأنه يقول: «لا حول ولا ...» وأطلق عليّ لقب «بواق المدرسة». كنا آنذاك في فرقة عرفت باسم «كافاليرز» [الفرسان].

فعلت بي نقائصي الموسيقية ما فعله اللثغ بـ «بو». فقد كنت أيام المدرسة في بيرمنغهام استرق ساعات التدريب استراقاً أما الآن فتخلّيت كلياً عن التظاهر بمتابعة الدروس الجامعية وأخذت أقضي في التمرين من ست إلى ثماني ساعات يومياً، وكانت تلك طريقي بالقول لجيري وغيره في فرقة كافاليرز: «بامتائتم تلتّم أن تلحثوا تفاني». لم أقضي الساعات الطويلة هذه بالتمرّن على عزف السلام الموسيقية والدروس العادية بل على عزف وصلات البوق المنفردة من ضمن المعزوفة العامة. صحيح انني لم أتعلم قط عزف مقطوعة «طيران ذكور النحل» مثلما يعزفها هاري جايمس، ولكن عندما التقى جيرى بهاري في فرقة بني غودمن قال الأول للثاني بأن عليه التخفيف من غلّوه ومتابعة ما يقوم به صديقه القديم في كل من بيرمنغهام ونيواورلينز. وفي الواقع أخبرني هاري بذلك عندما زارني خصيصاً ليدعوني للالتحاق بفرقته في العام ١٩٣٧.

كان انتزاع إعجاب جيرى غاية بحد ذاتها عندي، وبعد بلوغه أعلى قمم الفرق الموسيقية آنذاك

لم يكف عن اطرائي في أوساط فرق الجاز بحيث بتّ مديناً له بعضوية كل واحدة من الفرق الكبرى التي انضمت إليها فيما بعد. لا أنسى ذلك الاسبوع الذي حاولت فيه جهدي مكافحة النعاس طيلة أيامه التي أمضيها في فرقة غلين ميللر نعزف في مربع ليلى على سطح فندق روزفلت في نيو اورلينز أواخر صيف ١٩٤٠ وفي اعتقادي ان ذلك الاسبوع رغم ما عانينا فيه من إرهاق شكّل قفزة كمّية في اسلوب حياتي الآخذ بالتسارع. ففي آخر ليلة من ليالي تعاقدنا مع الفندق جمع غلين أفراد الفرقة ليطلعنا على فكرة رائعة خطرت له، وقال: «سيطالنا التجنيد الاجباري جميعاً فربما استطعنا دخول الجيش معاً». كان غلين نفسه قد تخطى سن خدمة العلم، أما نحن فكنا كلنا شباباً أصحاء راقت لنا جداً فكرة قضاء فترة الحرب نعزف الجاز ترفيهاً عن الجنود في مختلف المواقع. حملت الفكرة على محمل الجدّية خصوصاً بعدما قال غلين انه هو وأفراد الفرقة الدائمون سينضمون إلى الجيش بعد انقضاء أجل التعاقد مع مربع ميدو بروك في ولاية نيو جيرزي.

غاب عن ذهني الآن معظم تفاصيل دخولي الجيش، لكنني ما زلت أذكر أنني ذهبت، بعد عودتي إلى الاباما بقرابة الاسبوعين، إلى مركز الحرس القومي والتحققت بفرقة فرسان «راينبو» المشهورة بأن البلهاء فيها أكثر عدداً من الجياد. كنت أمل في الانتهاء من فترة التدريب بحيث انضم إلى ميللر وفرقته لدى دخولهم الجيش، ولكن شاءت الظروف أن يتأخروا سنتين قضيتهما في الخدمة الفعلية في أوروبا وفي حياة مختلفة كلياً عن سابق اسلوبي فبتّ كأنني في عالم آخر.

إنه لعالم جديد بالتأكيد. فبصفتي عازف جاز كنت أتقاضى راتباً كبيراً (بالمقارنة مع رواتب تلك الأيام) وأحظى باحترام بل وباعجاب زملائي، كما كنت استمتع أيضاً بعزف موسيقى الجاز أكثر من أي عمل آخر (أو بطالة عن العمل) قمت به قبله أو بعده. ولكن عالم المرباع الليلية والأفلاك التي تدور فيها فرق الجاز لم يكن عالمي المفضل. لقد أحببت زملائي كثيراً وأظنهم أحبوني أيضاً. ولكن لم يحدث إلا مرتين أو ثلاثاً خلال وجودي بينهم طيلة سبع أو ثماني سنوات ان قال لي أحدهم مجرد «قم لنذهب إلى السينما بعد ظهر اليوم». وبالمقابل كانت الحياة في الجيش مختلفة كلياً. لقد كنت أسوأ جندي في العالم ولكنني استطعت الاختلاط بسلاسة مع كل الذين اشتغلت برفقتهم. وخلت انني عثرت على موقعي الطبيعي.

كان أمر الوحدة هناك المقدم كوغديل يعمل في أيام السلم بائع لبوليصات تأمين، لا يعرف في الشؤون العسكرية بمقدار ما يعرفه من التزلّفات الرخيصة. انضمّ إلى الحرس القومي لأن في ذلك فائدة له في ترويج أعماله واستطاع بلوغ رتبة «مقدم» لأنه تفوّق من حيث مواهبه بقدرات فتيان فرق الكشف في أيام السلم. عين ابنه البالغ الثامنة عشرة من العمر برتبة عريف أول، وعين نائباً للعريف قاضي الناحية لأنه سيحتاج إلى خدماته. أما معي أنا فقد ارتكب احدى أفدح غلطاته، على كثرتها. ذلك انه لا بد ان مظهر ثرائي المتمثل بأناقة ملابسي وبسيارتي الفخمة التي وصلت فيها إلى المركز قد أثر فيه فعينني الرقيب الثالث. ثم عين معنا بوب كرايغ وهو عازف الطبل في احدى الفرق الموسيقية المحلية المرموقة وأحد أمّرح الرجال في الدنيا، وجاءنا أيضاً بصديقي هيو ياربر وبجورج آلن سميث وهو ابن أحد القساوسة في المدينة الذي تجرأ أن ينافسني في مغازلة أجمل بنات المدينة، وببضعة شباب آخرين ارتحمت كثيراً لمخالطتهم. لقد كان ذلك الجوّ جوّي الأمثل - لتلك الحقبة على الأقل.

أما الوظيفة؟ كانت ممتازة حقاً، فلا يحتاج المرء فيها حتى لدماغه! فكنت أجلس طيلة النهار أراجع حسابات الرواتب بسرعة ودون تفكير، فيما يبتعد عقلي عن عملي ذاك مسافة ألف ميل. المقدم

وابنه أبلهان دون شك، ولكنني أحببتهما. فقد كانا لطيفين معي دون أن يخلو ذلك من بعض التزلف، وأضفيا الكثير من الهزلية على حياتنا. فبحضورهما كان علينا بالطبع أن نحملهما على حمل الجدية. أما في غيابهما فكنت أنا وهيو وبوب نتبادل الآراء الشفهية والنكات عنهما وعن تصرفاتهما التي لو كتبناها آنذاك لكانت تشكل الآن، بعد أربعين سنة، حواراً لسيناريو الفيلم الذي طلب مني كبير أبنائي كتابته. الواقع انني، مثل اينشتاين، بارع في الرياضيات وضعيف جداً في الحساب. فأخطائي في الجمع البسيط عديدة إضافة إلى صعوبة تحديد مواقع في الفواصل في الكسور العشرية. ومنها مثلاً انني حسبت الراتب لشهرين للملازم ثانٍ في المركز على انه ١٣٠,٠٠٠ دولار. لا ريب انه قدّر لي اربحياتي ولكنه كجندي نزيه ينتظر ترقيته إلى رتبة ملازم أعاد الشيك وعرضه على المقدم الذي أمر فوراً بدفع راتبه الصحيح، فقط ١٣٠ دولار لا غير. (قال لي الملازم لاحقاً: «ستكون هذه الحرب طويلة»). المهم ان المقدم حدّد مهمتي فقط بتعداد أوامر صرف الرواتب لا بتعبئة خانات الأرقام فيها.

وفي النهاية اسمعني المقدم كوغديل ما يشبه العبارة التقليدية التي يقوها كل مدير مدرسة للطلاب الراسبين بأنه «قد يكون من الأفضل لهم الالتحاق بمدرسة أكبر» مقترحاً بكل ما أوتي من كياسة بأنني قد أكون «أكثر سعادة» في وحدة «أقل تميزاً» ليس فيها أي مجال للحساب - أي وحدة مشاة عادية أو ما شابهها. وهنا أنقذي رنين الجرس. ولكن تشاء الصدفة ألا يكون مجيئي على ذكر اينشتاين مجرد هراء. فقد تبين أنني رجل ذكي فكان ذلك الاكتشاف نقطة تحول أخرى في حياتي. فقبل أن نستقل القطار العسكري باتجاه غيّم بلاندينغ في ولاية فلوريدا، وهو أول مكان تنقل إليه فرقة الحرس القومي الحادية والثلاثون جمع بضع مئات منا في مركز الفرقة حيث أخضعنا لما عُرف آنذاك بالامتحان التصنيفي العام للجيش، وهو امتحان يشبه امتحان تحديد نسبة الذكاء أدخلت عليه تعديلات لقياس المهارات ولاستثناء الأسئلة «ذات الصلة الحضارية» التي من شأنها عدم انصاف الأفراد المنتمين إلى عرقيات «أقل ثقافة». ولما كان معظم الأسئلة من النوع الذي يختار فيه المرشح جواباً من بين عدة أجوبة، فأني انسان يتمتع بغريزة المقامرة يدرك بأن عليه اهمال الجوابين الأقل منطقية واختيار واحد من الجوابين الآخرين. وهكذا فعندما أجهل فعلاً الجواب الصحيح أعمل الحدس في الاختيار. جاءت نتائجي في الامتحان، كما علمت لاحقاً، بتصنيفي بين العباقرة.

وفيما كان المقدم يكتشف مدى بلاهتي انكبّت دائرة شؤون الملاك في الجيش على دراسة مجالات الإفادة من قدرتي العقلية المتفوقة. وما أن انتقلت فرقتنا إلى مستنقعات لويزيانا لإجراء مناورات الربيع تحت المطر - في الأراضي الموحلة، حتى دعيت إلى مكتب مساعد القائد العام ومنه إلى معسكر ليفينغستون في مونروفييا، في ولاية لويزيانا، للخضوع لامتحانات اضافية. لم يكن في غرفة الامتحان سوى جنديين غيري. قدّمت الامتحان فكانت النتيجة مشابهة لنتائج الامتحان السابق أي ١٦٠ نقطة بينما المعدل العام المقبول به للجنود محدد بمئة نقطة وذلك المقبول به لتدريب الضباط هو ١١٠ نقاط، مقابل ٨٥ نقطة فقط للسود والهنود الحمر - الواقع انني سجّلت ١٤٥ نقطة في الامتحان الأول و١٦٠ في الثاني، علماً بأن من يحصل على ١٤٠ نقطة وما فوق يعتبر في مصاف العباقرة.

بلغني فيما بعد ان علامتي الأخيرة هي أعلى علامة سُجلت في القوات العسكرية الأميركية، وأعلى من علامة ابن خالي، دون سكوت (يبدو ان الذكاء من سمات أسرتنا) وتكاد تتماثل مع المستوى المقدر لألبرت اينشتاين، وليوهان فولفغانغ غوته، وللسيد المسيح حسب ما أظهرته دراسة أجراها فريق من علماء النفس في جامعة ستانفورد ضم البروفسور إغرتن باللاتشي الذي ذكرته في مطلع الفصل

السابق. قلت لنفسي بأني ذو عقل متفوق. فماذا تراني أفعل تحت المطر وفي الوحل بين كل هؤلاء الفلاحين المساكين؟

لما رجعت إلى خيمة المالية أخذت قلماً وورقاً وسطرت رسالة إلى أحسن رجل في العالم، النائب جون سباركمن، الشيخ سباركمن فيما بعد، وأقوى رجل في لجنة مجلس الشيوخ للشؤون الخارجية، وصاحب أفضل متعددة أسبغها عليّ في السنوات اللاحقة. ثم ادّعت وفاة جدي أو غيرها عذراً للحصول على إجازة عشرة أيام وتوجّهت بالقطار السريع إلى واشنطن العاصمة. ولدى سماعه عن عبقرتي الفذة أرسلني النائب سباركمن فوراً إلى مكتب الجنرال «ايلد بل» دونوفان الذي كان آنذاك يشكل شيئاً سمي «مكتب تنسيق الاستعلامات» الذي تحول إلى «مكتب الخدمات الاستراتيجية» الشهير [OSS = Office of Strategic Services = وهو مكتب الاستعلامات الأميركي لأيام الحرب ثم إلى وكالة الاستعلامات المركزية في أيام السلم CIA = Central Intelligence Agency =

قامت بيني وبين الجنرال دونوفان علاقة تفاهم ومودة منذ لقائنا الأول. وصلت مكتبه بعيد الظهر ولم يكذب يمضي بضع دقائق حتى بدأت أقصّ عليه حكايات المناورات في مستنقعات لويزيانا والفترة التي قضيتها مع المقدم كوغديل وابنه. راح الجنرال يضحك ويضحك ثم سألني عما إذا كنت قد تناولت طعام الغداء. فإذا بي بعد دقائق قليلة أتناول السندويشات وأشرب الجعة في مكتب ايلد بل دونوفان الشهير علماً بأن الاتصال به متعذر إلا على الرئيس روزفلت. خرجت من مكتبه بتأكيدات بأنه سيتصل بي قريباً.

وهكذا عدت إلى الوحل وإلى تعداد أوامر الصرف. وأصبت بضربة الشمس وتسممت بسموم الأعشاب ونلت حصتي من قرصات البعوض ونمت في فراش بلّته الأمطار ونزلت بي جميع أشكال البؤس والشقاء التي يمكن أن تحمل بانسان عليه العيش في مستنقع بارد ومطر ليلاً وحار ورطب نهاراً. كنت أحلق ذقني صباح كل يوم حتى في أيام المناورات، حسب الأوامر، أنا كانت بزّي مجمدة وملطخة بالوحل اليابس. باختصار كنت في حال تعيسة كحال المقدم كوغديل لدى معرفته، عبر الأوامر السرية جداً، بأني موضع تحقيقات تمهيداً لتكليفي بمهمة في واشنطن. شعر المقدم بارتياح كبير لفكرة التخلص مني لم يقابله شعور مماثل لما تنمّ عنه تلك البشائر. دعاني في إحدى الأمسيات قبيل موعد العشاء ولما رأي قال: «إنك تحقير لبزتك!».

تحقير لتلك البزة؟ حاولت جهدي التمالك من الضحك فلم أتمكن من ذلك. وعندما رأيت أن المقدم لم يقدر الدعابة في ذلك الموقف حاولت استعادة الجدية ثم انفجرت ضاحكاً لأعود وأتمالك نفسي ثم رحت أقهقه من جديد حتى أفلت من يدي فأخذت أتدحرج على الأرض والدموع تنهمر من عيني من شدة الضحك، في حين جلس المقدم كوغديل يزداد حنقاً واحمراراً. وكان المقدم قد استشاط غضباً قبل تلك المقابلة لأن دماغه ذا المئة وعشر نقاط قد تمكن بشكل ما من الإدراك بأن جدي لم تكن على فراش الموت وبأنني استعملت إجازة عشرة أيام لأعداد صفقة ما وبأنني استعملت النفوذ السياسي الذي يختص هو به لتأمين نجاح تلك الصفقة. وكنت آنذاك قد أخذت أضحك منه وجهاً لوجه. وهنا قال لي: «من الأفضل لك أن تصلي ليلاً من أجل الحصول على تلك المهمة، أيأ تكن، ومن الآن وصاعداً لن يكون هذا المكان مكاناً فرحاً لك».

لم تقم وسيلته في جعل حياتي بؤساً على اعطائي المزيد من أوامر الصرف لأعدّها وهو أمر لم يكن ليهمّي، بل على اهمالي كلياً. فكان ذلك من حسن حظي لأنه سمح لي بأن أتسلّل إلى موقع قيادة كتيبة لويزيانا وزيارة فرقة الجاز التي تضم موسيقيين من نيو اورلينز وبعضهم من أصدقائي والبعض الآخر انخرط في الجيش على أمل الانضمام إلى فرقة غلين ميللر التي سيتم تأليفها بعد زهاء السنة. ومن دون الخوض في التفاصيل أجريت الترتيبات لنقلي إلى الكتيبة المذكورة ريثما تنتهي الاستقصاءات والتحقيقات الأمنية بشأني.

وهكذا عدت إلى فرقة للجاز. ولما رأى المقدم كوغديل ان انتقالي إلى الفرقة يعني تخفيض رتبتي من رقيب إلى مجرد جندي ارتاح بل فرح، وازداد فرحه عندما سمع ان أفراد الفرق الموسيقية العسكرية لا ينفخون في أبواقهم في ساحات القتال الفعلي بل تسند إليهم مهمة اخلاء جثث الجنود القتلى. وفيما كان يوقّع على الأوراق المتعلقة بنقلي قال: «هذا العمل ينا سبك شرط ألا يطلبوا منك ان تعدّ الجثث».

ليس من الدقة في شيء القول بأنني بلغت أوج خدمتي العسكرية في الأسابيع القليلة التي تلت انتقالي. فسحب الدمى المخضبة بطلاء أحمر من ساحة قتال وهمية لم يكن ذلك العمل المضني خصوصاً وأنه فرض علينا ساعة من التمرين على الموسيقى العسكرية صباحاً وثلاث ساعات من التدريب على موسيقى الجاز بعد الظهر يومياً. وبينما كنت أتأمل وضعي في ليلة ممطرة تحت خيمة شاطرنى إياها هانك فرمين، سمعت صوتاً في العتمة الدامسة يناديني باسمي. خامرني الشك في بادئ الأمر بحسن سمعي، ولكن الصوت ازداد ارتفاعاً ووضوحاً بحيث لم يعد ثمة مجال للتشكيك بما سمعت إذ قال عند باب خيمتي تلك: «الجندي كويلاند، معي أوامر سرية جداً بحيث لا أستطيع قراءتها».

كان الساعي عريفاً يرتدي معطفاً يقيه المطر وعليه اشارات مضيئة تنبئ بمهمته. سلّمني الرسالة وأنا مصباح يدّ كيماً أقرأها فقرأتها وإذا بها تقول بوجوب توجّهي فوراً إلى معسكر ليفينغستون وسحب مئتي دولار (ما يعادل ألف دولار اليوم) وشراء تذكرة درجة أولى بالقطار، والسفر إلى واشنطن العاصمة عن طريق بيرمنغهام حيث يحق لي قضاء إجازة عشرة أيام وشراء ملابس مدنية.

في اليوم التالي، وبعد أن استلمت أوراق تسريحي من معسكر ليفينغستون من الضابط المسؤول عن الملاك والذي أبدى إعجاباً شديداً بالأوامر السرية التي أحملها، جلست في مركبة الطعام في القطار ارتشف كأساً من المرطبات بانتظار تناول وجبة عشاء فاخر. نظرت من نافذة المركبة فيما كان القطار يسير مسرعاً عبر ساحة المناورات وإذا ببحر من الجنود يستعدّون للمبيت في خيمهم في ليلة غزيرة الأمطار. وهكذا عدت إلى «العصبة الكبيرة» التي لم تكن هذه المرة سوى فرقة موسيقى الجاز.

الفصل الثالث

واشنطن في الحرب

ها أنا أخيراً في واشنطن. توجهت إلى مقر قيادة الجنرال دونوفان فوجهوني إلى منزل خاص تحول إلى مكتب أطلق عليه اسم «فرقة شرطة الاستعلامات» التي ما لبث أن تحول اسمها لاحقاً إلى «مكتب مكافحة الجاسوسية». والظاهر أن مكتب تنسيق الاستعلامات كان في طور التحول إلى مكتب الخدمات الاستراتيجية الذي لم يكن قد بلغ مرحلة استيعاب «عملاء» كمثل ما هو مقرر لي. غير أن جيم مورفي المساعد الرئيسي للجنرال دونوفان أكد لي بأن الأمور تجري على ما يرام وبأنني سأجد العمل مع العقيد غوردن شين، رئيس فرقة شرطة الاستعلامات، وبأنني سأنقل فيما بعد إلى مكتب الخدمات الاستراتيجية هذا في حال لم أقرر البقاء مع فرقة الشرطة المذكورة.

العقيد غوردن شين شخص منفتح ونشط وهو نموذج للرجولة ومن أوائل الأميركيين الذين حازوا الحزامين الأسودين في فني الجيدو والكاراتيه. وتبين أيضاً أنه جعل من نفسه ما يشبه جيمس بوند في أيامنا - إن لم يكن في الواقع ففي تخيلاته والقصص التي يسردها عن نفسه. المهم أنه ممتاز وتجسّد لشخصية الرئيس الذي كنت بحاجة للعمل تحت إشرافه في تلك الحقبة من حياتي. إن إدراكه المحدود جداً لواقع الأمور - هذا إذا توافر - نابع كله من أقلام وروايات المغامرات البوليسية والجاسوسية، ولكن العقيد شين ليس بمهارة والترماتي من حيث الإخراج. لقد درّب نفسه تدريباً شاقاً ومتقناً كما أنه يتمتع دون ريب بقدرة التعاطي الفعال مع أي من الحالات المستحيلة التي يتصورها، ويقضي ساعات يقظته كلها في اعداد الخطط الرامية إلى جعل تلك الحالات تحصل فعلاً.

بكلام آخر أفسح العمل مع غوردن شين مجالاً واسعاً لشخص مثلي. ولحسن الحظ، ومن أجل التدريب - مع بعض التصرف في استعمال هذا التعبير - عُيّن للعمل مع الشريك الأمثل للافادة من الفرص التي أتاحتها غوردن شين. إنه فرانك كيرنز الذي صار أقرب صديق ورفيق لي طيلة السنوات العشرين التي تلت لقاءنا، وأضحى فيما بعد أحد كبار المراسلين الخارجيين لوكالة سي. بي. أس للأنباء. إنه يتمتع بموهبة جعلته لا يُقدّر بثمن. فما أن ينصب معدات التصوير، سواء في شارع خلفي في كاراتشي أو في جادة مطلة على البحر في بيروت حتى تبدأ الحوادث المثيرة الجديرة بالتصوير. طبعاً كان ذلك بعد لقائنا الأول بسنوات عديدة. عندما التقيته للمرة الأولى، وكان آنذاك في السابعة والعشرين أو في الثامنة والعشرين من عمره، بدا لي وكأنه توأم صديقي ورفيقي في إحدى فرق الجاز، ستان كنتن، إنما أحاطت حلقتان بأسفل عينيه من كثرة السهر والمغامرات المرافقة للسهر، وتماثلت رغباتنا في الكثير من الحالات تماثلاً سيزداد وضوحاً من خلال صفحات هذا الكتاب.

كان معظم تدريبي على يدي فرانك كيرنز عبارة عن تركيز على اتقان استعمال كل العبارات التقليدية التي ترد في تحرير المقابلات والتحقيقات. وبمساعدة فرانك سرعان ما تعلمت فن تحريرها دون القيام بها فعلاً، وهو فن استغليته أحسن استغلال بعد سنوات عديدة عندما أنيط بي تحرير مراجعات الكتب في صحيفة «واشنطن بوست»، هذا علماً بأن معظم تلك الكتب كان على كل حال من باب الكلام الفارغ. وهكذا باستثناء فترات بعد الظهر التي لم تكن نشاهد أنا وفرانك مباريات «البايس بول» أو فيلماً في إحدى دور السينما، رحلت أحاول التوفيق بين تخيلاتي وتخيلات العقيد شين فكانت محاولتي تلك تشبه محاولة إعادة معجون تنظيف الاسنان إلى انبوه. وفي كل مرة ذهبنا أنا وفرانك إلى

مكتبه لا بلاغه عن نقص جديد ما اكتشفناه في نظام وقاية أمن بلادنا، كان يقول لنا شيئاً شبيهاً بـ «يذكرني كلامكما للمرة الأولى التي زرت فيها طوكيو حيث أنيط بي أمر كشف وسيلة التخابر بين الاستخبارات اليابانية وبين...» ويمضي في الكلام مسترسلاً ينسج حكاية غزل خيوطها من حقائق قليلة ومما قرأه في الليلة السابقة في إحدى مجلات المغامرات التافهة، هذا إضافة إلى أن الرواية تتغير في كل مرة عن سابقتها. بعد إحدى تلك الزيارات قال لي فرانك: «إن العقيد المفضل عندنا رجل يصعب حمله على التقيد بشيء».

استطعنا أخيراً الإمساك به من ضمن ما كان إحدى أصعب وأبله وأتعب المهمات التي أوكلت إليّ خلال الأسابيع القليلة الأولى من خدمتي في جهاز شرطة التجسس. ففي إحدى الليالي القارصة في منتصف كانون الثاني (يناير) أنيط بي وبفرانك القيام بالدورية من الساعة العاشرة ليلاً حتى الساعة من صباح اليوم التالي حول المربع الذي يقوم فيه المقر الرئيسي لجمعية الصليب الأحمر الأميركي والذي يبعد قليلاً عن مبنى وزارة الخارجية. كانت مهمتنا مراقبة جواسيس أو مخربين من المتوقع أن يهاجموا المبنى في أي وقت. جواسيس ومخربون يهاجمون جمعية الصليب الأحمر؟ إنه حقاً لخيال خصب! ما زلت أذكر أنني لم أغضب من البارون مونشهاوزن* - مثلما أخذ فرانك يسمي العقيد شين - كما غضبت منه في الساعات الأولى من تلك المهمة في صقيع ووحدة ورياح تلك الليلة الجليدية.

لا مجال للريبة في أن تلك المهمة - وهي البساطة بعينها - أعدت أصلاً لإبعادنا أنا وفرانك عن مرابع جورجتاون الليلية، ولكنها في مضامينها تحولت إلى ما يشبه رواية معقدة الحبك. لا مجال بين دفتي هذا الكتاب لذكر كل التفاصيل ولكن يكفي القول إن خبرة تلك الليلة باتت بمثابة القاعدة الأساسية التي اعتمدتها في لعبة حياتي: أي إذا كنت تبغي التيقن مما يرمي إليه غدوك عليك أولاً أن تقدر مقدرته مثلما تقدر مهارة خصمك في لعبة البوكر ثم تضع نفسك مكانه وتفكر بما يفكر به هو لفترة وبعد ذاك تضع خطتك وتتصرف كما لو كنت مكانه في تلك الظروف.

بعد ليلة من الدوران حول مبنى الصليب الأحمر والأبنية المجاورة وفي جو بارد حرارته تحت الصفر وتفتيش خزانات مقر الصليب الأحمر، وتصادم مع شرطة واشنطن، وبعد رشوة رقيب في الشرطة وتهديده بفضحه لإعادة الرشوة إلينا، أمضينا ساعتين في مقر إقامتنا أعددنا خلالها تقريراً بعنوان «المضامين الأمنية للفساد في شرطة واشنطن العاصمة». وعند وصول العقيد شين إلى مكتبه في الساعة الثامنة صباحاً اعترفنا أمامه بأننا لم نقض طيلة الليل في الدوران سيراً على الأقدام في ذلك الطقس البارد، بل استعملنا بعضاً من تلك «المبادرة» التي طالما تغنى بها أماننا، لندخل بناء الصليب الأحمر بالكسر والخلع وفحصنا ملفاته سعياً لمعرفة ما الذي يُحتمل أن يبحث عنه الجواسيس الألمان.

لم تبد على العقيد شين إمارات تنم عن أي امتعاض أو دهشة، بل تتم قائلاً: إنه كان ليعتبرنا أكثر جنوناً مما ظن لو أننا قضينا تلك الليلة الجليدية نرتجف برداً. وأبدى اهتماماً فورياً بالاقتراح الذي عرضناه عليه. قلت: «أيها العقيد، لقد بذلنا وما زلنا نبذل جهداً كبيراً في تكديس المعلومات والحفاظ على سريتها دون أن يكون عندنا أدنى فكرة عن أي من تلك المعلومات يبحث الألمان. كما أننا لا نعرف كيف يحاولون الوصول إلى تلك المعلومات. إننا نأتي بافتراضات قد لا يكون لها أي مسوغ، وأظن بأن ثلاثة أرباع الإجراءات الاحترازية التي نتخذها ليست ضرورية وبأن الجواسيس الألمان الذين قد يكونون هنا يركزون على النقاط التي لا نوليها الحراسة اللائقة بها».

* بارون كارل مونشهاوزن ضابط في القرن الثامن عشر بات بتلفيقاته الخيالية موضوع قصص خرافية.

واقترحت بأن نتحل أنا وفرانك شخصية جاسوسين المانيين لفترة لنرى ما يمكن أن نعر عليه . ومن أجل ذلك يمكننا ان نفعل شيئين : الأول معرفة ماذا يمكن هؤلاء الجواسيس فعله لتخطي مختلف وسائل الوقاية والمراقبة البالغة التكاليف التي نصبناها . والثاني ماذا يمكنهم معرفته بعد ذلك التخطي . أضاف العقيد على ذلك اقتراحاً انه بإمكاننا أيضاً معرفة ما الذي يفعله الجواسيس بالمعلومات بعد حصولهم عليها نظراً لأن نقل المعلومات أصعب من الحصول عليها . فهل ينقلونها بواسطة رسائل بالحبر غير المرئي ؟ أم هل لديهم أجهزة لاسلكية يثونها وكأنها محاورة بريئة بين هواة التخابر بتلك الأجهزة ؟ واسترسل في مثل تلك الافتراضات . ثم قال لنا : «إن فكرتكما مدهشة» ، وهنا تبادر إلى ذهني انه كان سيقول بأن الفكرة خطرت له نظراً لأنه يعيش في عالم من نسج خياله .

لا وسيلة عندي لمعرفة ماذا حدث لفكرتنا بعدما أرسلها غوردن شين إلى أعلى للموافقة - وهذا يعني بالطبع موافقة منظمة الجنرال دونوفان التي كانت منشغلة في صراعاتها البيروقراطية لوضع كل هذه المشاريع في عهدها . ولكنني أعرف انها بعد أن أعيدت إلينا مخفضة إلى درجة حتى لتكاد تعادل مجرد حاجز للأمن . وبعد الانتظار جاءتنا التعليمات بأن نقوم بدور جاسوسين المانيين وزودنا بوثائق وأوراق الصليب الأحمر المزورة تزويراً واضحاً . كان الغرض من ذلك معرفة أي من تدابيرنا الاحترازية المتعددة يمكن اختراقها .

استعرضنا جميع الاحتمالات وأخيراً ركزنا على الوسيلة التي تؤدي إلى نتيجة حقيقية هي «تجنيد العملاء وتفعيلهم» التي طُلب إليّ بعد عشر سنوات أن أضعها في كتاب اعتمدته وكالة الاستخبارات المركزية في تعليم عملائها . ما هي الأسئلة التي يسعى ضابط الاستعلامات للحصول على أجوبة عنها بواسطة التجسس ؟ انها التالية :

- ما هي المعلومات التي يحتاج إليها رؤسائي لوضع خططهم الدفاعية والهجومية وأي قسم من تلك المعلومات يمكن الوصول إليه فقط بالتجسس عوضاً عن استعمال الوسائل التقنية أو المراقبة المفصوحة ؟

- أين توجد تلك المعلومات ؟

- من هم الأشخاص الذين لهم وصول إلى تلك الأماكن ؟

- أي من هؤلاء الأشخاص بحاجة ماسة إلى شيء ما بإمكاننا توفيره له ، أو بإمكاننا حمله على الحاجة إلى شيء نستطيع توفيره له ؟

- ما هي أفضل طريقة لمقاربة هؤلاء الأشخاص ، وحملهم على الحاجة لشيء والعرض عليهم بتوفيره لهم مع تجنب خطر وشايتهم بنا إلى رؤسائهم أو غيرهم ؟

على كل حال انتهت لعبتنا هذه بعد أن رفعنا تقريراً أعربنا فيه عن الاحتمال بأن الاستخبارات الالمانية ربما بنت هيكلية جاسوسيتها حول أشخاص أميركيين اجتازوا التحقيقات المتعلقة بلياقتهم الأمنية راجين لهم الوصول إلى معلومات سرية جداً ، ولكنهم معرضون بطريقة ما للابتزاز أو ضعفاء أمام الاغراءات المادية المشوقة .

لم يطل الأمر بنا ، أنا وفرانك ، حتى تقدمنا بطلب لنقلنا إلى خارج الولايات المتحدة . وبعد ظهر أحد أيام خريف العام ١٩٤٢ كنت عائداً برفقة فرانك إلى مقر إقامتنا بعد التحقيق في قضية بالغة الصعوبة (أي كنا عائدتين من مباراة في لعبة الباييس بول) فعلمنا أن فريقاً من جهاز شرطة التجسس جمع على عجل وغادر المقر قبل ربع ساعة فقط من وصولنا ووجهته استراليا . ولو اننا عدنا إلى المقر

بسيارة تكسي لكان كل مجرى حياتنا قد تبدل. ولكن فرانك أصرّ على العودة بالباص كي يقتصد بعض القروش ليومه الأسود. صحيح أن استراليا فاتتنا ولكننا عُنينا لمهمة في لندن وأمرنا بالتوجه إلى مركز طبي لتلقي التلقيح والتطعيم اللازمين للوقاية من الأمراض التي قد نتعرض لها في بريطانيا. زودنا بما يلزم لرحلة عبر المحيط الأطلسي، والتعليمات الأمنية المناسبة وبعد اسبوع كنا على سفينة تقلنا مع الجيش إلى أوروبا.

كنا اثني عشر رجلاً من المخابرات وكل منا باستثنائي أنا يحمل شهادتين جامعتين أو أكثر ويحسن التكلم بواحدة أو أكثر من اللغات الأوروبية، كما كنا أذكى رجال جهاز مكافحة التجسس قاطبة. (تجدد الإشارة هنا إلى أن جهاز شرطة التجسس كان قد أعيد تسميته فصار يعرف بجهاز مكافحة التجسس). قطعنا المحيط الأطلسي الشمالي ببرده وضبابه واغبراره على متن سفينة الكوين إليزابيث وكان معنا ضباط وجنود فرقة المشاة الأولى في الجيش الأميركي المؤلفة من مختلف أصناف الجنود والضباط وزهاء الخمسين ممرضة وقد أعطيت المقصورات المخصصة لركاب الدرجة الأولى إبان رحلات السفينة الفخمة في أيام السلم.

ضمّت وحدة جهاز مكافحة التجسس في تلك الرحلة الاثني عشر «عميلاً خاصاً» الذين ذكرت وثلاثة ضباط باللباس العسكري هم الرائد كيري جيليت والنقيب موراي فوكنر (شقيق الاديبن ولیم وجون) والملازم لين آلن وكلهم موظفون سابقون في مكتب التحقيق الاتحادي أبدوا اهتماماً واحتراماً بالغين بمن عهد بهم إليهم من أهل العلم والعالم. فقد آمنوا لنا كل ما أمكن تأمينه في سفينة مكتظة بالجنود رغم معارضة بائع الأحذية السابق في مدينة ممفيس من ولاية تنسي المايجور جنرال آرنولد جينينغز المسؤول الأول عن جميع من هم على ظهر السفينة. بلغ جينينغز رتبته هذه من خلال الحرس القومي. ولما كان غير واثق من نفسه وخائفاً على مركزه صار يشك في كل أمر لا تنصّ عليه صراحة التعليمات العسكرية التي لا تنطبق علينا بصفتنا مدنيين. فقد قال لنا مرة «إذا خالفت أنظمة الجيش وقوانينه أنتم أول من يرفع تقريراً بذلك، وهذا ما أتوقع منكم فعله». لا شك في أن الجنرال جينينغز ضابط ممتاز يراعي ضميره ومتقيد بمبادئه وعلى استعداد لبذل أفضل طاقاته في سبيل وطنه. إنه بكلام آخر شخصية تافهة تماماً.

في أيام السلم كانت الناحية المخصصة لنا في السفينة تشكل الجسر وغرفة المرضى، وقد تأمنت لنا فيها أسباب الراحة المقبولة قياساً إلى الظروف. ولكن وقع حدثان كان من شأنهما تحسين أوضاعنا على ظهرها. فقبل إبحارنا باسبوع التقى قبطان السفينة البريطاني الكابتن هاويز بريلي في حفلة كوكتيل في نيويورك بالمقدم المحب إلينا غوردن شين. ولا بد أن هذا الأخير همس في اذن الضابط البريطاني (مع غمزة لها مغزاهها من عينه اليسرى) ويصوت ينم عن انه يطلعه على معلومات سرية وحيوية بأننا «عملاء خاصون» وبأنه، أي الكابتن هاويز بريلي، يسدي خدمة ضرورية وفعالة لتحسين العلاقات البريطانية الأميركية ان هو عاملنا المعاملة الحسنة واللائقة التي تستحقها مهمتنا الخطيرة. راح الكابتن يبحث عنا فعثر علينا بعد يومين وأمن لنا المشرب (بار) المزود أحسن تزويد وطاولة وكدسات الورق للعب إضافة إلى عدد من المجلات التي تكثر فيها صور النساء والمصادرة من أفراد طاقم السفينة.

أما الشيء الثاني الذي زاد من تحسين وضعنا فكان القضية التي صارت فيما بعد تُعرف بـ «الحادث»، وقد تمّ وصفه في تقرير غطى صفحة واحدة لا غير مكتوب بالآلة الكاتبة رفعت إلى الدوائر الرسمية المختصة. أما بالنسبة إلينا فكان «الحادث» قفزة كمية إلى الامام كما وصفها لاحقاً

الرائد كيري جيليت المسؤول عن وحدثنا. لم نشاهد فصول ذلك الحادث انما يبدو أن أفراد طاقم المطبخ في السفينة، المؤلف من مدنيين بريطانيين منتمين إلى اتحاد البحارة، طلبوا من الجنود بقشيشاً. ولما رفض هؤلاء أخذ عمال المطبخ يرمون بالقمامة، ومعظمها مواد سائلة، في المكان الذي يفتشه ليلاً رماة الرشاشات التابعين لفرقة المشاة الأولى. في اليوم الثالث من هذه الممارسة طلب أمر الرماة العريف أول جاك كويغلي - ويزيد وزنه عن المئة كيلوغرام من العضل المقتول - من المسؤول عن العمال وممثل اتحاد البحارة على السفينة إزالة تلك الأوساخ فأجابه: «نظفها بنفسك».

وهنا استدار كويغلي إلى رجال المشاة الواقفين يتفرجون وقال: «أنت، وأنت، وأنت، وأنت، ارموا بهذا الابن كذا إلى البحر». ودون تردد ولولبرهة قصيرة أمسك الرجال الأربعة بالمسكين من يديه ورجليه وأرجحوه بضع مرات ثم رموا به إلى مياه المحيط الأطلسي الباردة.

ذهل رجال طاقم السفينة الذين كانوا هناك وقبل أن يتمكنوا من العودة إلى صوابهم صاح كويغلي بالباقيين «من هو المسؤول بينكم؟» فساد صمت قصير قطعه كويغلي بأن أشار إلى أضخمهم جثة وقال: «إسمع أنت وخذ هؤلاء البلهاء إلى أعمالهم». انتهى الأمر وأخذ العمال المكائس والمماسح وشرعوا ينظفون المكان. سمع كويغلي أحد البريطانيين يتمتم عن نوعية الخدمة التي سيتلقاها الأميركيون فأمسك به وهدد بأنه إذا ما شعر أحد الجنود الأميركيين بمجرد ألم في المعدة أو في الأمعاء فسيتمتع الأمر بإلقاء جميع الموظفين البريطانيين إلى البحر. لم يترك هذا الكلام أي مجال للشك في أذهان الموظفين بجديّة الرقيب، كما أن «الحادث» كله حصل خلال دقائق قليلة.

لم نشاهد «الحادث» بأنفسنا كما قلت بل سمعنا به في اليوم التالي من قبل الكابتن هاويز بريلي الذي لم يستدع الرائد جيليت بل جاء بنفسه إلى مقرنا. إنه رجل مرح يوحى بالثقة وبالطيبة المتوقعة من قبطان سفينة سياحية جعل المتمرسين منا بالأسفار يتذكرون بعض السفن الكبيرة التي كانت في أيام السلم والبحبوحة توظف قبطانين (اثنين) للسفر بين ميناء لوهافر الفرنسي وميناء نيويورك يقوم أحدهما بالقيادة ذهاباً بينما يقضي الثاني وقته بالسكر ويعود بها الثاني فيما يقضي الأول وقته مع الركاب يحسنون مختلف أنواع الخمور.

بدأ الكابتن هاويز بريلي حديثه بطريقة تومئ إلى أنه يقوم بزيارة ودّية متحدثاً عن محبته للأميركيين وتقديره لمجيئهم للمساعدة في الحرب وعن أقرباء له في مدينة ميونخ ثم انتقل إلى صلب الموضوع فقال: «يبدو أن بعضاً من شبابكم ألقوا بأحد طهارة السفينة في البحر». وأخبرنا بما تنهى إليه عن الحادث مؤكداً أنه سرد لنا كل ما يعرفه عن الموضوع وأنه يريد أن يعرف حقيقة ما جرى.

بدا من كلامه أنه حمل كل الكلام الفارغ الذي سمعه من العقيد شين على محمل الجد واعتبر أن باستطاعتنا إجراء تحقيق «بصفتنا اختصاصيين» ولنا من الاتصالات على المستويات الرفيعة في واشنطن ولندن ما لا يعرفه إلا الله واعتبر أيضاً أننا قادرون على تميع القضية كي لا تؤدي إلى إساءة في العلاقات بين البلدين. وسبق له أن تحدث في الموضوع مع بائع الأحذية واتفقاً على أنه بإمكاننا القيام بما يلزم.

بعد دقائق فقط من مغادرة القبطان هاويز بريلي مقرنا وصل قائدنا بائع الأحذية سابقاً وعلى وجهه كل دلالات الاحترام والوجوم الذي يقارب الوجوم الجنائزي وأيد طلب القبطان بأن نقوم بالتحقيقات اللازمة، وطلب إلينا إيداعه تقريراً مفصلاً وصادقاً يكون في الوقت نفسه صالحاً لرفعه إلى رؤسائه. أجابه الرائد جيليت: سنقوم بالمهمة بكل سرور، ورأى في ذلك فرصة أخرى جديدة بالافتناض بغية الحصول بالمقابل على تحسينات إضافية في رفاهيتنا خلال الأسبوع المتبقي من رحلتنا عبر الأطلسي.

انتدب كيري جيليت للمهمة رفيقنا هاري أمير من الذي لا يعرف له جفن وهو رجل يمكن الاتكال عليه لاستقصاء الوقائع «بطريقة ذكية وخالية من العواطف كما لو كان زائراً حل بنا من كوكب آخر»، حسب قول لاحق منسوب إلى هنري كيسنجر. أعلن هاري فوراً بأنه ليس بحاجة إلى أي مساعدة في عملية التحقيق بحد ذاتها ولكنه أسرّ بأنه سيكون شاكراً لي ولفرانك إذا ما عاوناه على «استغلال الفرص» التي توقع توافرها نتيجة لمجهوداته. جاءت تحقيقات هاري، مثلما توقعناها، أكثر مما كان رؤساؤنا ينتظرون. فقد تبين منها أن الضحية (أو «السباح» كما سمّاه أحد الكتبة القليلي الذوق في قيادة الشرطة العسكرية) كان رجلاً مهذباً وهادئاً ومخلصاً لعمله قبل بتمثيل اتحاد موظفي طاقم السفينة لعدم قبول أي شخص آخر به. ومما كاد يُدمع عيني حزناً عليه انه كان من أمهر لاعبي الهوكي وان نقيصته الوحيدة في اللعب ميله اللاارادي إلى توزيع أوراق اللعب من أسفل الكدسة عند تخلي الحظ عنه. أما أفراد الطاقم المدنيون وغيره والبعض من رجال الجيش الأميركي، فوضعهم مختلف كلياً، ذلك انه خلال اسبوعي الرحلة تمكنوا من اقامة عمليات سوق سوداء في السفينة مبنية على السرقة من مستودعاتها وتخبئة المسروقات للتصرف بها بعد بلوغنا ميناء الوصول، مما أثار دهشتي وأعجاب كل منا - أنا وفرانك الذي قال: «اني متأكد منذ الآن بأننا سنربح هذه الحرب!» ولكن «السوانح التي تنتظر الاستغلال» أسالت لعابنا كما انها حولت أذهاننا عن التفكير بأن «أبن الكذا وكذا نال ما يستحق» إلى التفكير بالناحية الرياضية المسلية من القضية.

بعد يوم أو اثنين من استجواب «الشهود» في وضع كان يستوجب التستر عوضاً عن البحث عن الدقة والصراحة، أعد هاري تقريراً بدأه بما يشبه الجملة التالية: «تقع البقعة التي لامست الضحية الماء فيها فوق منطقة جرف فارادي عند طرف سلسلة جبال مغمورة تدعى جرف شمال الأطلسي حيث يبلغ عمق المياه أكثر من ميل واحد بقليل» وأنهى تقريره بعبارة تصف ملايين الليترات من المياه التي شكلت قبر البحار. وتضمن متن التقرير سرداً واقعياً للحادث مع ملاحظة من قبل الضابط الأول في السفينة بأنه سينبئ جميع موظفي المطبخ في مختلف القوافل البحرية المقبلة بتفاصيل الحادث الذي وصفه بأنه «درس جيد».

أما نحن فتلقينا درساً من نوع آخر جاءنا عن اللجنة التي اعادت النظر في التقرير- وكانت نوعاً من «لجنة تحقيق» حسبما قيل لهاري. جلس حول طاولة تعلوها أكداش من كراريس الأنظمة العسكرية المختلفة كل من قائد الشرطة العسكرية في فرقة المشاة الأولى ونائب قائد الفرقة المسؤول عن التفاصيل الادارية المتعلقة بالرحلة وأمين صندوق الباخرة وهو أيضاً الضابط الحقوقي فيها، إضافة إلى شخصين أو ثلاثة أشخاص آخرين لم يعرف هويتهم. بالنسبة للمجتمعين كان عنوان اللعبة تفادي المسؤولية فلم يظهروا أي اهتمام على الاطلاق «بالضحية» باستثناء أحد كبار الضباط الذي سأل: «هل أخطرتهم عائلته؟» للمرة الثالثة بعد أن قيل له إن الفقيد لم يترك خلفه أي عائلة. ثم قال أحد أعضاء اللجنة: «آمل بالأ نفسد ملف عريف ممتاز بسبب موت مدني تافه». وهنا توجهت الأنصار إلى هاري الذي قال: «سأروي الأشياء كما رأيتها»، ولكن لما نمت نظراتهم عن عدم موافقتهم أردف قائلاً: «إلى حد ما بالطبع».

بعد ان انتهى هاري من تقريره الشفهي أعرب كل من أعضاء اللجنة عن رأيه في طريقة التعاطي مع القضية واختصر قائد الشرطة العسكرية النتيجة بقوله: «وفاة بسبب حادث مؤسف»، وأعقبه بعبارة أو اثنتين تترك انطباعاً بأن شجاراً قام بين مجموعة من المجندين وأخرى من طاقم السفينة سقط «الضحية» أثناءه في البحر. وتخلق الضباط حول هاري ينظرون إلى ما يكتبه، فعدل تقريره على

الفور وصار التقرير متوافقاً مع الحقائق التي نطق بها قائد الشرطة العسكرية وانتهى الأمر.

كان كل ما جاءنا به هاري إلى غرفة التسلية التي أقمناها بالقرب من موقعنا صفحة واحدة بالالة الكاتبة هي عبارة عن صفحة غلاف تقريره الأصلي المؤلف من اثنتي عشرة صفحة. أما الفرص القابلة للاستغلال فقد أنيط أمرها بي وفرانك واستلزم ذلك بعض التخطيط والتخيل ولكننا نفذنا المهمة التي برهنا على اننا بمستواها. ففي بادئ الأمر سجلنا نقطة لصالحنا مع العريف كوبلي وشركائه الأربعة بالجريمة بأن أوهمناهم بخطورة وضعهم ثم طمأناهم بأننا سنصف الحادث بطريقة تقيهم شر العقاب. ثم تحولنا بالطريقة عينها إلى الطاقم البريطاني مؤكداً لهم بأننا سنشجع النظر في تقريرنا عما تكشف لنا عن سرقاتهم وتهريبهم وعلاقاتهم بالمرضات (حصل على الأقل اغتصاب واحد) على ظهر السفينة، وخوفنا كبار ضباطها أيضاً بوسائل أخرى وبالمخالفات الكبيرة التي كشفتها تحقيقات هاري.

انبرى فرانك فجأة ليقول لهؤلاء: «لكم الحق في أن تتوقعوا تقديراً مالياً رمزياً لما تقومون به حيالنا. لقد تنادى الشباب الذين قاموا بذلك العمل الرهيب، تنادوا عن طيبة قلب وليس عن شعور بأي الزام وقدموا مبلغاً من المال لنوصله إليكم». ثم توجه نحوي قائلاً: «هيا بنا، أعطهم المبلغ». فالزمني بأن أدفع كل المبلغ الذي ربحته من رفاقي في لعبة البوكر الليلة السابقة. لست أذكر قيمة المبلغ ولكنه بالطبع أكبر بكثير من كل البقشيش الذي حسب عمال المطبخ انهم سيحصلون عليه من الجنود طيلة الرحلة. ونجحت العملية نجاحاً تاماً. أما الرجل الذي ألقى به إلى البحر فلم أعد أذكر إلا أن انتهت قضيته أو أن النسيان لفها قبل نهاية رحلتنا، وتبلغ أقرب أقربائه وهو ابن عم أحد أبناء عم عمومته الأقدمين نبأ وفاته في رسالة تعزية تقليدية حذفت منها أسباب الوفاة مراعاة لاعتبارات تتعلق بالأمن القومي.

كم قدّر عمال المطبخ بادرتنا! وفيما أبدت مهارة في الضغط أظهر فرانك مهارة مماثلة في تحديد البَدَل. ولما كان بنيتنا الحصول على خدمات أخرى جعلنا البَدَل معقولاً فقد طلبنا من زعماء عمال المطبخ تحضير وجبات طعام خاصة بأفراد فريق جهاز مكافحة التجسس وتقديمها لهم في مقرهم. وهكذا وخلال الأيام السبعة الأخيرة من رحلتنا تناولنا أصنافاً لذيذة من الطعام لم نتناول ما يشبهها طيلة سنوات الحرب، باستثناء الأشهر القليلة التي قضيناها في باريس بعد إنزال الجيوش في أوروبا.

ولكن بقي أمامنا سبعة أيام قبل الوصول إلى بريطانيا بيننا خلالها أن قيادة جهاز مكافحة التجسس في واشنطن اتخذت قراراً حكيماً جداً باختيارها أعضاء فريقنا كأول فريق ترسله إلى بريطانيا. وعلى الرغم من أن المنطقة المخصصة للممرضات في السفينة محظورة على الرجال استطاع فرانك تهريب البعض منهن لإقامة حفلة راقصة في موقعنا ثم هرب واحدة إلى مقصورة على الشرفة حيث قضيا معاً سويعات بعد الظهر والليالي التي تبقت من الرحلة. أما أنا فقضيت تلك الأيام في الفراش نهاراً وفي مراقبة لعبة البوكر ليلاً والمراهنة على لاعبين من فرقة المشاة الأولى يعتمدون على الخرافات أكثر من اعتمادهم على الرياضيات فكانت النتيجة أنني وطئت اليابسة في بريطانيا وفي جيبي أكثر من ألفي دولار. وبعد الحرب قطعت المحيط الأطلسي أكثر من عشر مرات على متن السفينة كوين اليزابيث-٢ وعلى سفن فخمة أخرى وكانت رحلاتي تلك كلها في الدرجة الأولى وأكثر، ولكنني أقول الآن دون أي تردد أن رحلتي في أيام الحرب ورفقة زملائي في مجموعة جهاز مكافحة التجسس كانت الأفضل وأنني على استعداد للقيام بها ثانية لو أمكن ذلك، ويدفع كلفتها في الدرجة الأولى.

أما ماذا حدث لتقرير هاري؟ كانت تلك ضربة المعلم. فبينما كانت حقيبة الأوراق السرية جداً على وشك أن تُقفل وتُختَم استطاع هاري سحب تلك الورقة الملققة وأن يدسّ محلها تقريره الأصلي وقد كتب بخط يده على الصفحة الأولى: «فلتسقط القطع أينما شاءت». أما إذا ما قُيِّض لها أن تسقط في أماكنها أو أنها لم تسقط فيها، فأمر لم يدرك مسامعنا قط.

الفصل الرابع

لندن في الحرب

بعد شهر عمل في تشلثم ملأته المماحكة والمناقشات مع العقلاء والمقدمين في محاولتهم لمعرفة هويتنا وغايتنا، ارتدينا ألبة مدنية واستقلينا قطاراً خاصاً إلى لندن. ليست محطة پدينغتن أجل ما يطالعك عند وصولك إلى ما صارت الآن مدينتي المفضلة والتي وصلناها في يوم بارد وممطر من أيام أيلول (سبتمبر). ولكن الانطباع الأول الذي تركته في نفسي رائع حقاً! الروائح، الأصوات، الأبنية القديمة، كل ذلك في حي من المدينة سرعان ما تعرفت إلى أنه يضم الكثير من الفنادق الصغيرة يقيم فيها طلاب فقراء وتنشقت فيه رائحة شحم الضان والسجاد المتعفن. عشقته واغرورقت عيناى بالدمع وخيل إليّ اني لربما قد أقمت فيه خلال حياة سابقة.

وفيما كان الآخرون ينتظرون بصبر من يستقبلهم امسكت بفرانك وبرفيق آخر وأوقفت سيارة تاكسي توجهت بنا إلى مكتب إسكان كبار الضباط في شارع اودلي الجنوبي. أبرزنا هوياتنا أمام ملازم ثان فكان لها عميق الأثر في نفسه وأخبرناه بأننا في «مهمة خاصة وطويلة الأمد» وقلنا له بأننا نفضل مسكناً فخماً يكون قريباً من سفارات الدول الكبرى في آسيا وأفريقيا وغير بعيد عن السفارة الأميركية في ساحة غروسفثور. حولنا فوراً إلى مسكن كامل التآيث في ساحة اوفنغتن على بعد قرابة المئة متر من محلات هارودز الشهيرة، ولا شك في ان البيت المذكور قد أصبح الآن منزل أحد شيوخ النفط العرب، وكان بدل اجاره الشهري في أيامنا ١٢٠ جنيهاً نتقاسمها مثالثة. لم يطل الأمر حتى جاءنا طاقم من الموظفين المنزليين المشهورة بهم البيوت البريطانية الثرية يضم بستانياً وخادمة وطاهياً قادراً على تأمين فطورنا كل صباح وعلى اعداد وتقديم وليمة عشاء فاخرة لنا ولضيوفنا عند الحاجة، تأتي بموادها الأولية من الأطايب التي كانت متوافرة في محلات هارودز ومن أطايب أخرى نستطيع تهريبها من مطعم كبار الضباط القائم في شارع اودلي الجنوبي. وقد استطعنا ذلك بمساعدة الضابط المسؤول عن مستودعات المطعم الذي تصادق فرانك معه في اليوم الثاني من وصولنا إلى لندن.

كنت بعد ظهر أحد أيام الأحاد أتمشي في شارع شافتسبوري فسمعت تدريباً على المقاطع الأخيرة من كونشيرتو للمؤلف راخمانينوف تعزف على بيانوين. اقتربت من مدخل مسرح كامبريدج، مصدر الموسيقى وتبين لي ان ماريا هس تعزف على بيانو وآرت تائم يعزف على الآخر وجاء في الاعلانات عند باب المسرح ان العازفة الشابة الاعجوبة مورا ليمپاني تحيي الحفلة. مورا ليمپاني! اندفعت دون التوقف لحظة واحدة نحو باب المسرح الخلفي وقلت للبواب بأنني مندوب اوركسترا فيلادلفيا السمفونية وأن عليّ مقابلة الأنسة ليمپاني ومدير أعمالها في غرفتها داخل المسرح لبحث جولتها المقبلة في الولايات المتحدة. ولدى سماعه لهجتي الأميركية سمح لي بالدخول دون أي اسئلة.

توجهت نحو مورا مباشرة وهي خارجة من على المسرح، وسط تصفيق يصم الأذان وعرفتُها بنفسي. وعلى طريققتها الخاصة قالت لي: - «نعم، نعم، تفضل مع الآخرين إلى كنغزود بعد أن اعزف مقطوعة أخرى إرضاء لاصرار الحضور». لست أذكر بالتحديد كل «الآخرين» إنما كان هناك عازفة بيانو ارجنتينية تحولت فيما بعد إلى رجل وصديقها الشاب الغريب المظهر الذي تبين فيما بعد انه عشيقها (مع بعض التصرف باستعمال هذه الكلمة) وهو عازف ناي يعمل في مخزن للآلات الموسيقية،

وطالب أو اثنين، ورجل بلجيكي وزوجته وهما من جيران مورا في كينغزود التي ستتوجه إليها جميعاً بعد الحفلة.

وكان أيضاً بين أفراد هذه المجموعة رجل نحيل طويل القامة أنيق اللباس في أواسط الأربعينات من العمر يضع نظارتين كثيفتي الاطار ويدخن من حامل سجائر طويل. بدا لي هذا الرجل شريراً جداً. أتذكرون انني قلت في بداية هذا الكتاب بأنني لم أكره أحداً في حياتي؟ غير أن هذا الرجل، كولن ديفرايز، وهو القيم على مورا ورفيقها ومرافقها في العزف على البيانو الثاني وعشيقها كما تبين لي سريعاً، هذا الرجل كاد أن يكون استثناء لما قلته في بداية الكتاب. باختصار، لم يستسغ واحدنا الآخر منذ اللحظة الأولى للقاءنا.

كانت مورا مدهشة. فقد بدأت تعاملني كما لو كنا صديقين منذ طفولتنا، وانضم الآخرون إلينا ودارت الأحاديث بيننا بالانكليزية وبالفرنسية في السيارة الفخمة التي نقلتنا إلى محطة واترلو التي انتقلنا منها بالقطار إلى كينغزود ثم لتناول العشاء في منزل كولن الأنيق حيث كانت مورا تقيم ومعها بيانوها. أبدى الجميع مودة جمة تجاهي باستثناء كولن تناولنا طعام العشاء وقضينا ساعات طويلة نتبادل الأحاديث قبالة نار بهيجة غدتها قطع الحطب الضخمة وانتهى بي الأمر أن بت لي ليلي هناك. أفقت صباح اليوم التالي لتناول وجبة الفطور الانكليزية الشهية ثم قضيت بعض الوقت مع مورا نتنزه في الغابة وساعتين استمع إليها تتمرن على البيانو قبل أن نستقل القطار عائدين إلى لندن. وإذا ما تبين ان في تلك التجربة نقصاً في اثاره غير كولن فلا تجوز ملامتي للتقصير في المحاولة.

يوم الثلاثاء التالي تناولت طعام الغداء مع مورا في فندق دورشستر، ودعوته لتناول العشاء في مطعم ميرابل برفقة فرانك كيرنز ومعهم ممثلة مختصة بتمثيليات شكسبير اسمها روزالند فولر تعرف إليها بطريقة شبيهة بطريقة تعرفي إلى مورا. ولكن مورا جاءت إلى المطعم برفقة كولن الذي كان بغضباً حقاً في تلك المناسبة. فقد استأثر بالحديث منذ بداية اللقاء وطيلة السهرة وغايته اظهار براعته في صياغة الدم بصيغة المدح التي وجهها إلى الأميركيين عموماً (انه يراهم قوماً يبعثون «الانتعاش» في النفوس) وإليّ بشكل خاص. أما أنا فرأيت فيه «مشكلة» حسب التعريف الوارد في التعليمات الموجهة إلى ضباط فريق جهاز مكافحة الجاسوسية، أي انه شيء يجب ازالته من الطريق المؤدية إلى الهدف المقصود.

ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ جلسنا قبالة الموقد المشتعل في منزلنا. نبحت في الصعوبات التي تعترضنا. وكم كانت دهشتي لمعرفة ان فرانك كيرنز استلطف كولن. على كل حال، وبعد استعراض عدة احتمالات تساءل فرانك: «لماذا لا نقتله، هكذا بكل بساطة؟» لست أذكر تفاصيل بحثنا في الموضوع باستثناء ان فرانك كرر القول بأننا في حال حرب وبأننا «سنقتل خلالها الكثير من الناس» وأضاف متسائلاً مرة ثانية «ماذا يهم نقصان أو زيادة سفينغالي* واحد؟

سفينغالي! نعم انه الجواب. لقد كان كولن سفينغالي عن حق وحقيق غرر بفتاة صغيرة موسيقية وعبرية مثلي، وأطبق عليها على براءتها ببرائته الشريرة. أما قصتها، كما روتها لي خلال نزهتنا في الغابة فتلخص بأنها كانت في جولة موسيقية في أوروبا عند نشوب الحرب فاحتجرت هناك فترة ثم عادت إلى بريطانيا ومعها بيانوها ووالدتها وهرتها الصغيرة وليس لها بيت تأوي إليه. تدخل الصناعي الثري كولن ديفرايز، وهو أيضاً من هواة عزف البيانو الممتازين، وعرض عليها الاقامة في منزله الجميل في

* شخص يحاول عادة بالترغيب أو بالترهيب جعل شخص آخر على تنفيذ ما يطلبه منه. Svingali

كينغزود، إضافة إلى استعداداته لمرافقتها على البيانو الثاني في عزف المقاطع المخصصة للاوركسترا في الكونشيرتو فيما تعزف هي متن الكونشرتو. رأت مورا ان العرض أفضل بكثير من أن يُرفض خصوصاً وان كولن أكد لها بأنه «من عمر أيها».

وهكذا، وخلال الأشهر القليلة التالية أخذنا أنا وفرانك وجايمس نقضي معظم أوقاتنا في التخطيط جدياً لاغتيال مواطن بريطاني معروف. وأولينا الموضوع كل الاهتمام والمهارة المهنية للذين عاجلت بهما فيما بعد وأثناء عملي في وكالة الاستخبارات المركزية كل القضايا التي تهمني على الصعيد الوطني. أخيراً قرأنا على أن يضرب كولن بالهراوات أثناء خلاف محدود ومُدبر سابقاً - شرط أن يقوم بذلك شخص غيرنا حسب رأي قائدنا الرائد جيليت.

حصل كل ذلك منذ أكثر من أربعين عاماً وبات ضباب النسيان يلف التفاصيل، ولكنني ما زلت أذكر جيداً ان الخطة بدت لنا في حينه ممتازة، هذا فضلاً عن اننا أعددنا خططاً بديلة ومساندات، كأي تخطيط عسكري صحيح. وعندما أصبحنا على استعداد للتنفيذ كنا قد استشرنا كل الذين يُحتمل أن نستعين بمعرفتهم ومهارتهم في القضية. توقعنا بأننا سنحتاج إلى بعض العون الخارجي فذهبت إلى الشرطة وبحثت الموضوع أولاً مع العريف بلاك ثم مع المفتش كوفي: المفوضين لوقاية وحدتنا من أي طيش. دعوني هنا أسدي نصيحة لكل منكم يريد أن يغتال أمه أو زوجته: في أمر كهذا لا تعتمدوا على أية مساعدة تأتيكم من سكوتلنديارد انهم جماعة لا يرجى منها خيراً! فهم لا يكتفون بمعارضة الاغتيالات بل يخلقون لكم جميع العراقيل البيروقراطية التي يمكن اقامتها بوجهكم، وهذا يعني الكثير في بريطانيا.

حصلنا من زملائنا الأميركيين على الكثير من التأييد والتشجيع وعلى القليل جداً من الارشاد والمساعدة ذات القيمة الفعلية لمشروعنا. وعندما انتهينا من وضع اللمسات النهائية كان في ساحة غورسفنور كلها أقل من عشرة أشخاص يجهلون بأننا نخطط لاغتيال مواطن بريطاني بارز. على كل حال ما زلت حتى اليوم أتلقى بطاقات بمناسبة عيدي الميلاد ورأس السنة من أصدقائي القدامى في ايتوزا (الأحرف الأولى من كلمات عبارة «المسرح الأوروبي لعليقات الجيش الأميركي في أوروبا» تشكل كلمة «ايتوزا»). البعض منها في مظاريف معنونة على نحو: «السيد والسيدة قاتل ك. كوبلند» وفي البعض منها عبارة: «هل تخلصتم من بريطاني ما في الفترة الأخيرة؟»

أما ماذا حدث في النهاية، فقد سالت مياه كثيرة تحت الجسر منذ ولادة الفكرة والموعد المحدد لتنفيذها، إلى ان انقضى عدة شهور ونسيت كل التفاصيل باستثناء مورا، ولعلها تجد هي الآن صعوبة في التعرف إلي. هكذا انتهت القضية. إن استمرارني في التخطيط لها ونسج المؤامرات لتنفيذ المخططات إلى ان تخلت عنها، عائد فقط إلى انني انغرمت بالمخططات بحد ذاتها. ولم أكن مستعداً بالطبع للمضي في تنفيذ عملية الاغتيال. فعلى الرغم من انني قتلت زهاء ستة أشخاص منذ ذلك الوقت ولكن لم يكن بينهم أي شخص قامت بيني وبينه علاقات اجتماعية. كلا، فالفرق كله يكمن هنا.

عندما كتبها جاءت مؤامراتنا لاغتيال كولن قطعة أدبية رائعة باعتراف الرائد كيري جيليت والضابط الأرفع منه رتبة في هرمية القيادة رأي فيها جميع هؤلاء السادة المثقفين، أو ادعوا بأنهم رأوا فيها «عملاً من أعمال الخيال مكتوباً ليكون مثلاً يُساق في صفوف الأركان»، هذا على الأقل ما ورد في الكتاب المرفق بها الذي أرسله كيري إلى مكتب رئيس عمليات ايتوزا المعروف عنه بـ ج - ٣. وتلقى كيري ملاحظة خطية من رئيسه العقيد كالفرث جاء فيها: «أمل بأنكم تستغلون هذه المواهب في

أمكنتها المناسبة» فسّر كيري الملاحظة هذه انها تعني فرانك وتعني وان عليه اختلاق مهمات خالية من المشاكل ينيطها بنا نحن الاثنين لابقائنا بعيدين عن المتاعب. وهكذا فبدلاً من تكليفنا بتتبع الجواسيس والقبض عليهم جعلنا كيري نتحرى خروقات سرية أمن الدولة، الحقيقية منها والخيالية.

انتابنا الملل وبسببه حلّ بنا التهوره قبضنا مرة على «جاسوس» الماني سمعت إشارات البرقية احدى صديقات فرانك (هكذا قالت) المقيمة في شقة محاذية لشقته. أخذناه إلى مقر جهاز مكافحة التجسس بسيارة تاكسي وضعناه فيها بيننا وصوب كل منا مسدسه المرعب من عيار ٤٥ إلى رأس المسكين الذي كان يرتعد فرعاً.

دفعنا للسائق اجرته فغادر المكان على عجل وفيما هممنا بإدخال أسيرنا إلى المبنى توقفت سيارة رسمية خلفنا وخرج منها صديقانا كوفي وبلاك من سكوتلنديارد يرافقهما رائد أميركي اسمه روجر سكسن المساعد الخاص للعقيد كالفرت. بصوت مرتفع قال لنا المفتش كوفي: «سنهتم نحن بأمر هذا الرجل»، فيما ارتسمت على وجه الرائد سكسن امارات الشماتة بنا وكأنه يقول: «هذه المرة ستلان جزءاً فعلتكم، أيها الغبيان». انقضى عدة أشهر قبل أن أدرك ما عناء ولماذا لم تنل مبادرتنا الشجاعة الاستحسان الذي حسبناها تستحقه. أما سكسن الذي سنأتي على ذكره في فصول لاحقة، فقد غمر قلبه الاقتناع بوقوعنا في ورطة صعبة أثلجت صدره.

قبل دخول قواتنا ساحات الحرب جدياً مررنا بخبرة أخرى تعلمنا منها شيئاً جديداً. واستناداً إلى تشكيك أبداه أحد المسؤولين بأن يكون البريطانيون إما مهملين جداً في تعقب الجواسيس والقبض عليهم، أو انهم يتعقبونهم ويقبضون عليهم دون اعلامنا بذلك، قرر رؤساؤنا وجوب قيامنا بمجهود مستقل في هذا المجال بغية معرفة حقيقة واقعنا فيه. ولما كنا ضيقاً في بريطانيا لم نستطع متابعة ومعالجة القضايا المحددة كل بمفردها بل كان بإمكاننا على الأقل تحديدها والتعرف إليها باعتبار انها قد تشكل خطراً على مجهودنا الحربي. ولدى تحديد المهمات قال العقيد كالفرت بأن علينا أنا وكيري القيام ببعض المهمات الميدانية ليس من أجل القبض على جاسوس أو اثنين بل من أجل التحسس بما تحتاجه طبيعة العمل.

أضاف العقيد بأن السؤال الأول المطروح هو: ما هي المعلومات التي تحتاج إليها الالمان عنا في قيادة ايتوزا ولا يستطيعون بلوغها إلا بتجاوزهم ضوابطنا الأمنية؟ وبوصفنا خبراء في مكافحة الجاسوسية افترضنا بأن الالمان يبذلون قصارى جهدهم لمعرفة متى وأين سنوجه ضربتنا، وبأن أول ما علينا فعله التعرف إلى نقاط الضعف التي سيركز الالمان محاولاتهم للنفاذ منها إلى جهاز مكافحة الجاسوسية عندنا.

استحوذت الفكرة على مشاعر فرانك فخرج على غير عادته برأي جيد: ان نسرق الخزنة من مكتب ج-٣. أخذ رأيه هذا يزداد جاذبية كلما ازداد تفكيرنا به وتقليبنا له ومساء الجمعة قررنا سرقة الخزنة. قضينا طيلة عطلة الاسبوع في التخطيط للعملية وصباح الاثنين كنا أمام مدخل القيادة في شاحنة كبيرة ومقفلة سرقناها من المرآب المشترك (ليس من اللائق التقدم بطلب رسمي للحصول على الشاحنة). خرج من الشاحنة رقيبان في الشرطة العسكرية (بدلتاهما مسروقتان أيضاً) وخلفهما رجلان بحجم الغوريلا يجران عربة لنقل قطع الاثاث الثقيلة الوزن.

لم نلق أي صعوبة على الاطلاق في اجتياز المدخل الأساسي ونحن في بدلتين مدينتين ومزودين ببطاقتين مزورتين لدخول المبنى. مررنا بحراس المدخل الذين أدوا لنا التحية وتوجهنا إلى المصعد

فالطابع الرابع. في الساعة الواحدة تماماً أي في موعد وجبة الظهر دخلنا المكتب «الهدف» وحيينا السكرتيرة، وكانت بمفردها فيه، وسألناها: «هل لك يا آنسة أن ترشدنا إلى الخزنة التي يريد العقيد آدمز نقلها إلى بناية نورفك؟» أشارت إليها فوضعناها على العربة فيما عادت السكرتيرة إلى المجلة التي تقرأها. (أتذكرون كيف دخل مراسل صحيفة «دايلي اكسبرس» إلى المنطقة المحرمة في مطار هيثرو بعد تفجير طائرة بان اميركان في كانون الثاني - يناير - ١٩٨٩؟) وكذلك لم تعترضنا أي صعوبة إلا عند بلوغنا الباب الرئيسي. فتح الحراس لنا الباب وفيما كنا نحمل الخزنة في الشاحنة هرول نحونا ملازم ثان في شرخ شبابه وعلى ذراعه شارة الشرطة العسكرية.

قال: «عفواً سيدي انما هل معكما استمارة رقم ٥٢٠٠ لعملية النقل هذه؟»

قلت له: «أسف أيها الملازم، فنقل هذه الخزنة ليس عملية عادية. ذلك ان الجنرال آرنولد أمر بأن تكون هذه الخزنة في مكتبه في مبنى نورفك قبل الساعة الثانية وها قد تجاوزت الساعة الآن الواحدة...» ومضينا في مثل هذا الكلام. ثم تحولنا تارة إلى اللطف وطوراً إلى التهديد ولم نحصل من الملازم المسكين الذي اعتراه الرعب إلا على: «نعم سيدي، إنني أفهم تماماً ولكن الأوامر تقضي بالآلا نسمح بخروج أي شيء من المبنى دون اذن على استمارة ٥٢٠٠ موقعة وممهورة بتوقيع وخاتم مكتب نائب القائد العام».

أخرج فرانك دفترًا صغيراً من جيبه ودون فيه اسم الملازم - وما زلت أذكره تماماً، انه ألبرت موللينز. ومع اننا أربناه لم يتزحزح عن موقفه بعد اعطائنا اسمه. وفي هذا الوقت كنا قد استقلينا الشاحنة ولذنا بالفرار. وبعد الغذاء اتخذنا الترتيبات اللازمة لاعادة الخزنة إلى مكتب ج - ٣ ثم جلست لوضع تقرير عن الحادث ملأته اطراءً على الملازم موللينز الشاب. ونظراً لما قد يترتب على القضية من ذيول فكرنا بأنه من الأفضل تسليم التقرير باليد فتوجهنا إلى مكتب قائد الشرطة العسكرية، العقيد براند في الطابق الأول من المبنى رقم ٢٠ في ساحة غروسفنور. اكتشفنا ان العقيد براند، رغم سمو مركزه في الشرطة العسكرية، رجل ودود تأثر إيجاباً بأوراقنا الثبوتية الصادرة عن جهاز مكافحة الجاسوسية.

أخبرنا العقيد بما حدث وأدخلنا في تقريرنا الشفهي بعض المضحكات ابتسم لدى سماعه القسم الأول من الحكاية ولما وصفنا له كيف أصر الملازم موللينز على موقفه ارتفعت قهقهته عالية وكان لا يزال يضحك عندما رفع سماعة الهاتف ليقول للسكرتيرة: «دعي الملازم موللينز يدخل».

كان الملازم جالساً في الردهة بانتظار مقابلة العقيد ليروي له الحكاية على طريقته، ولم يكن على علم بأننا سبقناه إلى ذلك. فتح الباب ودخل ولما رأنا جالسين هناك شحب لونه حتى البياض ذلك انه لم يلاحظ اننا جميعاً مبتسمين. قال له العقيد: هدىء من روعك يا آل. فقد علمت بأنه لا يزال أمامنا فرصة لكسب هذه الحرب طالما بقيت حراسة مقر قيادة ايتوزا بين يديك. إجلس».

بدا الارتياح على وجه الشاب المسكين وتحول إلى ابتهاج عندما أخبره العقيد بأنني اقترحت التنويه به. وأعدنا سرد وقائع الحكاية ضاحكين وإنني على يقين من أن آل موللينز يقصها على أحفاده. بالطبع كان الناتج النهائي لحكايتنا وضع تقرير «يغطي غباوة جمع من البلهاء». ولما كنت على دراية وأعرف من أين تؤكل الكتف لم ينطو تقريري إلا على التكريظ. وضع آلن كالثرت على التقرير كلمة: «نهائي»، وأرسله رأساً إلى الجنرال ايزنهاور قائلاً لي: «رفيقك لاعب اللعبة».

الفصل الخامس

الاستعداد لعملية «اوڤرلورد»

في أواخر العام ١٩٤٢ وفيما كانت مجموعة الجيش الحادي والعشرين تستعد للنزول على شواطئ شمال أفريقيا، فصلت إلى وحدة في قيادة المجموعة وعيّنت نائباً لروجر سكسون، الرجل الذي اغتبط كثيراً عند مشاهدتنا، أنا وفرانك كيرنز نسوق «الجاكسوس» الألماني إلى مدخل المبنى رقم ٢٠ في ساحة غروسفثور. وبسبب قصة غرامية عارمة كنت في خضمها مع إحدى سكرتيرات السفارة، فصلت البقاء في لندن وأملت في أن يساعدني روجر في ذلك. ولكنه خذلني إذ وافق دون نقاش على وظيفتي الجديدة. رأيت أن عليّ حمله على اتخاذ إجراء ما فأخترت إثارته بالتبجح بأنني قادر على اقصائه عن مركزه والحلول محله خلال شهر. ومع أنه على يقين من أنني لن أتمكن من ذلك أدى به قلقه على مركزه إلى التحرك. فادّعى القلق الشديد على صحي وحالتي العقلية وأخبر آلن كالفرت عن قصتي العاطفية مع موظفة السفارة وخفض سنّها من إحدى وعشرين إلى ثماني عشرة سنة ليظهر فارق السن بيني وبينها مما يدل على مدى التشويش العقلي الذي أعاني منه واقترح أن أعود إلى الولايات المتحدة لقضاء شهر من الراحة كي استعيد صحي العقلية. أثارت تلفيقات روجر سكسون قلقاً أصيلاً في نفس العقيد آلن كالفرت فوافق على نقلي إلى الولايات المتحدة على أن أقضي شهراً في مركز التدريب على أعمال الاستخبارات في معسكر ريتشي في ولاية ماريلاند حيث ألقى المحاضرات وأتلقى الدروس الخاصة بأعمال أركان الاستخبارات المتعلقة بغزونا المنتظر لشواطئ أوروبا عبر بحر المانش. (عملية اوڤرلورد). Overlord

لم يرق هذا الإجراء لروجر سكسون فراح يحاول بكل ما أوتي من وسائل اقناع العقيد كالفرت بأنني لست في الواقع على شفير الانهيار وبأن انتشالي وإنقاذي من يؤر لندن العاطفية يستدعيان قضاء شهرين من الاستشفاء في جبال اسكتلندا حيث أعلنت مدرسة مغاوير القوات الحليفة عن استعدادها لقبول عدد محدود من ضباط القيادة شرط اجتيازهم بنجاح فحص اللياقة البدنية. تقبل العقيد كالفرت حجج سكسون المقنعة، وعلى الأخص قوله بأنني لا أصالح للخدمة العسكرية، فوافق دون نقاش. أسدى لي روجر سكسون خدمة جليلة لم أدرك قيمتها إلا لاحقاً. فالدروس التي تلقيتها في المدرسة المذكورة شكّلت أحد أهم مراحل تعليمي. ذلك أنها رفعت لياقتي البدنية إلى أعلى مستوياتها وحسنت من مهارتي بتدبير أموري كقدرتي مثلاً على تفادي المواد القاسية، والأهم من ذلك أنها جعلتني أعمق استشفافاً لعقلية مكافحة الشرّ مما كان له أثره العميق في عملي في وكالة الاستعلامات المركزية التي انضمت إليها بعد الحرب، وعلمتني أيضاً مبادئ الاستراتيجية الشخصية التي صارت أساسية في حياتي.

وصلت إلى لندن شخصاً مختلفاً وكان أول ما قمت به التخلي عن الإقامة في البيت برفقة فرانك كيرنز وجايمس انجلبرغر وحل مكاني راند ما استقال من منصبه في مكتب الاستقصاءات الاتحادي «لخلاف في الرأي» مع مدير المكتب ج. ادغار هوثر، يقضي كل أوقات فراغه بتنظيف مسدساته وبالتدريب على سحبها بسرعة أمام المرأة. ورأيت في فرانك رجلاً آخر أيضاً فقد استقر في مهمته الجديدة كرئيس لفريق جهاز مكافحة التجسس في لندن ويقضي عمله بمراقبة الوحدة الأمنية التي تعمل كشرطة سرية لدى القائد العسكري في لندن. في أوائل العام ١٩٤٤ عاد إلى لندن الجنرال ايزنهاور بعد

حملة موفقة في شمال افريقيا ليصبح القائد الأعلى للقوات الهجومية الحليفة المسؤول عن «عملية أوفرلورد»: وهي خطة غزو أوروبا التي يحتلها النازيون. وأبدى فرانك مقدرته المميزة بأن استطاع اختراق سرية موعد وصول قطار الجنرال ايزنهاور إلى محطة پریمروز في لندن، منتصف ليل ١٥ كانون الثاني (يناير) وراقب تقارير الارصاد الجوية التي انبأت بأن الضباب الكثيف سيلف المنطقة في تلك الليلة فقام مع وحدته باستكشاف المحطة وجوارها أثناء النهار للتأكد من سلامتها الأمنية عند وصول الجنرال ايزنهاور وحاشيته.

ثم تصادق فرانك مع كاي صمرسبي، سائحة سيارة ايزنهاور ومساعدته الشخصية، واستمرت علاقته بها حتى انتهت من وضع كتاب بعنوان: «ايزنهاور كان رئيسي». (العنوان الأصلي «اربع سنوات تحت ايزنهاور» رفض من قبل دار النشر على انه عديم الذوق)*. وتعرّف فرانك عبر كاي إلى فتاة بريطانية جذابة جداً اسمها غوين صارت فيما بعد زوجته.

لم يمض وقت طويل حتى تزوجت أنا بدوري. أخذت بعد عودتي من مدرسة المغاوير ارتدي البزة العسكرية برتبة ملازم أول مما حرمني دخول نادي الضباط في شارع اودلي الجنوبي. أدخل التفكير بالزواج تعديلاً جديداً في حياتي فقد نفّضت عني الشعور بالحاجة إلى ما اسماء فرانك «كل المزينات والزركشات» التي تشكل جزءاً من اللغزية المحيطة برجال جهاز مكافحة الجاسوسية. كما أدى الخلود إلى حياة أكثر استقراراً إلى ما أظنه حتمية لقائي بالآنسة لورين ادي، ابنة طبيب شهير بجراحة الدماغ والأعصاب في شارع هارلي، لقاء تبعته (بحتمية أيضاً) علاقة غرامية أوصلتنا إلى مذبح الكنيسة لا إلى العديد من حفلات الخطوبة الزائفة. وهكذا تزوجنا - وأخذت لنا الصور لتنشر في المجلات الراقية - في كنيسة مريم في شارع غرايت پورتلند وخلدنا إلى حياة عائلية هادئة في ضاحية لندن. «كوبلند الجديد»! لم يحمل رؤسائي هذا المفهوم على محمل الجد في بادئ الأمر ولكن العقيد كالفرث قرر في النهاية تكليفي بعمل تستغل فيه مواهبى العقلية بدلاً من ميلي إلى المغامرة. وكان القرار وضعي في غرفة اللعبة! وكان ذلك ما ابتغيته.

انشئت «غرفة اللعبة» - «القيادة العليا الألمانية»، حسب تسمية المثرثين لها - في المبنى رقم ٢٠ في ساحة غروسفنور لتكون «شبه هدية بعيد الميلاد» للجنرال ايزنهاور لدى عودته من الجزائر في أوائل كانون الثاني (يناير) عام ١٩٤٤، ليبدأ منها أعداد عملية «أوفرلورد». ولئن لم تلقَ الغرفة اهتماماً يذكر من قبل الجنرال (وما كنت على علم آنذاك بأنه يطلع فيها على الاتصالات الدائرة بين القيادات الألمانية التي تصل بعد فك رموزها المسماة «اشارات الأحجية»)، فقد حصّلت لي تنويهاً أو اثنين ووسام جوقه الاستحقاق. كان في الغرفة تقرير لم يتمكن المخططون عند الجنرال ايزنهاور من تجاهله طويلاً علماً بأنه بقي منسياً مدة طويلة في الأدراج في مبنى نورفوك. فقد أشار بشكل مقنع إلى الاحتمال بأن يكون الألمان قد حولوا اهتمامهم عن استراتيجيتهم التي قد بدأنا نفهمها نحو تطوير جيل جديد كلياً من الأسلحة تتركز في معظمها على الصواريخ. وعلى الرغم من ان المسؤولين داخل «غرفة اللعبة» لم يكونوا على علم بالتقدم الذي أحرزناه في تطوير القنبلة الذرية - أو لعله بسبب جهلهم لذلك - جاء تقريرهم بما تقشعر له الأبدان. فقد أشاروا ببراءتهم إلى احتمال وجود سلاح نووي لدى القيادة العليا الألمانية وان هتلر لن يتوانى عن اصدار الأمر باستعماله إذا ما شعر بأن الحرب انقلبت عكس مصلحته.

• تجدر الإشارة هنا إلى أن الظرف «تحت» في العنوان المرفوض يعني بالانكليزية أيضاً «بأمر» أو «بخدمة».

ومع علمي بوجود «مشروع منهاتن» (اسم برنامج الأبحاث الخاصة بتطوير وصنع القنبلة الذرية) وبأنه يتعلق بسلاح علمي متطور، لم أكن حائزاً على المرتبة الأمنية اللازمة للوصول إلى تفاصيله. وهكذا تجاوزني النقاش بين ٢٠ ساحة غروسفثور وبين مبنى نورفك. ولكن العلماء في لوس الاموس، في ولاية نيو مكسيكو، حيث قيادة مشروع منهاتن كانوا على بينة تامة بما يجري. وقد وصل إلى لندن أحدهم المقدم بوريس پاش إبان بلوغ الزوبعة وسط الفئجان أوجها وذروتها بشأنه تقرير «غرفة اللعبة».

هكذا تعرّفت ببوريس پاش الذي فتح لي عيني على حقيقة الحرب - بشكل خاص على حقيقة انه على الرغم من التفوق الظاهري في قوة المانيا العسكرية تبقى المشكلة الأساسية ليس كيف نربح الحرب بل ماذا سنفعل بالقنبلة الذرية بعد كسب الحرب. فاحتمال أو امكانية امتلاك الالمان للقنبلة الذرية او اقترابهم من انجازها، أقلق استراتيجيتنا. ولكن بدأ يخطر ببالي بعد بضعة أسابيع من العمل مع العقيد پاش ان قلقنا لم يكن من احتمال استعمال الالمان للقنبلة بقدر ما كان من احتمال بلوغ الروس قبلنا أسرار الأبحاث الالمانية بعد انتهاء الحرب.

بدأ عملي مع العقيد پاش في اجتماع لما يسمى لجنة افضليات الاستعلامات المشتركة عقد بعد ظهر يوم شديد الحر في غرفة واسعة جداً في وزارة الحرب البريطانية سقفها بالغ الارتفاع، وفيها طاولة كبيرة تتسع لعشرين شخصاً. جلس عند أحد جانبي الطاولة أربعة أميركيين - پاش وأنا وممثل عن سفارتنا في لندن وضابط في ملحقة البحرية في السفارة بيزته العسكرية - واحتل المقاعد الأخرى الباقية مندوبون عن شركات بريطانية كبرى وموظفون رفيعو المراكز في الحكومة وممثلون عن وزارة البحرية وعن وزارة الحربية وعن وزارة التموين وعن وزارة الخارجية، وكان خلف المندوبين البريطانيين مجموعات من المساعدين والسكرتيرات الذين ما انفكوا يتهايمسون مع المندوبين الجالسين إلى الطاولة فكان الكثير من الرواح والمجيء ومن تقليب الأوراق.

لست في معرض وضع النقاط على الحروف. ففيما كان البريطانيون يعرفون تماماً سبب وجودهم في الاجتماع كنا نحن الأميركيين سبب وجودنا فيه لم أدرك حقيقة ما كان يجري إلا عندما جئت لاعداد التقرير الذي وجب رفعه إلى رئيسي آنذاك العقيد آلن كالفرث: خلال الستين الماضيتين كان البريطانيون يفكرون بالأهداف التي سيتوجهون إليها يوم النصر في أوروبا، وراحوا يفترضون، حتى في أحلك ساعاتهم، بأن الحلفاء سيربحون الحرب. إضافة إلى ذلك فإن الأهداف التي حددتها اللجان البريطانية لم تكن فقط أهدافاً عسكرية، بل عسكرية وتجارية، أو حتى تجارية كلياً. فقد أدركوا منذ زمن بعيد ان الأبحاث التي يجريها الالمان تسبق بأشواط أبحاث الأميركيين والبريطانيين في مجالات الصواريخ والمتفجرات والمحركات النفائة والكيمياء وصناعة المعادن والتصوير الفوتوغرافي ومختلف أوجه الهندسة. ولكن يبدو انهم لم يقيموا لذلك التفوق أي وزن على الاطلاق نظراً لاقتناعهم بأن الفوز في تلك الحرب مؤكد لجانبنا، وسيكون ما يمكننا الحصول عليه من الامكانيات العلمية الالمانية «العنصر الأثمن من عناصر تعويضات الحرب» التي قد يتسنى لنا الحصول عليها من العدو المهزوم.

بت أدرك الآن أن معظم كبار ضباطنا كانوا على بينة من المعلومات التي جمعتها خلال أبحاثي في ذلك الاسبوع، علماً بأنها كانت جديدة عليّ آنذاك. ولعل التقرير الذي رفعته عنها في حينه هو الأول الذي عرض الموضوع في السياق التاريخي الذي كانوا بحاجة إليه. وعلمت ان الأركان الامبراطورية العامة (البريطانية) انشأت «لجنة أبحاث وتطوير محدودة» لوضع مخطط بغية وضع اليد على منشآت

الالمان الصناعية والعلمية وان اللجنة نسقت مخططها ليتماشى مع عملية «اوڤرلورد» دون تحسيس مخططى «اوڤرلورد» بذلك، حسب ما قاله لي لاحقاً أعضاء في قيادتنا. وأقام البريطانيون أيضاً تسهيلات لتدريب المحققين ورجال الكوماندوس الذين أسندت إليهم مهمة تتبع كبار العلماء الالمان والقبض عليهم، بمعزل عن نشاط جهاز مكافحة التجسس (الاميركي) وشرطة أمن الميدان البريطانية. وبعد أن أخذت أرافق بوريس پاش في جولاته الميدانية علمت من أصدقائي - في مكتب الخدمات الاستراتيجية ومختلف دوائر الاستخبارات البريطانية الذين كانوا يعملون معاً طوراً ويتنافسون تارة - بأن البريطانيين ينظمون فرقة اغارة خاصة ليسبقوا نظرائهم السوفيات في بلوغ منشآت الأبحاث الالمانية ووضع اليد على وثائقها التي نريدها إما لابعادها عن أيدي السوفيات أو لاستعمالها من قبلنا.

أعددت تقريرى بمساعدة هامة جداً قدّمها لي نات سامولز، وهو محام مختص بالقانون الدولي، أسندت إليه مهمة تسجيل أرقام سيارات الجيب الخاصة بجهاز مكافحة التجسس تحت مراقبة النقيب دويل المتيقظة. سبق لي أن اعتدت الحصول على تقدير لاعمال لم أقم بها أنا، وعدم الحصول على التقدير لاعمال قمت بها فعلاً. أما التقرير الذي مكّني نات دويل من كتابته فكان العمل الأول الذي لم أحصل فيه على أي تقدير على شيء لم أفعله. ومع ان التقرير لا يحمل توقيعاً لم يبق أحد من كبار ضباط ايتوزا الذين يستطيعون الرؤية إلى أبعد من أنوفهم. وغاب التقرير عن نظري ولم أشاهده بعد رفعه إلى مرجعه إلا في ملفات أيزنهاور الشخصية عندما كان البروفسور وليم بوينغ يقوم بأبحاثه لوضع كتابه الممتاز بعنوان «ايزنهاور الرئيس».

عفا الله عما مضى. غير أن ذلك الاختبار علّمني الكثير لمصالحتي الشخصية ووفّر لي أبعاداً جديدة وثمينة. إنني أذكر بشكل خاص نقطة اعتلام برزت خلال حديث جرى بيني وبين نات صامويلز من جهة وبين موظف بريطاني رفيع المستوى من جهة أخرى. فبعد احتسائنا كمية من الكحول قال لنا الموظف ما مختصره: «عندما تفكران بهذه الخبيصة تدركان ان لها نوعاً من المعنى الشرير. ها نحن مشرفون على الدخول في معركة مع أفضل ما شهدته العالم من الجيوش من حيث التدريب والانضباط والعتاد، يتقارع فيها ايزنهاور ومونتغمري وياتن وغيرهم من كبار قوادنا مع قواد شرفاء ومخلصون، ومع ذلك نستطيع الافتراض باطمئنان إلى انه مقدر لنا ان نربح الحرب. أتعرفان ماذا ينتظرنا؟

هناك هتلر، بالطبع. ولكن صديقنا البريطاني كان يفكر كيف أن شخصاً مثل هتلر قد ارتقى إلى مركز يتمتع بتلك القوة التي لا تصدق في بلد متمدّن مثل المانيا. وتساءل: «من سيستفيد في النهاية عندما تضع هذه الحرب أوزارها، من سيكون فوق؟ - ليس فقط من جهتنا بل ومن الجهة الثانية كذلك. ألقيا عليهم نظرية جيدة ثم اسألا نفسيكما السؤال التالي: هل سيكونون بحال أفضل مما كانوا عليها قبل الحرب أم بحال أسوأ؟ هل كانت الحرب بالنسبة إليهم ربحاً واضحاً أم خسارة واضحة؟ لقد كانت الحرب بالنسبة لي شخصياً ربحاً واضحاً. وكانت بالنسبة لجميع الآخرين تقريباً في مركز قيادتنا، ولكنني أشكك فيما إذا كان صاحبنا البريطاني يفكر بتلك الصغائر. وفيما كنت عائداً إلى البيت برفقة نات مشياً على الاقدام قال لي ان ذلك الرجل يحاول تصوير الحقائق بشكل دراماتيكي. ثم أردف: «سيكون هناك دائماً لاعبون ولكن لن يستطيع أي منهم الاثيان بأي حركة على رقعة اللعب إلا عندما يقدم لهم شخص ما نوتة الموسيقى ويجمع أفراد الأوركسترا ويستأجر القاعة. إليك النوعين من الناس الذين يجعلون الأحداث تحصل في العالم».

أما بالنسبة لي فكان السؤال الهام في ذلك الوقت كيف أتعاطى في المستقبل مع منظمي
الاوركسترا عوضاً عن التعاطي مع العازفين وكيف أستطيع التوفيق بين ما تعلمته من الجنرال لوتن،
قائد مدرسة المغاوير، وبين ما تعلمته لتوي من نات. لم تكن الحرب العالمية الثانية، في نهاية المطاف،
حقبة تاريخية منفردة لها بدايتها ووسطها ونهايتها، بل انها جزء من عملية طويلة تنطوي على خبيصة
هائلة من العقد الاقتصادية والسياسية والعسكرية تجعل أبطالها الآنين يبدون تافهين بالمقارنة معها.
فإذا وضعنا فارق السن جانباً، فإن إدراك ذلك هو الذي جعل من أيزنهاور جنرالاً ومني نقيباً.

الفصل السادس

جهاز مكافحة التجسس

ابتعد بوريس پاش عن المسرح قبل عدة أشهر من موعد انزال الجيوش الحليفة إلى شواطئ أوروبا فذهب أولاً إلى لوس الاموس ثم عاد إلى لندن بمهمة سرية فوق العادة لم يكن فيها بحاجة إلى مساعدتي فعدت للعمل مع رئيسي العاديين آلن كالفرت وهاورد ولسن اللذين اكتفيا بتكليفي بمهمات تتناسب ومواهي ومزاجي الفني. انهما، كل على طريقته، رجلان خارقان واني مدين لهما أكثر بكثير مما أفدتها - علماً بأنني خدمتهما بكل ما أوتيت من نشاط. فقد كتبت أوراق التخطيط للعقيد كالفرت وقمت بين حين وآخر «بتحقيقات خاصة» - أي تحقيقات تخرج نوعاً ما عن الأساليب المألوفة - بتكليف من العقيد ولسن.

كانت الحرب بالنسبة للعقيد آلن كالفرت أكثر بقليل من تسلية. فمع العلم بأنه أخلص جداً لعمله وأتقنه تماماً فقد بقي في عقله وروحه ما كان عليه في الحياة المدنية أي أحد أثرياء النفط من ولاية اوكلاهوما. اعتبر الحرب حقبة «انتقالية» نظر إليها بجدية طالما هو فيها ولكن كان اهتمامه الأكبر الانتهاء منها والعودة إلى حياته الطبيعية. وكغيره من كبار الضباط في الرقم ٢٠ ساحة غروسفثور اعتبر بأننا سنخرج منها منتصرين.

أما هاورد ولسن فلا يقل «انتقالية» في نظرتة عن آلن كالفرت وهو محام من مدينة كينغزپورت في ولاية تنسي يتحلّى بجميع الخصال التي نقدّرها، نحن أهل الجنوب: الكرامة المقرونة بالمرح وبروح النكتة على غرار الأديب مارك توين. ففي تصرفاته الشخصية يلتزم التزاماً صارماً بالانضباطية ولكنه يتساهل بالقدر المعقول مع ذلك النوع من الناس الذين يبدون ميلاً نحو النشاطات الفكرية كما انه من ذوي العقول التي تهتم بالرأي السديد أكثر من اهتمامها بالأفكار الرائعة، يترك هذه الأخيرة لأشخاص مثلي ومثل فرانك كيرنز وجايمس انجلبرغر. وفيما أكتب كل هذا، بعد نيف وأربعين سنة من حدوثه، لا شك في أن هاورد ولسن، المعروف تحبباً باسم القاضي ولسن الختیار، هو الآن في كينغزپورت بولاية تنسي منشغل مع السيدات يحاولون جمع الأموال للأعمال الخيرية. عمل هاورد في مراحل علاقاتنا الأولى مع كل من ثيودور روزفلت ومع الشيخ سباركمن ومع الجنرال دونوفان والأعضاء الآخرين في «هيكلنا». وعندما أخذ فرانك كيرنز وزوجته يقضيان أكثر أوقاتها مع شلة تشلسي حل ولسن محل كيرنز كأفضل صديق لي - وهي علاقة نمت أكثر فأكثر بعد استلامه رسالة من زوجته بدأتها بعبارة: «عزيزي جون» (طلب الطلاق) انتقل على أثرها للإقامة في بيتنا بضاحية لندن.

عندما أفكر بالظاهرة الحكومية المعروفة بـ «بناء الامبراطورية» - الجديدة عندي آنذاك - يكون في ذهني هاورد ولسن. ذلك انه في أي هيئة حديثة وكبيرة، سواء كانت مصنعاً أم جيشاً، هناك فريق يقرر ما يجب عمله وفريق آخر ينفذ - أو أولئك الذين يرشدون الرئيس إلى الأهداف وإلى وسائل بلوغها وأولئك الذين يقومون بتنفيذ العمل المطلوب. يعرف الفريق الأول بأنه «الاركان» ومهمته ما يسمى «وضع السياسة» أما الفريق الثاني فيسمى «الخط» ويقوم أفراد ما نسميه نحن الاختصاصيين بمثل هذه القضايا: «العمليات». ضباط الاركان يخرجون بالحلول؛ أما ضباط الخط فيطبقونها - ولا داعي للقول بأن على هؤلاء تقع الملامة والعقاب في حال الفشل. من البديهي فيما بين مسؤولي مقر القيادة ان الفريق الأول يتمتع بالسلطة الخالية من المسؤولية (لا أحد يلقي باللوم عليهم إذا ما قصرت الحلول التي

خرجوا بها عن حل أي شيء شرط أن تكون تلك الحلول قد «صيغت صياغة جيدة» والعكس بالعكس للفريق الآخر. كان هاورد ولسن من أفراد «الخط» فيما كان آلن كالفرت في «أركان» فريق ج - ٢ بقيادة العقيد برايان كونراد. ولكن العلاقات داخل جهاز مكافحة الجاسوسية خلّت من قضايا السلطة والمسؤولية إلا عند مجيء ضباط ممتهين مثل ابن الكذا وكذا روجر سكسن يبحثون عن حالات يستغلونها فيثيرون تلك القضايا.

المشاكل والحلول ومن هو المسؤول عن هذه ومن المسؤول عن: تلك، هذا هو جوهر القيادة العامة في أي منظومة، وتصرف العضو الطموح في المنظومة سيتأثر بل سيسترد بهذه الحقيقة. فإن أنت أسندت مسؤولية حلّ مشكل ما إلى فرد في المنظومة لا يثق باستقراره فيها - وهل ثمة عضو في منظومة كبيرة يشعر بتلك الثقة؟ - لن تكون أفكاره الأولى موجهة نحو البحث عن كيفية حل المشكل. أفكاره هذه تأتي في المرتبة الثانية بكل تأكيد. فالسؤال الأول الذي يخطر بباله هو: «كيف أستطيع أن أجعل من هذا الأمر التافه الذي اخترعه لي رئيسي ليشغل وقتي به، مشكلاً ذا أهمية بالغة؟ - فمن البديهي أن المرء ينال تقديراً أكبر لحله مشكلاً كبيراً مما يحصل عليه لقاء حله مشكلاً صغيراً.

وهكذا يمكنك أن تتصور ما كنا نمربه في جهاز مكافحة الجاسوسية - فليس بوسعك أن تتوقع من جواسيس يعملون ضدك أن يفصحوا عن هوياتهم. ففكر إذاً بإمكانات تضخيم المشاكل التي لا تستطيع رؤيتها! الوقائع والحقائق قابلة للقياس، أما التصور والخيال فلا حدود لهما. نحن نشاهد بالعين أي جواسيس (وكان فرانك يجمع الملاحظات لتأليف كتاب بعد الحرب سيكون عنوانه: «لم نقبض على أي جاسوس»)، ولكن ذلك لا يعني أنه لم يكن هناك جواسيس. كل ما يعنيه أن البريطانيين المحتالين عرفوا كيف يتحاشون يقطتنا أو أنهم على علم بالجواسيس ولم يخبرونا بذلك.

بحثت في أحد الأيام مع هاورد ولسن في كل ذلك مشدداً على عدم اتصال سلطات الأمن البريطانية بنا، خصوصاً من قبل الفرع الخاص في سكوتلنديارد (لم نكن نعلم آنذاك بوجود جهاز الأمن العسكري - ٥ عند البريطانيين) وأشارت إلى أنهم لما تمنعوا عن مساعدتنا في أمر صغير كاغتيال رجل يقف بين ضابط أميركي وبين صديقه فليس لنا بالتالي أن نتوقع منهم المساعدة في قضية كبيرة كالقبض على جواسيس ألماني.

ثم حذرت الجواب. ترى لماذا انفعل الفرع الخاص في سكوتلنديارد - واغبط روجر سكسن - عندما قمنا أنا وفرانك بتمثيلتنا في ساحة غروسقنور مع «الجاسوس» الألماني الذي أرشدتنا إليه صديقة فرانك؟ إن الجواب الوحيد المقنع، على ضوء امتناع أصدقائنا البريطانيين عن التعاون معنا، هو أنهم قبضوا على جميع الجواسيس الألماني في بريطانيا وأنهم لا يريدون أن تتدخل جماعة من الهواة في طريقة استعاملهم للجواسيس وسيلة لارسال معلومات مغلوبة إلى برلين. سألت هاورد ولسن عما إذا كان يظن بأن الأمر كذلك فأجاب بالإيجاب وأضاف بأن علينا أن نحصر عملنا بالشؤون التي تخص الأميركيين وألا يغيب عن بالنا بأننا ضيوف في بلد شعب قضى بضع سنوات في الحرب ولديه حساسية تجاه حفنة من رعاة البقر القادمين إليهم دون التريث لاستيعاب الحساسيات العديدة في البلد. وأردف قائلاً: إن ما تعودت عليه من النظر «واقعيًا» إلى مشكلة كسب الحرب هي بحد ذاتها عادة غير واقعية. وأوضح أن المشكلة الأميركية الحقة لم تكن كيفية كسب الحرب بل كيف نحقق ذلك مع هذا النوع من «الامبراطورية» بشكل يفيد منه الجميع. كدت أطم وجهي غضباً من نفسي لعدم استطاعتي إدراك تلك النقطة من دون مساعدة أبي الروحي الآن.

إذاً إنه بناء الامبراطورية؛ وقد ساهم فيه جهاز مكافحة التجسس في مسرح العمليات الأوروبية مساهمة متواضعة انما فقط بمقدار الحصول على الموافقة لضابطين وأحد عشر عميلاً من الجهاز لكل فرقة عسكرية. ولكننا شرعنا مذاك بالعمل الجدي. وبدأ هاورد ونائبه الذي تعين حديثاً وهو رجل بشوش مرح اسمه كلود غوزا، يبعثان بالرسائل يطلبان فيها تزويدنا بالمزيد والمزيد من الرجال من معسكر ريتشي في ولاية مرييلاند حيث يجري تدريب الجنود والضباط على القيام بمختلف أعمال جمع المعلومات والاستطلاع فاستوعبنا كل الذين استطاعوا ارسالهم لنا فاسترسلنا في ذلك. ثم خطر لهاورد أو لكلود، لم أعد أذكر لمن منهما، بأنه يوجد في ايسلندا عدة مئات من رجال جهاز مكافحة الجاسوسية الذين يتمنون أن يُنقلوا إلى بريطانيا الجميلة. وهكذا طُيرت برقيات مستعجلة أدت إلى نقل عدد من رجال الجهاز من ايسلندا إلى بريطانيا في زمر تتألف الواحدة منها من ثمانية إلى عشرين رجلاً وقد عجبنا لما كانوا يفعلون في ايسلندا.

كنا نعلم ما العمل المتوقع من وحدات جهازنا القيام به عندما تصل إلى أوروبا فرق الجيش التي كانوا ملحقين بها. وتشرع بمقاتلة الالمان. حددت لنا أوامرنا ان علينا «تأمين المناخات» المحيطة بقواتنا المقاتلة في تقدمها وتوغلها في أوروبا وبأن علينا عمل كل ما في وسعنا للتأكد من عدم وجود جواسيس المان بين السكان المدنيين يستطيعون توجيه رسائل لاسلكية إلى الالمان. ولكن وعلى ضوء ما راقبناه من الحرب حتى ذلك التاريخ، فهل كان لتلك من معنى؟

لم يرق المستقبل الذي خططته لنفسي ولزملائي في جهاز مكافحة التجسس على مفاهيم القيادة لما ينبغي لوحدة مكافحة الاسهام به في المجهود الحربي بقدر ما قام على حقائق الوضع التي اتضحت لي من سياق عملي مع بوريس پاش. أما تلك الحقائق فهي:

أولاً - إنه عندما تندفع القوات الحليفة داخل أوروبا لن يكون هناك أي استخبارات المانية لنجابهها. فتسعون بالمئة من الفرنسيين والهولنديين والبلجيكيين والالمان الذين جندتهم الاستخبارات الالمانية للعمل وراء الخطوط الحليفة بصفة جواسيس ومخبرين سيتسابقون على الانضمام إلى الفئة الاربعة في الحرب. أما العشرة بالمئة من الذين تمنعوا عن ذلك فسيكون الاهتمام بهم الغباء بعينه. فإذا كنا لناخذ الأوامر السارية المفعول على حرفيتها سينتهي بنا الأمر إلى الصيرورة نوعاً من مؤسسة لرعاية المهجرين. وعليه، فما ان تنزل قواتنا على شواطئ مقاطعة نورمندي الفرنسية حتي نرمي على عاتق الشرطة العسكرية مسؤولية مهمة اعتقال ليس الجواسيس الحقيقيين الذين سيسلمون أنفسهم بل كذلك جماعات السوق السوداء والناس العاديين الذين سيدعون بأنهم جواسيس ليستفيدوا من الإقامة في مراكز التحقيق المريحة بدلاً من معسكرات اسرى الحرب البائسة. وعلينا القيام بأعمال تتناسب مع المهارات التي حملتنا إلى جهاز مكافحة التجسس. حقاً انها «تأمين المناخات» السليمة.

ثانياً - علينا الحصول على حصة مما سيصبح دون شك المهمة الرئيسية لمجهود الاستخبارات الاجمالي: ملاحقة الالمان والقبض عليهم سواء كانوا مدنيين أم عسكريين الذين (١) قد يكونون مفيدون لنا بعد الحرب أي العلماء الذين قدّموا لالمانيا تفوقها التقني ورجال الاستخبارات الذين تجسسوا على السوفيات أو (٢) النازيين الاصوليين الذين يحاولون الهرب إلى أمكنة أخرى في العالم حيث يتمكنون من انعاش حركتهم من جديد. لم يكن أي من هذين التصنيفين وارداً على قائمة «التوقيت الآلي» انهما لم يكونا، حسب معلوماتي، موضوع اهتمام أي هيئة استعلامات أخرى.

ثالثاً - وأخيراً هناك الواقع البديهي وهو أن رؤساءنا المباشرين - كالفرت وولسن وغيرهما - كلهم تواقون لانتهاى الحرب والعودة إلى الوطن، وعليه سيوافقون مع أي تجديدات اجرائية تحول عمل جهاز مكافحة التجسس إلى عمل روتيني يسهم في تسهيل حياتهم في الفترة المتبقية من الحرب. كان العقيد كالفرت كله آذان عندما عرضت عليه تلك «الحقائق» فأخذها فوراً إلى العقيد برايان كونراد في قيادة ج - ٢ وبعد اسبوع من العمل مع هيئة التخطيط صدرت أوامر جديدة اسندت إلى وحدات جهاز مكافحة التجسس مهمات أمنية بسيطة وسمحت بإنشاء وحدات خاصة تقوم بأعمال «انتقالية» أي تلك التي تساعد في تحويل المانيا الهتلرية إلى دولة تكون «مأمونة للديمقراطية». (استعملنا هذه العبارة فعلاً).

هنا، أُحيل القراء الذين يظنون بأنني أحاول إعطاء نفسي تقديراً يفوق ما استحق (خلافاً لما تعلمته في مدرسة المغاوير) أحيلهم على البراءة المرفقة بوسام جوقة الشرف التي تنص صراحة على انني نلته تقديراً «لإسهامي في وضع خطط مكافحة التجسس قبل عملية اوڤرلورد»، وعلى التاريخ الرسمي للحرب العالمية الثانية الذي يفصل ذلك التخطيط تفصيلاً دقيقاً. أما ما لم أحصل على تقدير من أجله فهو إسهامي في تأليف فريق «انتقالي» خاص بنا مؤلف من أحد عشر عنصراً تم اختيارهم خصيصاً من بين عملاء مكافحة التجسس للخدمة بقيادة هارولد ولسن وبأوامر خاصة كانت مطاطة ومثقلة بالتعابير العسكرية الروتينية إلى درجة انها اشتملت على كل شيء - إنما على أساس مؤقت - اعتبرنا انها يجب ان تشتمل عليه.

ذهبت إلى أكثر من ذلك إذ جندت، بموافقة هارولد ولسن بالطبع عدداً من عملاء جهاز مكافحة التجسس الوافدين على بريطانيا من معسكر ريتشي للتدريب المخبراتي في ولاية ماريلند. فقد كان معي نات سامولز الذي ارشدني إلى مواطنه من شيكاغو هنري راغو الشاعر المعروف واستاذ من اساتذة الفلسفة في جامعة نوتردام صار لاحقاً رئيس تحرير مجلة «شعر» الراقية. وكان هناك أيضاً بعض الاكاديميين الذين تعلموا وعلموا خارج الولايات المتحدة، ومراسل أجنبي أو أكثر لم تسعفهم مستنداتهم في الإفلات من التجنيد الاجباري، ورجل الماني المولد وأميركي الجنسية يتقن اللغتين صار فيما بعد النجم الساطع عند الحاجة بين محققينا. وضمت مجموعتنا أيضاً أفراداً «عرقين» من الغرب الأوسط (الأميركي) مثل انطوني فايقادا وهو ليتواني الاصل وأميركي الجنسية ومحلل سياسي يتقن الفرنسية والالمانية فضلاً عن مختلف لغات دول أوروبا الشرقية. أضفت على المجموعة كذلك رجلين من تكساس هما تشارلي بوكر وجون باريس مساعد استاذ اللغة الفرنسية في جامعة تكساس. وعلى الرغم من انهما تعلمتا الفرنسية من الكتب المدرسية فقد كانت طلاقتهما بنطقها تقي بحاجاتنا، هذا فضلاً عن انهما يكملان حكمتي القروية التي جعلتنا نميز بين الصحيح والمزيف. ثم جاءنا هارولد ولسن بجول نولين وهو كندي فرنسي صار حلال المشاكل في وحدتنا وكذلك بالنقيب دويل الذين احتفظ بسبب أجهله بـ نات صمويلز يدهن سيارات الجيب في لندن. وكان دويل الرجل المثالي عندنا: فهو لا يدخن ولا يشرب الكحول ولا يطارده النساء.

ومنذ ذلك الوقت وحتى مرور شهر على الانزال في أوروبا، أي موعد نقلنا إلى فرنسا، قضينا الوقت في التعارف على بعضنا البعض وفي تبادل الأفكار عما سنفعله عندما نصل القارة الأوروبية. أما أنا فملأت أوقات فراغي بتجديد تعارفي بأصدقائي القدامى في مكتب الخدمات الاستراتيجية وهو المؤسسة التي كنت آمل الالتحاق بها في نهاية المطاف.

ومن خلال زيارتي إلى قيادة المكتب بلغني ان منظمة الأمن البريطانية المعروفة بإشارة إم آي ٥ (ربما تعني «الاستخبارات العسكرية - ٥») كانت قد أطبقت فعلاً على كل الجواسيس الالمان ليس فقط في بريطانيا نفسها بل وكذلك في أيسلندا وجرينلند وشبيتزبرغن وجزيرة جان مايان حيث كانت مهمتهم ارسال تقارير عن حال الطقس وهي معلومات حيوية جداً لسلاح الجو الالمانى في غاراته على الاهداف البريطانية. وقد جعل الانجاز البريطانى هذا وجود جهاز مكافحة التجسس الأمريكى في تلك المناطق غير ذى شأن فلم يعد ثمة مجال للعجب من أن فرق مكافحة التجسس الأمريكية وقائدها شعروا ليس فقط ببرودة الأجواء هناك بل ويجو من عدم المحبة والتقدير. من هنا إذا السهولة التي استطعنا بها سحبهم إلى بريطانيا. ويعد ان قبض جهاز الأمن العسكري البريطانى على الجواسيس حولهم إلى خدمته، وجعلهم يرسلون إلى الاستخبارات الالمانية معلومات خاطئة ترشدهم إلى أماكن مغلوبة يُغير عليها سلاح الطيران الالمانى في بريطانيا.

الأهم من ذلك انني علمت بعد أن حصلت على التصريح السري فوق العادة الذي صار يحق لي بموجبه الاطلاع على تفاصيل «عملية اوڤرلورد» ان ثمة أربعين أو خمسين ضابطاً من كبار الضباط انشغلوا بتخطيط جميع تفاصيل الفترة المتبقية من الحرب وأنهم يمارسون «لعبات الحرب» التي أخذت في الحسبان عناصر لم تخطر لي ببال. وباعتباري لاعب بوكر اطلع على كل ما كتب حتى ذلك التاريخ عن نظرية اللعب والسجال أدركت ان وراء تلك الالعب خبرة واختصاصاً رفيعي المستوى. وتسنى لي الاجتماع بما يكفي من الضباط المنخرطين في تلك الالعب لأرى بنفسى انهم على بيّنة تامة مما يفعلون.

الفصل السابع

الطريق إلى باريس * الدخول إلى باريس

ما هو القاسم المشترك بين هنري كيسينجر وويلبور ايفلند وج. د. سالينغر ووليم سارويان وجون غلينون وجايمس اينجلبرغر ومايلز كويلند؟ هل كونهم جميعاً من أشد الرجال ذكاءً؟ أجل، هذا واحد من القواسم المشتركة. ولكن القاسم الذي كان يحول بخاطري هو أننا جميعاً ذهبنا إلى أوروبا بعد يوم انزال الجيوش فيها وبصفتنا عملاء في جهاز مكافحة التجسس على أن يكون لكل منا دوره في اسقاط هتلر، حسبما جاء في مذكرات سيبالك ميلينغن عن الحرب، وقد نُشرت بعدها بزهاء ثلاثين سنة. على كل حال أذكر انني وصلت أوروبا في المجموعة التي ضمت غلينون وسالينغر وكان ذلك قرابة الأول من شهر آب (اغسطس) ١٩٤٤، ولست أدري متى وصلها الآخرون الذين ذكرت.

بعد ليلة لطيفة ومثيرة رقدنا في آخرها في أكياس النوم العسكرية على شاطئ نورماندي الرملي يلفحنا نسيم عاطر وتطل علينا النجوم البراقة من سماء نقية، ويشنف آذاننا هدير الطائرات المستمر ودوي المدافع الآتي من بعيد، انطلقت بنا قافلة من ناقلات الجند وسيارات الجيب فحططنا رحالنا في مباني ثكنة فرنسية مهجورة في فالون على بعد كيلومترات قليلة من بلدة كاين وأكثر من مئة كيلومتر من باريس. هنا في الثكنة أخرجنا النرد وورق اللعب من جعباتنا وخلصت بعض البلهاء من قرابة ٥٠٠ دولار خلال أيام قليلة وخسرت في بعض الأحيان فقط لتفادي سأم استمرار اللعب حسب الأصول.

عندما عدنا إلى ثكنتنا أنا وهاورد ولسن وجون باريس عصر أحد قبيل موعد الكوكتيل رأينا عملاءنا الاثني عشر في جهاز مكافحة الجاسوسية وقد تحلقوا حول شاب يتكلم بسرعة ولم يخلق ذقنه منذ بضعة أيام وفي اسمال بدلة ضابط الماني، استحوذ على انتباههم بما افترضنا انه قصة يرويها عن احدى مغامراته الشخصية الحديثة.

وما أن رأنا أحد عملائنا (ربما كان جول نولن) حتى قفز واقفاً على قدميه ليقول لنا: «إن أضخم غنيمة في مكافحة الجاسوسية خلال هذه الحرب» قد سقطت في أحضاننا. بدا الرجل أقرب إلى مهرج في أحد مرباع سوهو الليلية منه إلى ضابط الماني. ولكنه كان في الواقع ملازماً في الاستخبارات الألمانية، ضالعاً في محاولة اغتيال هتلر، ونجا من الاعتقال بأعجوبة استحوذ بسردها على اهتمام رجالنا.

هل قلت آنفاً كوكتيل؟ أجل هكذا كانت حياتنا في وحدتنا المرافقة للقيادة. والحقيقة هي ان امسياتنا في وحدات جهاز مكافحة الجاسوسية في أوروبا تختلف إلى حد ما عن حياة باقي المجندين العاديين فقد استقدمنا الطهارة المهرة الذين يعرفون كيف ومن أين يحصلون على اللحوم والخضار الطازجة.

في شخصية هذا الضابط الألماني، واسمه هيرمن ريدكي نوع من السحر. فهو، وإن كان يتكلم بثقة المهرج المسرحي، متواضع جداً يتقن الانكليزية اتقاناً تاماً ذلك انه نشأ في منهاتن في نيويورك حيث كان أبوه (حسب قوله) موظفاً في شركة المانية اميركية للنقل البحري. وهو بطبيعته قصاص من الدرجة الأولى ينقل معلوماته إلى المستمع بشكل حكايات تشبه تلك التي تحكى حول نار المخيم في المهرجانات الكشفية. أما في سرد التفاصيل الدالة على الذكاء فيتوقف عندها بما يكاد يشبه الهوس بها حتى أصغرها. ففي منتصف حكاية او نكتة ما عن أحد كبار الضباط الالمان مثلاً - كخلاف بينه وبين زملائه

أو بعض صفاته الشخصية، أو أسلوبه في لعب البوكر وغير ذلك - تراه يتوقف ليسترسل في ذكر سن الضابط ووضعه العائلي وطول قامته ووزنه ولون شعره وعينه.

لم نتمكن من سير غوره ولكننا وجدنا انا وهاورد ولسن ان حكايته متماسكة جداً ومنطبعة تماماً مع صورة الوضع العام في ذهننا آنذاك لأن تكون كلها ملفقة. وعليه قضينا اليوم بأكمله نحاول استشفاف غاية مكيافيلية أو عمالة مشتركة دفعت به للمجيء إلينا. وعندما طلبنا إليه البوح بالحقيقة طلب منا مواجهته بضابط جهاز مكافحة التجسس النقيب مارتن وس الذي علم عنه بطريقة ما انه موسوعة متحركة عن استخبارات القيادة العليا الالمانية.

ولعل ذكر الضابط الالماني لاسم النقيب الأميركي وس كان سبب اهتمام البروفسور جون باريس الذي قال لهاورد في اليوم التالي: «لكي نصدق أن هذا الرجل يقول الحقيقة، علينا أن نصدق ان ماتي وس أصاب الهدف في وصفه تفاصيل لعبات الحرب التي يمارسها جميع ضباط القيادة العليا الالمانية. فهل تقول بشكل فوري ان هذا الصعلوك حصل على معلوماته من مشاهداته الشخصية أم من قراءته ملف مارتن وس؟

كان الجواب واضحاً، أكدّه مارتن بنفسه عند وصوله إلى معسكرنا بعد ظهر اليوم نفسه، إذ بادر أسيرنا بالقول:

- «مرحباً يا هِرم».

- «مرحباً يا ماتي»، أجاب هِرم ببعض الكتابة وان كان قد بدأ يهدأ روعه قليلاً.

قال مارتن: «لقد كنت فتى شقياً».

أجاب هِرم: «أعلم ذلك يا مارتن».

انتهى الأمر، ولاحظنا عند ذاك ان الجنديين الذين وصلا في سيارة الجيب مع ماتي يتبعان إلى الشرطة العسكرية. توجه ماتي إليهما قائلاً: بأن القوة ليست ضرورية وبأن هِرم سيأتي طوعاً. أما هِرم ردمن وليس ردكي - فكان ترجمانا باللغتين مع الجيش السابع، سبق له ان اشتغل بأمره ماتي.

والآن ما هو الدرس؟ لقد كان الدرس الأهم آنذاك كامناً في اجوبة هِرم عن أسئلة وجهها سام إليه. فقد كانت فرق جهاز مكافحة التجسس الأميركية حتى قدوم هِرم إلى معسكرنا تتصور بأننا نحارب المانيا النازية. وكان الرجال يؤمنون باستحالة محاولة العدو المهزوم الانضمام إلينا في حرب ضد «عدو مشترك» هو روسيا السوفياتية. أما أنا ويفضل عملي مع العقيد پاش في لندن، فلم يستحوذ على مثل ذلك الوهم، وبت الآن أدرك ان ما سمعه زملائي من هِرم كان الاشارة إلى التي تلقوها عن أن كبار قادتنا ينظرون إلى أبعد من المانيا النازية، إلى الروس الذين تعلمنا ان نتكلم عنهم بعطف ونسميهم: «حلفاءنا الحمر الأبطال». فمن هِرم العائد لتوه من مقر القيادة علمنا أن رؤساءنا في واشنطن ولندن يصدقون بأن هناك فعلاً حركة مناهضة للنازية وربما على نطاق واسع في الجيش الالماني، قد تكون ذات فائدة بعد انتهاء الحرب.

هارولد ولسن وغيره من الذين لم يهتم سوى انتهاء الحرب والعودة إلى حياتهم الطبيعية فلم تثرهم تلك الحقائق إلا قليلاً بل ربما أزعجتهم بعض الشيء. أما بالنسبة إلينا نحن الذين نظرنا إلى المستقبل من منظار الاستخبارات لفترة ما بعد الحرب، فقد فتحت أمامنا آفاقاً جديدة. اضطررت، بعد الكثير من التردد، إلى وضع حد لقصة اعتمدها لسنوات عديدة هي خرافة كوني أول اميركي دخل باريس فور تحريرها من الالمان صحيح انني لا ادعي فخر القيام بعمل لم أقم به

فعلاً إلا عندما أتيقن من أن أمري لن ينفذ. أما في تلك الحال فقد كان هناك الكثير من ابواق الدعاية المناهضة لي، من الذين يعرفون الحكاية على حقيقتها، ولعل واحداً منهم أو أكثر من بين قرابة المليون شخص الذين سيقع هذا الكتاب بين أيديهم يكن لي من العدا ما يجعله يوجه رسالة إلى رئيس تحرير الصحيفة التي نشرت مراجعة لهذا الكتاب أثنت فيها عليه.

أما بشأن التفاصيل فلست على دراية بكامل الحكاية لأنني لم أكن أعرف إلا القليل مما يجري حولي وأخذ الأمور كما تصادفني دون تدوين ملاحظات وحفظها. كما أن ما أعرفه الآن مستقى من مراجعتي للتقارير القديمة التي وضعت عن الأحداث بعد وقوعها ببعض الوقت، وإلى محادثاتي مع اصدقائي القدامى أمثال لاري كولينز ودومنيك لايار اللذين ألفا ذلك الكتاب الرائع «هل باريس تحترق؟» أما من حيث التواريخ فكل ما استطعت التثبت منه هو أنني وصلت باريس قبل يوم واحد من دخول ارنست (بابا) هيمينغواي إليها. ولا بد أن قرأني القدماء ما زالوا يذكرون أنه ادعى لفترة من الزمن بأنه أول أميركي وصل باريس في شهر آب (اغسطس) عام ١٩٤٤ - وهو يعني بالطبع أنه كان أول شخص من بين المشاهير أدى دوراً بارزاً في تحرير المدينة. ولا ريب في أنه كان على علم بأن مكتب الخدمات الاستراتيجية استطاع تسريب قرابة الاثني عشر عميلاً من عملائه إليها قبل أن تغادرها الجيوش الألمانية.

لنبدأ من البداية. ففي اليوم التالي من إرسالنا هرمن إلى لندن لالتقاط أنفاسه واستعادة عافيته النفسية وصل إلى معسكرنا مقدّم في الجيش اسمه غروفر آدامز ينتمي إلى الاسرة الشهيرة في بوسطن، حاملاً ظرفاً مختوماً كبيراً ورسالة خاصة من رئيسه غوردن شين الذي رُقي في حينه إلى رتبة عميد وكان آنذاك لا يزال في مقر قيادة جهاز مكافحة التجسس في واشنطن. لم يطل به الوقت حتى طلبني المقدم وقال لي: «إن الجنرال شين يقدرك تقديراً رفيعاً ويرى بأنك العميل المناسب للقيام بخدمة صغيرة له نصفها رسمي ونصفها الآخر شخصي. أما النصف الرسمي منها فقد يأتيك بوسام آخر».

ما هي تلك «الخدمة الصغيرة؟» انها حملُ الظرف إلى فندق «ماجستيك» الواقع في جادة فيكتور هوغو المتفرعة عن جادة الشانزليزيه قرب ساحة النجمة في باريس وتسليمه إلى المقدم كورت شوماخر مساعد الجنرال ديتريخ فون خولتير قائد القوات الألمانية في باريس وضواحيها. أما النصف الرسمي من المهمة فكان استعمال شتى الوسائل لتأمين مكان في فندق «جورج الخامس» للجنرال غوردن شين وكبار ضباط ج - ٢ الذين سيأتون من واشنطن عندما تسقط باريس في أيدي الحلفاء. أضاف المقدم آدامز قائلاً: «انك تعرف هؤلاء الديويين فإن لم نسبقهم نحن إليه استقروا هم فيه. أما نحن الأشخاص المهمين حقاً في هذه الحرب فسيرسلونا إلى نزل صغير».

ولكن الالمان كانوا يملأون باريس فكيف لي، بالله عليك، دخولها؟ أم هل انكم تتوقعون مني وأنا في بزة ضابط أميركي دخول فندق ماجستيك، مقر القيادة الادارية للجيش الالماني والتوجه إلى مسؤول الاستعلامات المهذب طالباً منه إرشادي إلى مكتب القائد العام؟ «آه» قال آدامس: «لقد سهلنا لك الأمور فلا داع لأن تطلع على محتويات الظرف وليس مطلوب منك أن تعرف ان كورت شوماخر هو في الواقع من كبار ضباط الاستخبارات الألمانية. ولكن يجب أن تعرف بأن الضابط الذي سيرافقك إلى باريس هو نقيب في الاستخبارات الألمانية ولدينا جميع المسوغات لوضع ثقتنا به وهو يعرف كل المداخل والمخارج. انه النقيب فالتر غليم وستلتقي به في مدينة شارتر حيث تم الاتصال بينه وبين وحدة مكتب الخدمات الاستراتيجية. ومن هناك وصاعداً ستكون الأمور سهلة».

هكذا أذكر الحديث الذي جرى قبل نيف وأربعين عاماً. وكأي انسان صارت حياته في أفول لست أذكر طعام الفطور صباح اليوم انما لا زلت أذكر بوضوح حديث ذلك اليوم خصوصاً وانه يشكل محطة هامة في حياتي العملية. غير انني عندما قصصت الحكاية ثانية على غروثر آدامز بعد عدة سنوات من حدوثها وكنا قد أصبحنا صديقين وتشاركنا في بعض الأعمال، أنكرها أولاً ثم قال: «لعلّي قلت شيئاً من ذلك القبيل على سبيل المزاح. فكل ما أراده منك الجنرال غوردن آنذاك العثور على شوماخر أينما كان» حتى ولو استلزم ذلك ذهابك إلى فندق ماجستيك، للعثور عليه». قارنت ذكرياتي لذلك الحديث مع بعض الزملاء القدامى فقالوا انهم يتذكرون أن المحادثة جرت حسبما أوردتها.

المهم انني أعرف الآن ما فهمته آنذاك. وعليه وبعد أربع وعشرين ساعة وبعد تحاشي طرق القوافل العسكرية، والشرطة العسكرية التي تسهل السير، والمرور بالمدنيين المرحبين بجنودنا ومختلف أصناف الفوضى في حرب قاربت بلوغ نهايتها، أوقفنا سيارة الجيب أمام فندق ريفي لفه الإهمال يقع في غابة متاخمة لمدينة شارتر وفيه شاهدت الملازم دان هنتر من مكتب الخدمات الاستراتيجية.

فرح دان كثيراً لرؤيتي وبادرنى بالقول: «كلما عجلتم في تخليصنا من هذا الرجل كلما كانت الغاية أقرب مثلاً. إنه يحمل أوراقاً ثبوتية هامة مدعومة من قبل الجنرال سيبرت ولدي تعليمات من قبل العقيد بروس تقضي بعدم التعرض الفضولي له». أما الجنرال ادوين سيبرت فهو قائد ج - ٢ في مجموعة الجيش الثاني، أي رئيسنا جميعاً، وأما العقيد دايفد بروس فهو رئيس مكتب الخدمات الاستراتيجية في أوروبا، وسبق لي أن تعرفت به في لندن. أردف دان قائلاً: «انه حسب ذوقي مفرط بالثقة بنفسه».

في غرفة هي عبارة عن مشرب (بار) وصالة للتسلية كان الغناء قد توقف، وأصغى بعض صغار ضباط مكتب الخدمات الاستراتيجية ورجال المقاومة الفرنسية، بإعجاب إلى شاب الماني أشقر الشعر ووسيم الوجه يتحدث بمزيج من الفرنسية الباريسية والانكليزية النيويوركية قائلاً: «اسمعوا، يا جماعة، ما هو أئمن حيوان في الدنيا (بالفرنسية) أنكم تعلمون! (بالانكليزية) احزروا! (بالفرنسية)». قلت في نفسي لقد بلغت حكاية التماسح الالمان. فقد كانت قيد التداول في مقر قيادة «ايتوزا» طيلة الشتاء المنصرم.

قال الالماني: «أتستسلمون؟ إذا سأخبركم. أنه ذكر التماسح. إنه أئمن الكائنات الحية في العالم. فالانثى تضع ألف بيضة في السنة ويأتي الذكر فيلتهمها كلها باستثناء عشر بيضات أو اثنتي عشرة منها. فلولاها لكنا غارقين حتى الحقوين في بحر من التماسيح». أخذ هذا الالماني الذي من المفروض ان أدخل باريس برفقته، يقهقه على الحكاية بمفرده. أما المستمعون إليه بكل ذلك الاهتمام المقرون بالانزعاج بدلاً عن السرور فلم يفتر ثغر أي منهم عن ابتسامة باهتة.

لم أبتسم أنا أيضاً. لقد كان من السهل علي أن أتصور ذلك الشاب وعلى خديهِ ندبات من جراء المبارزة بالسيف جالساً في مشرب للجنة في ميونيخ يصخب بصحبة فتیان نازيين. ولكنه مثل هرمن وكأنيما نسختان عن نفسيهما في هوليود يتكلمان الانكليزية باللهجة الأميركية الدارجة التي لا تشوبها أي لكنة.

راقبت المشهد لبضع دقائق برفقة دان وكنا واقفين في الجهة المقابلة في الغرفة. وهنا سألتني دان: «ما رأيك؟»

قلت: «أود الذهاب إلى مكان أبكي فيه بمرارة. ولكن دعنا ننتهي من هذه القضية».

رافقني دان إلى الطاولة التي جلس إليها النقيب فالتر غليم متحدثاً. لم ينتظر غليم أن يعرف دان عنا بل نظر إلينا نظرة يُفترض فيها أن تكون نظرة صداقة وقال: «آه، جاك ارمسترونغ، الشاب الأميركي بكليته!» - قلت: «فرصة سعيدة».

أجابني «لسان حالي»: هل سنحمل هذه المغامرة الصغيرة على حمل الجدية؟ أعني هل تتوقع مني جدياً أن أرافقك إلى باريس؟

كانت فكرة دخول باريس أثناء وجود الالمان فيها مجرد وهم خطر بمخيلتي، ولكن رأيت نفسي عندها أحمل الموضوع فجأة على حمل الجدية فأجبت: «هذه هي الفكرة بشكل عام».

قال: «لا بد أن هناك مجنوناً». وتحول إذ ذاك النقيب غليم إلى كل جديته فقال: «المكان يعج بالالمان. أعني أنني الماني وأعلم ما أقول. أفلم تدرك مغزى حكايتي عن التماسح؟

الحقيقة انني لم أدركه ولكن دان أدركه فأمسك بي من ذراعي وسرنا مبتعدين عنه ثم قال: «أظن انه من الأفضل لنا أن نتحدث قليلاً».

أطلعني دان أثناء تناولنا طعام العشاء على الوضع العام في مكتب الخدمات الاستراتيجية وفي جهاز مكافحة التجسس وعلى الصورة العامة التي تكونت في ذهنه على أثر وصول النقيب الالمانى. فقال: إن رؤساءنا اعتبروا باريس حينذاك عبثاً علينا. فقد سبق للجنرال ايزنهاور أن سأل مستشاريه اللوجستيين: «ماذا ستفعل بها بعد الاستيلاء عليها؟» فأجابوه بأنه إذا أراد عدم تحمل مسؤولية تجويع شعب أجمل مدينة وأكثرها قابلية للانفجار في العالم، عليه أن يكون مستعداً لامدادها يومياً بأربعة آلاف طن من الغذاء والدواء والوقود، أي ثلاثة أضعاف ما يلزم الجيش الأميركي في زحفه نحو الحدود الألمانية. إضافة إلى ذلك فإن القيام بهجوم مباشر على باريس سيجمّد عدة فرق من الجيش في حرب شوارع تدوم طويلاً ينتج عنها خراب المدينة وتحويلها إلى جبال من الركام على غرار ما شاهدنا أثناء مرورنا بـ «سان لو» وبـ «كاين».

وفضلاً عن ذلك اعتبر كبار محلي الاستخبارات الاميركية ان احتلال باريس قبل أن يصبح ذلك ضرورة استراتيجية سيضع الجنرال شارل ديغول (احدى المزعجات البروتوكولية، حسب قول دان) قبل الأوان في موضع المسؤولية داخل البلاد. عندئذ يصبح بين أيدينا حكومة ديغولية تشكل ازعاجاً شديداً لنا بعد الحرب. ولم نكن قد أدركنا آنذاك ان الحكومة التي يستطيع ديغول تأليفها هي بالضبط الحكومة التي كنا بحاجة لوجودها في فرنسا.

على كل حال، هكذا كان التفكير السائد قبل وصولي إلى شارتر، ومن مصادر عليمه عرف دان انه من المستحسن اتخاذ الترتيبات لاقامة وحدته في شارتر اقامة مريحة لاحتمال بقائها فيها شهراً آخر على الأقل. قبل دان (وهو الذي يحب التنزه في الشوارع الواسعة الجميلة ويتطلع إلى بلوغ باريس بلهفة صبي ينتظر حلول عيد الميلاد) بهذا الواقع صاغراً وأرسل فريقاً من المستطلعين لشراء الخمر الفاخرة والمكونات اللازمة لطبخ أطباق الذواقة وغير ذلك من الأطايب اللازمة لمجموعته لقضاء الصيف كله.

وفجأة تغير كل شيء وراح دان يتساءل عما إذا كان لمهمتي، أياً كانت، أي علاقة بالسيناريو الجديد. غير أن فالتر غليم ألقى بعض الضوء على الوضع: بدا ان رأي الالمان قد تبدّل. اعتبرت القيادة العليا الألمانية انها ستبقي قواتها في باريس طالما أدى ذلك إلى تجميد قواتنا حول المدينة في محاولة

لاحتلالها، وأفرحها التفكير بأننا سنتحمل أمام التاريخ مسؤولية تهديمها في حرب الشوارع فيها. ولكنها قررت لدى ادراكها بأننا تخلينا عن خطة احتلالها وبأننا ستتجاوزها، قررت - بل قرر هتلر - تدميرها لنحتلها أطلالاً وركاماً متفحماً.

ولكن جاءت المفاجأة إذ علمنا أن الأوغاد البريطانيين لم يكتفوا بالقبض على كل الجواسيس الالمان في بريطانيا وتحويلهم إلى خدمتهم بل استوظفوا أيضاً نسبة كبيرة من ضباط وعملاء المخابرات الالمانية ليس فقط العاملين منهم في فرنسا بل وكذلك في مركز قيادتهم العليا. إضافة إلى ذلك قاموا بعملهم هذا مزدربين بنا ازدراء المهنيين بالهواة: ذلك أنهم أدركوا بأن دوافع الجاسوس آنية واتجاهها يميل نحو الفريق الذي يبدو رابحاً. كما أنهم لم يثقوا ولم يقتنعوا مطلقاً بهذه «الجاسوسية المفاجئة» التي انشئت قبيل بدء تحول الحرب إلى مصلحتنا. وكان قد بات واضحاً إلا للذين أعماهم تعصبهم أن ميزان القوى يميل باتجاهنا.

وبدا ذلك واضحاً بشكل خاص للقائد الالمانى في باريس الجنرال فون خولتيتز الذي تسلم أوامر من هتلر مباشرة بوجوب تدمير باريس في آتون من نار ومتفجرات. ولكن فون خولتيتز الذي رأى ان اسمه سينزل في التاريخ على انه أشد جنوناً من هتلر نفسه، أحجم عن تنفيذ الأوامر. ولما ظهر تردده اندفع العملاء البريطانيون بين ضباطه، ومعظمهم من أصحاب الرتب العالية في الاستخبارات الالمانية، يؤيدون موقفه ويستخدمونه رأس حربة في حركة مناهضة للقيادة العليا الالمانية.

عند بزوغ شمس يوم الاثنين في ٢١ آب (اغسطس) ١٩٤٤ جاءتنا الأوامر من قيادة فريقنا بوجوب التحرك الفوري نحو رامبوي الواقعة على بعد ٥٥ كيلومتراً عن باريس حيث سنلتقي بالمقدم كنيث داونز (رئيس مكتب الخدمات الاستراتيجية في مجموعة الجيش الثاني عشر) إضافة إلى تشكيلة من وحدات المكتب ومعها مما معها من أمر مهمة «بإحكام القبضة على المدينة لجهة الاستخبارات». وكان على وحدة دان أن تتحرك قبل حلول الظهر.

ولما كنا قد وصلنا أنا وفالتر ونحن على أتم الاستعداد للمسير تيسر لنا بعض الوقت لتناول طعام الفطور ببعض الراحة.

كان فالتر في ذلك الصباح شخصاً مختلفاً كلياً، هادئ الطبع بل حتى واجماً متأنقاً في بزة عسكرية لا شارات عليها قد تكون لضابط من أي رتبة في جيش أي دولة وعليه امارات جدية العمل - ولكنه خلافاً لما كان عليه في الليلة السابقة اعتمد البرودة وحتى الانكماش وان كان دون تخلٍ عن مودة. سأله لماذا تصرف كالأهبل في الليلة السابقة، فأجاب: «ما أرتحت لأصدقائك ولا هم ارتاحوا لي وبكل تأكيد لم أكن على استعداد للإجابة على أي من أسئلتهم.

لم يكن التحادث سهلاً خلال رحلتنا إلى رامبوي بسبب ضجيج القافلة على طريق خربتها الدبابات والمجنزرات وشاحنات المعدات الثقيلة، إلا ان فالتر استطاع أن يُسمعي بأنه من الأفضل اغتنام أول فرصة للتحدث فيما بيننا بعيداً عن الباقيين، وأن يقول لي: «لا أظن بأن الجنرال شين أراد منك حقاً الذهاب إلى باريس. تذكر بأنه لا بد اختارك لأنه يعتبر انك تقدم على أخذ المبادرة. أما الآن فقد تغير الوضع كلياً».

سنحت لنا فرصة التحدث بعد ذلك بقرابة ساعة من الزمن عندما توقفت قافلتنا افساحاً في المجال لمرور الفرقة الفرنسية الثانية. شرح لي فالتر ان ضابط الاستخبارات الالمانية الذي عليّ مقابلته في باريس كورت شوماخر هو صديق قديم للجنرال غوردن شين وقد سبق لهما قضاء عطلة فصل الصيف

بكاملها معاً وهما دون العشرين من العمر يعمل والدهما كملحقين عسكريين في إحدى عواصم الشرق الأقصى.

ما أن مضى علينا في الحديث وقت قصير حتى انضم إلينا دان فأوجزت له ما دار بيننا وأوضحنا لقاتر انني منذ الآن فصاعداً سأبقي دان على اطلاع تام بكل شيء. كانت نتيجة الحديث تفاهماً على انني لن انحرف كثيراً عن الأوامر مهما كانت الظروف إلا إذا أردت اقتحام باريس بمفردي، وأنه من الأفضل ان اترك لقاتر مهمة نقل رسالة الجنرال شين إلى شوماخر. وبطريقة لم نكن قد حددناها بعد، أذهب إلى باريس «بأسرع ما يمكن». وشمل تفاهمنا أيضاً ان يغادر قاتر القافلة في سان كلود ويجد طريقه إلى بيت آمن يلتقي فيه بكورت شوماخر حسب خطة بديلة أعدت منذ مدة. عندئذ وبمحضور دان سلمت الظرف المختوم لقاتر.

في مكان ما ونحن في الطريق بين شارتر ورامبوي تمنا عن القافلة فاضطررنا للبحث قليلاً عن فندق «غراند فينور» حيث من المقرر أن تلتقي وحدات مكتب الخدمات الاستراتيجية. وعندما عثرنا على الفندق وجدنا أن حفلة كوكتيل جارية فيه حيث المقدم كنيث داونز رئيس وحدات مكتب الخدمات الاستراتيجية التابعة لمجموعة الجيش الثاني عشر يتبادل الحكايات مع جوني اوكس (من صحيفة نيويورك تايمز) وبين ولز (ابن مساعد وزير الخارجية سمير ولز) وفرانك هوكمب (رائد في المارينز ربي في باريس مثل دان هنز) وآخرين من نجوم مكتب الخدمات الاستراتيجية الذين أخذت أنظر إليهم وقد استحوذت بي البهجة كطالب صغير محاط بشباب في حفلة تخرجهم من الجامعة. ارتعشت عظامي فرحاً. وكان قاتر واقفاً إلى جانبي ولم يسترع انتباه أحد نظراً لوجود أشخاص كثيرين يرتدون بزات عسكرية مختلفة ونظراً لأنه يتكلم الانكليزية كأي واحد منا.

عند الساعة التاسعة دعينا إلى عشاء فاخر يختلف كثيراً عما نتناوله عادة في نادي الضباط. وأثناء تناولنا الطعام دخل علينا الأديب ارنست هيمينغواي (بابا) دخولاً مسرحياً يتبعه عدد من الفرنسيين بضجيجهم حسبناهم من رجال المقاومة السرية. ثم دخل رئيسنا جميعاً العقيد دايفد بروس قائد مكتب الخدمات الاستراتيجية في أوروبا كلها.

بدا لي لبعض الوقت انه لا يمكن الوصول إلى العقيد بروس. وتوقفنا جميعاً عن الطعام وانتصبنا واقفين وتوجهنا للترحيب بضيوفنا المفاجئين. لم تمض ثوانٍ قليلة حتى شاهدني. نظر إليّ نظرة ود مقرونة بالدهشة ثم ناداني جانباً وسألني: «ماذا تفعل هنا بحق الشياطين؟» قدمت قاتر إليه ثم أخبرته عن الظرف المطلوب مني أخذه إلى فندق ماجستيك. دهش للأمر ووقف فاتحاً فاه ينتظر تفسيراً.

أوضحت له ان التعليمات تقضي بالأمر يرى الظرف أحد قبل أن يصبح بين يدي الضابط الألماني الذي يجب أن يصل إليه. العقيد بروس شهم واثق من مركزه رسمياً واجتماعياً ولم ينخرط قط في المنافسات الداخلية في القيادة العليا. اكتفى بابتسامة وقال: «أيها النقيب، القرار عائد لك فافعل ما يمليه ضميرك. أما أنا فلن أطلب إليك أن تعصا الأوامر». وهنا أخبرته بأن الأوامر صادرة عن الجنرال شين فابتسم وقال: «امض في مهمتك، يا بني، وسيكون كل شيء على ما يرام. ولكن لعله من الأفضل ان تخرج من هذا المكان قبل أن تتحرك قافلة الغجر هذه بعد غد». ثم صافح قاتر وقال: «أتمنى لكما حظاً سعيداً»، وابتعد عنا وهو يبتسم ويهز رأسه.

استمرت الحفلة الليل بطوله تقريباً ووددت لو استطعت البقاء لمشاهدة وصلة هيمينغواي - أو قل لمشاهدة نجوم مكتب الخدمات الاستراتيجية، بعضهم يسر بها والبعض الآخر يمل منها. وكنت في ذلك

الحين وما زلت من محبدي بابا همينغواي . وأكدت لي لقاءاتي معه بعد سنوات عديدة وحتى وفاته انطباعي الأول عنه وهو «انه شخصية محببة رغماً عن نفسه» . ولكن كان عندي في تلك الأمسية والتر غلیم ووجوب التخطيط للقائنا بعد ان نفترق . خطر لي فجأة اننا على الرغم من الفترة القصيرة التي قضيناها نتبادل الثقة واحدنا بالآخر اثناء رحلتنا إلى هذا المكان، لم نعر أي اهتمام لما يجب أن نقوم به بعد افتراقنا في سان كلود . فغادرنا الغرفة وصخب الحفلة وجلسنا وحدنا على الشرفة نعدّ خططنا ومعنا اقداح الكونياك وفناجين القهوة .

لم يمضِ على خلوتنا هذه إلا بضعة دقائق حتى انضم إلينا كين داونز منسق عمليات دخول عملاء مكتب الخدمات الاستراتيجية إلى باريس . وحدث انه اثناء الحفلة وصل إلى فندق «غراند فينور» ضابط فرنسي من عملاء الاستخبارات العسكرية البريطانية «أم أي ٦» يحمل أخباراً مفادها أن القائد الألماني لمنطقة باريس الجنرال فون خولتيتز قد قرر تنفيذ اوامر هتلر بنسف باريس برمتها، وان فون خولتيتز، خلافاً لمعلوماتنا السابقة بات على وشك التنفيذ . وكان كين داونز قد أمر الضابط الفرنسي بالعودة سريعاً إلى باريس لمساندة تحرك أميركي نحو باريس تتقدمه مجموعة الجيش الثاني عشر بقيادة الجنرال برادلي وقال كين : «سنكون بحاجة إلى كل عناصر الاستخبارات التي يمكننا الحصول عليها»، وتوجه إليّ بالكلام قائلاً : «ربما باستطاعتك مساعدتنا» .

دلّنا ما قاله كين داونز على انه ليس على علم بمهمتنا، غير ان ذلك لم يكن ذا شأن بالنسبة إلينا . فقد عرض علينا أن ينقلنا إلى باريس بحيث ندخلها قبل الوحدات الأخرى من مكتب الخدمات الاستراتيجية مع ضابط من المكتب هو جاك موفينكل وهو من عمري تقريباً له ميول متقاربة من ميولي وسبق لي أن التقيته عدة مرات على طاولات البوكر في لندن كما انه الرجل الذي أفضله على الآخرين من رجال المكتب لمرافقتي لدخول باريس أثناء وجود الألمان فيها . لم يوافق فالترو وقال : «هذا الرجل راعي بقر . إذهب معه . أما أنا فسأبقى على اتفاقنا السابق وسأنفصل عنكم في سان كلود» .

لست أذكر بالضبط ماذا حدث بين ذلك الوقت ولحظة استفاقتي لأجد نفسي مع سائق سيارتي الهندي الأحمر تشارلي هاتشت ضمن قافلة جاك الهادرة في شارع ايطاليا المفضي إلى قلب باريس . كل ما أعرفه انني لم أكن أول أميركي دخل باريس حتى ولو استثنيت زهاء المئة عميل من عناصر مكتب الخدمات الاستراتيجية الذين دخلوها قبل قرابة الشهر تمهيداً لاحتفالات يوم التحرير . غير انه باستطاعتي القول المؤكد اننا أنا وجاك وتشارلي كنا الأميركيين الأوائل الذين دخلوها دون أن يكون لهم مهمة محددة فيها . كانت نصيحة فالترو لنا هي الانزواء قليلاً في بادئ الأمر إلى أن يكون الأميركيون الآخرون قد اخذوا يُشاهدون في المدينة بشكل مألوف لدى الناس، ثم الخروج وكأنني كنت فيها طول الوقت . وعليه انضم جاك وسيارات الجيب الثلاث المرافقة إلى قافلة من الدبابات الفرنسية المتجهة إلى شارع ريفولي . انعطفنا أنا وتشارلي إلى شارع جانبي ومنه إلى فندق ريتز فيما كان القتال لا يزال دائراً في ساحة الكونكورد . وبينما كان جاك يقتحم فندق موريس حيث ينتظر الجنرال فون خولتيتز سنوح الفرصة للاستسلام كنت أنا وتشارلي نشرب الشمپانيا ونأكل الكافيار في مقصف فندق ريتز برفقة مديره الذي أخذته الدهشة . وفيما كنت في قيلولتي بعد الغذاء الكحولي الذي تناولته انضم كين داونز إلى جاك وأخذنا يقيمان مركز القيادة لارسال البرقيات إلى الجنرال برادلي ترشده إلى أنسب الطرق لدخول المدينة بحيث لا يثير إلا الحد الأدنى الممكن من حساسية الفرنسيين . وكان الأهم من ذلك انه استطاع الالتقاء بالقوات الفرنسية التي اقتحمت فندق موريس لاعتقال القائد الألماني الجنرال فون خولتيتز وتقبّل استسلامه .

أما باقي تلك الأيام التاريخية الأربع المثيرة ابتداء من صباح الأربعاء في ٢٣ آب (أغسطس) حتى السبت في ٢٦ منه فتتمثل في ذاكرتي عقداً حبيبته صور صغيرة كل منها واضح تمام الوضوح انما بغياب تتاليها زمنياً. وفي سهرة طويلة، بعد قرابة الخمسة عشر عاماً من انتهاء الحرب، قضيناها أنا وبابا همنغواي نستعيد ذكرياتنا، أصرّ هو على روايته انه ورفاقه من المقاومة الفرنسية سبقوني أنا وزملائي من مكتب الخدمات الاستراتيجية بدخول باريس. أما روايتي عن أحداث الأيام الأولى لتحريرها فمدعومة بشهادات مسؤولي المكتب الذين راجعت معهم وقائعها وبشهادة أهم منها وهي شهادة فالتر غليم وهو الآن مصرفي متقاعد يقيم في جبال الالب النمساوية. ولكن فالتر أيد بابا في واحد من التفاصيل وهو قصة رواها أمام لاري كولينز الذي ضمنها كتابه «هل باريس تحترق؟»

يبدو انه في العشرين أو الحادي والعشرين من آب (أغسطس) - أي قبل يوم واحد من وصولنا انا ودان وفالتر إلى رامبوي - أمضى همنغواي بعد ظهر يوم وليلته في فندق غراند فينور وبذلك يكون قد سبقنا ببضع ساعات وفي تلك الأثناء خرج من مخبأ في غابة السنديان الدهرية المجاورة عدد من الضباط والجنود الالمان واستسلموا. جرّدهم بابا من سراويلهم وأرسلهم إلى المطبخ لتقشير البصل والبطاطا التي كانت من مكونات الطبق الرئيسي في وليمة العشاء التي وصفتها آنفاً.

لم يخبرني فالتر بذلك الحادث في حينه ولكنه اليوم وبعد أربعين سنة من وقوعه قال انه شعر بالارتباك آنذاك من رؤية رفاق له وقد تعرّوا من ملابسهم من الحقوين سنزولاً وفرض عليهم القيام بأعمال يدوية من ذلك المستوى وارتداء ملابس سقاة الفندق المزينة، انما فقط من الحقوين وصاعداً، ليخدموا في غرفة الطعام. وأضاف فالتر انه كان يتوقع من همنغواي عندما دخل الغرفة بضجته وضجيجته ومعه رفاقه الفرنسيون، أن يخلق من ذلك الوضع مشهداً، ولكنه لم يفعل. وباعتقادي ان بابا بنزعتة إلى خلق المشاهد لم يكن يتوانى عن ذلك.

وذكرني تشارلي هاتش بأن ممرضة برتبة نقيب اسمها غريتا يلوملي تابعة لمكتب الخدمات الاستراتيجية رافقتنا في رحلتنا إلى باريس وكانت طيلة الرحلة ممسكة بأعضائه التناسلية تشد عليها كلما سمعت طلقاً نارياً. أضاف تشارلي بأنها تزوجت من طبيب نفسي يعمل في وكالة الاستخبارات المركزية ثم وقعت بغرام احدى السكرتيرات فطردت من عملها عندما تشددت سلطات الأمن بمطاردة أصحاب الشذوذ والشيوعيين وانتقلت إلى باريس للإقامة مع السكرتيرة في مكان ما من الضفة الشمالية على طريقة جرترود ستاين وأليس توكلاس.

ولئن كانت حياتي في الفترة التي انتهت بانتهاء الحرب العالمية الثانية بعيدة كل البعد عن الهدوء والرتابة، فلعلها لم تكن مهمة بالنسبة لهذه السيرة الذاتية؟ يرتابني الشك في ذلك عند استعادة أحداثها في ذاكرتي، ولكن هاكم خلاصة لها مهما كانت قيمته.

أمّنت للجنرال غوردن شين وحاشيته من ج - ٢ اقامة مريحة في فندق جورج الخامس. وبعد أن تصادقت مع مدير فندق ريتز جان - پول واسونفيل فحملته على مطالبة صديقه وزميله مدير فندق جورج الخامس الاحتفاظ بطابق كامل من الفندق «للمبعوثين الخاصين من قبل البيت الأبيض» المتوقع وصولهم إلى باريس في ٢٦ آب (أغسطس) لحضور احتفالات وصول الجنرال شارل ديغول.

في الثالث والعشرين من الشهر نفسه، وكان قد أمن لنفسه اقامة في فندق ريتز، دخل بابا همنغواي الفندق مع زمرة من رفاقه الطيبين وطلب تماماً كما سبق له ان قال لي: «آه كأساً مزدوجة من المارتيني». ثم دخلت باريس قوات الجنرال ليكليرك وتلتها فرقة المشاة الأميركية الرابعة وأخيراً، في ٢٧

منه أقيمت احتفالات دخول الجنرال ديغول المظفر عبر جادة الشانزليزية على أصوات هتاف الجماهير المبتهجة وتصفيقها.

ولما كنت «أميركياً صرفاً» (حسب ما رأى الفرنسيين بي) وأتقن التكلم بالفرنسية صرت أحد أفراد المجتمع الباريسي الراقى الذي كان يضم في ما ضم في تلك الأيام، اشخاصاً مثل دانيال داريو وفرنسوا روزاي وبيار فريقي وساشا غيتري وموريس شوقاليه.

انتهى بي المطاف إلى جناح مريح في الطابق الثاني من فندق صغير يقع عند المستديرة القائمة في منتصف جادة شانزليزية بين ساحة النجمة وساحة الكونكورد، قبالة مكاتب صحيفة «لوفيجارو» وفوق المحل الذي صار يُعرف باسم «لو دراغستور» حيث يهول السياح الأميركيون لشراء اقراص الالكاسالزر والاسبيرين بعد تصريف نقودهم في مكتب «اميركان اكسبريس» القريب منا.

وفيما كنت أنهي ما أسميته «فترتي الباريسية» انسحبت من جهاز مكافحة التجسس للانضمام إلى مكتب الخدمات الاستراتيجية استعداداً إلى المهنة التي أعدتها لنفسي لعصر ما بعد الحرب. وينبغي عليّ القول، خدمة للتاريخ، ان اهتماماتي في تلك الفترة انحصرت بالعلماء وبرجال المخابرات الالمان الذين قد تكون لهم بعد الحرب من فائدة لنا في مواجهة أي اعداء جدد قد يظهرون كنتيجة من نتائج الحرب.

وأما أصدقائي في فترة الحرب فقد أسعدهم انتهاءها ونسيانها باستثناء واحد أو اثنين منهم. وأما بشأن فترة ما بعد الحرب من حياتي فقد عاد إليها ثم خرج منها فرانك جايمس، وعاد إليها نات صمويلز بعد سنوات عديدة وقد صار في منصب مساعد وزير الخارجية في إدارة الرئيس نيكسون. أما الشخصان صاحباً الفضل عليّ ومعبودَيَّ آلن كالفرت وهاورد ولسن «فقد عادا إلى جذورهما» حسبما كتب لي هاورد في إحدى رسائله بعد عدة سنوات من آخر لقاء لنا.

الفصل الثامن

باريس والألمان

و«العثور» على راينارد غيهلن

انقضى قرابة الأسبوع على الاستعراض المظفر الذي قاده الجنرال ديغول في جادة الشانزليزيه قبل بدء وصول الضباط الأميركيين الكبار إلى باريس. نزل العقيد كالفرت هاينز في فندق جورج الخامس وتبعه الرائد روجر سكسن، وأصر العقيد هاورد ولسن على الإقامة مع رجال جهاز مكافحة الجاسوسية في فندق يخص شركة كوك السياحية كنا قد أماناه لهم في جادة فيكتور هوغو حيث تركزت قيادة «إيتوزا» بعد أن أخلاه الألمان. وجاء برفقته مسؤول كبير وجديد في المجموعة العقيد أورفال راب مراقباً على النقيب دويل المشرف على دهان سيارات الجيب ومجموعته، وكلود غوزا وفرانك كيرنز وكامل فصيل باريس من جهاز مكافحة الجاسوسية المؤلف من زهاء ثلاثين عميلاً خاصاً وعميلاً عادياً إضافة إلى قرابة العشرة عملاء من العابرين إلى مراكز أخرى. لم يكن الفندق بفخامة الريتز بل كان نظيفاً ومريحاً وتأمين فيه للشباب قاعة طعام خاصة بهم مجهزة تجهيزاً تاماً ولهم أيضاً طهاتهم وسقاتهم، أي أن الإقامة فيه أنيسة ومريحة. درجت على تناول بعض وجبات الطعام فيه كلما ابتغيت الابتعاد عن «الجو اللطيف» الذي فرضه عليّ وجود جايمس انجلبرغر وهنري راغو في جناحهما القريب من جناحي في الفندق. ولا داعٍ للتأكيد هنا بأن أيّاً منهما لم تكن لديه الرغبة في أن يشاهده أحد في جادة فيكتور هوغو.

وما أن وصل هاورد ولسن إلى باريس حتى شرع بتوزيع المهام على المسؤولين معه، دون أن يسمح لنفسه بدقيقة واحدة للاستمتاع بالشعور بروح المرح السائدة ولا حتى لتقبيل ثغر فتاة فرنسية واحدة. كان على فرانك كيرنز قيادة مجموعة للتحقيق في أي قضية تستوجب ذلك داخل مقر القيادة، وتألّفت فرق ضمّ كل منها ثمانية إلى عشرة عملاء مهمتها اجراء مسح أمني لجميع الوحدات العاملة في باريس وجوارها. وكان عليّ وعلى جون باريس تمثيل جهاز مكافحة الجاسوسية ومكتب الخدمات الاستراتيجية في «التعاونية» (التي صارت تعرف في النهاية باسم «كوب») وهي عبارة عن مركز يُحال إليه كل الذين يلقي القبض عليهم عملاء جهاز مكافحة التجسس ومكتب الخدمات الاستراتيجية ورجال الحكومة العسكرية، والمطلوبون من قبل واحدة أو أكثر من تلك الهيئات. و«التعاونية» هذه أقيمت في قصر خاص بآل روتشيلد، وقد نهب جميع محتوياته، قائم في جادة فوش بالقرب من ساحة النجمة (اتوال). وفيها تقرر توجيه الموقوفين كل إلى الجهة الصالحة للنظر في أمره.

عند وصولنا إلى «التعاونية» وجدنا الملازم ثاني دان هنتر برفقة رائد فرنسي اسمه لوبوتيليه يعملان في مجموعة من الأسرى جاء بهم رجال المقاومة السرية الفرنسية أو أنقذهم من بين برائن المقاومة رجال الشرطة العسكرية في الجيش الأميركي الخامس بقيادة الجنرال هودجس. أوضح لنا دان ان الشيوعيين في المقاومة يوجهون اتهامات التعاون مع الألمان إلى خصومهم خصوصاً إذا كان هؤلاء من الأثرياء الذين يملكون منازل أنيقة يحلو نهبها.

قضت الأوامر الصادرة إلى دان بالتحري عن الفرنسيين المؤيدين للنازية الذين قد يتعاونون مع مجموعات من المتصلين في ألمانيا. وعلى الرغم من عدم وضوح الأمر في ذاكرتي أعتقد بأن دان استطاع العثور على بعض منهم. وكان قد دسّ بين الأسرى أربعة أو خمسة من العملاء الخسيسين الذين ساعدوه في عمله الشاق هذا. ولكنه بذل مجهوداً أكبر في تحري أوضاع بعض الفرنسيين والفرنسيات الذين اعتبر بأنهم قد يفيدونه في عمله بعد الحرب. ففي تلك الحقبة وقبل أن يخطر بباله أن وكالة

الاستخبارات المركزية ستبصر النور في يوم من الأيام، أخذ يخطط للاقامة في باريس ليكون على رأس أي منظمة للاستخبارات قد تقوم من بين رماد مكتب الخدمات الاستراتيجية. ومن أجل ذلك كان لا بد له من تنمية صداقات لها تأثيرها.

عشنا بين سجنائنا الفرنسيين على شخصيات مرموقة تعاون بعضهم مع الالمان فعلاً، على مستوى علاقات اجتماعية أو حتى على مستوى صفقات تجارية مربحة وكان أكثرهم من اليمينيين الأثرياء الذين أراد رجال المقاومة الفرنسية إما إذلالهم أو نهب بيوتهم. ودأب دان على مراجعة سجلاته يومياً بغية العثور على سجناء يفيدونه بعد اطلاق سراحهم. وكلما اشتبه بأحدهم نزل إلى ساحة المعتقل وتقدم من الشخص المعني وسأله أو سأها بلهجة المستهجن قائلاً: «أرجو المذرة، ولكن أليس البارونة فلانة؟» وعندما تجيبه بالإيجاب يقول: «يا للعار! سأخرجك من هذا المكان فوراً!» ويخرجها فعلاً. وكان كل ما عليه فعله أن يذهب إلى الرائد لوبوتيه ويشهد بالموقف شهادة طبية وينتهي الأمر. على الرغم من أن «التعاونية» في عهدة دان يساعده فيها رائد ونقيبان بقي هو ملازماً ثانياً، طبعاً بسبب هفوة إدارية. فقبضته على العمل وإدراكه العميق لسبب تعيينه فيه ولتطابقه مع المهمات التي تكلف بها الآخرون عوامل تستأهل رتبة عقيد. ولجملة من الأسباب صارت «التعاونية» بالنسبة لأشخاص مثلي ومثل دان نقطة مراقبة ممتازة. أما السبب الأهم فكان دان بنفسه.

في أواخر تشرين الثاني (نوفمبر) وقبل اسبوعين من الهجوم الالمانى المعاكس في منطقة الاردن أرسلني العقيد كالفرت بمهمة خاصة في مركز التدريب للاستخبارات في معسكر ريتشي، ولاية ماريلند حيث بقيت حتى قبيل عيد الميلاد. لما عدت إلى باريس كانت معسكرات اسرى الحرب التي أقيمت حول باريس مكتظة بالأسرى، وكان عدد من الضباط الالمان الذين يحاولون تحاشي احتجازهم في المعسكرات ويعرفون بوجود «التعاونية» يتقدمون طوعاً من أبوابها. إلا أن دان أخذ يحول من منهم لا يتكلم إلا الألمانية إلى الشرطة العسكرية ويحتفظ بالذين يتكلمون الانكليزية او الفرنسية ويرغبون بالادلاء بمعلومات، يحتفظ بهم «كمحتجزين من صنف خاص» ولا يدون اسماءهم في تقاريره اليومية، فيستبقهم المدة الكافية ليحصل منهم على كامل معلوماتهم عن المحور (المانيا - ايطاليا - اليابان).

جاءنا كل الضباط الالمان باللباس المدني وهذا بذاته يدل على انهم أدري من زملائهم الآخرين بطريقة تحاشي الوقوع في الأسر العادي أو أن لديهم أسباباً أخرى للتخفي، أو للسبب معاً. أخذ دان على عاتقه امر استجوابهم فيما أخذت أنا دور المستمع. وكانت الفئة الأولى من المعلومات التي استقينها منهم أنهم يعرفون أكثر منا على أي نحو ستنتهي الحرب. لست متأكداً تماماً من ان الرائد في الاستخبارات الكندية ملتون شولمان قد تحدث مع أي منهم أم لا، ولكن ما قالوه لنا ينطبق تماماً مع ما أورده ذلك الناقد السينمائي والمسرحي الحاذق البصر والبصيرة في كتابه «هزيمة في الغرب». لقد أجمع الضباط الالمان الذين راحوا يفرون من ساحات الحرب بالعثرات - حتى بعد الهجوم على الاردن ورغم ما بعثه من أمل في نفوس بعضهم في أحلك أيامهم - على أن الجيش الأقوى والأحسن عدة الذي عرفه العالم كان محكوماً عليه بالهزيمة منذ البداية، وان لا سبيل له للاحاق الهزيمة بقوات عدتها وعديدها جيوش من المدنيين.

هل يقصر جيش مثله عن الظفر رغم انضباطه وتدريبه المثاليين وقد قال عنها مارتين وس وغيره من خبراء غرفة اللعبة بأنها سيجعلانه يتفوق على جيوشنا القليلة الخبرة؟ ان تدريبهم وانضباطهم بالذات سبب تقصيرهم عن احراز الظفر. فالضباط الالمان الذين جاءوا «التعاونية» يمثلون أقلية ضئيلة

من بين الذين أدركوا حقيقة الواقع ادراكاً صحيحاً. أما الآخرون فأطاعوا الأوامر طاعة عمياء دون طرح أي أسئلة «حتى ولو كان تجاهلها هو السبيل الوحيد للخلاص»، حسب ما جاء في كتاب ملتون شولمان. إن مجرد التفكير بالمنحي الذي ربما اتخذته الحرب لو خاضوها من دون هتلر لأمر مرعب بحد ذاته، وذلك ما كان مستحيلاً حسب قول ضيوفنا في «التعاونية».

إذاً، بماذا اختلف ضيوفنا عن غيرهم من الضباط الألمان؟ حسبنا في بداية المطاف بأنهم مناهضون للنازية وبأنه ليس بينهم من هم في فرق أس. أس. أو على الأقل أن من منهم فيها حاولوا إخفاء ذلك. فتيين لنا سريعاً خطأ حسابنا ذلك أن زهاء ثلثهم، حسبنا أذكر، كانوا فعلاً من أعضاء أس. أس. ولم يترددوا عن الاعتراف بذلك بل تجاهلوا كلياً احتمال اعتبارنا لهم كمجرمي حرب بسبب انتمائهم إلى منظمة ارتكبت بعضاً من أشنع الجرائم في التاريخ ولأننا بالتالي قد نضعهم في فئة منفردة.

من نواحي الانضباط العسكري الألماني استرعى اهتمامنا بشكل خاص - نحن رجال المخابرات - جهل كل ضابط تقريباً من الضباط الألمان الذين استجوبناهم لما يجري في قطاعات غيره من الضباط (وضعت باسم العقيد كالشرت تقريراً خاصاً بهذا الصدد رفعه هو إلى المراجع المختصة). إن ما استقيناه من معلومات من زميلنا في جهاز مكافحة التجسس الملازم ثاني سامي وانتراب الذي يتقن الألمانية (ألبسناه بدلة عريف وطلبنا إليه «التظاهر بمظهر البلاهة» - كمن يطلب إلى دانيال داريو «التظاهر بمظهر الدمامة») كاد أن يكون غير قابل للتصديق. فقد أخبرنا بأن ضيوفنا سهرؤا ساعات طويلة بعد إطفاء أنوار «التعاونية» يتبادلون بذهول المعلومات عما كان يجري في قطاعات بعضهم البعض.

لم يكن «موقوفونا الخاصون» مصدر معلوماتنا الوحيد. فهناك أيضاً الأسرى العاديون الذين قبض عليهم على عجل رجال جهاز مكافحة التجسس دون أن يتسنى لهم الوقت لمعرفة ما إذا كان لأمرهم أهمية عندنا بل لأنهم شعروا بأنهم قد يكونون مفيدين لنا بشكل ما. وكان هناك أيضاً أسرى أدركت وحدات مكافحة أهميتهم ولكنها احتفظت بهم لإبعادهم عن صائدي النازيين الذين باتوا يشكّلون مشكلة حقيقية. ولما بدا النصر قريب المنال أصدرت القيادة العليا للقوات الحليفة في أوروبا أمراً بإنشاء وحدة خاصة في جهاز مكافحة الجاسوسية مهمتها التدقيق في هويات جميع أسرى الحرب في سجلات القرى والمدن التي سقطت بأيدينا والبحث فيها عن أشخاص مُشبهين بأنهم مجرمو حرب. فكان أن أخذ العملاء يجمعون «مجرمي الحرب» كيفما اتفق، ذلك أن رجال جهاز مكافحة الجاسوسية، باستثناء القلة الضئيلة منهم مدنيون في قرارة نفوسهم همهم الأكبر إنهاء مهمتهم والعودة إلى الحياة المدنية. وهكذا كاد أن يكونوا بكليتهم تقريباً غير متعاطفين مع مخططات المسؤولين بعيدي النظر في قياداتنا المختلفة ومطالبة هؤلاء لهم بتوجيه بعض الاهتمام بالأسرى الذين قد تكون لهم أهميتهم لدى منظمات المخابرات. وعلى الرغم من أنه ترتب عليهم طاعة الأوامر كغيرهم في القوات العسكرية، لم تكن عواطفهم منسجمة تماماً مع ما طلب إليهم القيام به.

اعتمدنا على بعض وحدات جهاز مكافحة الجاسوسية التي كان الضباط المسؤولون عنها قد قرروا، مثلي ومثل دان، احتراف العمل المخبراتي. وما أن حل ربيع العام ١٩٤٥ حتى كنا قد نظمنا طريقتنا في استعمال تلك الوحدات بطريقة جعلتها جهازاً لمكافحة الجاسوسية ضمن جهاز مكافحة الأساسي، أي أنها صارت «الذئب الذي يهز الكلب» باعتبار أنها أخذت تقوم بالمهام المناطة به بينما

تحول «الكلب» إلى مطاردة مجرمي الحرب. وقد كان ثمة ما يسوغ موقف رجال الجهاز الأساسي باعتبار أن جهاز مخابرات العدو قد انفرط عقده ولم يبق هناك، حسب التعريف الحرفي، جاسوسية يكافحونها.

وأثناء انتزاعنا الكثير من المعلومات من مختلف أصناف وأنواع الأسرى والضباط الذين أتونا بهم كان دان على صلة مستمرة، اجتماعياً ومهنياً، بكل من جوني اوكنس وبين ولتر وفران هوكومب وغيرهم في مكتب الخدمات الاستراتيجية الذين جعلوا مكتبهم في جادة سوشيه مع الاستخبارات الفرنسية. ومن هؤلاء وكذلك من «الموالين» لجهاز مكافحة التجسس تبين لنا أن البحث الأهم بالنسبة إلينا يتضمن أربع فئات:

تضمنت الفئة الأولى افراد «الاوكترا السوداء» وهم الضباط الالمان الضالعون بطريقة أو بأخرى مع الأميرال كاناريس في نشاطاته المناهضة لهتلر وخصوصاً في محاولة اغتياله في ٢٠ تموز (يوليو) ١٩٤٤. وكان آلن دالس المقيم في سويسرا آنذاك قد أقام ما أسماه «علاقة مبدئية» مع بقايا «منظمة مقاومة المانيا» انبثقت من جهاز الاستخبارات الالمانية. ولكننا كنا على علم مثل دالس بوجود زهاء مئة ضابط أو أكثر إما مختبئون أو أن أمرهم لم ينكشف بعد في معسكرات الأسرى.

وضمت الفئة الثانية ضباط استخبارات، وأكثرهم من النازيين، المختصين بالشؤون السوفياتية. وكانت الاستخبارات البريطانية قد علمت بوجود «مخطط» تعاون الماني أميركي ضد السوفيات وضعه الجنرال راينهارد غيهلن، قائد «شعبة مخابرات شرقي أوروبا» وهي وحدة تحليل تقارير الاستخبارات التي تغطي الجبهة الشرقية. وقد اشتدت رغبتنا في سبق الروس إلى القبض على الجنرال غيهلن وعلى الضباط المتصلين بالمخطط (هذا إذا كان هناك مخطط).

ثالثاً - كان هناك عدد من العلماء الالمان الذين كشفتهم اللجان التي حضرنا اجتماعاتها في لندن أنا وبوريس پاش بصفتنا مسؤولين عن التفوقية العلمية والتقنية المفروض ان الالمان يتمتعون بها. وكان همنا ان نقبض عليهم قبل السوفيات وأظن بأن هؤلاء هم الذين وضعهم الجنرال غوردن شين نصب عينيه.

رابعاً - وأخيراً كان هناك النازيون الضالون الذين سعينا للقبض عليهم ليس لكونهم مجرمي حرب بقدر كونهم يملكون القدرة على الهرب من الحرب والاقامة في اسبانيا أو في جمهورية ايرلندا أو في اميركا الجنوبية أو الشرق الأوسط حيث يخلقون خلايا في البنى السياسية المحلية بغرض انشاء حركات نازية سرية لتقوم يوماً وتحاول السيطرة على العالم. (حمل بعض زملائنا في دائرة ج - ٢ في القيادة العليا الحليفة على حمل الجدل الاشاعة التي سرت بأن انتحار هتلر خبر كاذب وبأنه وسكرتير الحزب النازي مارتن بورمن قد فرّا إلى الأرجنتين).

إذاً نحن نبحت عن راينهارد غيهلن، ذلك النازي النحيل القذر حائك المكائد والمؤامرات الذي قال فيه آلن دالس: «إنه ليس ذاك الرجل الذي أقبل به في نادٍ أنتمي إليه». لم يسبق لنا أن سمعنا به إلا عندما جاء إلى «التعاونية» ضابط برتبة نقيب ينتمي إلى مجموعة الجيش الأميركي الثاني عشر طالباً «نشرة معلومات شاملة» قد تؤدي إلى العثور على غيهلن. ويبدو أن غيهلن قد جمع كل المعلومات المخبرانية المتعلقة بالسوفيات، وان رئيس النقيب المذكور، أي الجنرال سيبرت جاهد في السعي للعثور عليه. وكنا نحن على استعداد لبذل أي مجهود لتأمين ما يرغب الجنرال سيبرت في الحصول عليه.

كان الجنرال سيبرت تجسيداً للبطولة في أعين جميع الضباط الأميركيين للإمكانات التي يتيحها احتراف العمل في حقل المخابرات. اعتبر الجنرال على وجه العموم بأنه الأبعد نظراً بين رجال جميع

وحدات ج - ٢ ، وحظي بعداء مريز من قبل اليساريين في واشنطن الذين استنكروا أي اشارة إلى اننا سنحول اهتمامنا إلى السوفيات فور انتهائنا من الالمان . وعندما وصلت إلى واشنطن تقارير تقول بأن سوء الاستخبارات سبب الخسائر التي لحقت بالأميركيين في معركة الأردن قام اليساريون في الكونغرس وفي الادارة يستحثون وزارة الحربية لإجراء تحقيق وإلقاء المسؤولية على سيبرت شخصياً . فانضوينا فوراً تحت لوائه وأمنا له تأييد مجموعات ج - ٢ في كل الفرق والأولوية والجيش التي استطاعت أن تبين ان الاستخبارات أشارت بوضوح إلى الهجوم الالمانى المتوقع وان تقاريرها بقيت دون قراءة في سلة البريد الوارد في مجموعة ج - ٣ .

كما تم تجاهل نشرات المعلومات الشاملة عن الجنرال غيهلن التي بعث بها الجنرال سيبرت . ولما استسلم الجنرال غيهلن إلى وحدة من وحداتنا التابعة لجهاز مكافحة الجاسوسية في موقع مينرباخ ، استقبله آمر الوحدة استقبالا بارداً هذا علماً بأن غيهلن كان على أحرار من الجمر للاتصال بسيبرت بقدر ما كان سيبرت مهتماً بالعثور عليه . أما آمر الوحدة المذكورة النقيب ماريون پورتر فهو ضابط كفوء جداً انما متمهل بتصرفاته ينتظر بفارغ الصبر انتهاء الحرب ولا يولي بالتالي أي اهتمام «للقيم الاستخباراتية» التي قد تكون مفيدة في حال قيام نزاع في المستقبل . ويبدو ان منظر غيهلن وتصرفاته لم ترق له . وعندما قدم غيهلن له نفسه على انه الضابط الالمانى الأعلى الذي نسق جميع عمليات الاستخبارات ضد الروس أجابه پورتر بقوله : «تشرفنا . سنرسلك إلى الروس لتقول لهم ما تعرفه عنهم» .

ولكن خطر ببال ماريون ، وهو ليس بالغبي ، بأن لا ضرر من تغطية نفسه فاتصل بزميل سابق له في وحدة مكافحة الجاسوسية في باريس وسأله : «من هو هذا الرجل المدعو غيهلن ، وماذا يريد؟» نقل ضابط جهاز مكافحة الجاسوسية في باريس فحوى المخابرة إلى العقيد ولسن الذي أرسل برقية مستعجلة بخصوصها إلى الجنرال سيبرت في كرونبرغ . وفي ساعة متأخرة من الليلة عينها وصل اثنان من جهاز مكافحة التجسس وأخرجوا الجنرال غيهلن من معسكر أسرى الحرب الذي احتجزه فيه النقيب ماريون پورتر حفاظاً على سلامته . وفي صباح اليوم التالي كان الجنرال غيهلن وأحد مساعديه ، وقد نسيت اسمه ، يتناولان وجبة فطور دافئ ويحقق معهما الخبيران الوحيدان بالشؤون السوفياتية في هيئة أركان الجنرال سيبرت . ولما أضفنا أسماءنا إلى قائمة تزداد طولاً بأسماء الذين ادعوا الفضل بالعثور على الجنرال غيهلن ، كان في ذهننا ذلك التسلسل الخاطف للأحداث التي أدت إليه . وفيما بعد تحول الجنرال النازي المراوغ إلى المحور الأهم في نشاطات وكالة الاستخبارات المركزية داخل الاتحاد السوفياتي .

تبعنا عن كذب ، نحن الذين رأينا ان مستقبلنا هو في احتراف العمل المخابراتي بعد الحرب ، تلك التطورات ، لأن استراق سامي وايتراوب السمع والتنصت على مداولات ضيوفنا الالمان في الطابق الثالث من قصر آل روتشيلد بعد اطفاء الأنوار بين له أنهم تكلموا عنه كثيراً ، فاقنع ، وأقنعنا ، بأن الجنرال غيهلن هو على الأرجح مصدر معلومات واسعة عن السوفيات . والأهم من ذلك ان أقوال ضيوفنا فيما بينهم دلّت على ان الذين أدلوا بها رأوا في الجنرال غيهلن الشخصية التي يلتفت حولها المان غيرهم ومثلهم يتوقعون قيام تعاون الماني أميركي في المستقبل .

لخص سامي وايتراوب كل ما استرق سمعه في تقرير لا يختلف عن كل تقاريره من حيث الوضوح والترتيب البديعين . طلب دان إلى النقيب الذي جاء بنشرة المعلومات الشاملة عن غيهلن أن يحمل التقرير ويوصله إلى الجنرال سيبرت . وبعد أيام قليلة توجه سامي إلى كرونبرغ للاشتراك في

استجواب الجنرال غيهلن، ولم ألمحه البتة إلا بعد مضي عدة أشهر عندما التقينا في أحد ممرات المبنى ل في وكالة الاستخبارات المركزية في واشنطن وكان آنذاك في جولة لتلقي الارشادات استعداداً لمهمة جديدة في ألمانيا.

كانت الفئة الثالثة من الالمان الذين طلب إلى «الموالين» من رجال جهاز مكافحة الجاسوسية إلقاء القبض عليهم الفئة الأكثر حساسية. إنها فئة العلماء الذين أراد علماؤنا الحصول منهم على المعلومات عن التطور التقني في ألمانيا، وخصوصاً بشأن الصواريخ، كما كان السوفييات أيضاً جادّين في البحث عنهم. وفي تلك الأثناء أخذ المجهود الاستخباراتي الأميركي في أوروبا يتعرض لنيران النقد الحامية وللإتهام بأن مسؤوليه «يقدمون الوسيلة المصلحية على المبادئ». وشعرنا بالسنة النيران تقترب عندما دُعي صديقي القديم موسى دكتور - وهو من ولاية آلاباما مثلي وأسود يتكلم عدة لغات ويحمل شهادة دكتوراه - إلى مكتب نائب قائد «ايتوزا» في فندق ماجستيك ليشرح الأسباب التي حملته على الاستعانة بالنازيين الذين كانوا يعملون لدى الجنرال فون خولتيتز لمساعدة الفريق الفرنسي الأميركي على تعجيل اعادة المنافع والخدمات العامة في باريس إلى العمل المنتظم.

وكان موسى قد اجتذب للعمل معه المدعو «بوبي» بندر (عميل في الاستخبارات الألمانية) وراوول نوردينغ (قنصل السويد العام في باريس، تاجر في السوق السوداء استطاع انقاذ الكثيرين من رجال المقاومة الفرنسية من السجون الألمانية وتخليصهم من الموت على يد رجال الغستابو) وغيرهم من ذوي الصلة بالنازيين والواردة أسماؤهم في «لوائح التوقيف الفوري». وكلهم اشتركوا بمساعدة موسى في العثور على العلماء الالمان الذين تعاونوا مع علماء فرنسيين في مختلف المختبرات والمصانع الاختبارية في ضواحي باريس. قضت الأوامر الصادرة إليه بالتعاون مع الديغوليين وهم مقاتلون لا مهندسين، من أجل اعادة المرافق البلدية في باريس إلى العمل بأقل اعتماد ممكن على رجال الغستابو والمخابرات والشرطة الالمان المندسين بينهم. أما ذنبه فكان التسامح الذي أبداه مع الفرنسيين من ذوي المواهب التي لم يتمكن من الاستغناء عنها كالكهربائيين والسبّاكين والنجارين الذين سبق لهم العمل مع الالمان. ولا شك في أنه نصح بعضهم بالفرار إلى سويسرا ومنهم بندر ونوردلينغ وأخوه. لم يتمكن نائب القائد من اثبات ذلك على موسى (ذلك ان قلبه لم يكن إلى جانب التحقيق) ولكن موسى لم ينكر الاتهام ولا هو أقر بصحته عندما وجهه إليه المحققون.

إن المعلومات التي حصلنا عليها عن العملية التي شملت المسرح الأوروبي بأكمله وعُرفت باسم «عملية مشبك الورق» أو باسم «مؤامرة مشبك الورق» - والأمر هنا يتوقف على الجهة التي تنتمي إليها - جاءتنا تلك المعلومات من موسى وليس من زملائنا في جهاز مكافحة الجاسوسية. تتلخص عملية «المشبك» هذه بأن كل قيادة فيها مجموعة كبيرة من البطاقات الفهرسية سواء كانت قيادة جيش أو فرقة أو لواء، عُيّن فيها رقيب أول أقسم يمين المحافظة على السرية وأنيط به مراجعة البطاقات الفهرسية ووضع مشبك للورق على كل واحدة تحمل اسم أحد العلماء الالمان الذين قد يؤدي استجوابهم إلى إلقاء الضوء على تلك التفوقية التقنية الألمانية التي طالما شغلت بال قيادتنا في لندن. وبعد يوم النصر على المسرح الحربي في أوروبا راحت فرق مكافحة الجاسوسية تنزل على معسكرات اسرى الحرب وتسحب منها العلماء المختارين بتلك الطريقة رغم اعتراض المسؤولين في بعض تلك المعسكرات الذين كانوا على بينة من أن معظم العلماء المطلوبين هم نازيون. وتولّت الفرق المذكورة نقل العلماء إلى أمكنة إقامة مريحة حيث عوملوا مغاملة خليقة بالشخصيات المرموقة.

أيدت العملية تأييداً تاماً خصوصاً عندما أُعطيت الأفضلية فيها «للموالين» من أفراد جهاز مكافحة الجاسوسية. وخامرني الشك في بادئ الأمر أن تكون العملية المهمة التي أعدها الجنرال شين لي عندما رتب لي الاتصال بـ «الترغليم» الذي لم يكن قد اتصل بي كما توقعت منه أن يفعل. ولكن ماذا كانت ردة الفعل على العملية؟ رفض جايكس إينجليش وجيم غاردنر وغيرهما في وحدتنا في باريس، وكلهم متحلون بالعقلية الجامعية الليبرالية، رفضوا التعاطي معها. أما اليهود بيننا فانهمرت دموعهم عندما سمعوا بها. وبصفتي مسيحي مؤمن بالإنجيل ومصاب بداء «التشكيل المقلوب» - كما وصفني فرانك كيرنز في كل مرة غضب مني لاحتفاظي بروح الدعاية إبان الازمات - (دون ذكر تخلفي الفطري طبعاً) لم أتمكن من وضع أي هدف لنفسي غير كسب الحرب والعمل من أجل عدم قيام حرب عالمية ثالثة. لا أريد هنا الادعاء بالترفع ولكني لم أر أي سبب بل لم أشعر بأي سبب للثأر من الألمان مهما كانت بشاعة الجرائم التي اقترفوها.

ولكن ونزولاً عند إصرار صديقي الممثل المجنون ستيرلينغ هايدن ذهبت لأتفرج على معتقل بوخنوالد النازي. تضمنت مجموعة زوار المعتقل التي فرضها علينا ستيرلينغ كلاً من سامي واينتراوب وعميل خاص من جهاز مكافحة الجاسوسية اسمه إرفينغ أرونسن. لا ريب في أن مشاهدة المعتقل هزتني بما فيه الكفاية وكان تأثيرها في نفسي أقوى بعشر مرات من تأثيراتي من الأفلام التي شاهدناها عن المحارق على شاشات التلفزيون. ولكن تأثير مشاهدتها برفقة سامي وإرفينغ كان أقوى بمئة مرة. وافقت مع نات صمويلز وهو يهودي بمقدار سامي وإرفينغ أن اذلالنا المبرمج للألمان في أعقاب الحرب العالمية الأولى كان سبب قيام هتلر، ولكنني رفضت الاشتراك في عملية تثير نفور وغضب نسبة مئوية مرتفعة من أقرب أصدقائي.

بعد مرور خمسة وأربعين عاماً على العملية اعترف طوم بووار من هيئة الإذاعة البريطانية في كتابه «مؤامرة مشبك الأوراق» بأنه لربما لم نتمكن من الصعود إلى القمر لو أن «المؤامرة» فشلت، وأضاف بأنها كانت غير أخلاقية وجاءت نتيجة «فرض سلطوي» من قبل المؤسستين العسكريتين البريطانية والأميركية. وإذا كان سخط بووار عليها الآن بهذا المقدار فهل نستطيع أن نتصور مدى السخط عليها الخمس وأربعين سنة خلت ليس فقط بين اليهود من أفراد جهاز مكافحة التجسس ومكتب الخدمات الاستراتيجية بل كذلك بين كل الليبراليين منا؟

من الصعب جداً وصفي بأنني ليبرالي، لا اليوم ولا في أيام شبابي ولكني أكاد أعتقد الرأي الذي أبداه إي. إم. فوستر عندما فر صديقنا المشترك كيم فيلبي إلى موسكو. قال: «إذا ما أُجبرت يوماً على الخيار بين صديقي أو بلدي أرجو أن تكون لي شجاعة اختيار صديقي». ولكن إبان عملية «مشبك الورق» لم يكن الخيار المطروح على ذلك النحو، أو على الأقل لم أره على ذلك النحو، وعليه قلت لهاورد ولسن أنه لو طُلب مني الاشتراك به على أي حال لرفضت.

ننتقل الآن إلى الفئة الرابعة أي إلى النازيين الضالين الذين يملكون القدرة والوسائل التي تمكنهم من الفرار إلى إسبانيا أو جمهورية أيرلندا أو أميركا الجنوبية أو الشرق الأوسط. قلت في نفسي لعل هذه الفئة هي التي يفكر لي بها الجنرال غوردن شين، ولكن لم أكن لأتأكد من ذلك بغياب والتر غليم. وفي تلك الفترة بالذات ظهر والتر من جديد! ففي اليوم التالي لاستسلام اليابان في ٢٥ آب (أغسطس) ١٩٤٥ سمعت طرقة خفيفاً على باب جناحي في الفندق في باريس. وفي الباب وقف والتر ببذلة زرقاء مفصلة له خصيصاً وقبعة هومبورغ وشمسية ملفوفة باتقان وكأنه من طبقة كبار الانكليز متوجه إلى عمله

في شارع هوايتهول. ظنّ هنري لما فتح الباب بأنه أحد ضباط المخابرات العسكرية البريطانيين المملين وكاد يقول له إنني خارج الجناح. ولكن قالت لم يعره أهمية وسار نحو كرسي جلس فيه بانتظار ان أنتهي بما كنت أعمل في الحمام.

دُهِشت لثقته بنفسه. هاكم ضابط الماني باللباس المدني آتٍ في وضح النهار إلى شقة ضابط اميركي دون أي سرية أو تحفظ ظاهرين، فتلعثمت وخانتني الكلمات واختفت من ذهني كل الأسئلة التي أعددتها لأطرحها عليه منذ اليوم الأول لافتراقنا في سان كلود حتى الوقت الذي واجهت فيه وحدتنا في باريس قضية «مشبك الورق». وأمام ذهولي اتخذ هو المبادرة وبعد تبادل التحية بحرارة والسؤال عن سير أعمالي وممازحة هنري بأن الأوضاع في باريس أيام الالمان لم تكن بالسوء الذي يصورها به الفرنسيون سلّمني ظرفاً وقال: «أظن أنه يحتوي على مستقبلك» وانصرف دون ان نكون قد تبادلنا عشر كلمات.

أما هنري الذي أطل من النافذة ليشاهد رحيله فيما كنت أفتح الظرف فقال لي انه صعد في المقعد الخلفي من سيارة سيتروين فخمة يقودها سواق، وقد انصرفت بهدوء كما لو كان راكبها دبلوماسي ترك بطاقات في وزارة الخارجية الفرنسية. وأضاف: «أصداؤك ممتازون».

لا بد لي من الاعتراف بأن محتويات الظرف وهي عبارة عن اسماء دون أي ملاحظات لست وعشرين (٢٦) ضابطاً المانياً من رتبة ملازم ثانٍ إلى رتبة عقيد ليسوا من ضباط القوات العسكرية العادية بل من الـ SS لم تعن لي شيئاً حتى قابلتها بعد ظهر ذلك السبت بالملفات المركزية في فندق ماجيستك. ولم أدرك، بعد مقابلة الاسماء بمختلف القوائم بأسماء المطلوبين إلى أي فئة انتموا وتأكدي من أن أياً من الاسماء التي أعطيت لي موجود عليها، لم أدرك فوراً لماذا يأتي ضابط الماني قادر على التجول بحرية في باريس في سيارة يقودها سواق لزيارة ضابط اميركي في وضح النهار ويسلّمني مثل تلك القائمة. أمضيت بعض الساعات من التفكير للحصول على دليل.

أما أنتم الذين رأيتم نوراً في ذلك فيحقّ لكم المفاخرة بذكائكم الحادّ. وأما فيما يخصني فعندما أضاء النور طريقي لم يسعني إلا التلفظ بعبارة: «يا للبلاهة». وكنت قد قررت العودة إلى التمرين على عزف البوق والانضمام إلى فرق موسيقى الجاز. ولكن الفضول، إضافة إلى مقدار من الشعور بحب المغامرة الذي صار هوساً، جعلاني أقرر الاستمرار في مهنة المخابرات لسنة على الأقل.

الفصل التاسع

مجدداً في واشنطن

مسرح اللعبة وصناعة القرار

عندما استعرض مجمل مراحل حياتي يتبين لي انها بدأت تأخذ معناها الحقيقي في أيلول (سبتمبر) ١٩٤٥ يوم التحقت بوحدة الخدمات الاستراتيجية وهي من بقايا مكتب الخدمات الاستراتيجية الذي أخذ آنذاك يتحول تدريجاً إلى وكالة الاستخبارات المركزية التي ذاع صيتها. وبعد قضاء شهر في حرّ ورطوبة جو ولاية آلاباما، ونوم هادىء وفطور دسم لذيد في القطار السريع الذي أقلتني إلى واشنطن، بلغت محطة يونيون حيث استقبلني نسيم الخريف العليل وسواق ببدة رسمية قال لي إن الجنرال والسيدة لوتن، استاذي في مدرسة المغاوير في اسكتلندا يرغبان بأن أقيم معهما في مبنى واردمن پارك حتى عثوري على منزل أقيم فيه. فكانت رحلة بسيارة كاديلك حكومية أقلتني من محطة يونيون عبر واشنطن عن طريق شارع كاي وعبر منتزه رول كريك حيث أوراق الشجر أخذت تتحول إلى الأحمر والأصفر والبني ثم إلى جادة كونيتيكت.

وصلنا مبنى واردمن پارك. إنه أعلى نقطة في واشنطن، «يجعل المدينة بأكملها تحت يديك» حسب التعبير المحبّب عند السيدة لوتن، وفيه يُقدّم الشاي بعد الظهر، كما في كونوت لندن، في البهو الكبير على أنغام رباعي وتري يعزف مقتطفات خفيفة من مختلف مقطوعات الأوبرا. في ذلك المبنى أقامت السيدة ايزنهاور أثناء وجود الجنرال في ساحات القتال. وأقام فيه أيضاً نائب الرئيس البن باركلي وكذلك رئيس المحكمة العليا إرل وارن (ولا تزال السيدة وارن تقيم فيه حتى اليوم) ثم جاء جورج بوش وسبيرو اغنيو وپيرل ميستا المضيفة الممتازة التي (حسبما يقال) «تغري الضيوف بتعليق قطعة لحم في الشباك». أما جناح آل لوتن في الطابق السادس فقد أقامت فيه السيدة ايزنهاور ثم آل لوتن فال بوش (جورج أولاً ثم زوجته باربرا وبعدها والدته) ثم نائب الرئيس اغنيو، وبعد ذلك بسنوات عديدة حللت فيها لثماني سنوات بهيجة. أما السيدة ميستا فكانت في جناح مزدوج فوق جناحي تماماً حيث كانت تقيم حفلاتها الشهيرة - إلى أن صرت أنا بعد سنوات عديدة أحيي أنا حفلاتي الخاصة.

كان آل لوتن يعدون الأيام التي تفصلهم عن العودة إلى ولاية كارولينا الجنوبية و«إلى العقل السليم» حسب قول السيد لوتن. ومع ذلك توافر لهم متسع من الوقت للحياة الاجتماعية فكان عندهم ضيوف على العشاء ليلياً، طبعاً حينما لا يكونون فيها مدعوين هم لتناول طعام العشاء عند الاصدقاء. أما ضيوفهم فكلهم من أصحاب المراكز المرموقة ينتمون إلى الظاهرة الحديثة العهد في واشنطن ظاهرة «المؤسسة». والحفلات التي أقاموها يعود جزء منها إلى شعورهم بالرضى عن مساعدتهم لصديق شاب في وضع قدميه على السلم، فدعوا إليها شخصيات عسكرية ودبلوماسية لها صلة بالتخطيط لوضع اسرة المخابرات على سكة العمل في أيام السلم. شغل الجنرال وظيفة مستشار لدى دائرة الملحقين العسكريين. ومع انه لم يحمل عمله هذا على محمل الجد الصارم (ذلك انها اقتصرت على اجراء المقابلات للضباط المرشحين من رتبة جنرال الذين «يعرفون أي شوكة يستعملون في الولاثم الدبلوماسية»، حسب وصف السيدة لوتن) فقد أتاحت له مجال الاتصال بأسرة المخابرات ومكنته بالتالي من معرفة من بينهم له تأثير ومن منهم لا تأثير له.

مضى على وجودي في ضيافة آل لوتن اسبوعان فقط أدركت خلالها أن عدداً قليلاً جداً من الأشخاص العاملين داخل أسرة المخابرات سيكون لهم أي تأثير يذكر في مستقبلها. وخطر لي انه إذا

كان الضيوف مؤشراً عمن سيكون له ذلك التأثير فساواجه صعوبات كثيرة في عملي أولاً غمّل معهم . لم أكن في المناسبات الرسمية التي جرت في واشنطن في تلك الأيام أكثر من ذبابة على الجدار فلا أفتح فمي إلا لطرح سؤال خجول بين آن وآخر. ولكنني كنت كلياً آذاناً صاغية. وفي الحفلات التي أقامها آل لوتن وفيما كان النقاش حاداً حول توزيع الوظائف في مختلف المنظمات الناشئة طرحت سؤالاً. قلت: «لنفرض بأننا سنتخلى كلياً عن دوائر الاستخبارات واننا لن نتصارع مع أي منها مطلقاً. فماذا نخسر البلاد؟» لم أكن أنوي من وراء ذلك السؤال إلقاء ظلال الشك حول ضرورة وجود الاستخبارات بل قصدت فرض قيام تفكير جدي بأهداف المنظمة التي ستنتظم دوائر الاستخبارات. هل نحن بحاجة إليها، وإذا كنا نحتاجها فلماذا؟ وبمعرفة الأجوبة الصحيحة فقط عن أسئلة كهذه يستطيع المنظّمون التأكد من أنهم يوفّقون التوفيق الصحيح بين الأهداف وسبل التوصل إليها.

قوبل سؤالي هذا بأدب وتهذيب فقط من قبل معظم الضيوف، إلّا أن واحداً منهم فقط هو الجنرال جون مغرودر حمله على محمل الجدّ فحكى قصة اجتماع عقده الرئيس ترومن مع رئيس الاستخبارات الجديدة آنذاك الأميرال سيدني سويرز. فعندما قال سويرز بأن وحدة الاستخبارات المركزية الجديدة التي كان ينشئها مهمتها الحيلولة دون حصول «بيرل هاربور» جديدة، أجابه ترومن: «لم تصلك بعد المعلومات السرية جداً، وإلاّ لكنت علمت ان فك رموز الشيفرة قد أنبأنا مسبقاً بكل تفاصيل الهجوم على بيرل هاربور. إن الاستخبارات التي كان الرئيس روزفلت بحاجة إليها هي تلك التي تنبئه عما يجب ان يفعله بتلك المعلومات». الواقع ان الرئيس روزفلت كان على علم بمعلومات الاستخبارات وقرر السماح بحصول الهجوم على بيرل هاربور ليكون إحدى وسائل إثارة الرأي العام الأميركي الذي كان لولاه غير مبالٍ بالحرب. ومضى الجنرال مغرودر قائلاً: انه أمضى الشهر السابق بطوله يتحدث عن الاستخبارات وتنظيمها في أعلى الدوائر وانه لم يسمع خلال محادثاته كلمة واحدة تشير إلى ان ما قاله ترومن قد بلغ مسامع أي من المخططين. ومن ناحية أخرى كان كبار المسؤولين في وزارات الخارجية والجيش والبحرية والطيران ناشطين في اختراع أخطار افتراضية تسوغ لكل منهم المطالبة بزيادة مخصصات وزارته من الميزانية العامة، وانطوت اختراعاتهم على مجموعة كاملة من التعابير والكليشيهات يدعمون بها حججهم. واستدار نحوي مجيئاً عن سؤالي فقال: «لا أحد مطلقاً يتساءل ما الذي يجب أن نخشاه، نحن الأميركيين، في عالم ما بعد الحرب».

بعد مغادرة الضيوف منزل آل لوتن أوضح لي الجنرال ان الجنرال مغرودر، وهو خريج كلية وست بوينت العسكرية ومن أسرة قديمة محترمة من ولاية فرجينيا كان نائب الجنرال دونوثان في مكتب الخدمات الاستراتيجية وانه على وشك الصيرورة رئيس الوحدة التي انضمت إليها حديثاً. وقال إن ذلك كان سبب دعوتهم له إلى العشاء. وتنبأ الجنرال وقرينته بأن مغرودر لن يبقى طويلاً في منصبه وبأنه من الأفضل أن أشاهد خروجه من منصبه لأنني سأتعلم منه شيئاً، وأضاف: «لن تتمكن من ادراك معنى الأحداث في واشنطن من دون معرفة كيف ينظر إليها أصحاب النفوذ من الرجال والنساء». ففي ألعاب واشنطن تأتي النتائج من تفسير الأحداث، سواء كانت صحيحة أم خاطئة، أكثر مما تأتي من الأحداث نفسها. وما كان الذين يتخذون القرارات الأكثر تأثيراً في حياتنا ليتبوأوا مراكزهم لو لم يتعودوا في مراحل حياتهم الأولى على رؤية الأحداث إلا من المنظار الأكثر ملاءمة لمصالحهم. وإنه لمن المؤسف جداً ان الجنرال جون مغرودر رجل على مستوى من الاخلاص لوطنه أرفع من أن يسمح له بممارسة لعبة واشنطن. على كل حال قررت تلبية طلبه وزيارته في مكتبه قريباً، وهي دعوة وجهها لي عند مغادرته بيت لوتن.

وفيما كنت أقضي الأمسيات اتشقق على أيدي صانعي القرار في واشنطن ويتركون في نفسي أعمق الأثر، جعلت أقضي الأيام في مختلف المباني المؤقتة التي أقيمت بالقرب من نصب لينكولن التذكاري والبحيرة المرآة أمامه أقدم الامتحانات النفسانية التي أشرت إليها سابقاً وأخضع لفحوص طبية وأتلقى دروساً في أصول الأمن وأعالج قضايا شخصية مثل العثور على شقة وشراء سيارة وأستغل مهارتي على أنني أحسن تدبير أموري وأعرف المداخل والمخارج لتفادي العراقيين التي يضعها الجيش في طريقي لاستقدام زوجتي لورين وابني مايكل الثالث وكان في الشهر الثامن عشر من عمره، من بريطانيا. وقد وصلا في اليوم عينه الذي ودعت فيه آل لوتن وانتقلنا إلى شقة لها حديقة في باركفيرفاكس في ولاية فيرجينيا المتاخمة لواشنطن.

تضمنت مهمتي الأولى العمل مع سيدة لطيفة في الثلاثينات من عمرها تتقن الانكليزية والالمانية مسؤولة عن القسم المختص بالشؤون الالمانية في وحدة الخدمات الاستراتيجية المناط بها قضايا مكافحة الجاسوسية. سأوفر على القراء تفاصيل تلك الحقبة القصية واختصر بالقول ان اختياري لتلك المهمة يعود إلى أن أحداً من ذوي المراكز العليا قد رأى وهو يقلّب أوراق ملفي أنني طاردت التقنيين الالمان بناء على أوامر الجنرال شين، وأن القائمة بأسماء النازيين الستة والعشرين التي حصلت عليها من فالتر غليم قد سمّرتني إلى الدائرة الالمانية إلى حد كاد يستلزم اصدار قانون من قبل الكونغرس لانتقالي منها. وفي الواقع جاء ما يعادل القانون إذ نقلت من عمل إلى آخر فيما كانت وحدة الخدمات الاستراتيجية - وكالة الاستخبارات المركزية تحول اهتمامها عن مطاردة النازيين إلى مراقبة الشيوعيين.

لم أتوقف طيلة تلك الفترة عن التفكير بأن التعليمات الصادرة إلى الوحدات العاملة على الأرض لا تحدد ما الذي يجب فعله بالنازيين الفارين بعد إلقاء القبض عليهم. فالذين استطاعوا الإفلات منا منهمكون، لا ريب، بنشاطات ذات تأثير مشؤوم على السياسات المحلية، وهذا بالطبع ما يفعله أيضاً عملاء الشيوعيين في الأحزاب الشيوعية المحلية. وعليه ألا يجوز التفكير بأن يكون الالمان مفيدون لنا؟ لا شك في ان الفكرة تبعث على الحيرة، ولكن عندما طرحتها على الآخرين في القسم المختص بالشؤون الالمانية دبّ الرعب في نفوسهم وأصرّوا على أن مطاردة أعدائنا السابقين هي غاية بحد ذاتها وعلى ان السوفيات لم يتحولوا إلى «أعداء» حتى الآن.

على كل حال، ولأسباب لا علاقة لها بأخلاقية القضية قررت مبدئياً الابتعاد عنها وطلبت نقلي من القسم الالمانى وفي السنة التي تلت ذلك تقلّبت في عدة وظائف أولاها العمل في مكتب اسمه «وحدة اعادة التأهيل والاحالة» تديره كاثيري ماركويتش وهي تشيكية حصلت على الجنسية الأميركية «تعطف عطفاً خاصاً»، حسب قولها، على أولئك الذين اشتغلوا «في براري التجسس الدولي الواسعة وهو أسوأ المجالات». تضمنت أعمالنا في المكتب المذكور باستقبال عملائنا الذين بعث بهم الجنرال دونوفان إلى أقاصي المعمورة والترحيب بهم وتكريمهم. والواقع ان البعض منهم لفه النسيان ولم نعرّ عليهم إلا من مراجعة القيود والسجلات وكانوا في أماكن نائية بعيدة عن كل ضروب المدينة حتى انهم لم يدروا بانتهاء الحرب إلا بعد مرور عدة أشهر على استسلام المانيا ثم اليابان. لم يكن عملنا هذا مثيراً بحد ذاته ولكنه في الوقت نفسه شكّل معيماً من الحكايات التي استعملتها أثناء ولائم العشاء والحفلات الأخرى.

انتقلت من مكتب كاثيري ماركويتش إلى دائرة تدريب ٢ x حيث أتاحت لي فرصة ممارسة المنهجية بالمعنى الحقيقي لتلك الكلمة لا البديل المتفلسف لكلمة «طريقة». وترتب علينا استنباط الوسائل الصحيحة للقيام بأعمال لم يسبق أن قام بها أحد في السابق - مثل تطويع عملاء للتجسس على السوفيات على افتراض ان التجسس هو الوسيلة الأنسب للحصول على المعلومات التي نحتاج إليها.

استرعى التقرير الذي وضعته بهذا الشأن اهتمام جيم انغلتن الذي بات معروفاً على انه امهر الخبراء بالوسائل التي يتبعها السوفييات في التجسس علينا. بعد ذلك عُيِّنَت لمساعدة أحد أهم ضباط المخابرات ومن أفضل الرجال هو بيردي سيلفا الذي أسندت إليه مهمة وضع الرسوم البيانية لتنظيم القسم المختص بالمخابرات في ٢ x وكان آنذاك قيد التأسيس وسيصبح فيما بعد وكالة الاستخبارات المركزية. لم يكن عملي هذا بالغ الأهمية ولكنه دعم ادعائي بأنني أحد مؤسسي وكالة الاستخبارات المركزية (صرت فيما بعد أحد المتتي موظف الذي أدرجت أسماؤهم على لائحة الموظفين المحترفين عندما تحولت الوكالة إلى دائرة رسمية في تموز (يوليو) ١٩٤٧).

قضيت الشهر التالي بين يدي هاري روزتسكي الذي الذي نما وترعرع في بروكلين ونال من جامعة هارفرد دكتوراه في علم أصول اللغة الألمانية. لم يكن هاري محللاً وكاتباً ممتازاً فقط بل وكذلك خطيباً ساحراً، جلبت له موهبته هذه من الأسى بمقدار ما منحته من الشهرة. ففي إحدى محاضراته في صف من الصفوف التي كنت فيها وكان الموضوع «المشكلة السوفياتية»، ادعى طيلة ساعتين موقف المدافع عن النظام السوفياتي مثيراً بذلك أسئلة متعددة وجهها إليه الحاضرون ومنها: «ما قولك بانعدام حرية الرأي والكلام في الاتحاد السوفياتي؟» ولكنه ببراعته الفائقة بين لنا ان اسئلتنا لم تعد كونها كليشيهات حمقاء وان السوفييات أقل بلاهة بكثير مما نحسبهم. لقد تعمّد في تلك المحاضرة أن يوضح لنا ما كان علينا ادراكه وهو انه ليس من الجائز اطلاقاً لأي انسان الاستهتار بخصمه. غير ان واحداً على الأقل من الحضور توجه فوراً إلى العقيد غالواي، الذين عُيِّنَ حديثاً لرئاسة وحدتي ٢ x والاستخبارات السرية المندمجتين، متذمراً من أن دي سيلفا «يتكلم تماماً مثلما يتلكم الروس».

ولكن دي سيلفا بعمله هذا أيقظنا جميعاً. فقبل الخطاب الذي ألقاه الرئيس ترومن في ١٢ آذار (مارس) ١٩٤٧ المعروف باسم «شرعة ترومن» واتخذ فيه علناً موقفاً مناهضاً للتوسع السوفياتي لم يرد في التعليمات ولا في الخطط التي ترشدنا في مهماتنا أي ذكر للسوفييات. وبعد اسبوع واحد فقط على الخطاب أخذت تنهال علينا التوجيهات المختلفة بالحصول على معلومات عن نوايا السوفييات ليس لجهة ما إذا كانوا سيتحركون بل وبماذا قد يتحركون. وفي نيسان (ابريل) ١٩٤٧ قالت تقديرات البنتاغون ان باستطاعة السوفييات، من الناحية العسكرية الصرف. بلوغ شواطئ بحر المانش (فرنسا) إذا أرادوا ذلك. وقال الجنرال كلاي، كبير مندوبينا في برلين آنذاك، بأن حدسه ينبئه بأنهم على وشك القيام بذلك. كانت ردة فعل البنتاغون التنبؤ بغزو سوفيياتي لأوروبا الغربية كما أن البيت الأبيض رأى الحرب مع الاتحاد السوفياتي وشيكة الوقوع.

لقد أبقى الروس بعد يوم النصر في أوروبا على كامل جنودهم تحت السلاح فيما كنا نحن نعجل بتسريح رجالنا. ولكن تراءى لنا، نحن رجال المخابرات الحديثي العهد بمهنتنا ان موقف ستالين دفاعي كلياً. فالاحتمال المنطقي هو أن تهاجم الولايات المتحدة القوية الاتحاد السوفياتي المنهوك القوى. وعلى الافتراض بأن السوفييات قد يعتبرون أن الهجوم القوي هو أفضل سبل الدفاع ردّنا بالقول إن قوتهم العسكرية لا تعني شيئاً طالما شعروا بأنهم قضموا قضمة أكبر مما يقدرّون على هضمه. لم يكن بالنسبة إلينا سوى سيناريو مقبول واحد حتى لدى السوفييات الذين يعترهم مرض الخوف والتشكيك هو ان ستالين سيعزز قبضته عسكرياً على الدول التي استولى عليها ويقف على أهبة الاستعداد. وعوضاً من الانشغال باحتمال وقوع هجوم عسكري، علينا الاهتمام بأن لدى القادة السوفييات اقتناعاً بقرب انهيار اقتصادنا وبأن الشيوعية ستتمكن، ببعض المساعدة السرية من الداخل، من اجتياح الغرب برمته.

سيناريو: «الذئب! الذئب!»

على كل الحالات، ومهما كانت مسوغات التأيد أو المعارضة، فإذا كان محللونا العسكريون يرغبون في تعداد الفرق العسكرية وفي تعليق الدبابيس على الخرائط فليكن لهم ما يريدون، لعل في ذلك ما يحول دون تسكعهم في الطرقات. خلال تلك الفترة بالذات كان قد صدر قول عن كبير محللينا شيرمان كنت أنسخ نصه هنا من الملاحظات التي دونتها آنذاك بخطي السيء. قال: «التحليل هو القدرة على استخلاص الوقائع وما له صلة بالموضوع من كل الفوضى والتشويش والكلام الرنان المثير للعواطف والباعث على التحيز». وبالفعل ذلك ما كنا نحاول فعله فيما الذين من حولنا يتخلون عن عقلانيتهم بمن فيهم، حسب رأينا آنذاك، جورج كينن، السكرتير الأول في سفارتنا في موسكو، الذي خلت برقيته الشهيرة المؤلفة من ٦٠٠٠ كلمة عن النوايا السوفياتية (مقال «المستر» في مجلة فورين أفيرز)، في ظاهرها من برودة التفكير التي حسبنا أنفسنا نتمتع بها. فخرجنا بتقديرات موجزها:

أولاً: لا مجال للتوفيق بيننا وبين القادة السوفيات على الوسائل الكفيلة بضمان الأمن القومي لكل من الفريقين حسب تفسير كل منهما لذلك التعبير. فعند نهاية الحرب كان الزعماء السوفيات قد التزموا إلى حد اللارجوع بسياسة اعتمدت على تدمير تأثير الولايات المتحدة الرأسمالي في العالم اعتماداً لم يعد بمقدورهم التخلي معه عنها حتى ولورغبوا بذلك. ونظراً للمناخ السياسي الذي مكّنهم من بلوغ موقع السلطة ونظراً لقدرتهم على البقاء فيه فإن تخليهم عن تلك السياسة يعادل الانتحار الشخصي الفوري. وبالتالي لم تكن القضية ان السوفيات هم الأشرار واننا نحن الاخيار، بل القضية تكمن في المنحى الذي اتخذه الخلاف: التزامات لا رجوع عنها لدى أحد الفريقين جعلت من نفسها قوة لا تقاوم، تقابلها لدى الفريق الآخر التزامات لا رجوع عنها تجعله لا يتزحزح من مكانه.

ثانياً: لم يكن السوفيات يتخذون اجراءات جدية تمهيداً لشنّ حرب «ساخنة» علينا، تقليدية كانت أم ذرية - حتى ولو افترضنا انه إذا لم يكن لديهم قبلة ذرية بعد، فهم على وشك الحصول عليها وبما ان القادة السوفيات ليسوا فقط واقعيين بل مصابون بداء التشكيك والارتياب، فهم يدركون بأنهم لا يمتلكون من القوة إلا ما يكاد يسمح لهم بالحفاظ على الدول التي ضموها إلى فلكهم، وكذلك بأنهم، حتى ولو صار لديهم قبلة ذرية، متخلفون عنا جداً بمعرفة استخداماتها بفعالية كبيرة.

ثالثاً: في جميع الحالات كان محللو الاستخبارات الذين يدرسون الشؤون السوفياتية بهدوء وتعمق («أن تفهم أوضاع السوفيات أجدى لنا من أن نكرههم» حسب قول هاري روزتسكي) كانوا وحدهم مقتنعين بأن السوفيات يرون ان لا وسيلة لتفادي نوع من الصراع معنا حتى النهاية واننا وإياهم في صراع متصاعد سواء أردنا ذلك أم لا. لقد أدرك لينين تماماً وكذلك ستالين من بعده ومثلها أي شخص سيحل محل ستالين ان لا النظام السوفياتي ولا الاتحاد السوفياتي نفسه ولا الكتلة الشيوعية برمتها قادرة على البقاء في العالم نفسه الذي ينبض فيه النظام الرأسمالي. فإذا كان الغرب واقفاً على شفير الانهيار، كما حسب ستالين وجب إذا الدفع به إلى الهاوية، وفي كل الحالات ينبغي على السوفيات «الفوز» علينا بطريقة ما.

رابعاً: إذا كان السوفيات غير قادرين على الفوز في حرب «ساخنة» فبأي وسيلة يستطيعون الحاق الهزيمة بنا؟ بالطريقة الوحيدة التي درج الدعاثيون السوفيات بعد الحرب مباشرة على الترويج لها وكانت ما أسموه «المنافسة اللاعدائية» (وهي ما صفق لها من جانبنا أولئك الذين قال فيهم لينين: «البلهاء المفيدون»). ولكن هنا تكمن النقطة الهامة والخطر، حسبما رأيناها: ليس بمقدور النظام السوفياتي أن ينافس بنجاح نظامنا الرأسمالي ان هو لعب لعبة المنافسة المنصفة حسب أصولها كما نفهم تلك

الأصول. لقد أدرك القادة ذلك ادراكاً تاماً. ففي عهد لينين وكذلك في عهد ستالين من بعده ورد الاعتراف ضمناً من خلال الفلسفات السوفياتية حول موضوع بقائهم في عالم «رأسمالي - امبريالي».

خامساً: استناداً إلى ما سبق يجب أن تكون نظرة السوفيات إلى المنافسة مغايرة تماماً لنظرتنا. فهي لا تعني انتاج مصنوعات أفضل بأسعار أدنى في أسواق يسهل وصول المصنوعات إليها. إنها تعني الحيلولة دون قدرتنا على فعل ذلك. فالكتابات السوفياتية حول الخلاف بين الشرق والغرب تنضح كلها بالفرضية الضمنية بأن استراتيجيتهم تقوم بكليتها تقريباً ليس على كسب الاصدقاء أو الاراضي أو المواد الأولية لأنفسهم بل على حرماننا منها.

سادساً: إضافة إلى كل ذلك ففي أي صراع قد يدخله السوفيات ضدنا ستقوم استراتيجيتهم على مواطن الضعف الأميركية لا على مواطن القوة السوفياتية. وعلى وجه العموم استبعدت استراتيجيتهم عن رقعة اللعبة الدولية، كما نفهم اللعبة نحن، النظر الجدي بحرب شاملة (علماً بأنها اتكلت على التلويح بها تحقيقاً لكسب نفساني) ثم تحولت إلى التشديد على إحاطة العالم بحزام مجنون من الحروب الاقليمية مقرونة بخلق مختلف أنواع المشاكل في أي مكان في العالم، ليس ذلك بغرض تحسين قدرة السوفيات التنافسية بل من أجل تخفيض قدراتنا المختلفة. لقد كان الحرمان بمثابة قلب الجواهر في أمية لينين: حرماننا، نحن «الرأسماليين الاستغلاليين»، من المواد الأولية وأسواق التصريف وإبعادنا من ناحية ثانية عن القواعد العسكرية التي سنحتاج إليها إذا ما اضطررنا «للجوء إلى الخيار العسكري».

سابعاً: لقد ظن السوفيات (وكانوا على حق في ظنهم) بأن انتصارنا أو هزيمتنا في الحروب تحصل داخل الولايات المتحدة نفسها قبلها في ساحات القتال الفعلي. واستناداً إلى ذلك استشفينا ان استراتيجيتهم على رقعة اللعب الدولية ستكون متصلة صلة وثيقة ببرنامج لبث المعلومات المختلفة غايته «تخديرنا حيال أي تشكيك بنواياهم قد يخامر أذهاننا من جهة وتشويه سمعة أي منا ويجرؤ على التحذير من تلك النوايا من جهة أخرى».

ثامناً: لا يسعني وأنا أدون هذه الأسطر إلا استغلال ما في القاء نظرة على الماضي من اغراء بأن أعطي صفة التحليل لما كان خلال فترة ١٩٤٧ - ١٩٥٠، مجرد افتراض يفتقر إلى البرهان. من هنا اعتبرنا ان المهمة الرئيسية لوكالة الاستخبارات الجديدة، ان لم تكن مهمتها الوحيدة، هي اختبارها. فعليه، وفيما كان رؤساؤنا والمدراء يعدون الرسوم البيانية ويحضرون الأنظمة لمختلف مكونات الوكالة الجديدة أخذنا نحن، على المستوى التنفيذي نستشرف بوضوح المفهوم الذي سنعمل بوحى منه. ومن مراجعة الوثائق والتقارير التي أعدت في حينه يتبين ان الاعتراف بذلك المفهوم قد حصل ضمناً دون اعطائه الصفة الرسمية.

بأسف جديد، لم تتمكن وكالة الاستخبارات المركزية من الاستمرار في النهج الذي بدأت به. وبمنظرة أخرى على الماضي رأينا ان بعض الأشياء قد تشوشت واعتراها الخلل:

أولاً: إن أي وكالة حكومية، كما سبق وقلت، تنظر دائماً دون استثناء إلى أي مشكلة من خلال الوسائل المتوافرة لها لحل تلك المشكلة. من هنا رأت الدوائر العسكرية في السوفيات مشكلة عسكرية. ولما كانت الوزارات والدوائر الحكومية ذات الموازنات الأضخم هي التي تتمتع بالقسط الأكبر من النفوذ، فما كادت آلتنا المخبرانية الشاملة تنطلق حتى تحول كل اهتمام الأجهزة، ومنها وكالة الاستخبارات المركزية، إلى احصاء الفرق العسكرية وتعداد الجنود وتعليق الدبابيس على الخرائط.

ثانياً: لم تكن وكالتنا أقوى حصانة من أي دائرة حكومية أخرى في مواجهة تلك النزعة، علماً بأن العدة التي تعتمد عليها للقيام بعملها هي عدة وكالة للاستخبارات السرية. وعلى الرغم من أن للبنتاغون ميزانية أضخم ونفوذاً أوسع مما لدى وكالة الاستخبارات المركزية الحديثة العهد، فقد كان لمكتبنا الصغير نسبياً، مكتب العمليات الخاصة (أي $2 \times$ والاستخبارات السرية معاً) ميزانية أكبر وتأثير أوسع داخل وكالة الاستخبارات المركزية من كل فروعها الأخرى مجتمعة. وانطلاقاً من ذلك الواقع أولينا اهتماماً أكبر لاستعمال الطرق السرية في الحصول على المعلومات مما سوغته النتائج. وخلال سنوات قليلة تعلمنا أن الزبائن المهتمين بالحصول على المعلومات لم يتمكنوا من التحقق إلا من صحة جزء يسير من المعلومات التي وفرناها لهم، وبلغنا أيضاً أن خمسة بالمئة أو أقل من ذلك الجزء اليسير من معلوماتنا المستقاة من مصادرها السرية تصل إلى البيت الأبيض.

وثالثاً والأهم أدركنا سريعاً بأن أفضل معلوماتنا - بل إنها الأفضل من كل المعلومات التي تجمعها الأسرة المخبرية بمجملها - لم تكن تحمل على محمل الجدية إلا إذا كانت، حسب وصف شيرين كنت: «من النوع المثير للخوف والذعر»، وهذا يعني التقارير المنطوية على تحذيرات من أخطار صيغت صياغة مرعبة إلى درجة لا يجرؤ البيت الأبيض على تجاهلها. فإذا كان الزبائن يريدون مرعبات فعليها سيحصلون. غير أننا سرعان ما أكثرنا من إطلاق صرخات «الذئب، الذئب» فتوقف البيت الأبيض عن الاهتمام بأي معلومات نرفعها إليه - إلا بالطبع إذا كان هو أول من دبّ فيه الرعب منها وفي تلك الحال يطلب إلينا تقديم كل ما يمكننا تقديمه تسويغاً لذلك الرعب.

الفصل العاشر

وكالة الاستخبارات المركزية الجديدة

والعالم

تحييد التعاون مع الموساد

لم تكن خطبة «شرعة ترومن» التي ألقاها الرئيس ترومن في ١٢ آذار (مارس) ١٩٤٧، قطعة أدبية بالمعنى الصحيح بل عبارة عن مقتطفات من آراء أعضاء إحدى اللجان. غير أنها تضمنت جملة واحدة دلت على أن في البيت الأبيض شخصاً ما، ربما كان ترومن بنفسه، أدرك وجهة نظرنا. جاء في تلك الجملة قوله: «أعتقد بأن سياسة الولايات المتحدة يجب أن تكون تأييد الشعوب الحرة التي تقاوم محاولات اخضاعها من قبل أقليات مسلحة أو ضغوط خارجية». إذاً، أقليات مسلحة وضغوط خارجية عوضاً عن تدخل علني من قبل القوات العسكرية السوفياتية؟ ذلك هو بالضبط ما كنا نخشاه إلى درجة ظننا معها بأن رئيسنا آنذاك الجنرال فلدنبرغ، لا بد قد دس كلمة أو اثنتين في تلك الخطبة. من الثابت إذاً أن الجنرال فلدنبرغ قد قرأ فعلاً ما حررناه من آراء سديدة وحكم بليغة ليس فقط تلك الواردة في مذكرات هاري روزتسكي بل وكذلك في مواد تدريبنا وكراريس التعليمات والارشادات. مرّ بذهننا خاطر مفرح: لعل الأشهر العديدة التي قضيناها في إعادة توجيه منظمنا من العمليات ضد الحركة النازية المتلاشية إلى التركيز على الخطر السوفياتي، لم تذهب سدىً.

لم ينقض ذلك التحول دون معاناة وعلى الأخص في قسم شؤون أوروبا الغربية حيث معظم أعضاء منظمنا هم من المهجرين اليهود الألمان أمثال هنري كيسنجر. ففي واشنطن وعبر البحار كان هؤلاء مدركين تماماً معنى قسّم التجنس الذي أدّوه «بالتخلي مطلقاً و كلياً عن أي ولاء و إخلاص لأي أمير أو متنفذ أو دولة أو سيادة غربية. . .» كما كانوا أيضاً يستنكرون أي إيماء بأنهم «بصفتهم يهود» يحق لهم «بوطن قومي خاص بهم». فبالنسبة إليهم يعني هذا الكلام أن كونهم يهوداً أميركيين مرادف لاعتبارهم ليسوا أميركيين حقيقيين، وأن أميركا ليست بلدهم الأوحدهم مثلما هي البلد الأوحدهم للأميركيين غير اليهود. لذلك الكلام رنة تشبه كثيراً تلك الرنة التي هربوا من سماعها قبل سنوات قليلة، أي أن اليهود الألمان ليسوا الماناً حقيقيين وأنهم بالتالي محلّين لأوباش النازيين.

إن تقيدهم بذلك القسّم لم يخفف من حساسيتهم حيال قضية إقامة دولة عبرية في فلسطين خصوصاً كلما سمعوا مناهضي السامية من الأميركيين يؤيدون الصهيونيين بالمطالبة بإقامتها عليها تحول اللاجئين اليهود من أوروبا عن الهجرة إلى الولايات المتحدة. وكانوا أيضاً على إدراك حاد من النقاش حول الموضوع، خارج الأسرة المخبرانية، قد انحدر إلى أدنى المستويات ذلك أن السياسيين المناهضين للسامية في سرهم يتفوهون بما يظنونه يرضي الناحيين اليهود ويتهمون الدبلوماسيين المحترفين في وزارة الخارجية بأنهم مناهضون للسامية ومؤيدون للعرب.

سمعت هذه المناقشات طيلة السنوات الأربعين الماضية. لم ترق لي في بدايتها ولا تروق لي الآن. غير أن باستطاعتي قول ما يلي: خلال الأربعين سنة هذه قابلت العديد من رجال الكونغرس المناهضين للسامية في سرهم والمدّعين بتأييهم لإسرائيل في العلن، غير أني ما زلت بانتظار أن أقابل دبلوماسياً أميركياً محترفاً واحداً مناهضاً للسامية مناهضة مهما كانت طفيفة أو مؤيداً للعرب، حتى من بين أولئك الذين يُسمّون «عروبيون»، (خبراء بالشؤون العربية) من الذين قضوا في الشرق الأوسط معظم سني

حياتهم المهنية. في العام ١٩٤٧ كان الموقف السائد بين الدبلوماسيين المحترفين الموجودين في مناصبهم لإدراكهم المهني بالتزامات الولايات المتحدة الأخلاقية وبحاجاتها الآنية، بأن علينا دعم قيام إسرائيل دون ان نخدع أنفسنا بالتفكير بأن في ذلك منافع لنا.

أما في البنتاغون فالحكاية تختلف، ذلك انه لما كان المخططون العسكريون والمحللون المخبراتيون يرون أن الخطر السوفيياتي انما هو في جوهره خطر عسكري، ولما كانوا يتوقعون نشوب حرب عالمية ثالثة تتقاتل فيها الجيوش والأساطيل البحرية وأسلحة الطيران رأوا في قيام دولة عبرية انها قد تصبح «أعظم حليف متوقع لنا في الشرق الأوسط» متنبئين - نبوءة جاءت صحيحة - بأن جيشها سيكون أفضل جيوش العالم، بل ربما أفضل من جيشنا.

أما الدبلوماسيون والمحللون المخبراتيون الذين رأوا ان حرب المستقبل ستكون حرباً غير معلنة ومزيجاً غير تقليدي من الحروب الاقليمية كحرب العصابات وغارات «المقاتلين من أجل الحرية» والأعمال الارهابية وما شابه ذلك فأروا أيضاً ان الدولة العبرية ستشكل عبئاً ثقيلاً حمله، ولكن ذلك لم يعنِ انهم عارضوا قيامها أو دعمنا لها. وقد انصبَّ اهتمامهم الأوحده على اصرار ادارة ترومن على جهلها المستعصي للمشاكل وعلى نظرتها السطحية إلى الفكرة وأسفوا لرؤية مسؤولينا المنتخبين يصوتون إلى جانب سياسات يعرفون تماماً بأنها مضرّة بالمصالح الأميركية فقط لخوفهم من «اللوبي اليهودي القوي».

وأما رأيي الشخصي؟ أقول بكل صراحة انه لم يكن لي في الحقيقة أي رأي في الموضوع. ولكني في السنوات الأخيرة جذبت قيام تعاون وثيق ومفيد للطرفين مع الموساد وهو ثاني أفضل جهاز للمخابرات في العالم بعد الجهاز السوفيياتي كج ب، ومتفوق جداً على قسم العمليات الخاصة في وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية. ولكنني تخاشيت الانخراط في تلك الورطة في العام ١٩٤٧ وكانت وكالة الاستخبارات المركزية ضالعة فيها. لقد تعاطفت مع الفريقين طالما شعرت بأن حججهما أصيلة ومخلصة. ولكنني كمعظم زملائي المحترفين رأيت ان واقع الخلاف كناية عن تسلية خطيرة على رقعة اللعبة العالمية واستهجن دخول السياسيين فيها منجذبين بالسوانح التي توفرها لهم عوضاً عن الاهتمام بما تنطوي عليه من حق أو باطل.

بكلام آخر، لم أوافق ولم أعارض مواقف أي من الجانبين لأنها لم ترق لي. برأيي، ثمة مجال للكذب وللسرقة ولللاغتيال ولكل أصناف المكر في الحروب غير المعلنة على رقعة اللعبة الدولية، تماماً كما للقتل والتدمير مكان في الحروب المعلنة كذلك التي مررنا بها أخيراً (الحرب العالمية الثانية) ولكن عندما يتعلق الأمر بالسياسات الداخلية في الولايات المتحدة أكاد أصبح اخلاقياً بعاطفتي.

أقول كل ذلك توضيحاً للسعي الحثيث المفاجيء الذي شرعت به في العام ١٩٤٧ في محاولة لنقلي إلى الخارج. ففي الدرجة الأولى أردت الابتعاد عن سوء التفاهم والخلافات التي أخذت تطفو على وجه الماء بين أصدقائي المقربين. ولكن وعلى الصعيد الاستغلالي الشخصي قصدت بأي ثمن الخروج من واشنطن حيث أخذت «السياسة الخارجية في الداخل» تطفئ فجأة على الدوائر الحكومية المعنية «بسياستنا الخارجية في الخارج». فلم يقم جدل حاد وبعيد عن العقلانية حول موضوع فلسطين فقط، بل قام أيضاً جدل مماثل ولو أقل علانية منه، بشأن العلماء ورجال المخابرات الالمان، ومنهم نازيون كثر، الذين درجنا على تهريبهم إلى الولايات المتحدة وإنقاذهم من قضاة التحقيق في محكمة نورمبرغ. لقد كنت، كما أوضحت سابقاً، مع تلك النشاطات قلباً وقالباً، ولكنني سئمت فيما بعد من سماع المناقشات المستعرة التي أثارها ذلك الموضوع.

وثمة شيء آخر: لم أحاول الهرب من الخلاف العربي اليهودي كما تصوّر وقال بعض زملائي من اليهود. فبصرف النظر عن الحساسية التي يثيرها هذا الموضوع في نفسي، لم أعتبره أقرب نقاط الالتهاب لاشعال نار الحرب العالمية الثالثة. لقد تبني محللو المخابرات في البتاغون نظرية مفادها انه عندما يبدأ العرب والدولة العبرية الجديدة بالتقاتل سيهرع السوفييات لمساندة العرب، وستنبري الولايات المتحدة لمساعدة اليهود ولا يلبث الخلاف في تصاعد حتى تشتعل نار حرب عالمية. أما أنا فلم أنظر إلى القضية من تلك الزاوية ذلك ان تقديري لسياسة الاتحاد السوفياتي الناتج عن قراءتي للمقاطع المترجمة إلى الانكليزية أو الفرنسية من «مجموعة أعمال لينين» المؤلفة من عشرين مجلداً، دلني على أن ستالين لن يحاول الاستيلاء على ما تبقى من أوروبا الحرة بالوسائل العسكرية بل سيسعى بمختلف الطرق لحرمانها من بلوغ المواد الأولية الافريقية فتتحول بالتالي إلى الاعتماد على البدائل من الاتحاد السوفياتي. أما مساندة العرب إلى الحد الذي يجعلهم يخوضون حرباً عالمية ثالثة فأمر رأيته مستبعداً كلياً عن نهج الاستراتيجية السوفياتية الناشئة حديثاً. واعتبرت بأن السوفييات سيقدمون لبعض الدول العربية المساعدات اللازمة لكي يخوضوا حربهم بأنفسهم - أو بالأحرى ما يكفي لخلق أقصى ما يمكن خلقه من المشاكل لكل ذوي العلاقة بالموضوع بما فيهم العرب أنفسهم - ولكنهم لم ولن يذهبوا إلى أبعد من ذلك في خدمة أي مصلحة عربية. والنهج عينه ينطبق على أي مساعدة، مهما كان نوعها، يقدمونها إلى مختلف المجموعات الثورية في افريقيا التي يهتم بها السوفييات أكثر بكثير من اهتمامهم بالعرب لأن أنظارهم موجهة إلى دول أوروبا الغربية.

لم يكن كل ذلك في حينه سوى مجرد نظريات هشة لم تجد من يعتمدوها في مكتب العمليات الخاصة فاستحوذت على حاسة لاعب الهوكي من تفكيري بحيث راهنت بمستقبلي المهني عليها.

وعليه شرعت أبحث عن منصب في الخارج بدءاً من افريقيا. ولما كنت أتكلم الفرنسية عرض عليّ الخيار بين ليوبولدفيل وكوناكري وأبيدجان وكلها «مراكز مشقة» لم يتقدم لها أحد فرفضتها بسبب تفكيري بعائلي. ثم جاءني عرضان استهوياني: ريو دي جنيرو وستوكهولم، ولكن زوجتي لورين رفضتهما بسبب اهتمامها بي، واعتبرت أن عملي في أي منها هدر لمواهي حسب فهمها لها.

ثم جاء الفرج: دُعيت إلى مكتب ستيفن بنروز (ستيف) الخبير العتيق بشؤون الشرق الأوسط الذي حل محل جيمي مورفي في رئاسة مكتب الخدمات الخاصة. قال ستيف ان خدماتي «الجليلة في معالجة موضوع النازيين الهاريين قد لقيت التقدير» (بعد طول انتظار). ولما كنت ضعيف الشخصية ويستهويني التقدير على أعمال لم أقم بها احمرّ وجهي تواضعاً - بدلاً من الاجابة بصدق - وقلت له: «طيب يا رئيس» ووافقت على انني أتمتع بما يحتاج إليه العمل المخابراتي الذي يخولني العمل في أوروبا وأضفت بأنني أشعر أن واجبي الوطني يدعوني إلى القبول بالعمل فيها إذا ما دُعيت إلى ذلك.

لم تكن أوروبا واردة. وفيما كان دمي يتجمد في عروقي أخبرني ستيف بأن التقارير الواردة حديثاً من صديقي القديم فالتر غليم بيّنت ان بقايا «الحركة النازية» يتجمعون في أميركا الجنوبية وفي الشرق الأوسط وان التحرك النازي باتجاه الشرق الأوسط يثير جملة مشاكل معقدة تستلزم اهتمام ضابط استخبارات قادر على العمل بتجرد كلي.

كنت حتى تلك الجلسة مصمماً على أن الشرق الأوسط هو آخر مكان أسمى للحصول على عمل فيه. ولكن ستيف أراني تقريراً أثار اهتمامي جداً. أعدّ التقرير الرائد نيكولاس اندرونوفيتش مساعد الملحق العسكري المعين في القدس وقوامه مقابلة مع ناصر الدين النشاشيبي وهو فلسطيني صار أحد

أقرب أصدقائي . وردت في التقرير النقطة التالية: تواجه الحكومات من وقت إلى آخر معضلات لا حلول لها تماماً مثل محاولة العثور على الجذر التريبيعي لناقص واحد (1-7). وعندما تبين ان العضلة هي من هذا النوع يجب أن يتبين كذلك بأنها تستعصي على كل الحلول وعلى المخططين عندئذٍ التخلي عن أي محاولة للعثور على حل لها وتحويل اهتمامهم إلى كيفية تقليل النتائج الضارة التي تنجم عن استحالة الحلول.

والخلاف حول فلسطين واحد من تلك المعضلات:

(١) - الدولة العبرية ستقوم سواء قبل بذلك العرب أو البريطانيون أو أي كان ام لم يقبلوا به .
(٢) - الحكومة الأميركية ستقدم لتلك الدولة أي مساعدة تحتاج إليها لجعلها قابلة للحياة اقتصادياً وقادرة على الحفاظ على أمنها عسكرياً.

(٣) - لا سبيل إلى وقف تصعيد المعارضة العربية لقيام الدولة العبرية ولدعم الأميركيين لها . لذلك ينبغي على الدوائر الحكومية الأميركية تأجيل أي محاولة لإحلال السلام بين الفريقين والتركيز على تطوير الاحتياطات لمواجهة الأخطار التي ستعرض لها المصالح الأميركية بكل تأكيد .

أما (نصري) النشاشيبي فله رأي خاص وهو أن العرب الذين سيقاثلوننا، وعلى الأخص الفلسطينيين منهم، لن يكونوا قوماً أشراراً لا بمقاييسهم الأخلاقية ولا بمقاييسنا نحن . وعليه لا حق لنا نحن الأميركيين بلومهم على مقاومتهم لنا بأكثر مما نلام نحن على مقاتلتنا أي فريق يسعى لطردها من ديارنا . وهكذا فإن مقاتلتنا لهم لن يكون لها أرضية أخلاقية تقف عليها . وعلينا مواجهة الواقع بأن أكثر ما سنفعله للتعايش سيكون حكماً «لا أخلاقياً إن من حيث جوهره أو من حيث تفسيره» .

وأما ستيف بنروز وهو سليل أسرة تبشيرية تنتمي إلى الكنيسة المشيخية، فقد ترعرع في لبنان، فلم يفرح لهذه النقطة الأخيرة . وكم كان بودي لو أستطيع اتخاذ الموقف عينه . ولكنني اعتبرت الموضوع تحدياً خاصاً جداً للمنظمة التي انتميت إليها حديثاً . ولما كنت من مؤيدي القول بأن «بلدي يأتي أولاً، سواء كان على حق أم على ضلال»، لمعت في ذهني فكرة الاشتراك في بعض العمل المستتر الذي سوغته لي خدمة المصلحة الوطنية (الأميركية) . أما كون العمل سيجري في الخفاء فبدا لي واضحاً تماماً عندما رأيت البيت الأبيض ونظارة الخارجية قد باشرا بوضع مختلف أنواع المخططات للسلم التي لم يرَ فيها الدبلوماسيون المحترفون المعايير الشكل أي منطق . ولكن المحاولات الساذجة لحمل العرب على التوقف عن مقاومة انشاء دولة عبرية تشكل الغطاء الأمثل لأي من الوسائل الخفية التي لمعت في مخيلتي . وكانت حجج ستيف مقنعة فبدأت أقنع . وفي تلك الأثناء جاء حدثان داخل مكتب الخدمات الاستراتيجية نفسه فحدداً القرار .

الحدث الأول: إن الضابط الذي عُين للعمل في دمشق وهو نقيب في المارينز عرف بشدة بأسه ونال الوسام تلو الوسام لشجاعته، قد سقط في امتحان (جهاز) كشف الكذب لجهة اللواط . وأصرّ النقيب على انه جرّب اللواط مرة واحدة بالافتعال بطيار بريطاني ولم تعجبه التجربة فكانت مرة وحيدة لم تتكرر ومع ذلك حرم من العمل فشغل مركز العمل المقرر في دمشق .

أما الحدث الثاني: فكان مقتل دان دنت رئيس مركز الخدمات الاستراتيجية - وحدة الخدمات الخاصة في بيروت في حادث سقوط طائرة في جبال اثيوبيا . ولما كانت الطائرة تحمل معدات اتصالات عسكرية حساسة تحتم إرسال فريق من ضباط أقوياء البنية ويتمتعون بروح المغامرة لمواجهة أخطار

القيام بحملة في أكثر مناطق العالم وعورة وتعرضاً لغارات العصابات، أو انهم أغبياء إلى حد لا يقدرّون معه خطورة المهمة. ولما كنت أتمتع بالصفتين معاً تشوقت إلى المشاركة في الحملة وتقدّمت بطلب إلى نك مايكلسون، وهو أميركي من أصل لبناني في قسم الشرق الأدنى وأفريقيا. تأخرت يوماً واحداً عن الوصول إليه من أجل البحث في الطلب، فاغتنتم مناسبة زيارتي ليقترح عليّ العمل في دمشق. أجبته بأنني سأفكر في الأمر.

وهنا دخل المسرح ارشيبالد روزفلت، حفيد الرئيس الأسبق ثيودور روزفلت، إحدى أكبر الشخصيات في نظري. كان آرثشي على وشك الدخول لأجراء مقابلة لوظيفة في بيروت يكون فيها فعلاً منسّق كل أعمال وأنشطة الاستخبارات في البلدان العربية من المغرب إلى العراق. وكان آرثشي قد خرج لتوه من امتحان في وزارة الخارجية حيث سئل: «هل تتكلم لغات أجنبية؟» فأجاب فوراً العربية والفارسية والكردية والروسية والأرمنية والأردنية والتركية وبصفة لهجات تركمانية. وعندما سأل أحد أفراد اللجنة الفاحصة: «ألا تتكلم الفرنسية أو الإسبانية أو الألمانية؟» أجاب بجزع: «يا إلهي، هل تحسبون لها حساباً؟»

إن السلك الخارجي الذي لا تعتبر فيه تلك اللغات أمراً مفروغاً منه لم يكن خليقاً بآرثشي، لذلك خرج من وزارة الخارجية وتوجه فوراً إلى مبنى مكتب الخدمات الاستراتيجية حيث طلب عملاً قائلاً لهم: إن أهم مؤهلاته كونه عاد لتوه من منصب مساعد الملحق العسكري في العراق ثم في إيران حيث قضى قرابة الشهر في أذربيجان يراقب السوفييات في محاولاتهم الرامية لإخضاع تلك المنطقة المستعصية، دون أن يذكر أن من مؤهلاته معرفته لغات الشرق الأوسط.

عينه نك على الفور ثم دعاني وجدد عرضه السابق. لم أقبل به على الفور بل وافقت على دعوة آرثشي للعشاء عندنا للبحث في الاحتمالات. كان العشاء ناجحاً كلياً وشعرنا خلاله وأثناء السهرة وكأننا أنا وآرثشي نعرف بعضنا منذ سنوات عديدة كما أذهل آرثشي لورين بمعرفته للغات وحضارات الشرق الأوسط وأدهشته لورين بدورها بمعرفتها بآثاره ومعالمه. والأهم من ذلك أن آرثشي وافق على آرائني بشأن الاستراتيجية السوفياتية وذهب إلى القول بأنه فيما يعتقد السوفييات بأن ساحة القتال الخفي الفضلى لخدمة أغراضهم ستكون أفريقيا، يجب أن ندرك الساحة المثلى لخدمة أغراضنا هي آسيا الوسطى.

صباح اليوم التالي تكلمت مع نك مايكلسون هاتفياً وقبلت عرضه. وانتحيت زاوية هادئة في غرفة المطالعة في القسم أقضي فيها نهاري في قراءة كل المواد ذات الصلة بمهمتي المقبلة، فاكشفت أن ثمة مفاجآت مذهلة بانتظاري. ها أنا في غرفة المطالعة في قسم الشرق الأدنى وأفريقيا أجمع المعلومات اللازمة لمهمة سأقوم بها في المنطقة التي قضيت سنوات عديدة أحاول تجنبها، وأعد نفسي للقيام بالعمل الذي كان آخر ما يساور رغباتي، وإذ بي خلال الساعة الأولى من القراءة اكتشف بأن دمشق مدينة جميلة مناخها معتدل وساحرة بكل معنى الكلمة. إنها واحة كبيرة تقع بين جبال لبنان وبين حافة الصحراء السورية. «طقسها شبيه جداً بطقس مدينة فينكس بولاية أريزونا» ومنطقة المجاري فيها مبنية على مقربة من مجرى نهر بردى مما يجعل النظافة فيها «قريبة منها في مدينة متوسطة من مدنكم بولاية كولورادو». ومن خلال الصور المقتطعة من مجلة «ناشنال جيوغرافيك» تظهر على أنها شبيهة جداً بمدينة متوسطة في ولاية كولورادو. أما صور المنازل التي يقيم فيها الدبلوماسيون فتظهرها شبيهة جداً بمنازل أثرياء جنوب كاليفورنيا.

وهكذا وفي صبيحة يوم بديع طقسه من أيام أيلول (سبتمبر) أخذت لورين إلى آلاباما حيث يقيم قاض اتحادي عتيق صديق أسرتنا منذ سنوات عديدة ليساعدها في الحصول على الجنسية الأميركية في غضون أسابيع قليلة بدلاً من الانتظار سنتين وركبت الطائرة برفقة آرثشي إلى بيروت مروراً بنيفاوند لاند وبريطانية ومالطا. قضينا كل وقتنا في الطائرة بالكلام وتجاذب الأحاديث وشعرت بأنني بدأت أغوص في كنه شخصية آرثشي الذي بدا وكأنه سرّ غامض لدى اصدقائنا المشتركين في قسم الشرق الأدنى وأفريقيا. انه مزيج عجيب من التناقضات: أرستقراطي خال من كل تكلف، ومثقف لامع لا يطبق المفكرين، وعمّلائي بارع رأسه بين الغيوم، واستاذ شارذ الذهن لا يفوته أي حيلة وطفل بريء يصفح عن كل الآثمين، وشخص أحبّ جميع الناس وأحبّه الجميع دون استثناء. وهذه صفة لازالت ترافقه حتى اليوم، بعد أربعين عاماً على تعارفنا. وبدا لي انه قدّر مواهبي إلى حد جعله يؤكد بأنني سأتعلم العربية خلال بضعة أشهر فيما يقضي الدبلوماسيون العاديون سنوات يتعلمونها في مدرسة تشارلي فرغسون الصغيرة في بيروت، هذا إن اتقنوها. تبين انه كان على حق في ظنه ذلك انني بعد قضاء سنة واحدة في دمشق استطعت بمساعدة الرجل الثاني في وكالة الاستخبارات المركزية هناك تأليف أول معجم بالعربية الدارجة.

قضيت ليلة واحدة برفقة آرثشي في بيروت مع بعض موظفي المفوضية الأميركية فيها (قبل رفع مستوى التمثيل الدبلوماسي إلى مستوى سفارة) ثم توجهت إلى دمشق في سيارة المفوضية. استقبلني مسؤولو المفوضية الأميركية في دمشق استقبالا حاراً سبق ان قيل لي بالألا أتوقعه، ويمثله قابلني طاقم المفوضية البريطانية. وخلال أيام قليلة تعلمت درسين عن السلوك الدبلوماسيين الأميركي والبريطاني، وهما درسان أقدمهما لمصلحة الشباب والشابات الذين يفكرون باتخاذ السلك الدبلوماسي مهنة لهم.

الدرس الأول: إن حياة الدبلوماسيين وعيالهم والموظفين أكثر هتاء بكثير في المناطق المسماة «مراكز الخدمة الصعبة» منها في مراكز مثل لندن أو واشنطن أو باريس حيث العمل الشاق لا ينقطع. ففي دمشق أقامت أسرتي المؤلفة من أربعة أشخاص في منزل فخم - لولا التمديدات المائية - مؤلف من سبع غرف يضاهاى منازل الأحياء الراقية في لندن أو في واشنطن. وكان عندنا أربعة خدام - الطاهي والسائق وخادمة ومربية ترعى الأطفال - وخلال صبيحات تناول القهوة تتجاذب زوجتي أطراف الحديث مع الكثيرات من زوجات الدبلوماسيين اللواتي لم يسبق لهن ان شاهدن في حياتهن خداماً في البيوت واللواتي عندما يكنّ داخل بلادهن يقضين وقتهن بغسل الأطباق وتنظيف أرض المنزل وغسل حفاظات الأطفال وغير ذلك. فالخدمة في «المراكز الصعبة» تسكر وتدبر الرأس. ينزع الدبلوماسي الشاب إلى نسيان ان الامتيازات والاحترام التي يتمتع بها تعود في معظمها إلى كونه موظفاً في السلك الدبلوماسي الأميركي أو البريطاني أكثر مما تنبع من جاذبية شخصيته. وإن الكثيرين من الأثرياء والوجهاء المحليين وكذلك المراسلين والزوار القادمين من بلدة قد لا يمنحونه دقيقة واحدة من وقتهم لو انه اتخذ لنفسه مهنة هو مؤهل لها.

أما الدرس الثاني: فهو أن نسبة عالية جداً من الذين ينضمون إلى السلك الدبلوماسي أملين بالحصول على وظيفة في لندن أو باريس أو روما أو استوكهولم أو ريودي جنيروهم في غالب الأحيان من الأشخاص المتعجرفين تنقصهم الثقة بالنفس يتمكسون بالشكليات البروتوكولية، قلماً تراهم في خط المجابهة. إن أكثر الدبلوماسيين الذين يعملون في كوناكري أو عدن أو دبي أو دمشق مثلاً هم غالباً من الشباب الذين يشرون بالنجاح اختيارهم لمناصبهم مخططو التوظيف اختياراً دقيقاً أو أنهم هم

الذين طلبوا تعيينهم في مراكز كهذه لاهتمامهم الشخصي في قضايا وتحديات رقعة اللعبة الدولية . على كل حال كان جميع زملائي في المفوضية ممتازين إن على الصعيد المهني أو على الصعيد الانساني ، وعليه فقولى بأننى أحببتهم جميعاً لا يفي حقهم . لم أتمالك التخلي عما تدربت عليه فى وكالة الاستخبارات المركزية فجعلت لكل منهم ملفاً ولكن لست أخشى مغالطة أحد من رؤسائى فى واشنطن إن قلت انه لم يكن فى أى من الملفات ما يعرض أياً منهم للإرباك إذا ما دعت الحاجة «لأمين التعاون» حسب قولك . وهناك أيضاً قضية ثانوية كدت أنساها . فقد استطاع مخبر تعاملت معه وهو مع الشعبة الثانية فى دمشق التقاط صورة للمسؤول عن الشيفرة فى مفوضيتنا يرقص والخذ على الخد مع مسؤول الشيفرة فى المفوضية البريطانية فى أحد مراح الليل . ولأسباب تتجاوز مجال هذا الكتاب لم أجعل منها قضية .

ينبغى أن أخبركم عن صديق خاص من بين موظفى المفوضية المحليين . إنه يوسف دبوس أو «القدر الدوار» حسب تسمية القائم بأعمال المفوضية . إنه قدر كيفما نظر المرء إليه . ولكن على الرغم من ادراكه لنقائصه ، كان ينهش صدره الطموح لتحصيل المال . فأخذ يخطط لمستقبله مقارناً بين حسناته وسيئاته .

قامته أشبه بثمره الاجاص ووجهه يتلاءم معها . وسنه الأمامى الملبس ذهباً يطل عليك من ابتسامة فيقلب القصد منها رأساً على عقب . مكره شبيه بمكر البهائم الغريزي لا يقاس بالفطنة اللازمة للتعامل التجاري فى سوريا . انتهى يوسف إلى الاستنتاج بأنه لا يتمتع بما فى طوقه تقديمه للأمين . ولما أعياه الحساب قرر اللجوء إلى الشرف ! لم يسبقه أحد إلى ذلك فى مجال الأعمال حيث الغش والتلاعب معيار النجاح . وعليه اقترض مئة دولار من أحد المصارف وسددها فى الوقت المحدد ثم اقترض ٥٠٠ دولار وبعدها ١٠٠٠ دولار وسددها أيضاً فى موعد استحقاقها دون أن يفوته اعلام مدير المصرف بما تكبده من مشقة من أجل التقيد بالمواعيد . وراح بعد ذلك يقطع وعوداً مستغربة لاصدقائه ، والأغرب منها وفاؤه بها !

تصرفاته تلك باتت حديث دمشق وصار أصدقاؤه فيها يسمونه «يوسف الأمين» ، والأميركيون والبريطانيون يدعونه «يوسف الشريف» . وسرعان ما أخذت الشركات الأوروبية تتصل به فى سعيها لتأمين مندوبين لمبيعاتها فى سوريا ، وهى واثقة من ان ما لا يمكنه تحقيقه لها فى مجال المبيعات يعوضه بتخفيض بدلات عمولة الوسطاء . (قال أحد الساخرين بيننا : «يظنون كلهم ان باستطاعتهم خداعه !») وراح رجال الأعمال يطلبون إليه قبول عضوية مجالس ادارة شركات جديدة يؤسسونها لعلمهم بأن ظهور اسمه على مطبوعاتها سيعتري انطباعاً طيباً فى نفوس المساهمين المرتقبين . كما حاولت المصارف اغراؤه بعرض القروض عليه بفوائد مخفضة . ودعته ادارة مدرسة الصبيان الأميركية التابعة للإرسالية المشيخية للتحدث إلى طلابها فى مواضيع مثل «النزاهة أفضل السبل» و«الله يتوقع منكم الحقيقة» .

هكذا ودون مجهود كبير صعد يوسف دوسات سلم النجاح فى عالم الأعمال (قالى لي مرة : «لست أبلهاً بل مجرد غيبى») وانتهى به المقام فى مكان ما فى جنوب فرنسا حيث يعيش فى بحبوحة واسعة من مدخول العمل الوحيد غير النزىه الذى ارتكبه فى حياته ، حسبما روى لي مرة عندما التقينا على متن يخت عدنان الخاشقجي نحتسى الشمبانيا . فقد سحب كل رصيده من بنك انترا فى بيروت واستدان ما أمكنه من المصرف المذكور ثم راح يروج الاشاعات التى أدت إلى افلاس المصرف (علمت لاحقاً من پول پاركر ، نائب رئيس بنك أوف اميركا ، الذى دعاه انترا لمعالجة أوضاعه أن يوسف تقاضى مبلغاً ضخماً بدل اتعاب استشارية فقط للانفصاح عن خفايا عمله) .

الخطوة الأولى التي خطاها يوسف صعوداً كانت حصوله على وظيفة في المفوضية الأميركية لدى مكتب الضابط الإداري حيث راح يعرض نزاهته المعروفة نيابة عنا. فهو الذي ساعدنا في العثور على الأرض التي تقوم عليها السفارة الأميركية حالياً في دمشق وأمن شراءها كما ساعد المفوضية في جميع المعاملات التجارية والقانونية مع التجار السوريين والحكومة السورية. فكان وجوده فقط مبعثاً للطمأنينة لدى الفريقين ولم يخبّ آمالنا مرة واحدة، كما كان، حسبما يحلّوه القول: «نافذة التفاهم» التي أمكن عبرها لموظفين اميركيين شباب تنقصهم خبرة التفاهم مع أناس ينتمون إلى إحدى أعرق حضارات العالم.

وجد زملائي في مفوضيتنا في دمشق في العام ١٩٤٧ ان تلك النافذة مغلقة بعض الشيء. فالحضارة السورية العريقة موضوع شيق في كتب التاريخ في الجامعة. ولكنهم جاءوا إلى الشرق الأوسط مقتنعين بأن جميع الناس هم، في أعماق نفوسهم، شبيهون بالأميركيين، يؤمنون في قرارة ضمائرهم بالأخلاقية البروتستنتية وان كانوا لا يعرفون ما هي. ولكن وكالة الاستخبارات المركزية علّمتني أشياء أخرى، وان كان ساداتنا القديسون في واشنطن قد رأوا انه قبل ان تتمكن الحكومة الأميركية من رسم سياسة بناءة تتعامل بها مع الحكومة السورية ينبغي تعليم الشعب السوري أصول الديمقراطية حسب الأسلوب الأميركي. وهنا تبادرت إلى ذهني السوانح المتاحة في كوفي المعلم خصوصاً إذا كان يوسف بجانبني يقدم لي المساعدة في المهمة. ولكن رأيت أن عليّ ان أتعرّف إلى نوع الصورة التي رسمتها التخيلات والأوهام في واشنطن عن المزاج السوري.

تبين لي من مراجعتي ملفات المفوضية ان المراسلات الخاصة بالعلاقة السورية الأميركية تحصل مع وحدة في وزارة الخارجية مهمتها التأكد من أن شعوب أقاليم الكرة تتفهم وتدرك ما للحرريات الأميركية من أفضليات على «الاستعباد الشيوعي». وبدا ان وزير الخارجية وكبار مساعديه اعتبروا ان الولايات المتحدة على خلاف يكاد يكون كلياً مع الدول العربية وان المسؤولية في ذلك تقع كلها تقريباً على القيادات المضلّة فيها - ليس عندنا بالطبع. وتمكنوا أيضاً بنظريتهم القائلة بأن العرب سيكونون حلفاءنا الطبيعيين لو قيّضت لهم قيادة أكثر فعالية وتنوراً. ذلك انه ليس ما يخشونه منا بل هم كل ما يخشونه من السوفييات، وبالتالي فإنه لمن المغاير لطبيعة الأمور ألا يرحّبوا بعروضنا لحمايتهم. شركائنا النفطية ستجعلهم أثرياء وسيكونون أكبر المستفيدين من «حل ودي للقضية الفلسطينية» الذي لا يقوى عليه غيرنا أحد. وعليه اعتبر المخططون عندنا أن رفض القادة العرب لرؤية الأمور من خلال ذلك المنظار سبباً كافياً بحد ذاته يسوّغ لنا الاطاحة بهم - أو بالأحرى تمكين شعوبهم من الاطاحة بهم. لقد تملكنا منا نظرية بأنه إذا وجدت في أي مكان من الدنيا قيادات تستفيد من تدخلنا في شؤونها الداخلية فتلك القيادات هي القيادات العربية.

شرحت ذلك كله ليوسف الذي أبدى اعجابه، وذهب في حلم بهيج عندما اخبرته بأن وزارة الخارجية، عبر وكالة المعلومات الأميركية قد أمرتنا بوضع «مشروع استرشادي» نخلق عبره وضعاً مناسباً في واحدة من الدول العربية بحيث إذا ما كتب له النجاح نحاول تطبيقه في غيرها. كان العراق أول الاغراءات، لأنه من جميع نواحيه دولة بوليسية ذا حكومة مكروهة. ولكنه من ناحية أخرى إحدى الدول التي يستحيل على جهاز جيّد التدريب على الحركات السياسية، ناهيك عن جهاز طري العود مثلنا، ان يتزحزح دون علم وموافقة البريطانيين. أما السعودية فليست مؤهلة للديمقراطية بعد وأما لبنان والاردن ومصر فقد استبعدت لأسباب أخرى.

بعد ذلك الشرح كله قلت له : «إذا ستكون سوريا مشروعنا». هزّ يوسف برأسه بوقار دون أن يتمكن من اخفاء فرحه. وأضفت قائلاً : «إن سوريا في وضع اقتصادي جيد وشعبها لم تروضه سنوات الاحتلالين العثماني والفرنسي وظروف اجراء انتخابات ديمقراطية ظروف مثالية. ومن المؤكد ان الزعماء الأذكياء والتعاونيين سيفوزون فيها». إذا ستكون «انتخابات حرة» - يرافقها بالطبع ترتيبات من قبل المفوضية تضمن بأنها لن تكون حرة فقط بل تضمن بأن تأتي نتائجها كما نريدها أن تكون. سأوفر على القراء عناء التفاصيل فأقول بأن الانتخابات من حيث كونها وسيلة لادخال وكالة الاستخبارات المركزية إلى سوريا كانت ممتازة. ولكن نتائجها لم تكن كما اشتتها واشنطن. ففي حمص كان الاقتراع مثلاً للهدوء إنما فقط لأن كبار الملاكين أوضحوا للفلاحين بأن عليهم عدم الاكتراث «بالكلام الفارغ عن الشيوعية والامبريالية» الوارد في الملصقات في ساحات المدينة والاقتراع حسب ارشاداتهم. وفي مختلف المناطق الأخرى كانت الانتخابات «الحرة» مناسبة للسوريين الذين تربوا على اعتبار الحكومة عقبة فرضها الأجانب عليهم للحيلولة دون ممارستهم نزعتهم للفوضى والرشوة. وشهدت الانتخابات أيضاً معارك بالأسلحة النارية وبقبضات الأيدي قُتل وجُرح خلالها العشرات. ورأى المقترع البسيط العادي في الانتخابات فرصة للحصول على مقابل نقدي مقابل إدلائه بصوته أو لدعم أحد أقربائه للوصول إلى وظيفة تدرّ عليه وعلى عائلته بعض المدخول.

على كل حال شهدت نشاطات المفوضية في سوريا في أواخر الخمسينات ولادة نوع التقارير الذي يرد من وكالة الاستخبارات المركزية ومهاراتها في «التدخل في الشؤون الداخلية لدول ذات سيادة». ولكن تلك النشاطات لم تصل مطلقاً إلى مهارة تلك الدول ذات السيادة التي تتدخل بشؤوننا نحن الداخلية. غير ان تقارير وكالة الاستخبارات المركزية ما زالت متوافرة لأي رئيس قادر على التجرد عن «السياسة الخارجية في الداخل» وإيجاد الوقت الكافي له لقراءتها.

أما في يختص بمستقبل وكالة الاستخبارات المركزية في الحرب الباردة وما يُسمى «المجابهة من النوع الثالث» فالرجاء متابعة القراءة.

الفصل الحادي عشر

تجربة في سوريا

١٩٤٧ - ١٩٥٠

خلال الأيام الثلاثة التي استغرقتها رحلتنا بالطائرة من واشنطن إلى بيروت رسم لي آرثشي صورة كاملة عن ستيف ميد الذي كان له بين الفينة والفينة وعلى مدى أربعين عاماً أثر هام في حياتنا. كان آرثشي قد التقى ستيف عندما كان الأول مساعداً للملحق العسكري في طهران والثاني يرتدي ملابس قبلي كردي ويقوم بمهمة فرار ومراوغة لمكتب الخدمات الاستراتيجية. وبعد ذلك وجد آرثشي مع ستيف وبعض رجال قبيلة قشقاوي يطاردون عبر صحراء دشتي لوت فصيلاً من مغامري فرقة أس. أس. الالمان وبحوزتهم رهائن من أفراد إرسالية أميركية يحاولون الهرب بهم إلى بوشيرا. وكان ستيف قد عُين مساعداً للملحق العسكري في بيروت لأن الملحق العسكري فيها ضابط تقدمت به سنة ويات على عتبة الإحالة على التقاعد، وهو بالتالي بحاجة إلى مساعد قدير يعاونه على معالجة حالات صعبة يحتمل بروزها من وقت إلى آخر في مركز كبيروت. ومن مراجعة ملف ستيف رقم ٢٠١ تبين انه المساعد القدير الأمثل للرجل المهذب والأخلاق من فرجينيا الذي اختاره الجنرال لوتن لذلك المنصب. قال آرثشي انك قد زوده «بتعليمات صارمة» لإبعادي عن ستيف استناداً إلى رأي يقول إننا باجتماعنا نشكل وضعاً حيث يؤلف واحد زائد واحد أكثر من اثنين. وأضاف آرثشي بأن «نك يحمل ذلك على مجمل الجد. فعندما قال بأنه يريد منك التمهّل والتروي خلال الأشهر الستة الأولى كان يعني ذلك. إنك تعلم، دون ريب، انه ليس هناك ما يدعوك لإقامة الدنيا وإقعادها فوراً».

كانت لآرثشي دواعيه الخاصة للاستئثار بستييف لأنه ينوي فتح أقنية على الاتحاد السوفياتي. من هنا اعتبر بأن ستيف له قيمته في العمل مع المهاجرين لأنه هو الآخر يتكلم معظم لغاتهم. أما أنا فاعتبرت، دون الافصاح عن رأيي آنذاك، بأن أتجاهل نك وآرثشي معاً. فإذا كان ستيف حقاً كما وصفه لي آرثشي، فقد احتاج إليه في بعض الأعمال التي قررت القيام بها بنفسي غير اني وجدت عند وصولي دمشق بأن فيها الكثير من الأشخاص الجديرين باهتمامي. فهناك عميل الاستخبارات العسكرية البريطاني وهو محترف ذو خبرة واسعة استقبلني بمختلف أنواع المشاريع (منها زرع أجهزة تنصت داخل مبنى السفارة السوفياتية الجديد) الجامعة بين المال الأميركي والدهاء البريطاني. وهناك أيضاً السفير السوفياتي دانيال سولود وله ماضٍ في الاستخبارات السوفياتية (ك. ج. ب) ودبلوماسي من الطراز الأول يكاد يضاهي مهارة سفيرنا في بغداد جورج رادزورث وسفيرنا في القاهرة جفرسن كافري. جعل سولود اقامته في بيروت وكان يتردد على دمشق بانتظام. أما ضابط ألد «ك. ج. ب» النظامي فكان رجلاً من جمهورية جورجيا وسيم الطلعة اسمه ايغور فيدورنكو، تفضل بزيارتي بعد يوم او اثنين من وصولي ليخبرني، بابتسامة سلافية عريضة بأننا سنتسلّى كثيراً شرط ألا أبالغ في جدية عملي ولا أهدر وقتي وتعبني في محاولات سخيفة كزرع أجهزة تنصت داخل سفارته. (سبق لنك ان نبهني إلى ذلك قائلاً: «سيدرك قبل موظفي مفوضيتك انك واحد من جماعتنا»).

وفيما أخذت اختلط علناً بالدبلوماسيين النظاميين وجمتمع دمشق الراقي من جهة، رحت من جهة ثانية أخالط الجواسيس والمحاريك السياسيين في محاولة لانجاز ما من أجله جئت إلى دمشق. حاولت جهدي في بادئ الأمر تجنب ستيف ميد كلما جاء لزيارة أصدقائه في الجيش السوري. إلا أنه في

مجتمع دبلوماسي ومخابراتي ضيق كمجتمع بيروت - دمشق لا بد لأفراده أن يلتقوا من حين إلى آخر فصرت أشاهد ستيث في مناسبات مختلفة تثير فيها أي محاولة مقصودة من قبل أي منا لتجنب الآخر فضول المراقبين المحترفين. وبعد شهر أو اثنين من لعبة القط والفأر هذه قال لي ستيث في إحدى حفلات المفوضية في بيروت: «دعنا نوقف هذه التمثيلية، فلدينا مواضيع عديدة نتحدث فيها. وما همنا مما يفكر به البيروقراطيون؟»

أخذ مناخ اللعبة يتغير بسرعة في الوقت نفسه. فالاستقلال المفاجيء الذي أحرزته دول رزحت تحت نير الاستعمار قروناً طويلة أخذ يخلق مصاعب لم يسبق أن شملتها خبرة جهازنا الدبلوماسي. وتعقدت المشاكل التي واجهتنا في سوريا ولبنان بسبب اعتقاد حكوماتها الصادق - أكان له ما يسوغه أم لا - بأن حكومتنا تدعم الصهيونيين ثم إسرائيل بعد قيامها. وفيما كان موظفونا الدبلوماسيون الممتازون يتعرضون يومياً للحجج والمواقف العاطفية العربية كذلك كان زملاؤهم في واشنطن يتعرضون لضغوط السياسات الأميركية الداخلية إلى درجة لم يكن ليتسنى لهم الوقت الكافي لاستيعاب ما نواجه من صعوبات في مراكز عملنا. فتوالت اعتراضاتنا فقط ليقول لنا أصدقاؤنا العاملون في واشنطن في الدوائر المختصة بشؤون المناطق التي نعمل فيها: «أنتم تعملون هناك حسب مقتضيات واقعكم. أما نحن هنا فعلياً ان نعمل حسب تعليمات واشنطن. وفي النهاية ل واشنطن الشأن الأخير». بالطبع لم يأتنا هذا الرد عبر المراسلات الرسمية بل بواسطة الرسائل الشخصية بالبريد العادي.

كان زملاؤنا على حق في قولهم، وفي النهاية أصبحت الدبلوماسية المحلية عبارة عن تسليم رسائل خطية أو شفوية لا يتجاوز محتواها أكثر بكثير من عبارات مثل: «حكومتنا مهتمة بالأمر» أو «يقلقها ذلك»، كتأكيدات نسبت إلى سفيرنا في القاهرة، جيفرسن كافري: «لست هنا لأناقش حسنات وسيئات السياسة الأميركية بل للتأكد من أنكم تدركون ما هي تلك السياسة». أما من حيث اللعبة الدبلوماسية كما أفهمها أنا فكانت أشغالنا كثيرة. عاد الملحق الثقافي لممارسة إدارته لمكتبة مكتب المعلومات الأميركي، وتوقف البحث في انتخابات «حرة ونزيهة» التي، لو أجريت لأدت إلى إقفال المفوضية الأميركية وإلى اعتبارنا بمثابة أشخاص غير مرغوب فيهم في دمشق.

وصف القائم بأعمال المفوضية طريقتي الشخصية بالعمل بعبارة «الدبلوماسية الخفية» التي مارستها على نطاق عملي وانحصرت بتقديم مساعدات في الحملات الانتخابية للمرشحين الخلفين بمساعدتنا وتشبه إلى حد ما المساعدات التي درج على تقديمها الفرنسيون والبريطانيون والسوفييت في سوريا ولبنان والعراق ومصر. والتزمنا موقف الانتظار والترقب لمعرفة ما الذي نفعله بالضبط. فكانت ممارستنا شبيهة بموقف لاعب الهوكي الماهر الذي يدعى للعب مع لاعبين لا يعرفهم، فيشارك في فته أو اثنتين بمراهنات صغيرة. ولكن ينتهي الأمر بأن ينفذ صبر أكثرنا خبرة فيندفع مسترسلاً في اللعبة. وهكذا انطلقنا في تنفيذ عملية في سوريا وصفتها لاحقاً في كتابي «لعبة الأمم» على أنها «المثل الكلاسيكي عن كيف يجب التمسك بمبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية لدولة ذات سيادة» علماً بأنني اعترفت بأنها «وفرت لنا استعراضاً لأخطاء بديهية يجب تلافي الوقوع فيها خلال عمليات مماثلة نقوم بها في المستقبل».

لا بد لي هنا أن أضيف في دفاعي عن «دبلوماسيتي الخفية» ان كبار المسؤولين في وزارة خارجيتنا اعتقدوا في حينه بأن الفراغ الذي خلفه البريطانيون، إضافة إلى موقفنا المؤيد للصهيونية الذي لم يكن منه مهرب، جعلنا نجاح مهمتنا مستحيلاً، وبالتالي فإن كل ما نستطيع أن نأمل به «تخفيض وطأة

الفشل». لذلك صارت التعليمات الصادرة من واشنطن إلى مختلف البعثات الدبلوماسية واضحة ووضوح نبؤات دلفي، وراح رؤساء تلك البعثات يفسرونها حسب اختيارهم فيتحملون المسؤولية في حال الخطأ ويقطف المحاسيب السياسيون المعنيون في الوزارة في واشنطن ثمار أي نجاح جاء صدفة. في مثل تلك الحال كان لاستقامة ولسعة حيلة المسؤولين في البعثات ولشجاعتهم أهمية قصوى.

تمتع بوب ممينغر، القائم بالأعمال في مفوضيتنا في دمشق بقسط وافر من الاستقامة وسعة الحيلة والشجاعة اللازمة لمهمة عادية. ولكن عندما صارت دولة اسرائيل الجديدة حقيقة واقعة اعتبرت وزارة الخارجية في واشنطن اننا بحاجة إلى شخص يتمتع بمقدار أكبر من تلك المزايا، وسرعان ما بعثوا به إلينا. إنه جايكس هيو كيللي، دبلوماسي محترف نقل من أثينا حيث شغل منصب نائب رئيس البعثة، هادئ الأعصاب في الأزمات، قادر على تحمل المسؤوليات وتوزيعها وعلى اتخاذ القرارات دون العودة إلى واشنطن بشأن أصغر التفاصيل.

في اليوم الأول لجلوسه وراء مكتبه برهن أن الوزارة اختارت الشخص المناسب. ذلك ان مظاهرات معادية لأميركا عمّت دمشق بأكملها ومشى فيها ألوف الطلاب نحو المفوضية مسلّحين بما يشبه المعاول. وقبل أن يتبين لكيلي انها نسخ كرتونية عن أسلحة قديمة خرج إلى قمة السلم المؤدي إلى مدخل المفوضية وأعلن انه إذا كانوا يبغون شيئاً منا فعليهم ان يأتوا في مجموعات لا يزيد عدد أفراد الواحدة منها عن ثلاثة أشخاص في أوقات الدوام الرسمي، أي بين الساعة الثامنة والنصف صباحاً والواحدة والنصف ظهراً وبين الساعة الثالثة عصراً والساعة السادسة مساءً أيام الاسبوع العادية، وقبل الظهر في أيام السبت. قال ذلك بحزم أرفقه بابتسامة. وبدا ان شيئاً ما في أسلوبه ومظهره أقنعهم بأن من الأنسب ان يعملوا باقتراحه.

أدرك وزيرنا المفوض الجديد بسرعة ان الوضع في سوريا يحتاج إلى ما هو أكثر من الدبلوماسية التقليدية، وساهمت وكالة الاستخبارات المركزية المؤلفة حديثاً باقناعه، عبر وزارة الخارجية، بأنني الشخص المناسب للعمل المطلوب - أو بالأحرى بأنني الشخص الذي سيساعده هو على القيام به. ومن خلال مقابلتنا الأولى أقنعه تواضعي الطبيعي واستحيائي من الاطراء الذي شقعه فوق رأسي رؤسائي في وكالة الاستخبارات المركزية، بأنني صاحب الدبلوماسية الخفية الذي يحتاج إليه. واقتنع أيضاً باقتراحي عن ضرورة نقل ستيف ميد من بيروت ليكون عنصراً في «فريق عملنا». واكتشف، دون مساعدة أحد، إنه في حال اجتماعنا أنا وستيف ميد سيلزمنا أحد من أجل التوازن فاختر الضابط السياسي في المفوضية دين هيتون الذي برهن رغم مظهره الفتي وتصرفاته المتناغمة مع مظهره على انه من المحافظين الناضجين.

تجدر الإشارة هنا إلى أنني كنت قد جمعت حولي بعض العملاء المحليين مستعملاً لذلك الأساليب التي استنبطتها أثناء تدريبي في وحدة الخدمات الخاصة. فقد تمكنت من الحصول على قائمة بأسماء موظفي وزارة الدفاع بأن جعلت سائق سيارتي يسرق دليل الهاتف في الوزارة وتصادقت مع أحد المراهبين ليزودني بأسماء موظفين في وزارة الدفاع يحتاجون إلى شيء مما أستطيع توفيره لهم - كالدراهم عادة وكذلك في بعض الحالات سمة لزيارة الولايات المتحدة أو منحة دراسية لشاب من الأقرباء في الجامعات الأميركية أو وكالة لسلعة أميركية ما. وخلال فترة وجيزة تمكن المراهبي من التعرف إلى سكرتيرين يعمل كل منهما في مكتب مسؤول كبير في الوزارة فاستخدمهما لسرقة الوثائق الهامة كل من خزنة رئيسه. وخلال فترة وجيزة أخرى تمكنت من جمع ما يكفي من المعلومات من السكرتيرين لتجنيد المسؤولين الكبيرين بنفسيهما، ولكننا اضطررنا للتخلي عن أحدهما لأنه رفع أسعاره إلى حد فاحش.

وقد استطعت ذلك بأن رتبت أموره بحيث جعلته يبدو عميلاً عند صديقي إيغور في ذلك. ج. ب. أما الآخر فقد استمر باسداء خدمات هامة لنا وما زال حتى الآن من أقرب أصدقائي. بعد مرور سنوات عديدة على لقائنا الأول في دمشق سألته لماذا وافق شخص نزيه مثله على تقديم معلومات سرية إلى حكومة معروفة بأنها تساعد عدوه الاسرائيلي اللدود، فأجابني: أولاً: بأن المعلومات لم تكن بتلك السرية، وثانياً: «إننا نحن السوريين تعلمنا من خبرة طويلة مع الأتراك والفرنسيين والبريطانيين فصل القضايا العملية وابعادها عن القضايا السياسية».

رأى كيلى الذي تأثر ليس فقط بتقرير كتبه بل وكذلك بتقرير مماثل وضعه دين هينتون، ان ثمة سيناريوين لسوريا وكلاهما غير مستحب. أما الأول فقيام السياسيين الاستغلايين بمساعدة سوفياتية بثورة دموية ضد الرئيس شكري القوتلي. وأما الثاني فإمكانية استيلاء الجيش السوري على الحكم بدعم من «قبلنا» (بشكل خفي بالطبع) والحفاظ على الأمن والنظام ريثما يمكن تحقيق ثورة سلمية. استكره كيلى السيناريو الثاني بمقدار ما استكره الأول تقريباً، ولكنه رأى فيه انه يخفف من احتمالات سفك الدماء ويفسح المجال أمام عناصر جديدة من المجتمع تشعر بالمسؤولية وتقف بوجه العناصر التي لا مصدر للقوة لديها إلا طاقتها على استعمال العنف.

وهكذا تمخضت دراسات كيلى المتأنيّة عن انقلاب حسني الزعيم في ٣٠ آذار (مارس) ١٩٤٩. سُمح بموجب تعليمات جديدة لرؤساء دوائر وكالة الاستخبارات المركزية في الخارج بحرية العمل تحت رقابة بعيدة من قبل القيادة وشرط ان يُبقوا مختلف رؤسائهم الدبلوماسيين بمعزل عما يفعلون بحيث يستطيع هؤلاء اللجوء إلى حيلة «النكران القابل للتصديق». أعطيت الضوء الأخضر ولكن كيلى لم يقبل بفكرة النكران تلك. إنه يؤمن بمبدأ تفويض الصلاحية - بالأحرى بمبدأ ان المسؤول يستطيع تفويض السلطة إلى غيره دون تحميله المسؤولية - أي انه وان فوضني بالسلطة اللازمة لا يتهرب من المسؤولية التي قد تترتب على ممارستي لها. وفي الحالات التي تصرف فيها دون علمه وقف بيني وبين القيادة متحملاً مسؤولية فشلي ومشيداً بي عند نجاحي. هذا هو جيم كيلى. مررت، قبل ولوجي العمل الحر، بأكثر من عشرة رؤساء وباستطاعتي القول دون أي اعتراض من قبل أي من زملائي السابقين أن كيلى أوحى لدى مرؤوسيه ولاء أكثر من أي رئيس آخر اشتغلت معه أو عرفته أو سمعت به.

اعتمدت كثيراً على معاونة ستيف ميد الذي انتقل إلى دمشق بعد يوم او اثنين من طلب كيلى بنقله إليها. بدأ ستيف بالعمل فور وصوله مدركاً ان طريقي تختلف كلياً عن طريقة كيلى وهي كما قلت انه يتحمل مسؤولية فشلي ويعطيني حقّي عند نجاحي.

قلت لستيف: «عليك ان تنظر إلى الوضع من منظور انه يمكن الاستغناء عنك ولا يمكن الاستغناء عني. كما اننا كلانا نعمل في ظل نظامين مختلفين من حيث الثواب والعقاب».

أجابني بنبرة من أدرك المغزى وبنظرة فيها اعجاب: «إنك على الأقل صادق وأنا أقدر الصدق في الرجال».

كانت مهمة ستيف بسيطة فكل ما عليه فعله استعمال سحر شخصيته لاستمالة قائد اللواء الثالث العقيد حسني الزعيم وهو كردي ضخيم البنية عرف بإرادته الحديدية وبذهن لا يقل عنها صلابة. وكان على ستيف أيضاً أن يتلمس طريقه بحذر لوجود احتمال انقلاب عمله عليه فيطرد من البلاد لاعتباره عنصراً مثيراً للشغب. إضافة إلى ذلك لم تكن مهمته الايحاء لحسني الزعيم بالقيام بنشاطاته بل معرفة نواياه وطموحاته.

في تلك الأثناء وعبر العميلين الرفيعي المستوى في وزارة الدفاع جعلت جميع الأوامر والمراسلات وتقارير المخابرات تصور حسني الزعيم على أنه عسكري موالٍ مئة بالمئة لمؤيديه السياسيين من جهة وتنقصه من جهة أخرى سعة المخيلة اللازمة للكينونة خلافاً لذلك . أما المعلومات المستعملة في تلك العملية فتركت أمر اختيارها للعميلين المذكورين لأن ذلك يحتاج إلى تفهم وشفافية لا يدركها من غما وترعرع في حضارة أجنبية . جاء عملها ممتازاً - على كل حال وفي بالغرض المطلوب . فقد عُين حسني الزعيم مديراً عاماً للشرطة في دمشق ثم أسند إليه منصب القائد الأعلى للجيش .

وهكذا، فإلى انقلاب حسني الزعيم . ولما كنا نزود قيادتنا بالمعلومات عن تطور الأوضاع أولاً بأول طيلة فترة التخطيط تصور المسؤولون فيها بأن ستيف وأنا نضع جميع الخطط المتعلقة بالعملية - وهو تصور لم توجد أي ضرورة لتصحيحه طالما أنه يبعث البهجة في قلوب المعجبين بنا في واشنطن وطالما لا اعتراض لنا على زيادة بعض النقاط الحسنة في ملف كل منا . أما الآن وبعد مرور أربعين سنة أستطيع الاعتراف بأن الاسهام المهم الوحيد الذي قدمناه في العملية كلها تأكيدنا لحسني [الزعيم] وكان قد أصبح القائد الأعلى بأن حكومتنا ستعترف به عملياً فور ثبات السلطة له على أن يأتي الاعتراف الرسمي بعد أيام قليلة . لقد قام ستيف بمرافقة حسني في عدة جولات حول المدينة بسيارة حسني الفخمة ودله على المباني والمؤسسات الواجب السيطرة عليها (محطة الاذاعة ومولدات الطاقة الكهربائية الرئيسية ومركز الهاتف الرئيسي ومختلف السياسيين الذين قد يشكلون مقاومة ما) وتظاهر حسني بأدب بأن تلك الآراء لم تخطر بباله . أما أنا فزودته بلائحة بما يجب فعله وما يجب تحاشيه من باب الاحتراز . وبفضل عميلنا «أ» داخل وزارة الدفاع ، استطعت تأمين بعض المعلومات التي لم يكن باستطاعته الحصول عليها من الوزارة دون إثارة الشكوك . غير أن كل ذلك لم يكن بالغ الضرورة لانجاح مخططة . وباستثناء عنصر واحد هو أديب الشيشكلي (سنعود إليه لاحقاً) كان حسني الزعيم بطل التمثيلية الأوحده .

قدم حسني الزعيم اسهامين لهما نكهة أميركية في التمهيد للعملية : الأول، حملة تضليل إعلامي بدائية غايتها إبراز سوء حالة المحافظة على أمن وسلامة الدبلوماسيين الأجانب في البلاد؛ والثاني، الوسائل التي استعملها للحيلولة دون تسرب أي معلومات عن مخططة قبل بلوغه مرحلة من التقدم يعجز أي كان عن احباطه .

هل قلت إن «للمخطط نكهة أميركية؟» أجل كانت له تلك النكهة بكل تأكيد لأنه حيك حول مهاجمتي شخصياً . ذلك أنه سبق وتناهى إلينا عن طريق موظف محلي في المفوضية أنيط به استراق المعلومات لحساب جهاز للتجسس خاص بالرئيس شكري القوتلي، أن رئيس الجهاز هذا وهو رجل عذب الكلام ورقيق الشعور معروف بشذوذه اسمه فخري البارودي، يظن بأنني أقود عمليات وكالة الاستخبارات المركزية في المنطقة ومحاول الحصول على البراهين كي يرفعها للرئيس القوتلي . ولاعتقادنا بأن فضوله قد يدفع به للقيام بعمل تجاهي أو تجاه المفوضية من شأنه أن يكون مربكاً أو مميتاً قررنا أنا وكيلى وستيف أن نفضح أمره . توجه ستيف إلى حسني وأخبره بقرارنا فكان سروره به عظيماً وقال : «على العميل داخل المفوضية أن ينبىء فخري البارودي بأن من عادة كويلاند الاحتفاظ في منزله لا في مكتبه في المفوضية بكل الوثائق التي قد تثبت عليه أي اتهام، لعل في ذلك ما يشوق فخري للإغارة على المنزل . وسنضع بالقرب من المنزل بعض رجال الشرطة العسكرية لتوقيف المهاجمين . وبذلك نستعمل الحادث دليلاً إضافياً على أن الحال الأمنية لا تضمن سلامة الدبلوماسيين الأجانب . وأما الباقي فاتركوا أمره لي» .

أخذت برفقة ستيف أخطط لمعركة بالأسلحة النارية الحي، تماماً كما في الأفلام السينمائية! وهنا جاءنا كيلى بدعم جديد إذ تمكن من نقل الملحق الجوي الاقليمي من بيروت إلى دمشق. وبذلك توفر لنا ليس فقط طائرة النقل سي - ٤٧ المعدلة لتكون من الفخامة بما يليق بالملحق الاقليمي، بل أيضاً المقدم في سلاح الجو جيم جيانتي لقيادتها ونقيب شاب اسمه دك رول مساعداً له. وقضينا الاسبوعين التاليين بما يشبه المرح الدائم إذ خصصنا الدوام الصباحي لرسم خططنا المفصلة، ودوام بعد الظهر في التمارين على استعمال الاسلحة النارية في البادية القريبة من دمشق.

لا بد لي من الاعتراف هنا بأننا شعرنا بغبطة صبيانية من إثارنا للفضول داخل المفوضية. فلأسباب خارجة عن نطاق خبرتي كان جيم جيانتي يحتفظ بشبه جبخانة في مكتبه. وكنا أنا وستيف وجيم ودك نركب على مرأى موظفي المفوضية وبالبستنة العسكرية سيارات الستايشن المحملة بالمسدسات والبنادق الحربية وبنادق الصيد والرشيشات وبمدفع هاون او اثنين ونتوجه إلى ما هو بداهة أكثر من رحلة صيد عادية.

استمر أحمد، عميل المخابرات السورية في المفوضية، بمد فخري البارودي بالمعلومات المضللة لاجتذابه إلى فخنا من ناحية، ويمدنا أنا وستيف بالمعلومات عن مدى قبول فخري بصحة ما يزوده به من أخبار. وأخيراً جاء اليوم العظيم: فقط طلب فخري من أحمد أن ينبئه عن المرة التالية التي سأكون فيها خارج البيت فأجابه أحمد بأنه على علم بذلك لأنه سمع سكرتيري تعد الترتيبات لي ولزوجتي ولولدنا لقضاء عطلة الاسبوع الطويلة في بيروت. أجاب فخري بأنه سيرسل فريقه إلى منزلي يوم السبت وأردف قائلاً: «يا أحمد ستكون أنت في عداد الفريق».

انقبضت نفس أحمد فراح يفكر بوسائل التهرب من المهمة فأسمعه ستيف كلاماً مشجعاً تضمن وعداً بالمكافأة السخية إذا ما تابع في المخطط حسب التعليمات وبعقاب شديد ان هو تمنع. ومساء الخميس انتقلنا نحن الأربعة إلى منزلي. وصباح الجمعة وعلى مرأى من جميع جيراننا ركبت لورين وولداي السيارة المملوءة بحاجيات توشي بغياب أكثر من ليلة وانطلقوا فيها (نسيت كيف أوحينا للناس بأنني سبقت أسرتي إلى بيروت).

مر بنا يوم الجمعة ونهار السبت ونحن ندور في أرجاء البيت دون اشعال الأنوار ليلاً ومع الابتعاد عن النوافذ ليلاً ونهاراً. وامتنعنا عن إجابة الهاتف الذي كان يرن بين الحين والآخر. وقرابة ظهر يوم الجمعة شاهدت شخصاً يراقب البيت من أرض خالية مقابلة وشخصاً آخر في فناء الحديقة الخلفية. ومساء السبت تقدم شخص من باب المدخل ودق الجرس ثم أضاء بمصباح كهربائي من النافذة. ولما لم يشاهد أحداً قفل راجعاً. ومساء السبت وفي وقت كان لا يزال المارة في الشوارع بحيث يستطيع المهاجمون الفرار والاختلاط بهم، حانت لحظة الحسم.

فاتتني الإشارة إلى اننا أعددنا المنزل اعداداً ملائماً إذ وضعنا مصابيح خاصة بالمصورين تضيء القاعة الرئيسية في الوقت المناسب وأفخاخاً من الغاز المسيل للدموع تنفجر في وجه من يحاول فتح الدرج الأعلى من مكثبي. كنا منبطحين أرضاً ومسلحين بمختلف أنواع الأسلحة علماً بأن حسني الزعيم قد أكد لنا بأن المهاجمين سيكونون ثلاثة رجال عُزل من أي سلاح. وهكذا وحوالي الساعة التاسعة مساءً رن جرس الباب، وللمرة الثانية شاهدنا شعاع مصباح كهربائي ينبعث من إحدى نوافذ واجهة المدخل، وظننا بأن أماننا مهمة سهلة.

وفي الواقع لم تكن مهمتنا بتلك السهولة. وفيما كنا منبطحين على الأرض الباردة في ذلك المنزل

الغارق في الظلام وسلاحنا في متناول الأيدي سمعنا تحطم باب المدخل وشاهدنا أطياف أربعة رجال، لا ثلاثة، يزحفون إلى الداخل ينيرون طريقهم بالمصابيح الكهربائية. تجاوزوا خط بصرنا دون أي ضجة ودون مشاهدتنا أو سماع صوت تنفسنا ثم دخلوا مكتبي المنزلي. وما أن بدأوا يتيقنون من مواقعهم حتى قرر ستيف القبض عليهم قبل انفجار قنبلة الغاز المسيل للدموع. فصرخ: «اشعلوا الأنوار!» ثم صاح بالعربية «اخرجوا بهدوء وأيديكم فوق رؤوسكم». عندئذٍ ظهرت يد ممسكة بمسدس لا تعلو أكثر من ١٥ سنتيمتراً عن الأرض وبدأت باطلاق النار فرد عليها ستيف بالنار فثقبها (كما علمنا لاحقاً) ثم أخذت تظهر أيدٍ أخرى وكلها تطلق نيران مسدساتها بعضها على المصابيح وأكثرها علينا.

باختصار بدا لنا ان أبواب الجحيم انفتحت على مصاريعها. كم منكم سمع صوت مسدس عيار ٤٥ في حقل رماية عادي؟ إنه يصم الأذان، أليس كذلك؟ إذا تصوروا أصوات ثمانية مسدسات من هذا العيار تطلق نيرانها معاً داخل منزل أرضه رخامية وسقفه مرتفع يقع في شارع قليل الضجيج. ومما زاد في الطين بلة ارتطام الرصاص بالجدران وارتداده بمختلف الاتجاهات يشهد على ذلك سجادة بخاري عندنا لا يزال فيها عشرون أو ثلاثون ثقباً أحدثها الرصاص المرتد. وازداد الطين بلة على بلة بوجود أربعة شرطيين على الأقل خارج المنزل يطلقون الرصاص على البابين الخلفيين ليمنعونا من الخروج.

وهنا أودّ أن أسجل جبن النقيب في سلاح الطيران الأميركي رتشرد أي رول. فقد أعطيته أمراً مباشراً بالخروج من الباب الخلفي والتعامل بالنار مع الشرطيين. فهل تعلمون ما قاله لي؟ «إخرس واذهب إليهم أنت يا راعي البقر، فلست على استعداد لأن يثقب الرصاص قفاي لأساعد رجال وكالتك المختئين». هكذا قال لي بالحرف.

وشعرنا بنوع من الراحة المضحكة عندما رنّ جرس الهاتف وكان المتكلم إريك درايك من شركة النفط الايرانية البريطانية (لاحقاً السير إريك درايك رئيس شركة «بريتش پتروليوم»). رد جيم جيانتي على المخابرة وسمعه يقول: «إننا منشغلون قليلاً الآن». ثم شرح باقتضاب ما يجري وقال: «لأنهم يطلقون النار علينا الآن والرصاص يتطاير في كل الاتجاهات. أشكر لك مخابرتك ولكن من الأفضل ان أقفل الخط لأنهم يطلقون النار عليّ مباشرة».

وهكذا في الواقع أزلت رصاصة فوق رأس جيم وحطمت قنديلاً سقط حطامه أرضاً. وتوقف اطلاق النار داخل المنزل بينما استمر بغزارة خارجة حيث كان إريك رول (ذلك الجبان الذي عصا أوامري المباشرة) يتعامل مع المتسللين اما الصوت في الداخل فكان من نيراننا نحن ومن متسلل واحد يغطي فرار رفاقه من نافذة مكتبي ليساعده في ذلك الشرطيون في الخارج!

استمر اطلاق النار اثنتين وعشرين دقيقة حسب توقيف ستيف ولكن تلك الفترة من اطلاق الرصاص الحي والجدي بدت بطول اثنتين وعشرين ساعة.

انتهت المعركة وفرّ المهاجمون (بسيارة الشرطة دون ريب) فيما سجّل حسني ما أراده. تركني ستيف استقبل أصدقاءنا في المفوضية وتوجه بالسيارة لمقابلة حسني الذي وجده يفيض فرحاً وحبوراً. كان يفقهه جذلاً ولكن عندما بادره ستيف بالقول: «أنا على يقين من انك دهشت لرؤيتي» أدرك مغزى الكلام فوراً وبدت عليه إمارات الندم.

أجاب حسني: «كلا يا ستيف، فما زلت بحاجة لك، العالم كله بحاجة لك! فما قد بدأ عملنا

الآن». وتمتم بشيء عن كيف ان حادثاً صغيراً قد تكون له نتائج مقبولة وان حادثاً أكبر تكون له نتائج أفضل. وعليه خرج ستيف دون التلفظ بكلمة واحدة.

مرت الأسابيع بعد ذلك بسرعة وترتب عليّ بالطبع تفسير أشياء عديدة ولكن متاعبي جاءت نسبية نظراً لابقائي رؤسائي على بينة يومياً تقريباً من نشاطاتنا. ولم يتوان ستيف كيلى عن تحمل اللوم فقد بلغ وزارة الخارجية بأنه كان على علم بكامل العملية منذ بدايتها وبأنه ما زال موافقاً عليها وبأنه إذا كان لوزارة الخارجية رأي مغاير فلتناقشه فيه، وليس لأي فرد من أفراد طاقمي.

لحسن الحظ جاءت تقارير الصحف في طول البلاد وعرضها متضاربة ومشوشة إلى حد أن وكالة الاستخبارات المركزية ووزارة الخارجية صارتا على استعداد للقبول بأي رواية من قبلنا. تضمنت برقية نك الأولى فقط: «نرجو أن يكون كل منكم انت ومعاونوك بخير». وبعد اسبوع اتبعت ببرقية أخرى أكثر جذية ورد فيها: «اننا نتوقع ان تعد تقريراً مفصلاً عن تأثير الهجوم على منزلك وما سيتبع ذلك في مواقف كل من حكومتي الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في سوريا وباقي بلدان الشرق الأوسط».

في تلك الأثناء كان حسني يستغل الوضع إلى أقصى الحدود. فقد صور الهجوم على منزلي في وسائل الاعلام على انه اشارة واضحة إلى ما يمكن أن يحدث لجميع الدبلوماسيين الأجانب إذا لم يحصل تشدد في ضبط الأمن في دمشق. ودعم تحذيره هذا «بتقرير سرّي» استقاه من «مصدر موثوق بصحة معلوماته» (ليس من ستيف ولا مني) أدرجت فيه أسماء اثنتي عشرة شخصية مدعياً تارة بأنها «مستهدفة» من قبل الشيوعيين وطوراً من قبل الاخوان المسلمين. ثم استدعى قادة الألوية للبحث في الوضع الأمني العام وفي شتى وسائل دعم حكومة الرئيس القوتلي «وبالتالي تفادي الحاجة إلى التخلص منها كلياً». وأخيراً «كشف النقاب» عن عدة فضائح داخل الحكومة علم بها أثناء توليه منصب قيادة الشرطة وأصرّ على وصول تفاصيلها إلى مختلف افراد الجيش السوري من أجل زيادة التذمر منها في صفوفه. أما المعلومات الوحيدة التي حصل عليها مني أو من ستيف لمساعدته في هذا الشق من استعداداته فكانت تقريراً صحيحاً من مركز وكالة الاستخبارات المركزية في سويسرا جاء فيه ان وزير الدفاع أحمد الشراباتي يكسب الملايين من صفقات أسلحة مضخمة الاسعار.

كنا على اقتناع مقبول بأن حسني لم يفصح عن أي نية انقلابية أمام أحد من قادة الألوية مع العلم بأن خطته شملتهم دون علمهم. ولكن أسرّ لي مرة صديقي أديب الشيشكلي بأن حسني ألح من بعيد إلى احتمال كهذا. ومن أجل مصلحة ومعلومات المؤرخين في المستقبل أري من واجبي القول بأن القادة الأربعة كانوا أديب الشيشكلي (جركس) ومحمد ناصر (علوي) وبهيج كلاس (مسيحي أزرق العينين وأشقر الشعر) وشوكت شقير (لبناني درزي وأحد أقرباء زوجة آرثشي السفيرة سلوى شقير روزفلت). ولم يكن أي منهم عربياً تماماً، حسب تعبير آرثشي، والأهم من ذلك ان أحداً منهم لم يكن متحمساً لقتال الجيش الاسرائيلي المرعب رغم حداثة تكوينه.

لا بد هنا من كلمة عن أديب الشيشكلي. كان حسني الزعيم صديق ستيف. أما صديقي أنا فكان أديب الشيشكلي وهو محتال محبوب في سجله نقطة واحدة لصالحه: حسب علمي اليقين انه لم يطأ الرأس مرة أمام صنم منحوت. أما من الموبقات فقد ارتكب التجديف والكفر والاغتيال والزنا والسرقه ولم يتوان عن توجيه الاتهامات الكاذبة (دائماً في خدمة قضية انسانية). أما القول بأنه لم «يشته» مقتنيات جيرانه المختلفة «فشح في استعمال الحقيقة» حسب قول شاهد في احدي محاكم استراليا. وإضافة إلى خطايا العادية هذه تعاطى الحشيشة بين آن وآخر وتناول من المسكرات مقادير فاقت ما

يتناسب مع وصفات الأطباء. وخلال زيارته المتقاربة للسجون «استطاع مراودة بعض رفاقه عن أنفسهم» كما جاء في أحد تقاريره إلى القيادة العامة. ولما كان نيك مايكلسون هناك يتتبع باهتمام كبير صداقتي مع تلك الشخصية الفذة في «الثورة السورية المقبلة، شدّد على تلك النقطة في التقرير وأشار في برقية لي بأنه «إذا ما كان عندي البرهان الأكيد عنها» لا بد من تسجيلها من أجل احتمال استعمالها للابتزاز عندما تدعو الحاجة.

وأما من حيث إيجابياته فيتحمّ عليّ القول بأنني عرفت به رجلاً كريماً حتى الجنون ووفياً في صداقته (معي ومع ستيف مثلما مع الآخرين) كما أنه لم يكن دنيئاً أمام مغريات المال. في الساعات الأولى من صباح يوم الأحد في ٢٧ شباط ١٩٤٩، وقيل ان يبصر ابني الثاني نور ذلك النهار سقطت زوجتي عن فراشها. ولما تأخر وصول سيارة الاسعاف لنقلها إلى المستشفى اتصلت بأديب هاتفياً وما هي إلا دقائق حتى رأيته أمامي وقد تعتبه السكر في ليلة شبه بيضاء. فنقلنا زوجتي إلى المقعد الخلفي في سيارته الكبيرة وتوجهنا إلى المستشفى. جلس معي أديب وأخذت الصحوة تدب فيه محل السكر حتى جاء ابني إلى هذا العالم وزال الخطر عن زوجتي. وجاء في سجل الولادات في دمشق اسم أديب اسماً ثانياً لابني ايان كويلاند المدير المسرحي الشهير في نيويورك حالياً والأوحد بين أولادي الذي لا يزال يتكلم العربية والمعروف باسم أديب بين أصدقائه الكثر في بيروت.

دأب أديب، قبل بضعة أشهر من مولد ايان وحتى قيام انقلاب الزعيم، ينبني بشكوكه من ان لدى حسني الزعيم «صديق ستيف» شيء أكبر من مجرد عصيان في الجيش. أما ستيف الذي سبق له أن أجرى عدة مقابلات مع أديب بحثاً فيها الأوضاع في العمق (أحاديثي مع أديب كانت في معظمها استرخائية واجتماعية الطابع) فسرعان ما أدرك ان أديباً، وان كان ينقصه حضور واطلالة حسني وعلى الرغم من انه ليس الرجل الذي سيقبل به الشعب بديلاً عن شكري القوتلي، فهو أذكى من حسني بعشر مرات وسيتحكم بكل حركاته وسكناته فور اعلان الحكومة الجديدة. كان ستيف على حق فما ان استلم حسني الزعيم زمام الحكم حتى تحولت مقاليدته تدريجياً لمصلحة أديب إلى أن ترأس هو، وان ببعض التردد (كما سأوضح لاحقاً) انقلاباً قام به في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٥١.

استمر اديب الشيشكلي في الحكم ثلاث سنوات وعندما انهار حكمه فرّ إلى بيروت ومنها إلى المملكة العربية السعودية ثم إلى باريس في طريقه إلى البرازيل. يعود إصراري على انه لم يكن «دنيئاً أمام مغريات المال» إلى ما بات ثابتاً الآن انه لم يحصل من السعودية على أكثر من بضعة ألوف من الدولارات بعد لجوئه إليها. وإلى انه حين زرته في باريس كان يقيم في غرفة في فندق يقع على الضفة اليسرى يقدم لنزلائه وجبة الفطور فقط، ورفض قبول أي مساعدة مالية مني ولكنني دون علمه حاسبت الفندق لمدة شهر فجاءت الفاتورة أكثر من ٥٠٠ دولار بقليل.

جاء في إحدى الفقرات السابقة، قبل أن يسبح بي الخيال في بحر ذكرياتي الحلوة عن أديب الشيشكلي، قلت إن حسني الزعيم قدم اسهامين بالغى الأهمية في استعداداته للانقلاب: الأول حملة اعلامية تشهيرية برّر بها الانقلاب، والثاني الطريقة التي حال بها دون تسرب أي معلومات عن مخططة قبل بلوغه مرحلة من التقدم يعجز معها أي كان عن احباطه.

وليكّم الطريقة التي اتبعها. في ساعة متأخرة من ليلة الانقلاب أخذ اثنين من السكرتارية الذكور في وزارة الدفاع (أحدهما عميلي فيها!) وصعد بهما إلى الطابق الأخير وجعلهما يكتبان على الآلة الكاتبة أوامر تنص على ما معناه:

ايها الجنود والمواطنون، لقد دقت الساعة العظيمة في تاريخ أمتنا الأبية! ها قد بدأ عهد جديد الآن! انتهينا من الفساد. سقطت دمي الاستعمار والشيوعية (عبارة الشيوعية أضيفت إرضاء لستيف بدون معرفته). وللمرة الأولى منذ قرون طويلة صرنا نحن السوريين شعباً حراً!

... ومضي البيان ينسج على ذلك المنوال. لم يكن قطعة أدبية رائعة ولكنه وفى بالغرض المنشود، خصوصاً وإن اذاعة دمشق أضافت عليه التعابير البليغة التي أعلن بها حسني انقلابه مضيفاً بأن الحكومة العسكرية إنما هي مؤقتة وستزول لدى إمكان إجراء «انتخابات حرة حقاً». واستطرد البيان باصدار الأوامر المحددة: على الوحدة الفلانية ان تفعل كذا وعلى الوحدة الأخرى أن تنفذ كذا، الخ. وضعت الأوامر في مظارييف لتسلم إلى قادة الألوية الأربعة على أن تُفَضَّ بحلول منتصف الليل وليس قبله على الاطلاق. طبع السكرتيران الرسائل حسب أوامر حسني الذي استلمها وختم المظارييف بنفسه ثم قاد الرقيبين إلى خزانة أعدت مسبقاً في الطابق نفسه وزجَّ بهما فيها لما تبقى من تلك الليلة وبرحا فيها منسين حتى تمكن عميلي من تحطيم بابها بعد ظهر اليوم التالي والخروج منها ليرى الوزارة مهجورة ويسمع الأهازيج في الشارع ويتصل بي هاتفياً ليعرف ما فاتته من أحداث ويعتذر عن عدم موافاتي بالتطورات في حينها.

قبيل منتصف الليل استلم قادة الألوية الأوامر في المظارييف المختومة ولما لم يكن لديهم أي فكرة عن محتواها، وكان الوقت قد تأخر ليقدروا ان يفعلوا أي شيء إذا كان المحتوى لا يروق لهم، أخذوا ينتظرون بدرجات متفاوتة حلول الوقت المحدد لفتحها. ولما فتحوها رأوا ما تضمنته من تعليمات واضحة وملحة بحيث تعذر عليهم الاتصال ببعضهم البعض للتشاور فيها فهرع كل واحد منهم لتنفيذ ما أمر به. كان على البعض إلقاء القبض على رئيس الجمهورية وعلى غيرهم إلقاء القبض على رئيس مجلس الوزراء وعلى فريق آخر احتلال محطة الاذاعة ومحطات توليد الكهرباء وغير ذلك من الأهداف المقررة.

* * *

على مدى عقدين من الزمن اعتمدت وكالة الاستخبارات المركزية تدريس خطة حسني التي نُفذت بدقة كدقة الساعة. وهكذا أفاقت دمشق صباح اليوم التالي على أنغام النشيد الوطني السوري المنبثقة من دار الاذاعة تلاه تسجيل بصوت حسني الزعيم أعلن فيه انه تولّى السلطة وسيستمر في الحكم حتى إمكان إجراء «انتخابات حرة ونزيهة»، الخ... وهكذا انتهى الموضوع من حيث برقياتنا إلى واشنطن.

قضيت الأشهر القليلة المتبقية لي من مهمني في سوريا منكباً على دراسة العبر البدائية إلى حد ما التي توصلت إليها من عملية حسني الزعيم ومن مجمل موضوع «التدخل في الشؤون الداخلية للدول ذات السيادة». وخلال فترة انتظاري للمهمة التي سأتولاها في واشنطن كتبت عدداً من التقارير عن الموضوع وجهت منها واحداً إلى وزارة الخارجية دون توجيه نسخة منه إلى وكالة الاستخبارات المركزية، عاجلت فيه نقطتين. الأولى انه ليس في طوقنا، بصفتنا أجنب، فعل شيء لمساعدة دولة مثل سوريا للصيرورة والديمومة عضواً صالحاً في ما درجنا على تسميته العالم الغربي إلا إذا كان ما نفعله قائماً على تفهم عميق لعدم الاستقرار السياسي المزمع الذي يترتب مواجهته على حسني الزعيم أو على أي زعيم آخر في البلد، عسكرياً كان أم رئيساً منتخباً. ووضعت في تقرير تاريخ اللامبالاة الشعبية الطويل في

سوريا وبروز التحالف بين ضباط الجيش الشباب وبين «أفراد المجموعة المثقفة الناشئة بين صفوف الطبقة الوسطى من الشعب» التي دأب الضباط السياسيون في مفوضيتنا على تنميتها وتشجيعها وأوضحت ان الاحباطات الشخصية والأحقاد القديمة والتباينات الاجتماعية الأخرى ستؤدي بالتأكيد إلى نسف أي محاولة باتجاه قيام حكم مستقر بغياب بدائل قابلة للحياة. إن أي حكم يواجه مثل تلك الضغوطات سيرى ان عليه اسداء وعود يعلم تماماً بأنه غير قادر على الوفاء بها وعندئذ تكرر السبحة على غرار انقلاب حسني الزعيم فيأتي قائد تلو قائد حتى يجيء واحد بارع في الكلام والديماغوجية فيعلق الشعب آماله عليه، ولكن ينتهي به الأمر إلى إلقاء تبعة فشله في عدم تحقيق الوعود على عاتق فريق آخر مؤهل لتحميله تلك الاتهامات مثل «الرأسمالية والاستعمار» والولايات المتحدة المؤيدة لإسرائيل.

أما النقطة الثانية والتي برزت على أنها الأهم في التقرير المذكور فكانت اننا بحاجة إلى تفهم أفضل - بل بالأحرى إلى مجرد تفهم - لما يحتمل أن يفعله الشعب السوري أو شعوب مجمل «العالم غير الغربي» باحباطاتهم وبأسباب تواتراتهم. وإذا كانت تلك الشعوب بخلفياتها الحضارية وأنماط دوافعها النابعة من تلك الخلفيات ستلومنا يوماً على ما هي فيه من اشكالات وصعوبات فسيتخذ موقفها المعادي للأميركية شكلاً مختلفاً من شكل العداء الأوروبي للأميركية، إذا جازت المقارنة. ولو كانت تصرفات تلك الشعوب على غرار تصرفات الأوروبيين لكان نسبياً التكهن بها - بل وحتى التأثير فيها» (ابقي كيلى على هذه العبارة في التقرير رغم اعتراض ضابط المفوضية السياسي عليها). وقلت في التقرير أيضاً لو «استطعنا نقل كل السويسريين إلى سوريا وحمل كل السوريين إلى سويسرا لكان بين أيدينا مجموعة مختلفة تمام الاختلاف من مشاكل العلاقات الدولية». بالطبع سيبقى الخلاف بشأن إسرائيل قائماً ولكن سيكون بمقدورنا حله بطريقة عقلانية ما، عوضاً عن العمل المضني في جو مشحون بالعاطفية الذاتية التدمير.

التقرير الاسبوعي («ويكا = Weeka») * * *

تبين لنا في أكثر من نادرة حصلت داخل مفوضيتنا ان تقاليد وطقوس وسلم القيم والربط بين الافعال والنوايا لدى السوريين تختلف اختلافاً جذرياً عنها عندنا. وجاء البرهان الحسي على ذلك أثر فكرة بسيطة طلع بها الملحق الثقافي بوب اوغدن إذ اقترح تبادل الصور الموقعة بين الرئيسين ترومن وحسني الزعيم. إنها لفكرة عظيمة قابلها حسني بحماس عندما طرحها ستيث عليه فتناول فوراً صورته باللباس العسكري تزين صدره خمسة عشر أو عشرون وساماً وسلمها لستيث بعد أن وقعها بالعربية إلى جانب آية قرآنية كريمة كتبت بخط بديع. بالمقابل رحبت واشنطن بالاقتراح وأرسل ضابط العلاقات العامة في البيت الأبيض لبوب اوغدن صورة للرئيس ترومن مشمراً عن ذراعيه يعاون زوجته، بس، بتنشيف الأطباق في مطبخ منزلها العائلي في مسقط رأسه انديبندنس في ولاية ميزوري.

تعذر علينا العثور على سبب مقبول نتذرع به لعدم إرسال صورة حسني تلك إلى واشنطن (لم يكن لدى ستيث ما يكفي من الشجاعة لشرح لحسني الأسباب التي حلمتنا على التقدير بأنها ليست من النوع المناسب إرساله إلى واشنطن) فتبرع ستيث بتقديم صورة ترومن المعلقة على الجدار خلف مكتبه. نزعناها عن الجدار وبمعاونة سكرتيرتي روز والسكرتيرة المسؤولة عن الأختام والتواقيع في وكالة الاستخبارات المركزية في دمشق محونا تحيات ترومن الشخصية لستيث واستعضنا بآية مناسبة من الكتاب المقدس ترجمها يوسف دبّوس إلى العربية بأسلوب أنيق. سرور حسني بالصورة وامتنانه لها لم يُقابلا بالمثل لدى زعمائنا المتخفين في واشنطن. ألقوا عليها نظرة واحدة واستتجوا بأن أسوأ تقديراتهم قد تحققت : لقد جئنا إلى سدة الحكم في سوريا بعسكري فاشي. من ناحية أخرى لم نرد بالقول بأننا لو

قدمنا لحسني صورة رئيسنا المرسله إلينا من قبل البيت الأبيض لقال حسني وضباطه إن فلاحاً أبله يحكم الولايات المتحدة.

وكان هناك أيضاً الاستاذ داوود، استاذ اللغة العربية في المفوضية، وأجوبته عن أسئلة فضولية طرحتها عليه في أحد دروسنا. ينتمي الاستاذ داوود إلى طبقة ذوي الياقات البيضاء (عمل غير يدوي) القليلي العدد في سورية الذين يجراًون على التحدث بالمواضيع السياسية. أخبرنا الاستاذ داوود مرة بأنه ينتمي إلى حزب البعث الذي أسسه ميشال عفلق. والاستاذ داوود أكثر إلماً بما يجري في العالم من خريج جامعة أميركية عادي. سألته عن رأيه بالمصاعب التي تواجه حكم حسني الزعيم وعن رأيه في معالجة الحكم لها. جاءت أجوبته تنم عن حسن الاطلاع وعن سلامة في التفكير وعن نقد ذكي. وعندما سألته عما كان ليفعله هو حيال تلك المشاكل لو انه في موقع مستشار عند حسني الزعيم، أغرقني في فيض من الاجوبة الخيالية والسيناريوهات المستوحاة مباشرة من حكايات السندباد.

منذ مجيء حسني الزعيم إلى الحكم وحتى انتهاء فترة خدمتي في دمشق في أواسط العام ١٩٥٠ كنا عاطلين عن العمل كلياً لولا ما أسماه شرمين كنت «الاستخباراتية الخلاقة». يقال إن رأس البطل معمل الشيطان. صحيح، لقد فكرنا ان قليلاً من «الاستراتيجية الخلاقة» المفيدة قد تتمخض عنها عقولنا العاطلة عن العمل نسبياً شرط ألا ينتج عنها أي ضرر جانبي. في الواقع عندما أخذت ألق التقارير نيابة عن مختلف الملحقين بالمفوضية لم أكن أقصد سوى التسلية البسيطة وإشباع رغبتي بالكتابة الأدبية بسخرية لاذعة. وبمرور الوقت تحول هذا النشاط البريء إلى وسيلة مثالية أسمع بها حكومتنا ما يجب أن تسمعه لابعادها عن ارتكاب بلاهة ما فيها أضمن تقاريري الموجهة إلى وكالة الاستخبارات المركزية ما يقارب حقيقة الواقع.

توفرت لي فرص القيام بذلك إثر فرض البنتاغون علينا إرسال تقرير اسبوعي، صار يُعرف باسم «ويكا» وهو عبارة عن مختصر للأحداث تعده لجنة تلتئم صباح كل يوم جمعة وتتألف (في مفوضيتنا) من الملحق العسكري وملحق السلاح الجوي وضباط الشؤون السياسية في المفوضية ورئيس الفرع المحلي لوكالة الاستخبارات المركزية والوزير المفوض جيم كيللي. بالطبع احتفظت بمعلوماتي الهامة حقاً للقنوات التي أرسل بها وإليها تقاريري الجدية. ولكنني استعملت «ويكا» وسيلة للتعبير عن العرفان بجميل صديقنا ملحق سلاح الجو جيم جيناتي لسماحه لنا باستعمال طائرته الفخمة. يحمل جيم شهادة دكتوراه بالفيزياء النووية وله عقل معقد يتناسب معها كما ان اتقانه الرائع للغة الانكليزية يأتي في المرتبة الأولى اكاديمياً ولكنه لا يتناسب مع ضوابط اللغة المستعملة في البرقيات الحكومية. لذلك كانت تقاريره بأمس الحاجة إلى مساعدة لجهة التحرير فكنت بمنتهى السعادة أبادر للقيام بمهمة تديبها عنه نظراً لأنني رأيت ان تحرير التقارير التي تُرسل إلى قيادته وليس إلى قيادتي يتيح لي فرصة فريدة لاطلاق العنان لمخيلتي في السعي لايجاد وسيلة لردم تلك الهوة الحضارية.

الفت بعض التقارير الباهرة فنالت حقها من تقدير جيم وكانت النتيجة انني حصلت على رحلات بطائرته أكثر مما حصل عليه كيللي بنفسه، وصار موظفو المفوضية المؤيدون لي ولجيم يشاركونا في رحلات آخر الاسبوع إلى طهران أو كينيا أو فيينا أو أي مكان نقرر زيارته فجأة دون سابق تخطيط له. وهذه الرحلات تفسر: فلكي يحصل جيم على دراهم «بدل طيران» كان عليه أن يطير عدداً معيناً من الساعات في الشهر فرأى أن من الأفضل له ولسلاح الطيران الذي يمثل اكتساب مودة أفراد المفوضية عوضاً عن الدوران ساعات طويلة فوق دمشق. وصار يأتي كل يوم خميس تقريباً يقف بباب مكنتي مبتسماً كطالب ينتظر عطلة نهاية الاسبوع ويسألني: «هل من اقتراحات جديدة؟»

لم يخل الأمر بين آن وآخر ان استعملنا الطائرة صبياناً إلى حد ما ومنها مرة انزلنا فيها الاستاذ داوود بالمظلة في منتصف الليل وفي قلب الصحراء حيث سيعثر على معلومات هامة يعود بها إلى الملحق العسكري الذي أخذ يستخدمه «عميلاً» له. (عندما جاءنا مفتش من سلاح الطيران من واشنطن واعترض على العملية لأنها «غير مجازة» اضافة إلى ان جيم قاد الطائرة وهو تحت تأثير المسكرات، أجابه جيم: «اسمع يا بني، لقد قضيت من ساعات الطيران وأنا سكران أكثر مما قضيته أنت وأنت صاح»). وفي مجمل الحالات اثبت التعاون بين مكتب ملحق سلاح الجو ومكتب وكالة الاستخبارات المركزية انه أفاد الفريقين. فعند عودتي إلى واشنطن علمت بأن التقارير التي أعدتها نيابة عن جيم وباسمه اعتبرت أفضل بكثير من تلك التي أعدها بكل صدق واخلاص أفراد لجنة «ويكا» الآخرون كما حصلت على تنويه من رؤسائه.

فتح استخدام الملحق العسكري لداوود «عميلاً» له مجالات جديدة متعددة. فبعد ان انزلناه بالمظلة في الصحراء قضى المسكين اسبوعاً كاملاً حتى اهتدى إلى طريق العودة إلى دمشق واكتشف خلاله ان خدمة سيّدين معاً، وأنا أحدهما، هفوة فادحة. صباح يوم الاثنين، وبعد عودته من نزهته الصحراوية، دخل الاستاذ داوود مكتبي باكياً ليقصّ عليّ الحكاية كاملة كيف أن «العقيد ماثيسون» (حتى لا أذكر اسمه الحقيقي) هدّده بأنه سيفقد وظيفته التعليمية إن هو لم يقدم الخدمات الاضافية المطلوبة دون زيادة في الراتب. وقال وهو يجھش بالبكاء: «يريدني أن اتجسس له»، وأضاف بأنه لا يتمتع بالأهلية اللازمة للعبة التجسس فضلاً عن انه يفتقر إلى المصادر اللازمة لاستقاء ما يطلبه العقيد ماثيسون من معلومات. والأسوأ من هذا انه خشي من انه إذا ازداد فضوله بين معارفه من ضباط الجيش ستنتفض عليه المخابرات والمعروف ان أفرادها يتعاطون بقسوة مع أمثال داوود ويخاطبونهم على النحو التالي: «أنت تجمع معلومات عسكرية لذلك العقيد الأبله في مفوضيتكم؟» هكذا يصرخون بوجهه ثم يقولون: «كلام فارغ. لا شك في انك تتجسس لذلك الخواجا في وكالة الاستخبارات المركزية وتزوده بالمعلومات ليرسلها بدوره إلى أصدقائه في اسرائيل».

كان قبول داوود بما عرضناه عليه من معلومات مزعومة سيحصل عليها في الصحراء عائداً إلى شعوره باليأس. أما الآن وقد اكتوى بما حصل له في الاسبوع الأسبق صار يحسب أنني بما لي نفوذ خفي استطيع انقاذه من ورطته وكذلك ابقاءه في وظيفته.

ولكن خطرت لي فكرة أفضل. قلت للاستاذ داوود: «إذهب إلى العقيد ماثيسون وقل له بأنك لا تستطيع القيام بعمل جاسوسي احترافي لحسابه إلا إذا كان لديك مخبرون داخل الحكومة نفسها، وان مثل هؤلاء المخبرين يكلفون مبالغ طائلة. لذلك لا بد لك من حساب للانفاق». عند ذكر حساب الانفاق هذا لمعت عينا داوود. ولما أفصحت له عن افكاره - بأنه ليس بحاجة إلى مخبرين وان بإمكانه الاحتفاظ لنفسه بأموال حساب الانفاق تحول بريق عينيه إلى نشوة. وقلت له ان باستطاعتي تزويده بكفايته من «الجواسيس» لتسريب معلومات أفضل لذلك التيس العجوز وأكثر مما توقعه منها. ابتسم داوود جذاً وخرج متمتماً يندب افتقاره إلى التعمق الكافي في اللغة لتمكينه من انجاز تأليف الكتاب الدراسي المطلوب منه لتعليم الدبلوماسيين الأميركيين اللغة العربية.

اكتشفت ان سعة المعلومات قد تحمّل صاحبها عبثاً ثقيلاً. وسرعان ما أبلغت المفوضية كلها بالمشروع فصارت «ويكا» أشبه بالمزحة. وعندما حاصرني ايغور فيدورنكو في إحدى الحفلات الدبلوماسية ليسألني: «ما هي تلك الويكا عندك؟» كدت ويكل جدية أن أقيضه بها مقابل التقرير

الاسبوعي المشابه الذي بلغني أن السفارة السوفياتية ترسله إلى المعنيين في موسكو. على كل حال وطيلة الفترة التي بقيت لي لمغادرة دمشق كانت «ويكا» التسليية الوحيدة لنا جميعاً، بما فينا جيم كيلى، نحول بها أفكارنا عن القضايا الجدية التي ترسل عنها مختلف فروع المفوضية، باستثناء الملحق العسكري، تقاريرها كل عبر قنواته الصحيحة.

أما سكرتيري روز فهي على مهارة فائقة في استنباط حالات تجسسية خيالية حتى انني ارتبت في انها تكتب روايات جاسوسية وبوليسية، مهمتها تلقى اجراءات بتعيين أو طرد أو «تحييد» مصادر للمعلومات بغية تبرير رصد المال لحساب داوود وجعله يبدو على انه يقدم الخدمات التجسسية الجليلة. وكانت التقارير تكتب بلغة انكليزية بليغة ثم تُترجم إلى انكليزية داوود الركيكة ونشارك جميعاً بوضعها باستثناء دين هيتون الذي كانت له أسبابه الغريبة لعدم مشاطرتنا التسليية. فهو الوحيد بيننا الذي لم يفرّثغره عن ابتسامة في كل مرة قاطع العقيد مائيسون النقاش الدائر في جلسة لجنة «ويكا» ليقول: «إن لدى مصادرني (لاحظوا استعمال صيغة الجمع) قراءة مختلفة للموضوع». لا داع للقول بأن التناقضات بين التقارير النظامية الصادرة عن المفوضية وبين «مصادر» العقيد كلها ملفقة. فقد اعتبر كيلى ان بعض التناقضات في النص تضيف على «ويكا» مسحة من الوجودية الفكرية يستسيغها انصاف الأميين من القراء في البنتاغون.

كان كيلى على حق وكذلك باقي أفراد المفوضية بما فيهم العقيد مائيسون، إنما رغباً عنه. وعلى الرغم من الموقف المتكبر الذي يتخذه رؤساء المكاتب في وزارة الخارجية تجاه أي شيء يصدر عن العسكريين فقد لقيت تقارير «ويكا» ترحيباً حاراً في الخارجية شأنها في البنتاغون كما ان وكالة الاستخبارات المركزية نفسها استخرجت منها من المقتطفات التي ضمنتها تقاريرها إلى البيت الأبيض أكثر مما استخرجت من تقاريري الأكثر جدية. كانت «ويكا» مختصرة وتعالج الموضوع مباشرة وهي مع ذلك مشبعة بتعابير يتعشقها أنصاف الأميين في مختلف الفروع: «الوسائلية» عوضاً عن «الوسيلة» و«المجتمعي» بدلاً عن «اجتماعي» و«استنظار» محل «توقع» و«الأطر» عوضاً عن «الحدود» هذا إضافة إلى فيض من العبارات المركبة مثل «عكسية الانتاج» و«الأطر المرجعية» و«القفزات الكمية» و«إضافة بعد جديد» وما يكفي من التركيبات الكلامية لإرضاء أكثر البيروقراطيين تزمناً. وإذا ما كان أحدكم أيها القراء يعدّ رسالة للدكتوراه عن سوريا ما بعد الحرب فعليكم استعمال حقكم في حرية المعلومات من أجل مراجعة تقارير «ويكا» التي وردت من دمشق بين عامي ١٩٤٧ و ١٩٥٠. ففيها تجدون تأريخاً تفيدون منه. انه متناسق مع الحكمة التقليدية في هذه الأيام ومع ما أسماه لينين «اسطورة الشعب» كما يحتاج إلى انثروبولوجي حضاري لتفسير الرسائل والبرقيات التي تعبر عن تقويمنا كاختصاصيين للمناطق التي نعمل فيها.

لم ير ستيف ميد ما يضحك في تنكيتنا على العقيد مائيسون وعندما ارتفع الضحك في المفوضية إلى أعلى ما يستسيغه ذوقه طلب اعادته إلى بيروت حيث فضل العمل مساعداً للملحق عسكري غربي وجنتلمن على العمل مع غبي لا صفة أخرى له. وأوضح قائلاً: «الذوق هو قضية ذوق فقط». غير أن السبب الحقيقي لقراره هذا هو احتمال عودته إلى العمل مع آرثي روزفلت الذي كان في أواخر العام ١٩٤٩ قد قطع شوطاً لا بأس به في استقطاب أشخاص من الأرمن والأكراد والجراكسة وغيرهم من أفراد الأقليات وتهريبهم إلى داخل الاتحاد السوفياتي عن طريق غرب تركيا. وثمة نبذة أخرى لا بد من ذكرها وهي قبول ستيف بتأدية دور «الرائد لينكولن» بطريقة أنقذت للحكومة الأميركية أحد أهم عناصرها الاستخباراتية، أي شخصي الكريم.

وفيما أخذ الصحيح والملفق من الحكايات يتكاثر في مختلف أنحاء الشرق الأوسط عن صعود وهبوط حسني الزعيم كان وليّيم دوغلاس، القاضي الظريف في المحكمة العليا الأميركية يقوم باحدى جولاته المعتادة على نقاط المغامرات في الشرق الأوسط وأواسط آسيا. بعد وليمة عشاء أقيمت في السفارة الأميركية في طهران لاحظ القاضي ان ثمة من يسترق السمع للحديث السري بينه وبين السفير. كان المتنصت هو الصحفي الشهير درو پيرسون صاحب عمود «أرجوحة واشنطن الدوارة» المتعاقد لنشره مع صحف عديدة في ظاهر الأمر بدا پيرسون في نقاش حادّ مع الضابط السياسي في السفارة، ولكن القاضي والسفير يعلمان تماماً بقدرته على الاشتراك في نقاش في احدى زوايا الغرفة واستراق سمع كل كلمة يهمس بها في الزاوية الأخرى.

هنا حبك القاضي أحد مقالبه وراح يهمس في أذن السفير قصة مفادها انه في رحلته الأخيرة إلى المنطقة الكردية في شمال ايران كان يشوي اللحم فوق نار المخيم فطلع عليه من بطن الليل الدامس رجل يرتدي البسة محلية وعرف عن نفسه باسم «الرائد لينكولن» وأعطاه رسالة شفوية لينقلها إلى السفير ثم عاد واختفى في عتمة الليل. وتظاهر القاضي بأنه يهمس الرسالة في أذن السفير وراح هذا الأخير يهز رأسه استيعاباً. في الاسبوع التالي ظهرت حكاية «الرائد لينكولن» على صفحات بضع مئات من الصحف الأميركية وبضع عشرات الصحف في الشرق الأوسط ململمة حول نفسها تفاصيل جديدة كلما انتقلت من بلد إلى آخر.

ولما كانت السفارات الفرنسية في الشرق الأوسط على علم من سجلات دوائر استخباراتها بأنني استعملت اسم «الرائد لينكولن» المستعار في الحرب العالمية الثانية، تبادر لها فوراً بأنني ذلك الرجل الذي شاهده القاضي دوغلاس في ثياب مستغربة الشكل والألوان في شمال ايران. وعليه راحت تلك السفارات تستعلم عني لدى الاستخبارات الايرانية والعراقية وغيرها مثيرة اهتمام مختلف دوائر الاستخبارات والتجسس في الشرق الأوسط طويلاً وعرضاً. وسخر صديقي ن. النشاشيبي من وقته وهو يحاور جلالة الملك عبدالله عاهل الاردن لكتابة مقال طويل في امتداحي على انني أفضل هدية قدمتها أميركا للدبلوماسية في الشرق الأوسط، نشرها في الصحيفة التي عمل فيها سابقاً. وقال لي في اليوم عينه: «عندما تصل أنباء المقال إلى واشنطن عليهم أن يعينوك سفيراً».

من ناحية أخرى اعتمدت أربع أو خمس هيئات أمنية أخرى في الشرق الأوسط مواقف مختلفة حيال الموضوع. فأظهر أديب الشيشكلي اهتماماً واضحاً وأرسل ستة من الرجال الأشداء باللباس المدني لحمايتي على مدار الساعة. وحذر الأمير فريد شهاب، مدير عام الأمن العام اللبناني، آرثي من أن بعض السفاحين العراقيين مروا لتوهم ببيروت في طريقهم إلى دمشق لاغتيالني. غير أنني بمساعدة نصري الذي شعر بالندم شيعت معلومات تفيد بأن «الرائد لينكولن» المشبوه انما هو في الحقيقة الرائد ستيف ميد وليس أنا، وألمحت إلى انه إذا كان القتل يريدون حقاً أن تُحفر أسماؤهم في التاريخ عليهم اغتياله هو لا أنا. واعتبرنا أنا وجيم كيلى ان من الأفضل عدم ابلاغ ستيف بالتضحية الجليلة التي قد يقدمها خدمة لبلاده. وكنا على أتم اليقين ان باستطاعتنا الاعتماد إلى آخر المطاف على اخلاصه للوطن وعلى شجاعته. على كل الأحوال كان ستيف على وشك ان يُنقل إلى مركز آخر، كما كان كيلى قد اتخذ كل الاجراءات مع نظيره في بيروت لوضع ستيف وعائلته على أول سفينة من سفن شركة «اميركان اكسپورت لاينز» تغادر بيروت. علم ستيف بالاسهام الذي قدمه لخدمة المصلحة القومية من ضابط في الاستخبارات الفرنسية متوجه على السفينة عينها لقضاء عطلة في فرنسا. وأخذ الحكاية بروحه

الرياضية كما كنا متأكدين. وبعد وصوله إلى الولايات المتحدة بعث برسالة عاطفية لي ولجيم كيلى يشكرنا فيها على توفيرنا له الفرصة تلو الفرصة لخدمة بلده.

(على فكرة، بعد بضعة شهور على الحكاية اخبرني القاضي دوغلاس ان اسمي المستعار «الرائد لينكولن» قفز فجأة من عقله الباطن، ولعل ذلك عائد إلى انني اخبرته حكايات مثيرة متعددة عن «الرائد لينكولن» خلال لقاءاتنا على العشاء عند الجنرال لوتن وإلى ان الاسم قد اعجبه).

بغيا ب ستيف وباستغناء أديب الشيشكلي عن نصائحنا في برمجته للانقلابات المتعاقبة التي سترفعه إلى سدة الحكم صارت حياتنا نحن التنفيذيين سواء في دمشق أو في بيروت شبيهة بحياة الطالب الداخلي في الجامعة إبان عطلة الصيف عندما يكون الطلاب الآخرون قد ذهبوا إلى بيوتهم. وانتهى بي الأمر إلى الملل من تلفيق تقارير «ويكا» صباح كل يوم جمعة. ولما علمت باسم بديلي حوّلت مواهبي إلى نصب الافخاخ في طريقه. لم تدرج وكالة الاستخبارات المركزية في بداية عهدها على جميع الخبرات السابقة والافادة منها بل كانت المحطة تبدأ من الصفر كلما عُين لها مدير جديد. ويرى المدير هذا ان مهمته جلاء الفوضى التي خلفها سلفه واعداد مسرح جديد لنفسه يؤدي عليه دور البطل الرئيسي. أما المدير المنقول من المحطة فيرى الأمور من زاوية مختلفة. ففي سعيه لجعل رؤسائه في واشنطن يتحسرون على «الأيام الحلوة الماضية» يترك لخلفه ما يكفي من المشاكل والعقد ليشغل في حلها كل دقيقة من وقته فلا يبقى له هنيهة يعيد فيها كتابة التاريخ. من هذا المنطلق حرصت على ان يجد بديلي، واسمه المستعار والتر سندرسون، ما يلزمه من القضايا الوهمية ليشغله عن محاولة التقليل من أهمية ما قمت به من أعمال متواضعة.

وجدت في بديلي بعد لقائنا رجلاً طيباً جداً أمنيته الوحيدة «الاستمرار في تأدية العمل الممتاز الذي قمت به وألهمنا، نحن المستجدين في خدمة وكالة الاستخبارات المركزية لمتابعة مسيرتك»، كما جاء في عباراته المدروسة بعناية فائقة لبدء تعارفنا. ظننت لبعض اللحظات انه ربما يعني حرفية ما قاله ولكن سرعان ما أضاف بأن نك كان قد حذره مما يخبىء الدهر له ان هو يُظهر ما يليق بي من احترام ومن انني سأكون الضابط المسؤول عنه عند عودتي إلى واشنطن ومن أن كل ما سيبعث به من رسائل إلى واشنطن سيمر بي قبل بلوغه أي شخص آخر في الوكالة. قلت له: «إن بقاءك إلى جانبي لن يُحسرك شيئاً». وأدركت بأنه استوعب كل معاني ما قلت له عندما رأيته خلال الاسبوع الأول من استلامه عمله يُعد مسروراً بل جذلاً المواد اللازمة لداوود لتحويلها إلى العقيد ماثيسون استعداداً لتقرير «ويكا» التالي. فتنفست الصعداء.

الفصل الثاني عشر

واشنطن والجيل القذرة

استلمنا وانا وأرتشي روزفلت مراكزنا في دمشق وبيروت في التاريخ ذاته وكذلك حان نقلنا إلى مراكز أخرى في موعد واحد. ولكن وقبل شهر تماماً من اليوم المحدد لسفرنا إلى الولايات المتحدة انحرفت صحتنا فأصيب أرتشي باضطرابات في القلب يبدو انها وراثية في أسرته ونزل بي داء اليرقان المعدي الذي ينتاب كل الذين يقضون فترة خدمة طويلة في الشرق الأوسط. وحلت بنا طائفة من التوعكات اللطف وقعاً كالالتهابات المعوية أثر نزعات متعددة قادتنا إلى قلب الصحراء في سوريا والأردن والعراق، لا يتسع مجال هذا الكتاب لذكرها. فدخلنا مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت في الوقت نفسه وكذلك غادرناه معاً.

ولما ودعنا المستشفى واجه أرتشي المسكين أوضاعاً صعبة في آخر أيام خدمته في بيروت. فقد هربت زوجته مع طبيبها النفسي، وبعث السفير بنكرتون بتقرير من بيروت إلى واشنطن مفاده أن تصرفات أرتشي «مغمغرية» وهي كلمة وافق عليها نك مايكلسون في واشنطن بعد أن أعياه التفتيش في معجمه عن معناها ودون موافقته في هامش تقرير السفير وضمه إلى ملف أرتشي الشخصي في الوكالة.

وهكذا تواجدنا في العام ١٩٥٠ أنا وأرتشي في الولايات المتحدة، أنا في واشنطن أعاون نك مايكلسون في فصل الخيال عن الواقع في التقارير التي بعثنا بها خلال ثلاث سنوات، وأرتشي في نيويورك يراقب برامج صوت أميركا الموجهة إلى الشرق الأوسط وأفريقيا. أحببت نك ولكن أرتشي مقته. وكان قريبه كريمة (أو كيم) روزفلت قد تبوأ مركزاً هاماً في وكالة الاستخبارات المركزية خلق لنا توترات أثرت فينا جميعاً وفي أرتشي أكثر منا. إضافة إلى كل ذلك استاء جداً من الملامات التي وُجّهت إليه وكانت آخر كلماته لي أثناء صعوده سلم الباخرة «اكسكالير» التي أقلته إلى نيويورك انه لن يقو على مقابلة محامي زوجته يطالبه بالطلاق في الاسبوع الأول لوصوله ثم مقابلة نك مايكلسون في الاسبوع التالي. لذلك قبل بالوظيفة التي عُرضت عليه في اذاعة صوت أميركا.

وهكذا افترقنا وراح كل منا في طريقه ولكن بقي فكري معه. وبعد أن تركزت في واشنطن حددت لنفسي مهمة في الأمم المتحدة تدوم اسبوعين لكي أتمكن خلالها من الاطمئنان إليه في عمله الجديد. وفي أحد الأيام طلبني على الهاتف وأنا أحاول التخلص من سكرة الليلة السابقة وقال: «لن نصدق ذلك، ولكنني التقيت بفتاة، صبية، جمالها يسيل دمع عينيك».

قلت: «أنت وفتاة، هل حان ذلك لك والخبر لم يجف بعد عن أوراق طلاقك؟» قال: «لا، أنا جاد في كلامي. هذه المرة انتهى الأمر وأود أن تتعرف إليها هذا المساء». سألته: «كيف شكلها وكيف هي؟ هل تنتمي إلى مجتمع بوسطن؟ أم انها من طبقة المفكرين في نيويورك؟ أو لعلها نجيمة صاعدة في أفلاك هوليوود؟»

قال: «كفاك تذاكياً يا حمار. كم من سامي حقيقي قابلت في حياتك؟ اليهود؟ كلهم صقالبة. السوريون واللبنانيون؟ كلهم حثيون. ولكن هذه الفتاة صافية، أعني سامية قح. إنها درزية. حتى أن رأسها قصير!»

صحت في نفسي: «أخذته موجة الغرام!» ثم قلت له: «حسناً ستتناول العشاء معاً هذا المساء».

وهكذا تعرفت بسلوى شقير. هل قال آرتشي انها جميلة؟ ما زالت سلوى قرة عين آرتشي وصارت أيضاً السفيرة روزفلت رئيسة دائرة المراسم في ادارة ريغن، وهي وان ناهزت الخمسين من العمر ما زالت تستلفت الأنظار. فكيف إذاً بأنسة تخرجت لتوها من كلية فاسار للبنات وهي في العشرين؟

بعد فترة قصيرة من الزمن عاد آرتشي والتحق بوكالة الاستعلامات المركزية وسلوى إلى جانبه على انها أمينة سره الخاصة وغير الرسمية. وكان قريبه كيم في تلك الأثناء قد أحدث انقلاباً داخل الوكالة فأطاح بـنك مايكلسون وركّنه في وظيفة وضيعة في دائرة التسجيل، وجعل نفسه المشرف ليس فقط على عمليات جمع المعلومات في الشرق الأوسط وجنوب شرقي آسيا وأفريقيا بل وعلى عملنا الجديد في تلك المناطق المتضمن العمل السياسي والحرب النفسية والحرب الاقتصادية وكذلك الأعمال شبه العسكرية. عُيّن نائباً لـكيم لشؤون الاستعلامات وأعطيت مجاًلاً واسعاً للاطلاع على نشاط نائبه الآخر نـد لوكارد المسؤول عن عمليات القسم السرية غير المتصلة بجمع المعلومات. وعملنا جميعاً بقيادة فرانك وايسنر رئيس المنظمة الجديدة التي انشئت أثناء غيابنا، وسميت: «مكتب تنسيق السياسات»، أي انها تحولت إلى الذئب الذي يحرك الكلب كله. ولما كان آل روزفلت وآل دالس أصدقاء قدماء ولما كنت على علاقة حميمة بالاسرتين صارت الزمرة المؤلفة منا نحن الثلاثة تشكل فريقاً مستقلاً. من ناحية أخرى درج فرانك وايسنر على دعوة كيم إلى مكتبه (مظهراً له الكثير من الاهتمام به) للوقوف منه على معلومات ليس هو في الواقع بحاجة إليها، أو على دعوتي ودعوة آرتشي للغرض نفسه (متخذاً معنا موقف القائد الصارم) فقط لتذكيرنا بأنه رئيسنا.

تعرفت إلى كيم في أواخر العام ١٩٤٧ عندما قمنا أنا وآرتشي برفقته بجولة على القلاع الصليبية وأمكنة غير مطروقة كثيراً في سوريا ولبنان. مرّ على صداقتنا أربعون سنة كان كيم في عشر منها رئيسي والمدافع عني (يحميني من مختلف الذين عملت بأمرتهم، وخصوصاً من ذلك هلمز، الذين لم ينفكوا عن محاولة سلخ جلد رأسي لأسباب ما زلت أجهلها). كما كان خلال خمس عشرة سنة أخرى زميلاً في العمل ثم في الخمس عشرة سنة الأخيرة صديقاً للعائلة تتقلب صداقته صعوداً وهبوطاً بشكل متعاكس مع أوضاعي الخاصة. (كيم صديق عند الضيق. عندما أربح مليون دولار تسمعه يقول لاصدقائنا المشتركين: «انني قلق على مايلز». وعندما أخسرهما يقف بجانبني وهو على أتم استعداد لاعطائي كل ما يملك بما في ذلك القميص الذي على ظهره. وقد أشار عليّ ابنه جونانثن مرة بأن أذهب إلى أبيه ببذلة رثة وأدعي الافلاس واستدين منه عشرة آلاف دولار فتعود عندئذٍ علاقتنا إلى سابق عهدها ويرجع كيم فيدخل حياتي من جديد صديقاً ومحسناً).

إبان غيابنا عن واشنطن، أنا في دمشق وآرتشي في بيروت، حدثت أشياء كثيرة كان البعض منها على مستويات رفيعة داخل الحكومة حيث اشتد التنافس على السلطة والنفوذ في أعقاب إصدار مجلس الأمن القومي القرار رقم م. أ. ق ٤ الذي حدّد لوكالة الاستخبارات المركزية صفتها الرسمية، وقرارات أخرى لاحقة مبنية على ادراك الحكومة المفاجيء بأنه إذا كان علينا أن نجابه «النشاطات السرية الشريرة التي يقوم بها الاتحاد السوفياتي لتشويه غايات ونشاطات الولايات المتحدة» فمن الأخرى بنا القيام بنشاطات شريرة غايتها مصلحتنا. ولكن لما كان هذا الكتاب سيرة ذاتية لا كتاباً عن وكالة الاستخبارات المركزية (يوجد ما يكفي منها في الأسواق) فلن أرهق القراء بسرد التجاذبات الادارية التي حصلت نتيجة تلك القرارات، بل سأركز على التطورات التي طاولتني شخصياً وأعطت العمليات السرية منحاسها وصرت فيها من الاختصاصيين مع بعض التسامح.

لدى عودتي من سوريا عام ١٩٥٠ استرعى انتباهي بشكل خاص ذلك التباين الواضح بين نوعية موظفي مكتب تنسيق السياسات ونوعية أولئك العاملين في مكتب العمليات الخاصة. فمعظم موظفي مكتب العمليات الخاصة هم مثلي من موظفي الاستخبارات المحترفين القدامى في مكتب العمليات الخاصة انضم إليهم بعض الموظفين السابقين في مكتب التحقيق الاتحادي الذين التحقوا بنا بعد الحرب اثر استلام وكالة الاستخبارات المركزية أعمال القسم المختص بشؤون أميركا الوسطى والجنوبية في مكتب التحقيق الاتحادي. كان معظم أفراد مكتب تنسيق السياسات من أصدقاء فرانك وايسنر أو آلن دالس الذين عادوا بعد الحرب إلى ممارسة المحاماة أو إلى جامعاتهم، علماً بأن بعضاً من الاختصاصيين بشؤون مناطق معينة هم أصلاً من أساتذة الجامعات. كان معظم موظفي مكتب العمليات الخاصة يعتاشون من رواتبهم ويقيمون في منازل متواضعة في فرجينيا القريبة. وبالمقابل بدا لي ان أكثر أفراد مكتب تنسيق السياسات هم من الأثرياء أصلاً وأعضاء في النوادي الفخمة يقيمون في منازل أنيقة في ضاحية جورجيتاون أو في مرتفعات وسلي.

أسوق على ذلك مثلاً فأقول بأن منزل نيك مايكلسون ومنزلي يقعان في مشروع سكني وكلانا يذهب إلى عمله يومياً بالباص. أما فرانك وايسنر وديس فيتزجيرالد وجوني بروس وغيرهم من كبار مكتب تنسيق السياسات فيقيمون في ضاحية جورجيتاون ويملك كيم روزفلت منزلاً فخماً وواسعاً في مرتفعات وسلي قريب من منزل المحسن الآخر إليّ السناتور جون سباركمن وقبالة منزل الجنرال والتر ب سميث. على الصعيد الاجتماعي يتخالط أفراد مكتب تنسيق السياسات فيما بينهم وكذلك مع شخصيات مجتمع واشنطن وتظهر أسماؤهم في أعمدة النشاط الاجتماعي في الصحف الهامة كالواشنطن بوست والايثنيغ ستار. أما موظفو مكتب العمليات الخاصة فعلى علاقات ودية بين بعضهم البعض وخلال وجبات غداء العمل، كما قامت علاقات صداقة حميمة بين البعض منهم أثناء فترات تزامنهم خارج الولايات المتحدة.

تنافس العملاء داخل الوكالة

جئت على ذكر ذلك لصلته المباشرة بوضعي الخاص باعتبار انني أخذت أبتعد عن مجال جمع المعلومات التجسسية وأتوجه نحو العمل الخفي نظراً لمواهيبي التي شرعت بتنميتها في دمشق وكذلك بفضل كيم روزفلت الذي قدّرها حق قدرها. صباح أحد أيام العمل دخل مكتبي مليونير شاب يشغل وظيفة متواضعة في قسمنا المتصل بمكتب تنسيق السياسات وقال لي: «إن فرانك ليس مغتبطاً للطريقة التي عاجلت بها قصة الباكستان».

سألته: «فرانك؟ أي فرانك؟»

أجاب: «فرانك وايسنر». تساءلت في نفسي عما كان ذلك الفتى يفعل من وراء ظهري بالتحدث إلى رئيسي؟ ولما رأى دهشتي قال: «تحدثنا قليلاً في الموضوع أثناء العشاء مساء أمس في بيت آلن».

لم يسبق لي أن دُعيت لتناول العشاء سواء في بيت فرانك أو في بيت آلن، الذي كان في ذلك الوقت «المستردالس» بالنسبة لي، إلا كمُدعو ثانوي عند أحدهما في حفل استقبال مسؤول مخبراتي كبير في دولة أجنبية. وعليه فإذا كان موظف صغير في مكتب تنسيق السياسات متمرن عندي يستطيع الثروة معهم أثناء العشاء بشأن أمور عظمى تهم الدولة بينما أقف أنا في الصف بانتظار مقابلة أحدهما في ساعات الدوام فذلك يعني بأنني أقف في الجهة المغلوطة من الدار مزوداً بالدعم المغلوط كذلك.

بعد ذلك بيومين قامت بيني وبين فرانك وايسنر مشادة كلامية حادة نسيت تفاصيلها ولكني ما زلت أذكر اني قلت له: «اسمع يا فرانك اننا نتناقش في موضوع أفهمه تماماً بينما أنت لا تعرف عنه شيئاً

على الاطلاق. فلماذا إذاً لا تكتفي بما أقوله لك عنه؟» احمر وجهه ثم انفجر في وجهي فانفجرت بدوري وأخبرته صراحة برأيي في أفكاره وخرجت من مكتبه غاضباً.

وبعد ثوانٍ قليلة وفيما كنت أتعثر بطريقي إلى مكتبي ويداي على صدغي تساءلت: ماذا فعلت؟» أنني أحب فرانك وأعلم انه يحبني، ولكن لا أحد يكلمه بمثل ما قلته له. لم يكن ثمة عذر لي. ثم قلت لنفسي بأنه سيطردي! وإذا لم يكن فعلاً قد طردني فيجب أن يفعل. فلو حدث معي شيء كهذا لطردت من كلمني على ذلك النحو. وفكرت بأنني لن أتمكن في الشهر المقبل من دفع بدر أجار البيت ولا شراء المواد الغذائية ولا تسديد أقساط ثمن سيارتي. ولن أتمكن من الحصول على وظيفة أخرى إلا بعد أن أغرق في الديون وتصبح شيكاتي مرفوضة لأنها دون مؤونة.

استدردت على عقبي وعدت إلى مكتب فرانك واعتذرت. اعتذرت؟ قلت: «لست أدري ماذا دهاني يا فرانك وليس بمقدوري التعبير عن مدى أسفي. انك تعرف الموضوع أكثر مني بكثير. وأعدك بأنني لم ولن أكلمك هكذا ثانية...» و«لا أذكر تماماً ماذا حدث بعد ذلك ولكن يخيل إلي أنني ارتقيت أرضاً ورحت أقضم زاوية السجادة ندماً وأصبح باكياً: لا تضربيني أرجوك لا تضربيني.

«لا عليك لا تفكر في الموضوع واني آسف أيضاً لأنني صرخت بوجهك». أجاب فرانك. قضي الأمر، ولكن أمضيت ما تبقى من بعد الظهر وكذلك المساء والليل بطوله أندب حالي. تصور أنك تتكل على وظيفة، أي وظيفة إلى حد لا يمكنك معه البوح بما تعتقد انه صحيح او التمسك بموقف تعرف بأنه الأفضل ليس فقط لبلدك بل وكذلك لمنظمتك ولرئيسك الذي يعارضك دون أن يقلقه احتمال نزول كارثة به. أدركت أنني في ذلك الوضع تماماً. وصباح اليوم التالي دخلت مكتب فرانك وذكرته بالاعتذار الذي قدمته بالأمس ثم قلت له بأنني لا أعني أي كلمة منه!

قلت له: «أعتقد بأنني أتكل مالياً على وظيفتي إلى درجة لا أستطيع معها القيام بأعبائها على الوجه الأفضل إن تجاه نفسي أو تجاهك وعليه لا بد لي من الاستقالة قبل أن أطرده. لم أقرر بعد ما الذي سأفعله. لكنني أعتقد انه من الأسهل عليّ العثور على شيء ما عندما لا أكون تحت ضغط الحاجة من العثور عليه وأنا واقع تحت ضغطها».

دهش فرانك لذلك الكلام، ولا بد انه استغرب كيف يكون المرء بحاجة إلى وظيفة. ففي العالم الذي ينتمي إليه عندما يحصل «خلاف في الرأي» بينه وبين رئيسه يستقيل فوراً لأن ذلك هو المسلك المشرف الوحيد. ثم يعود إلى ممارسة الحقوق أو إلى التدريس في الجامعة أو إلى مزرعته في ماريلند ويبقى فيها حتى يستدعيه رئيس الجمهورية الجديد أو وزير الخارجية الجديد فيعود إلى الخدمة. أما الفكرة بأن أي انسان في مركز مثل مركزي عليه اتخاذ قراراته وفي رأس أفكاره انعكاسات تلك القرارات على استمرار بقائه في وظيفته أو عدمه، فإنها فكرة يصعب على العقل القبول بها.

استفسر عن أوضاعي المالية ليس من باب التطفل على شؤوني الخاصة بل للوقوف على معلومات اضافية عن دوافع أحد مرؤوسيه لم يكن قد وقف عليها بعد، ثم قال: «اسمع إذا كنت تواجه صعوبات في تسديد فواتيرك فسأدع كيم يحصل لك ترقية جديدة، وإذا ما شعرت ثانية بأنك ما زلت بحاجة سنجد لك شيئاً ما. لا تقلق». لم يسبق لي حتى ذلك اليوم ان رأيت فرانك مبتسماً، ولما خرجت من باب مكتبه استدردت فرأيتته يهز رأسه ويضحك.

ولما لم يكن ثمة ما يغريني آنذاك لترك وكالة الاستخبارات المركزية، قدّرت تطمينات فرانك

خصوصاً وانها مقرونة بايماء إلى انني إذا ما بقيت فيها سأنتدب للقيام بالعمل الذي طالما حلمت به. أخبرت كيم بما جرى بيني وبين فرانك فقط لأجد انه مثل فرانك لم يكن يخطر بباله ان بعضاً من مرؤوسيه بحاجة إلى وظائفهم. ولكنه، خلافاً لفرانك ضمن تطميناته أشياء حسية إذ قال لي: «ابق معنا وسأسهر على ان تُسند إليك مهمة توصلك إلى مكان ما خارج الوكالة أو داخلها. ولكن عليك البدء بالتفكير للأمد البعيد وليس بكل قضية على حدة كما هي عادتكَ». كرّر إشارته هذه أكثر من مرة منذ أن اجتمعنا للمرة الأولى: أي أن «التفكير للأمد البعيد» يجب أن يكون بمعظمه في مجال الأعمال الخفية لا بمجرد مراقبة عمليات جمع المعلومات السرية التي يقوم بها فرعنا.

انتبهت إلى تلك الإشارة منذ المرة الأولى. وبذلك أخذت أقضي أوقات فراغي كلها في مطالعة جميع التقارير والمحاضر والوثائق التي ترشدني إلى أسباب انشاء مكتب تنسيق السياسات ودجه لاحقاً بمكتب العمليات الاستراتيجية ثم استحداث المنصب المسمّى نائب المدير لشؤون التخطيط، وتحولت بعد ذلك إلى دراسة التوجيهات والأوامر التي قادتنا إلى بداية المشاكل مع الجناح اليساري في البلاد. وبعد عدة سنوات برزت حركة تنادي بأن العمل الخفي بحد ذاته مُنكر لا يُحتمل في مجتمع ديمقراطي قوي كمجتمعنا يستطيع تحمل أي خسارة قد يسببها الامتناع عن اللجوء إليه. وهكذا درجت عادة إلقاء اللوم علينا وتحميلنا مسؤولية كل مشاكل العالم، والادعاء أن بمقدورنا عدم الاهتمام بالعالم كله، بل وعلى العكس ان على العالم أجمع أن يتأثر بمواقفنا ويقلق منها. وهنا تجدر الإشارة إلى ان تفكيرنا لم يأخذ ذلك المنحى في أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات. فقد منعنا هتلر من السيطرة على أوروبا وأطلقنا خطة مارشال بقصد رفع مستوى معيشة الأوروبيين، بمن فيهم أصدقاؤنا وأعداؤنا السابقون على السواء، فارتفع إلى ما لم يبلغه من قبل، وتحولنا إلى الوقوف بوجه عدو جديد، عدو للأوروبيين ولنا، لا تقل مطامحه سوءاً عن مطامح العدو الذي قضينا عليه. إننا لا نشعر بحاجة إلى الاعتذار من أحد وبأن لا أحد سوى الهبل يستطيع منازعتنا في حاجتنا إلى الأعمال السرية حسب تفسيرنا لها خصوصاً وان الأهداف التي ترمي إليها يقرها الشعب الأميركي بغالبية الواسعة.

لاحظت أيضاً مفارقة ثانية. فقد كان من الواضح تماماً أن التوجيهات والتعليمات ومثلها الأسباب الموجبة انطوت ضمناً على ان من مهام وكالة الاستخبارات المركزية «ممارسة الحيل القذرة». ولكن بدا لي ان أفراد الوكالة الذين أنيطت بهم مهمة البحث عن وسائل التطبيق أغفلوا التوجيهات وما انطوت عليه ضمناً. وكان من الواضح اننا فيما أخذنا نطلق العنان لمخيلاتنا في تصور الحيل القذرة لم نعر الغرض منها والغاية التي ستستعمل من أجلها اهتماماً يُذكر. فقانون الأمن القومي الصادر عام ١٩٤٧ نصّ فقط على ان وكالة الاستخبارات المركزية التي خلقت بموجبه مهمتها: «القيام بأعمال وواجبات أخرى متصلة بالاستخبارات وذات علاقة بالأمن القومي حسبما يُصدره مجلس الأمن القومي من توجيهات بين آن وآخر». كما ان التعليمات الايضاحية اللاحقة والمتعلقة صراحة بمكتب تنسيق السياسات حدّدت مهمتها على انها مجابهة محاولات الاتحاد السوفياتي والدول الدائرة في فلكه «الرامية إلى تشويه غايات ونشاطات الولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى». صحيح أن كلمتي «سري» و«خفي» لم تردا في النصوص، ولكن مطالبتنا بالاشتراك في أعمال تكتنفها السرية والغموض تضمنتها بوضوح الشروط الواردة في القانون المذكور لجهة وجوب تخطيطها وتنفيذها بشكل لا يتضح منه لأي شخص غير مأذون له بذلك ان الحكومة الأميركية على علم بتلك العمليات أو مسؤولية عنها، وأيضاً بشكل يسمح للحكومة التنصل منها ومن أي نتيجة تترتب عنها تنصلاً مقبولاً قابلاً للتصديق». في حينه تبين لي من موقفي بأن ما كان يُطبخ ويمر تحت أنف فرانك وايسنر وكيم روزفلت ليس مسيئاً بل يبعد كل البعد عما حاول خصوم الوكالة الصاقيه بها من اتهامات. فلم تكن مطلقاً مجموعة من

عباقرة السوء تتأمر على غسل أدمغة العالم والسيطرة عليه بحيل الخرافات العلمية التي تُعرض على الشاشات الصغيرة. بل كنا على العكس من ذلك تماماً، مجموعة أطفال يلهون بألعاب جديدة رُخص لهم بالسرقة.

لقد تمكنت تارة بأوامر مباشرة من كيم أو من فرانك وطوراً بفضولي الشخصي ورغبي السليقة بالتلصص («إذا كان المرء لا يستطيع التجسس على قيادته فكيف سيتمكن من التجسس على قيادة أعدائه؟» هذه إحدى فلسفتي)، تمكنت من رؤية كل المقترحات التي مرت بمكتيههما، باستثناء القليل القليل منها. لذلك استطيع التأكيد الموثوق إلى حد ما انه لم يمر من تحت أنفيهما أي اقتراح تُشتم منه رائحة أساليب الغستابو أو «ينطوي على انتهاك للحريات المدنية» أو يُعتبر انحرافاً عن مبادئ الديمقراطية. لا شك ان بعض الخطط الخيالية عرضت ولكنني استطيع التأكيد بأن أسوأ ما يستطيع أي كان قوله فيها، رغم الاجواء السائدة حالياً من حيث التمسك بالأخلاقيات، هو كونها بعيدة عن مجابهة «النشاطات السرية الشريرة التي يقوم بها الاتحاد السوفياتي».

روح الاستنباط الشيطانية

دعوني هنا أسوق مثلاً - ليس هو بالأمثل ولا هو بالأسوأ أو بالنموذجي، بل الأفضل من حيث تناغمه مع سطحية هذه السيرة الذاتية. وهو مثل لا يحتاج إلا للقليل من التجميل والاضافات ليصبح حلقة تلفزيونية ناجحة وحديث الناس. إنه المخطط الذي تذرعت به لقضاء اسبوع او اثنين في نيويورك كي أطمئن عن حال صديقي آرثي روزفلت بين زواجه.

تدير السيدة كممورتى «مدرسة السيدة كممورتى للفنّة والأناقة» والمدرسة هذه من بنات أفكار ضابط من جورجيا اسمه المستعار «ادريان لوندكويست». والسيدة كممورتى من سيدات مجتمع واشنطن الراقي عيّن كيم للإشراف على وحدة صغيرة اسمها وحدة الملابس ومستحضرات التجميل غايتها دعم عمليات الهرب والمراوغة التي كان يقوم بها ستيف ميد في آسيا الوسطى. في اجتماع أول الاسبوع الذي يعقد صباح كل يوم اثنين، وكان ذلك صبيحة يوم ممطر في شهر تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٥٠ قال لنا لوندكويست انه أمضى عطلة الاسبوع في نيويورك منشغلاً بنشاطات اجتماعية أقنعت به بأن الأسرار الهامة المتصلة بالأزمات الدولية إنما هي في أذهان الدبلوماسيين الأفريقيين والآسيويين والجنوب اميركيين وبأن استخلاصها منهم ممكن بواسطة نساء جيلات مُدرّبات تدريباً خاصاً بذلك.

وجّه لوندكويست نظرة نحوي لها مغزاها وقال: «كم نعلم جميعاً نحن أهل الجنوب ان الرجال سواء من اللون الأسود أو الأسمر أو الأصفر يفقدون كل شعور بواجب كتمان الأسرار لدى احتكاكهم بنساء بيض البشرة هن صدور وأقفية عارمة». ومضى قائلاً: بأن وكالة الاستخبارات المركزية، وقد جمعت معظم موظفاتهن من كليات شهيرة للبنات مثل سميث ورادكليف وفاسار وبرايان مور، لديها إذاً معين من النساء اللواتي يمتلكن تلك المؤهلات ويستطعن بالتالي خدمة بلادهن بالعمل في نيويورك يستخلصن الأسرار من موظفي الأمم المتحدة، خدمة أفضل من جمع نتف من المعلومات من الصحف والاذاعات في واشنطن.

في يوم الاثنين هذا تأخر فرانك وكيم بالعودة إلى مكتيههما من عطلة نهاية الاسبوع، فترأس الاجتماع ضابط أخرق، كانت آخر مهامه الميدانية «ترتيب» الانتخابات اللبنانية عام ١٩٤٧، اسمه المستعار «ورثغفن آلسبوري» يشغل حالياً منصباً اسمه الرنان «مدير الادارة الاحتياطية» مهمته تنظيم جردة متقنة بمواد وأدوات التخريب الالمانية التي جمعت بعد نهاية الحرب العالمية الثانية والتي لم يكن قد تمّ حتى ذلك التاريخ العثور على وسيلة مقبولة إدارياً للتصرف بها.

في الجو الذي ساد الاجتماع وبغياب الأيدي الرادعة تحول اقتراح ادريان لوندكويست من مذكرة ادارية بسيطة إلى عرض رسمي لمشروع، إلى أمر يميز للوندكويست بالشروع «بالعمليات الاستقصائية». وعليه وزعت مذكرة خدمة على جميع النساء العاملات من رتبة سكرتيرة عامة درجة تاسعة وما فوق ورد فيها احتمال انفتاح مجالات للعمل في مجالات «تتميز بالتحدي والسوانح» للنساء العاملات في الوكالة اللواتي يتمتعن «بالذكاء والتربية والرغبة» ويستطعن اغراء الرجال المنتمين «إلى خلفيات حضارية بعيدة جداً عن خلفيتنا» اغراء صاعقاً. ولم تغفل المذكرة التلميح إلى أن مكان العمل يقع في نيويورك.

وعلى الرغم من عدم تحديد المهمات فلا يخفى على أي فتى نبيه في العاشرة من العمر انها تتضمن مناسبات اجتماعية براقية في النوادي والمطاعم الفخمة ومجالات للتحدث قليلاً بالفرنسية أو الاسبانية وبعض النشاط الجنسي والغراميات التي تتوهم سيدات الوكالة انهن مقبلات عليها فور تقديم طلباتهن. ورأى لوندكويست أن الاغراء الأخير من شأنه استقطاب فتيات كليات سميث وراذكليف وفاسار وبرايين مور لأنهن مثل نظرائهن خريجي جامعات هارفرد وييل وپرنستون الذين انسجموا في الحرب العالمية الثانية مع الكذب والاغتيال وتدمير الخزانات خدمة للأغراض الوطنية سيكون سعيادات للمبيت مع أي كان كل ليلة إذا ما استطعن اقناع أنفسهن بأن في ذلك خدمة للعم سام.

تبين من اقبال المرشحات على تلبية الدعوة بالحضور إلى قاعة التمارين الرياضية في مبنى الوكالة ان تقديرات لوندكويست لم تخطيء كثيراً كما جاء الاستعراض، وهو أنسب كلمة لوصف ما جرى، أكبر مهزلة في تاريخ وكالة الاستخبارات المركزية. فقد لبى الدعوة أربع وثلاثون شابة راوحت ملابسهن بين أروع ابتكارات كريستيان ديور وبين تصاميم انيسيتراي ثورغود، رئيسة فرع الألبسة في الوكالة. دخلت المرشحات واحدة تلو الأخرى إلى «سيناريو كوكتيل» من اعداد قسم التدريب وقمن بأدوار مدعوات يسعين للاختلاط بجمهور المدعوين بهدوء ومع مراعات كامل اللياقات الدبلوماسية. وكان على كل مرشحة التوصل إلى التعرف على الشخص «الهدف» المحدد لها بأي وسيلة تبتكرها (قام بدور الشخص - الهدف أحد أفراد المدربين الذي تدرب بدوره على التصرف كأحد دبلوماسي العالم الثالث) وتدخل معه في حوار وتجعله بتصرفاتها يشعر ملزماً بتبدير لقاء آخر في ظروف تسمح ببعض التصرفات الطائشة.

أما الحضور، وقد جلسوا في شرفة معتمة، فترأسهم كيم روزفلت الذي سمع بالمشروع بعد أن بلغ من التقدم نقطة اللارجوع وأصرّ على الحضور لأنه اعتبر نفسه المرجع الوحيد في الوكالة وصاحب الخبرة العملية بالأساليب التي ستعرض. فخلال الحرب العالمية الثانية قبض عليه الالمان فيما كان في احدى مهامه وراء خطوطهم وتحمل ببطولة العذاب الأليم الذي أنزله به عملاء الغستاپو دون أن يحصلوا منه على أكثر بكثير من اسمه ورتبته ورقمه التسلسلي أدلى بها إلى عميلة في الغستاپو أشفقت عليه وهي تستمع بانتباه إلى شرحه ان عزرا باوند هو المؤلف الحقيقي لكتاب «الأرض الخراب» رسخت ذكرى ذلك الاختبار في ذهنه فأصرّ، وهو مدير جميع العمليات السرية في الشرق الأوسط وافريقيا على الاشراف شخصياً على كل الوظائف التي تتضمن مهامهن مجرد التعرف البسيط على أي شخص من المناطق الواقعة ضمن نطاق مسؤوليته.

أما باقي أفراد الحضور فكانوا روجين آتكنز (اسم مستعار) وهو أغني موظف في الوكالة (تقدر ثروته بمئة مليون دولار) وانيسيتراي ثورغود مدير دائرة الملابس والليدي وندر مير (اسم مستعار)

اختصاصية التجميل وستيف ميد وهو بطريقه إلى آسيا الوسطى بمهمة الحرب والمراوغة، هذا طبعاً بالإضافة لي. يعود ادعاء اتكتر بمعرفة اغراء النساء إلى تاريخ زيجاته (له أربع زوجات سابقات يتقاضين منه نفقة تفوق المليون دولار سنوياً). ولعل سبب وجود ثورغود وويندرمير بين حضور الاستعراض كونها اللواتين الوحيدتين اللواتي منحتهم الوكالة براءة أمنية بكامل معرفتهما لواقعهما. أما وجود ستيف بين الحضور فبسبب بعض أعماله الخارقة التي حملت إيان فليمينغ على تأليف حلقة في أفلام جيمس بوند على أساسها. ولأسباب لن أبعث الضجر في نفوس القراء بسردها كنت أنا الخبير الوحيد في ذلك الموضوع. على كل حال وبصرف النظر عن مهارتنا أو عدمها كلجنة محكمين كان علينا اختيار المرشحات العشر أو الاثنتي عشرة اللواتي رأينا فيهن أفضل صفات الاغراء ونرسل بهن إلى السيدة مكمورتى ليتدربن تدريباً خاصاً مركزاً.

جرى العرض شبيهاً بتمثيلية سخيصة قام بأدوارها فريق من الهواة القرويين. كانت المرشحات كلهن مقبولات من حيث الاغراء في ظروف العمل العادية في مكاتب الوكالة. ولكنهن بالبستهن المبهرجة وحركاتهن المدروسة كن حتماً ليقززن نفس أكثر الرجال حرماناً. إلا ان العرض تضمن درساً كان علينا نحن الرجال الذين نعرف العالم أن ندركه قبلاً: أي ان المغريات التي ستعرضها النساء في مطاردتهن الرجال هي تماماً الأسباب عينها التي تحمل أي رجل على التهرب منهن - هذا إذا كان رجلاً محترماً وعلى أدنى درجة من درجات الحضارة، لا مجرد قرد همّ الوحيد الفوز بأنثى سهلة المنال. ان القردة الذين يبحثون عن انثى سهلة المنال (كما يحدث لنا جميعاً بين آن وآخر) لا يتناسون السرية بالسهولة التي أشار إليها أدريان لوندكويست. ولو ان أي امرأة من الوكالة تصرفت على الطبيعة كتصرفها في مهرجان لوندكويست لما استطاعت الحصول على أكثر من دليل للهاتف... إلخاً مقابل التضحية بالكثير من الشيم.

لا بأس فقد تعلمنا درساً أو اثنين عما يجب ألا نفعله في استخدام الجاسوسات المستقبلات، علماً بأن مكتب العمليات الخاصة وفق ببعضهن وبأنه من الواجب سرد القصة التالية لأنها تصور العفوية البريئة التي اتصفت بها الأيام الأولى من أعمال مكتب تنسيق السياسات، عفوية بريئة حاول خصوم الوكالة استغلالها على انها روح الاستنباط الشيطانية السائدة في الوكالة. بالطبع لم يتمتع جميع المسؤولين فيها بذلك المستوى الرفيع من روح الابتكار، ولكن كان على زملائنا في مكتب تنسيق السياسات لو انهم حملوا البحث عن وسائل الاغراء الفعالة على محمل الجد، كان عليهم استشارة الخبراء في الموضوع لا اطلاق العنان للحرية المفاجئة التي هبطت عليهم فراحوا يقومون بتجارب عشوائية. كان عليهم استشارة الخبراء، وهل أفضل من ستيف وميني خبرة؟

ونخدمة للمؤرخين من الأجيال القادمة لا بد لي من اختتام هذه الوصلة بالقولة ان السيدة مكمورتى وهي من سيدات مجتمع واشنطن الراقي (احدى زوجات روين اتكتر السابقات، وذات ماضٍ حافل - تزوجت ثلاث أو أربع مرات «وكلها زيجات ناجحة وسعيدة» حسب اصرارها ومفاخرتها) وانها استلمت ادارة «مدرسة المفاتن» عندما كان الغرض منها اعطاء دروس في البروتوكول لزوجات مندوبي الوكالة الذين يعينون في مناصب دبلوماسية في الخارج. ولكن السيدة مكمورتى جعلت من نفسها اسطورة في الوكالة بأن دفعت بمدرستها خطوة كبيرة إلى الأمام. إذ راحت توصي بعض المتدربات المختارات بعناية فائقة بعدم اطلاق أحد على الاطلاق بما في ذلك أزواجهن على الدروس المتقدمة في فنّ التجسس ثم تحوّلن إلى رئيس شعبة العمليات المخفية ريتشارد هيلمز الذي

يسند إليهن مهمات خاصة لا علم لأزواجهن بها مطلقاً. في الكثير من الحالات لم يدر الأزواج بمركز زوجاتهم المهني (ولا بحساباتهن المتنامية في المصاريف السويسرية)؛ علماً بأنه حدث في إحدى الحالات فضيحة استرعت انتباه ورثا آلن دالس. فقد زُود موظف جديد أرسل إلى بيروت بتعليمات تقول إن صلة الوصل بينه وبين فريق اثني معين موظف لم تحدد التعليمات ما إذا كان ذكراً أم أنثى، يُعرف باسم مستعار هو «واندرلست» ويُعتبر من أفضل العملاء. ولما وصل الموظف الجديد إلى بيروت اكتشف بأن «واندرلست» ليست سوى زوجته التي طالما حسبها بلهاء، فهتد بالطلاق منها وبالاستقالة من وكالة الاستخبارات المركزية. ولكنه لم يستطع إلى أي من التهديدات سبيلاً ذلك لأن المهمة الموكلة إليه ليس فيها سوى مخرج واحد وان «واندرلست»، حسب تعليمات القيادة الصارمة والواضحة، جزء لا يتجزأ من مهمته لا من المخرج.

من حيث حاجة التاريخ والمؤرخين يكفي ما أوردته من تلك الحكاية وفيها أيضاً نقطتان هامتان جديرتان بالانتباه. أولاً: إن ما أوردته كان مجرد اختبار أي حماقة أخرى من تلك التي ارتكبت خلال المرحلة الأولى من قيام وكالة الاستخبارات المركزية. وهي تجربة لم تستمر فضلاً عن أنها لم تشغل من اهتمام فرانك وايسنر أو كيم روزفلت سوى أعشار الثانية، ولا حازت على اهتمام آلن دالس الذي لعله لم يسمع بها إلا بعد أن صارت واحدة من أساطير الوكالة. هذا مع العلم بأن في الموضوع مواداً وافرة تمكن أصحاب المقالب من نسج حكايات كثيرة تصلح للتندر بها في لقاءات قدامى موظفي الوكالة جيلاً بعد جيل. وما من ريب أنها من قبيل انطوائها على مواد للتكيت ستدوم أكثر من أي اختبار آخر حملته الوكالة على محمل الجدية. أما النقطة الثانية فهي أن تلك الحماسة خارجة تماماً عن مسؤوليات ومهام مكتب تنسيق السياسات ولما كان الغرض منها ابتكار وسائل جديدة لجمع المعلومات وجب حصر المسؤولية عنها بمكتب العمليات الخاصة الذي، كما سبقت، حدد الغاية ووسائل بلوغها.

إن ما أوردته أعلاه ينطبق على مختلف الاختبارات الأخرى التي أجرتها الوكالة خلال إيامها الأولى. ولما بدأ تفعيل مكتب تنسيق السياسات كان جميع أركان الوكالة على ادراك تام بالحاجة إلى ما عليهم إنجازه وبالحُدود المرسومة له للعمل ضمنها. غير أن بعض عناصر دوائر الوكالة الذين لا علاقة لهم مطلقاً «بمكافحة النشاطات الشريرة الخفية التي يقوم بها السوفييات» استغلوا بعض الغموض في تعليمات وتوجيهات مجلس الأمن القومي فأخذوا يلجئون بمجالات ما كانوا ليحلموا بأكثر من التفكير بها. فمشاريع هؤلاء، لا مشاريع مكتب تنسيق السياسات، هي التي تحولت إلى قرائن استغلها أعداء وكالة الاستخبارات المركزية.

صحيح أن أحد فتياننا دس في شاي الرئيس الاندونيزي سوكارنو مادة مهلوسة قبيل القائه خطبة كانت عبارة عن مطالعة عقلانية جداً مؤيدة «للحياد الإيجابي». ولو ترك على سجيته وطبيعته لجاءت الخطبة حفنة من الكلام الفارغ.

وجربنا الاتصال بين شخصين بواسطة «الادراك الخارج عن الحس» بين السيدة براون في رتشموند بولاية فرجينيا وبين زوجها السيد براون في استنبول، فاستطاعت السيدة براون بالتخاطر (توارد الأفكار) نقل رسائل إلى زوجها وصلته بدقة لا بأس بها وقبل أن تصله الرسائل المشيلة التي نقلت إليه بواسطة قنوات الاتصال التي تستعملها وكالة الاستخبارات المركزية.

أحد عملائنا، وقد تتلمذ على أيدي كاتب قصص الخرافات العلمية رون هوبارد نفسه، أدخلناه جماعة من المؤمنين بالسحر والتنجيم ثم أخذنا نحصل على ما نطلبه له من النفقات العملاقية (على غرار

ما فعلنا من أجل الاستاذ داوود الذي عمل بخدمة العقيد مائيسون) فحوّلها في النهاية هي ومدخرات عمره لحساب تلك الجماعة وقضيتها.

لكن مشاريعنا «المشؤومة والبديعة» وان كانت كلها مسّلية جداً لم تكلف أي مال أو ان كلفت فالقليل منه، كما لم تخلف أي ضرر دائم هذا فضلاً عنها، تستأهل كل درهم أنفق عليها لقاء ما اكسبتنا من وقاحة مهنية. وعلى الرغم من رهبتها لم تتمكن لجنة مجلس الشيوخ المميّزة المختصة بشؤون الاستخبارات من العثور على حالة واحدة وقع فيها فرانك وايسنر أو كيم روزفلت على عملية لغسل دماغ أو تحويل تفكير أو تبديل شخصية أو اغتيال أحد، أميركياً كان أم أجنبياً. وقد حصل بعض اللغط عن خطط أعددها لدس مادة في سيجار كاسترو يؤدي تدخينه له لأن يسقط شعر ذقنه. وجاءني أحد المحققين من اللجنة المذكورة التي يرأسها الشيخ فرانك تشيرتش ليستجوبني ويسجل إفادتي بشأن المادة التي دسها أحد فتياي في شراب سوكارنو. هذا كل ما في الأمر. فهل يستأهل كاسترو وسوكارنو هذا الاهتمام كله؟

لقد أجريت جميع المشاريع التي استرعت انتباه لجنة تشيرتش خارج وكالة الاستخبارات المركزية وقام بها علماء أو علماء مزيفون تستخدمهم جامعات وشركات لصنع الأدوية والعقاقير بموجب عقود مع الوكالة من أجل غايات اعتبرناها محض اختبارية كما اعتبرنا ان ليس ثمة أي ضرر من أن يعلم المرء بالأشياء التي يمكن تحقيقها. واستناداً إلى ذلك المفهوم قام أولئك «العلماء»، أو سمّهم ما شئت، بصنع مواد تجعل «الشخص المستهدف» يقول الحقيقة أو يهلوس أو يتصرف بطريقة تؤدي إلى هلاكه أو يسقط ميتاً دون امكانية العثور على سبب الوفاة. كان كل ذلك مسلياً للغاية مما جعلني أكتب مقالاً فيه لمجلة ذي نيويورك. وقد تضمن المقال اختباراً أجري في إحدى الجامعات وشمل رئيس فريق الباحثين الذي عاد إلى بيته تفوح منه رائحة كريهة إلى حد لم يطق معها أفراد عائلته البقاء معه تلك الليلة. وأوردت فيه أيضاً كيف قام واعظ معمداني بالقاء عظة الأحد حشاها بما تيسر له من بداءات عوضاً عن الوقار الذي اتّسمت به كل عظاته السابقة.

تملكتنا الدهشة كما تملكك الرأي العام عندما ذاعت قصة ذلك المسكين الذي تناول على يد أحد الباحثين حبة إل. اس. دي المهلوسة فقفز من الطابق العاشر صائحاً: «انظري يا أماء انني استطيع الطيران». ولكن السناتور تشيرتش الذي أخذت الوكالة تقلقه لم يقدر الناحية الفكاهية من الحادث حق قدرها. ولما أخذ المحققون في لجنته يتوغلون أكثر فأكثر في زوايا وخبايا الوكالة عثروا على اختبارات تُجرى في مجال الحرب الجرثومية وفي تحويل الشخصية وفي محو الذاكرة وفي أصول الاغتيال والله أعلم بما اكتشفوه أيضاً. في أواخر العام ١٩٥٠ كلفني كيم بالبحث عن مشاريع أخرى من المشاريع «المشؤومة والبديعة» التي يمكن اكتشافها من قبل لجان تحقيق أخرى قد تأتينا متطفلة، فعثرت على بعض منها تنشر لها الصدور وتبتهج بها العقول. ولكن وجود تلك المشاريع لم يدل على الشر بمقدار ما دل مرة أخرى على ما يمكن أن يحصل في أقبية ودهاليز مصنع للأحلام مثل وكالة الاستخبارات المركزية بمجرد غفلة من عين كبار المسؤولين عنها.

إلا انني استطيع الجزم والتأكيد، خدمة للحق والحقيقة، بأنني لم أعثر في تحرياتي في أواخر العام ١٩٥٠ ولا في تلك التي أجريتها في أيار (مايو) ١٩٥٣ على حالة واحدة استعملت فيها منتجات عباقرة الباحثين إلا على أشخاص تطوّعوا للقيام بدور جرذان اختبارات آدميين. كما استطيع القول استناداً إلى سلطات موثوقة بأن المناسبات الوحيدة التي خطر فيها للوكالة خاطر استعمال عقاقير الافصاح بالحقيقة أو تحويل الآراء أو السموم جاءت بمبادرات من سلطات أعلى مقاماً من وكالة الاستخبارات المركزية،

ومن البيت الأبيض على وجه التخصيص. وتضمنت تلك المبادرات مؤامرات لاغتيال باتريس لومبومبا في الكونغو وفيدل كاسترو في كوبا - علماً بأنها كانت مجرد خطط وليس محاولات فعلية.

لنعد الآن إلى قضايانا. كيف قضينا أوقاتنا بين ١٩٥٠ و ١٩٥٣ في مكتب تنسيق السياسات؟ فكما قلت سابقاً، لم أكن قد انضمت رسمياً بعد إلى المكتب المذكور، بل كانت مهمتي في مكتب شؤون الشرق الأدنى وأفريقيا برئاسة كيم روزفلت. كما أنني لم أجرو على غزو مكتب نائبه إد لوكراد إلا بأمر صريح من كيم. ومتى كان يأتيني الأمر الصريح هذا؟ ما كان مثل ذلك الأمر يأتيني إلا عندما يتهم محقق من الكونغرس أو صحافي فضولي مكتب التنسيق بالقيام بأعمال أمره بها مكتب العمليات الخاصة أو دوائر الأمن أو مكتب الاستعلامات السرية أو دوائر أخرى في الوكالة استجابة لتوجيه صادر عن مجلس الأمن القومي برقم م. ا. ق ٢/٥٠ يحدد بصراحة وجوب قيام مكتب التنسيق دون سواء بالتحقيق. غير أن ذلك لم يشغل من وقتي إلا عشرة أو أقل.

ولكن، إذا كان «فرع الحيل القدرة» في وكالة الاستخبارات المركزية، حسب تسميته من قبل الرئيس ترومن بالذات، لا يقوم بحيل قدرة فماذا عساه يعمل إذا؟ أنني أصف هنا تلك الفترات التي كنت أقضيها في واشنطن بين المهمة والأخرى اللتين أكلّف بهما في الخارج. وأعود لأكرر: مهما بدت مرعبة لنقاد الوكالة اليوم نشاطاتنا في تلك الحقبة وما نُسب إلينا من نشاطات فيها فقد كانت جميعها متناغمة مع ما أراده الشعب الأميركي آنذاك. ففي نظر الرأي العام الذي ابتهج بمشاهدة فيلم «مكتب التحقيق الاتحادي في السلم والحرب» وبقراءة روايات جيمس بوند وصفق لمحاولات السناتور جوزف رايموند مكارثي المسعورة للايقاع بالناس على أنهم شيوعيون، في نظر الرأي العام هذا كانت وكالة الاستخبارات المركزية تجرّ أقدامها جراً، أو تكاد. وفي أعين مكتب التحقيق الاتحادي ذي الشعبة المتصاعدة بدا حماس الوكالة «لمكافحة الشيوعية» أدنى بكثير مما توقعه المواطنون. ولا ريب في أن نقاد الوكالة في أيامنا هذه سيصابون بالذهول لمعرفةهم بأن ظنون مكتب التحقيقات كانت في محلها. فحقيقة الواقع أننا في الوكالة فعلنا كل ما في وسعنا للبقاء بمعزل عن المكارثية ولتنصل منها. من موقفنا هذا أستنتج أهل مكتب التحقيقات بأن الوكالة ليست، في أفضل حالاتها، «سوى نادٍ يضم مجموعة من المخنثين».

بالطبع لم نكن كذلك، ولكننا كنا قد تحولنا إلى مجموعة من البيروقراطيين. فمنذ اليوم الأول لقيام مكتب تنسيق السياسات انهمك جميع كبار المسؤولين في الوكالة بأعداد مشاريع الموازنات وهرمية التنظيم والمسؤوليات فلم يبق لهم الوقت للاهتمام بما يقع على عاتقنا من واجبات. وانخرطنا نحن على المستوى التنفيذي في تلك النشاطات فصارت تأخذ حيزاً لا بأس به من وقتنا الثمين. ولن أنسى ما اعترانا من قلق في محاولتنا تقرير ما ينبغي أن نطلبه كموازنة لقسمنا، قسم الشرق الأدنى وأفريقيا. فهل نحن بحاجة إلى مليون أو إلى خمسين مليون دولار نخصّصها لمصر؟ وكيف لنا أن نعلم ماذا يلزمنا؟ وجاء الفرج. دخل مكنتي الموظف المسؤول عن مكتب سوريا وقال إن حساباته تشير إلى أن مكتبه يحتاج إلى ١,٢ مليون دولار. فإذا مكتب سوريا يحتاج هذا المبلغ لا بد أن مكتب العراق يحتاج إلى ضعفه لأن العراق أهم من سوريا بمرتين وسنحتاج إلى ٤,٨ مليون لمصر لأنها أربع مرات أهم من سوريا، وهكذا دواليك. وبلغ المجموع مبلغاً ضئيلاً، زهاء ٢٠ مليون دولار (بل ربما ٢٣٣,٤٦٧,٢١ دولار و٥٦ ستناً على وجه التحديد) هذا علماً بأن أحداً منا لم يكن يعلم كيف وعلى ماذا ستنفق تلك المبالغ.

ثم أخذنا الأرقام ورحنا بها إلى مكتب كيم فدعراً وقال: «إن قسمنا أهم قسم في الوكالة. فإذا طلبنا مبلغاً زهيداً كعشرين مليون دولار سنصبح مضحكة الجميع». وعليه طلبنا مئة مليون أي خمسة

أضعاف - عدنا وعدلناها فصارت ٣٣٩, ٥٦٨, ١١٢ دولاراً و٢٠ ستاً وحصلنا عليها! وبنفس الطريقة كافحنا للحصول على عدد أكبر من الموظفين. بدأ مكتب تنسيق السياسات بقرابة ٣٠٠ أو ٤٠٠ موظف يشكلون قوة طوارئ صغيرة تستخدم للقيام بعمليات في مناطق حساسة فشلت فيها الدبلوماسية والتهديدات باستعمال القوة العسكرية. وفي العام ١٩٥٣، عندما رجعت إلى الولايات المتحدة لدى انتهاء مهمة لي في الخارج كان عددهم قد فاق الخمسة آلاف.

ها هي البيروقراطية حلت. فالبيروقراطيات، مهما كانت مهمتها، تكبر وتنمو اما بتوسيعها نطاق المهمات المسندة إليها أو بتعظيم أهمية تلك المهمات. و«قوة الطوارئ الصغيرة» التي بدأنا بها كانت ستتمو إلى منظمة عالمية ولو في أيام السلم والهدوء ولكن جاءت حرب كوريا تغذيها مثلها تغذي المخصبات الكيميائية النباتات الاستوائية. وعندما ظهرت «القوة الصغيرة» على رقعة اللعبة الدولية في أواسط العام ١٩٥٠ أخذت لنفسها قوة اندفاع خاصة بها كأي وكالة حكومية مستقلة وأدعت بأكثر من نصف ميزانية وكالة الاستخبارات المركزية.

اندلعت حرب كوريا فيما كنت استعد للعودة من المهمة التي انتدبت لها في دمشق. وعندما دخلت مقر الوكالة في واشنطن في أيلول (سبتمبر) ١٩٥٠ كان سبب النقد الأول الذي واجهني تقصير الوكالة عن التنبؤ بحجم وبموعد هجوم الكوريين الشماليين على كوريا الجنوبية، وعن امتلاك الوكالة ما يلزم لتقدير وتصور الوضع على حقيقته. ضاع توازن مدير الاستخبارات المركزية آنذاك الأميرال هيلينكوتر في محاولاته إرضاء رغبات وزير الخارجية من جهة ووزير الدفاع من جهة أخرى وكانا على خلاف مزمن فيما بينهما فأمضى الشهر الأخير من خدمته في مضيق الوقت. وعندما جاء مدير جديد مقدم هو الجنرال «بيتل» سميث واستلم زمام الأمور في تشرين الأول (أكتوبر) وجد الفراغ الذي ينتاسب مع رغبته. فأظهر ميلاً نحو ملئه بأكثر من مجرد نشاطات الاستخبارات التقليدية.

جعل الجنرال سميث وزارتي الخارجية والدفاع تطلبان منه قيام وكالة الاستخبارات المركزية بعمليات شبه عسكرية في كوريا الشمالية وكذلك في الصين إضافة إلى عمليات أخرى عسكرية في جوهرها. وهكذا بين ليلة وضحاها صار لمكتب تنسيق السياسات منظمة أكبر من مكتب العمليات الخاصة بمجلمه بأكثر من مرتين، كما كانت رتب موظفيه المدنيين أرفع من رتب موظفي مكتب العمليات الخاصة بدرجة أو بأثنتين. في بادئ الأمر تحول أكثر من نصف الموظفين المدنيين الجدد، فضلاً عن عدد من العسكريين، إلى قسم الشرق الأقصى بحيث صار ذلك القسم أكبر من باقي الأقسام مجتمعة. ولما كان هؤلاء جميعاً مرتبطين بمكتب كوريا التابع لقسم الشرق الأقصى ارتفع عدد أفراد مكتب كوريا ليصبح أكثر بعدة أضعاف من عدد الموظفين المسؤولين عن مجمل بلدان الشرق الأقصى الأخرى مجتمعة.

لا يجوز حدوث أمر كهذا في أي بيروقراطية، فقد كان بالامكان ضم جميع العمليات المتصلة بالحرب الكورية في فريق واحد مستقل كلياً عن الفرق الإقليمية الأخرى. ولكن أي رئيس فريق يتمتع بالذكاء وبمعرفة الأصول البيروقراطية يستطيع الحيلولة دون تطبيق ذلك. وعليه وبعد الكثير من الأخذ والرد حصلت زيادة عامة في عدد موظفي قسم الشرق الأقصى، وعين في المكاتب الأخرى من الموظفين ما يفوق حاجتها بثلاثة أو أربعة أضعاف، ورافق ذلك طبخ «عمليات تعزيزية» لتسويغ تلك الزيادات في أعداد الموظفين. وغني عن القول بأن الأقسام الأخرى، ومنها قسم الشرق الأدنى وإفريقيا الذي أترأسه، وجدت أو اخترعت ما يكفي من الأزمات كل في منطقة عمله تبريراً لزيادة عدد موظفيها للبقاء

على قدم المساواة مع فريق الشرق الأقصى. إن هذا التصرف كثيراً ما يكون له مفعول كرة الثلج. يقول بعض أصدقائي القدامى ممن خدموا في قسم الشرق الأقصى آنذاك بأنني أبالغ. ولكن مراجعة نمو مكتب تنسيق السياسات بين عامي ١٩٤٩ و ١٩٥٣ تظهر بوضوح إن لا سبيل لتفسيره بأي طريقة أخرى حتى ولو أخذنا بالاعتبار أن المكتب سينمو ويتوسع، حسب سنة البيروقراطية. لقد مر على ذلك كله ثلاثون عاماً ونيّف، وأراني كلما استعدته في مخيلتي عاجزاً عن إدراك ما كان يجول في أذهان ساداتنا آنذاك يوم فكروا بأن قوة ضاربة صغيرة قابضة على أهبة الاستعداد في واشنطن بمقدورها فور صدور الأمر إليها القفز إلى الأوروغواي أو إلى مصر أو لاوس أو البانيا لمعالجة مشكل تعذر حله بالوسائل الدبلوماسية أو العسكرية العادية. هل تصوروا بأننا مثل الاطفائيين نلعب الهوكي في المركز مشمرين عن سواعدنا وجاهزين للانطلاق لحظة سماعنا جرس الانذار؟ ألم يفطنوا ولو لبرهة قصيرة إلى حتمية سعيها للبحث عن حرائق نطفها حتى ولو اضطروا لاشعالها بأنفسنا؟

في الواقع لم نشعر بالافتقار إلى الحرائق. ففور عودتي من دمشق كلّفني نك بمهني الأولى وكان منهمكاً بشؤون الشرق الأدنى وإفريقيا داخل مكتب العمليات الخاصة (بكلام آخر تقصّي المعلومات عن التطورات الجارية في الشرق الأوسط فقط) إلى درجة فاته معها إدراك التطورات التنظيمية الجارية حوله. أما المهمة فكانت انشاء «شبكة داخلية» في الشرق الأوسط استعداداً للحرب العالمية الثالثة التي أخذت بعض الأصوات داخل الحكومة وخارجها تنادي بها وتتنبأ بقرب وقوعها. فلم يمض شهر واحد على وجودي في واشنطن حتى كنت في طريقي إلى قبرص فالقاهرة ثم بيروت وبعدها عمان ومنها إلى بغداد فالبصرة وبعدها الرياض فالظهران ومنها إلى طهران اجتمع فيها رؤساء فرقنا هناك شارحاً لهم برنامج «الشبكة الداخلية» وأعدّ العدة لهم لاستلام الاجهزة اللاسلكية ومعدات «الصمود والبقاء» التي ستصلهم على متن طائرات النقل التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية.

كانت مهمتي هذه عبارة عن مهزلة. ذلك ان كل ما ترتّب عليّ هو ارشاد رئيس كل فريق إلى كيفية ذهابه إلى صحراء قريبة وحفر عدد من الثقوب يدفن فيها كميات من المعدات المتقادم عهدها (كانت تعتبر قديمة عام ١٩٥٠، إذ بإمكانكم التصور ما ستكون عليه عند اشتعال نار حرب عالمية ثالثة) ثم العثور على صخور كبيرة أو أجسام أخرى تتناسب مع طبيعة المكان لتكون معالم يستدل بها على مواقع الثقوب. ولكن، بناء على تعليمات سرية زودني بها كيم روزفلت طرحت على رئيس كل فرقة قابلته، بحضور السفير في البلد المعني ومرات بغيا به، اسئلة مثل: هل يجري في البلد الذي تعمل فيه ما يشكل حالياً أو ما قد يشكل في المستقبل خطراً على المصالح الأميركية؟ وإذا كان جوابك ايجاباً فهل من سبب يحول دون التعاطي مع ذلك الأمر بالسبل الدبلوماسية؟ وما رأيك بمساعدات مالية أو تقنية - بكلام آخر، هل نستطيع شراء تلك الدولة إما عبر حكومتها القائمة أو بواسطة حكومة نستطيع نصيبها بتقديم بعض العون الخفي؟ بمختصر الكلام كان عليّ التعرف إلى ما في منطقة الشرق الأدنى وإفريقيا من مشاكل لا يمكن حلها إلا بذلك النوع من العمليات التي أجاز استعمالها شرعاً لمكتب تنسيق السياسات الحديث العهد.

عدت إلى واشنطن وفي جعبتي جواب أساسي واحد («لن نواجه أي مشاكل إذا امتنعنا عن تأييد اسرائيل») إضافة إلى عشرات المشاكل الأخرى المتوسطة والصغيرة التي يستطيع رجالنا التنفيذيون حلها بالوسائل السياسية، حسب فهمنا لتلك الوسائل آنذاك. باختصار، عدت ومعي حجة أخرى تسوغ زيادة تضخم مكتب تنسيق السياسات. فخلافاً للمراسل الصحفي الذي يؤدي مهمته بنجاح في الأرجنتين هذا الاسبوع ثم ينجح في برلين الشرقية في الاسبوع التالي لا يمكن للموظف التنفيذي ان

يكون فعالاً إلا في منطقة واحدة ذلك أن ليس بإمكانه ادراك طبيعة المشاكل في تلك المنطقة ناهيك عن إيجاد الحلول لها إلا إذا كان متعمقاً في فهم أهلها ودوافعهم وسلم القيم لديهم . وهذا يعني انه بدلاً من أن يكون لمكتب تنسيق السياسات زمرة صغيرة من رجال الأطفاء متأهين للقفز من مركزهم في واشنطن إلى حيثما تتفاقم أزمة ما ينبغي تجهيز المكتب بأعداد كبيرة من الموظفين الدائمين وبينهم اختصاصيون بعلم الحضارات الانسانية وتوزيعهم في مختلف أنحاء العالم حيث يمكن ان تدعو الحاجة إليهم .

حاز التقرير الذي وضعته على اعجاب كيم فحملة وأخذني معه إلى مكتب آلن دالس الذي كان على اعتاب الصيرورة نائباً للمدير لشؤون التخطيط ورئيساً لمنظمي مكتب العمليات الخاصة ومكتب تنسيق السياسات المندمجتين .

كيم عرف بي على انني عضو وكالة الاستخبارات المركزية الوحيد الذي نفذ، حتى ذلك التاريخ ، عملية سياسية مستترة - حسب تعريفنا آنذاك للعملية السرية ، دون ذكر العمليات الفعلية أو نصف العلنية التي حظيت بتغطية إعلامية واسعة . أجاب دالس بأنه سمع بي من خلال ما قمت به من أعمال في جهاز مكافحة الجاسوسية وفي مكتب الخدمات الاستراتيجية إبان الحرب . وكان ما تبقى مما قاله بمثابة اعتراف صريح بأنه اعتبرني الأول حقاً في مجال اختصاصي .

على الرغم من ذلك أخذ دالس وقته ليشرح لي ان الحكومة الأميركية نجحت بالقيام بعمليات سياسية صريحة وعلنية ، منها مثلاً انها رأت ان الشيوعيين كانوا على قاب قوسين من الفوز بالانتخابات في ايطاليا عام ١٩٤٨ . فاستدعت وزارة الخارجية رئيس وزراء ايطاليا ألسيدي دي غاسپيري لزيارة واشنطن وبلغته بأن مبالغ المساعدات الضخمة التي تحتاجها ايطاليا لاعادة الاعمار لن تأتي إلا اذا تخلص من الشيوعيين في حكومته . ثم أخذ مكتب المعلومات الأميركي يشجع الأميركيين من أصل ايطالي على كتابة الرسائل والبرقيات إلى الألف من أقربائهم في ايطاليا ينبثونهم فيها بأن شيكات المساعدات التي يتلقونها منهم ستوقف إذا لم ينضموا إلى الحركة المناوئة للشيوعية . وراحت الشخصيات الأميركية المرموقة التي تتكلم الايطالية بطلاقة تتحدث إلى الايطاليين عبر الاذاعات على الموجة القصيرة عن البؤس الذي سيحل ببلادهم إذا ما سيطر عليها الشيوعيون . ومن جهة أخرى أقيمت المعارض الفوتوغرافية وبعثات النوايا الحسنة وزيارات الفرق الموسيقية واستعملت جميع الوسائل لاطهار أفضلية حسن العلاقات الايطالية الأميركية بالمقارنة مع نوع العلاقات الخطرة التي كان الايطاليون على وشك الوقوع فيها مع الاتحاد السوفياتي . أما إسهام وكالة الاستخبارات المركزية في العملية كلها فكان تقديم مليون دولار ، أو أكثر بقليل ، لحزب واحد مناهض للشيوعية إضافة إلى بعض النصائح عرضتها على حكومة دي غاسپيري عما يستطيع الايطاليون أنفسهم فعله لابعاد ذلك الخطر عنهم .

قال دالس ان على الوكالة ان تشجع إلى أقصى حد ممكن النشاطات العلنية والا تدعمها بالنشاطات المستترة إلا عند الحاجة . وأعرب عن أمله ان نعثر في الشرق الأوسط على أشخاص ومجموعات محلية تقوم بعمل ما يلزم من تلقاء نفسها مع بعض المساعدة المالية والارشاد من قبلنا . وأضاف بأن وزارة الخارجية لن تكون بحاجة لخدماتنا في معظم الحالات ولكنها قد تضطر للاستعانة بنا عندما يصّر متلقو مساعداتنا وإرشاداتنا على بقائها سرية ، وبأن تلك السرية هي لصالحهم وليست لمصلحتنا .

وفي طريق عودتنا إلى مقر الوكالة قال لي كيم بالأحرى ما سمعته على محمل الجد لاني آلن دالس يتصور نفسه شخصية من شخصيات روايات جون بيوكان ولا يستطيع ضبط نفسه ولا ضبطنا إذا

ما لاحت لنا في الأفق فرصة القيام بالدور المُعد لنا. وأضاف كيم قائلاً: «إن آرن على استعداد للتضحية ب... لنقل بسبابة يده اليسرى مقابل الذهاب إلى مسرح العمليات والقيام بنفسه بهندسة انقلاب».

الفصل الثالث عشر

وكالة الاستخبارات المركزية:

منظمة أم بيروقراطية؟

حدّد مكتب تنسيق السياسات خمسة أنواع من العمليات هي: الدعاية والاتحادات العمالية واللاجئون والأعمال شبه العسكرية والنشاطات السياسية. وكان علينا أن نوجه اهتمامنا نحو أوروبا الغربية أولاً ثم الشرق الأوسط وتليهما إفريقيا. أمر أوروبا لا يهمني لأنني أشعر وأنا برفقة الموظفين الذين يتقنون لغتين أو ثلاثاً كأنني أحد الأقرباء القرويين، حسبما تبين لي خلال خدمتي القصيرة في مكتب المانيا، فضلاً عن أن قسم أوروبا الغربية تعزز كثيراً أثناء غيابي في سوريا.

من ناحية أخرى لم يكن ثمة مجال يذكر للنشاط في حقل الاتحادات العمالية لعدم وجود اتحادات تستحق اسمها في الشرق الأوسط. أما العمليات شبه العسكرية فهي ذلك النوع من النشاط الذي كنا نحتاج فيه إلى شهادة بالعجز حتى يجيء «واحد من أصحاب الأفكار الخلابة» واستنبت لنا دوراً في الصراع العربي الاسرائيلي فاق كثيراً ما كنا نفكر به. العمل السياسي؟ انه دون ريب طفلي المدلل، خصوصاً وان المجهود الذي بذلناه للدفع بحسني الزعيم إلى سدة الحكم في سوريا صار درساً يُعطى في صفوف التدريب. إلا أن كيم روزفلت رأى من الأفضل التريث فترة نراقب فيها زملاءنا في وزارة الخارجية ونستمع إليهم يبشرون بأن «حكومات منتخبة ديمقراطياً» في الدول العربية سينتج عنها مواقف أكثر اعتدالاً تجاه دولة اسرائيل التي قامت حديثاً.

وفيما كنت أصفى أعمالي مع كيم رحت أستعد لاستلام مركز خُلق حديثاً، أي رئيس اركان التخطيط والمعلومات للشرق الأدنى وإفريقيا، ورافقه ترقية في الرتبة وعدني بها فرانك وايسر. وكالة الاستخبارات المركزية تعرّف كلمة «استخبارات» على انها المعلومات التي نستقيها عن الآخرين، وكلمة «معلومات» بالمعلومات التي ننشرها عن أنفسنا بكلام آخر، ما نريد الغير ان يظن بأنه يعرفه عنا. أشار كيم إلى أن التقارير التي كنت أبعث بها من دمشق فيها من المعلومات أكثر مما فيها من الاستخبارات وبالتالي يجب أن أرتاح كثيراً لعملتي الجديد.

وافقت على ذلك، وكانت مهمتي الجديدة عبارة عن توضيب المعلومات بشكل ملفت يضمن لها حظاً كبيراً في ان تتلقفها الصحف وتنطوي ضمناً على ما يدعم المصالح الأميركية ويلحق الضرر بالمصالح السوفياتية، وهو العمل الذي يروق لي تماماً.

وهنا خطر ببالي جيم آينجلبرغر وقد انقطع الاتصال بيننا منذ افتراقنا عند نهاية الحرب. فقد بقي في باريس وأقام في منزل على الضفة اليسرى وراح يكتب مقالات غريبة لمجلة «نيويورك». وعلمت لاحقاً بأنه انتقل إلى شيكاغو وتوظف في أكبر شركة للعلاقات العامة في العالم حيث يكتب المقالات باسم السياسيين ويحضر لهم نصوص خطبهم. وما أن كلمته بالهاتف حتى كان بطريقه إلى واشنطن.

ليس هذا بآينجلبرغر الذي عرفته. ها هو ببدلة أنيقة وقيمص ثمين وياقة عنق مناسبة يجبرني برصانة انه مرتاح جداً لعمله في حقل العلاقات العامة وعلى الأخص من حيث الراتب وحساب النفقات. وأضاف أنه استطاع بعد بضعة أشهر من التمرين ان يتدنى بمستوى كتابته إلى مستوى أفضل موظفي الشركة. وانسجم جيم وكيم انسجام أديبين، وبعد اجراء تحريات سريعة عنه ارضاءً لمتطلبات

أنظمة الأمن والسلامة، أقسم اليمين القانونية كموظف في الوكالة بمرتبة ومرتب سمح له باستئجار منزل في ضاحية جورجيتاون. وفي شقتين محاذيتين لشقة مكتب كيم أقمنا أنا وجيم مكتبنا ومعنا سكرتيرتان، وبدأنا العمل بعد اسبوع من التحضيرات الادارية. قضينا زهاء شهرين في وقت ممتع نتحدث مساء بالمواضيع الأدبية والفكرية بعد نهار من العمل في اعداد مواضيع الدعاية. وهكذا بدأت مرحلة جديدة من مراحل حياتي العملية.

ما زلت أذكر حصول جيم على موافقة كيم بعد تردد على مخطط يرمي إلى إثارة حفيظة زعماء متهورين وغير محبوبين في الشرق الأوسط بارسال رسائل إليهم تحملهم على الرد رداً عقلاً نستطيع إبرازه بشكل يثير التساؤل حول سلامة عقولهم. وكانت التجربة الوحيدة التي أجريناها سلسلة من الرسائل وجهناها إلى البارودي المندوب السعودي لدى الأمم المتحدة. كانت لهجة الرسائل مزيجاً من التقوى والاهانة كما لو انها كتبت بيد مسلمين اتقياء وعرب متعصبين لقضيتهم القومية، تتهمه بالتقاعس عن الدفاع عن الموقف العربي في الخلاف مع اسرائيل ربما لأنه متأثر بوجهة النظر الغربية. وقع البارودي في الفخ وألقى عدة خطب طغى عليها هذيان يفوق ما اعتاد عليه.

سرّ جيم آيخلبرغر بتلك المحاولة فوصفها على انها «أفضل نتيجة من حبوب الـ إس. دي المهلوسة». أما كيم فلم يعجب بها ذلك انه أولاً: على علاقة طيبة بالسيد البارودي ويتفق بالرأي معه في الكثير مما يقوله هذياناً أو غير هذيان. وثانياً: لأنه لا يرى أي خطأ في موقف السعوديين من الصراع العربي الاسرائيلي كما يعتبر ان من الأفضل لمصلحة الولايات المتحدة أن يتمكنوا من ابداء موقفهم بوضوح وبشكل مقنع. وكان أكثر ما أزعجه رؤية ثلاثة من كبار «خبراء» مكتب تنسيق السياسات بما لديهم من امكانات الحكومة الأميركية يكرسون مواهبهم لظهار صديق حسن النوايا بمظهر رجل مخبول. سجل كيم ما أراد تسجيله وغرقنا نحن في الخجل.

ولكن كان لدى كيم نقاط أخرى. فقد كان علينا، نحن قبل كل الآخرين ادراك معنى المعرفة وادراك الفرق بين المعرفة والعقيدة. كما كان علينا بصفتنا رجال دعاية أن نفهم ان «المعلومات» يجب تفصيلها لتلائم العقيدة لا المعرفة. هذا الفرق ادركه موسوليني (قال: «لا أريد شعبي أن يعرف بل أريده أن يؤمن بعقيدة») وعلينا أيضاً إدراك ذلك الفرق. ولكن المهم هنا هو معتقدات من نستهدفهم لا معتقداتنا نحن.

في تلك الحقبة بالذات لم يكن ثمة مجال يذكر للعمل الدعائي في الشرق الأدنى وافريقيا. وكانت عملية انقلاب حسني الزعيم التحرك السياسي الوحيد الذي قامت به وكالة الاستخبارات المركزية دون مساعدة أي وكالة أخرى من وكالات الحكومة الأميركية. أخذت في دفء ذلك الانجاز اعتبر نفسي أئمن الموجودات في مبنى القيادة للقيام بعمليات فعلية. أما من حيث التخطيط فشعرت بأنني انتمي إلى المرتبة الثانية خصوصاً بعدما شاهدت من آن إلى آخر عمليات التخطيط في قسم أوروبا الغربية. فقد كان لدى قسم أوروبا الغربية داخل مكتب تنسيق السياسات أكثر من مئة مشروع قيد التخطيط في آن معاً: منها التأثير في الانتخابات والتسلل إلى الاتحادات العمالية والسيطرة عليها وانشاء اتحادات جديدة وتمويل الصحف واعداد كوادر سياسية داخل معسكرات اللاجئين كما كان ثلاثون أو أربعون من تلك المشاريع قد بدأ العمل بها فعلاً. أما الوضوح في تقديم المشاريع وعرضها فجعل موظفي مكتب الخدمات الاستراتيجية بكليشياتهم التقليدية يبدون أميين بالمقارنة. وعلى الرغم من ان الشطر الأكبر من عملي قد تحول في أواسط العام ١٩٥٢ إلى قسم التخطيط في مكتب تنسيق السياسات، كنت لا أزال مُدرجاً على أنني ضابط في مكتب الخدمات الاستراتيجية. من هنا إيلام المقارنة.

وهنا جاء حدثان يعجلان من اقتراب المرحلة الجديدة من مهنتي المخبرانية. أولهما: جولة كبرى في افريقيا. فعندما توحد مكتب تنسيق السياسات ومكتب العمليات الخاصة وعُيِّن آلن دالس نائباً لمدير التخطيط ورئيساً للمكتبين المندمجين صار كيم روزفلت رسمياً رئيس قسم الشرق الأدنى وافريقيا الذي توسع ليشمل أيضاً افغانستان وباكستان والهند وسيلان. وبذلك أصبحت المنطقة المخصصة لنا تفوق من حيث المساحة كل المناطق الأخرى مجتمعة وعليه رأينا من واجبنا زيارتها والتعرف إليها عن كثب. لا ريب في ان منطقة بهذا الاتساع عبء ثقيل يفوق طاقة رجل واحد. لذلك قرر كيم القيام بجولة في الشرق الأوسط وشبه القارة الآسيوية تاركاً لي بصفتي المسؤول الثاني القيام بزيارة افريقيا، فاتخذ المبادرة وعاد بعد قرابة الشهر إلى واشنطن. عقد خلال رحلته هذه محادثات طويلة ليس فقط مع كل شخصية ذات شأن في غرب آسيا بل ومع الزعماء المحليين الذين جند البعض منهم عملاء لوكالة الاستخبارات المركزية - ليس عملاً تماماً إنما «زبائن» على استعداد «للتعاون» مع الحكومة الأميركية في كل الشؤون الدولية ذات المصلحة المشتركة للفريقين - لقاء القليل من المساعدات المالية وبعض الدعم التقني.

عاد كيم إلى واشنطن في يوم خميس وقضينا مع زوجتينا عطلة نهاية الاسبوع نستمع إلى حكايات رحلته ونتفرج على ما التقطه من صور خلالها. ويوم الاثنين ركبنا الطائرة متوجهاً إلى القارة السوداء. لم يقدم لي أحد فيها امارته ولكنني قمت ببعض الاتصالات المفيدة في السودان وأثيوبيا وكينيا وجنوب افريقيا ونيجيريا وتوغو وليبيريا. أما في غانا وشاطئ العاج والسنغال فكان لي أكثر من مجرد اتصالات. فقد كان في غانا مثلاً رجل أميركي من أكثر الرجال حكمة اسمه بوب فليمينغ يزن قرابة ١٥٠ كيلوغراماً وهو بمثابة لورنس افريقيا، يؤدي دور المستشار لقوامي نكروما. وبالطبع كان هناك نكروما نفسه الذي تناولت معه، بفضل فليمينغ، طعام الغداء وقضينا ثلاث ساعات من الحديث وجدته خلالها من أكثر الشخصيات سحراً، ذلك أنه لم يكن قد مضى على توليه الزعامة الوقت الكافي لظهور اعراض داء العظمة فيه. كان نكروما ودوداً يتمتع بروح النكتة ويتكلم الانكليزية بلهجة أفراد الفرق الموسيقية في نيو اورلينز. وكان هناك أيضاً رئيس جمهورية شاطئ العاج فيليكس هوفويه بنغي الذي يتكلم الفرنسية بلهجة وطلاقة الباريسيين وقد ترك في نفسي انطباعاً بأنه رجل مثقف وسياسي محنك. وكان هناك بالطبع رئيس السنغال ليوبولد سنغور الأديب والشاعر الكبير. والواقع ان هذا الثلاثي وحده كان كافياً لاعتبار رحلتي ناجحة جداً لجهتي مركزي في الوكالة ومستقبلي بعد الوكالة.

جاءت أهم نتائج رحلتي الافريقية من خلال احاديثي ومشاوراتي مع بوب فليمينغ. انه يشاطرنى عظمي الطبيعي على الأفارقة السود ولكن إسرافه في الكلام عن نكروما أدى إلى طرده من البلاد. وعلى الرغم من ابعاده إلى نيجيريا استمر بتقديم المعلومات لتزويد الحكومة الأميركية وزيادة تفهمها لأوضاع الأفارقة السود بحيث اخذ الموظفون في وكالة المساعدة الدولية المحلية يدركون ضرورة تلطيف عطفهم هذا بإضافة بعض «الحقائق الحضارية» عليه (حسب تسميته لها) رغم معارضة رؤسائهم في واشنطن. من محادثاتي مع بوب اتضح لي نقطتان على صلة وثيقة بأفكار كانت قد بدأت تجول في خاطري: الأولى ان النوع الوحيد من المجتمعات الذي يرتاح إليه الأفارقة السود هو المجتمع القبلي وجوهره «السلطة القبلي» (حسب تفسيره لها). والثانية انه لا يمكن قيام زعامة افريقية شاملة بقيادة شخص واحد أو مجموعة صغيرة من الأشخاص، ليس فقط لتعارض ذلك مع «السلطة القبلي» (حسب تفسيره لها) بل لعدم وجود لغة مشتركة في افريقيا. فتصف الأفارقة يستعملون الفرنسية لساناً مشتركاً للتخاطب فيما بينهم والنصف الآخر يلجأ إلى الانكليزية. ولهم جميعاً أكثر من مثلي لغة في كل منها عشرات اللهجات المحلية.

من عوامل التفرقة الأخرى بين الافارقة السود تحوُّفهم من بعضهم البعض وتحاسدهم، فضلاً عن ان المتنورين منهم بما فيه الكفاية لرسم تطلعات مستقبلية مختلفون فيما بينهم حول ما يجب ان تصبو إليه تلك التطلعات وحول سبل بلوغها. عاشر بوب مختلف أصناف الافارقة وتحدث إليهم ورأى ان ما يعتبرونه «تطلعات» لا يعدو كونه شعوزات بالنسبة إلينا نحن الغربيين، ولكنها بالنسبة إليهم حقائق واقعة تستحق قيام حروب قَبَلية من أجلها. ولم تكن الاجتماعات للبحث في داء الفم والحافر الذي فتك بالماشية في طول افريقيا وعرضها أكثر من مناقشات حول العلاجات بالسحر والشعوذة والتعاويذ، علماً بأن أطباء تخرجوا من جامعة اكسفورد اشتركوا فيها بالحماس عينه الذي أبداه أبناء عموماتهم الأميون.

وعبر ماركسية بدائية مناسبة أخذ السوفيات بعض التقدم على مجمل المسرح الافريقي لاعتماد اسلوب معاداة شيء ما جزء منه حقيقي والجزء الآخر وهمي. إن أقل شخص يعمل في حقل الدعاية يدرك ان الوسيلة الفضلى لتوحيد مجتمعات متباينة هي إرشادها إلى شيء تلتقي على كرهه ومعاداته بينها تؤدي محاولة اعطائهم ما يريدونه إلى تبيان انهم يريدون اشياء متعددة وانهم لا يستطيعون الاتفاق على الأولويات. ولكنهم في الواقع ذاته قادرون على الاتفاق فقط على من أو ما يقف بينهم وبين تعدد رغباتهم وبالتالي الانحاء باللوم عليه على انه سبب حرمانهم.

قبل بحث الموضوع مع بوب فليمينغ راودتني أفكار عن ابراز نكروما كنوع من المخلص الافريقي وتراءى لي انه إذا كان قد استطاع بلوغ مرتبة الزعامة في نيجيريا رغم ضعة أصله القبلي فقد يتمكن من بلوغها على نطاق افريقيا السوداء الشامل. والواقع انه استغل صفة أصله القبلي ذلك انه باعلانه الحياد في الصراعات القبلية ارتفع فوقهم منادياً بشعارات مستحبة لديهم جميعاً. هكذا بدا الوضع لي ولكن بوب رأى بأنني على خطأ فادح ومخطر، فالأشياء ليست على مظاهرها. فقد بدأ نكروما يدعي بأنه «أعظم من موسى» وعلى استعداد «لقيادة جميع شعوب افريقيا عبر ذلك البحر الأحمر من البؤس الاستعماري». ولكني رأيت ألا أؤخذ بأولى أعراض داء العظمة هذا، فيما كان بوب يتمنى ألا تكون خبرتي الجديدة هذه انعكاساً لما يفكر به رؤساؤنا في واشنطن. ومما قاله لي ان مجرد التلميح إلى نكروما عند أي زعيم افريقي آخر سيجعل مني شخصاً غير مرغوب فيه لديهم ويؤدي إلى الاستهزاء بي والسخر مني واخراجي من افريقيا. ولكنه وافق على أن «سياسياً ساحر الشخصية» حتى ولو كان أبيض قد يتمكن من بلوغ زعامة عامة في افريقيا - «إذا ما كان ذلك شيئاً مستحباً»، حسب قول بوب.

وعلى الرغم من عدم ظهور زعماء يذكرون، كان في افريقيا فراغ قيادي واضح يأمل السوفيات بملئه ويجمع بعض الاتباع حول زعيم ينادي بشعارات مناهضة للاستعمار لم يبرز بعد. لقد كانت افريقيا محفوفة بما أسماه مخططونا في واشنطن «ظروف ما قبل الثورة» وفي الوقت نفسه كان رؤساؤنا في واشنطن على خطأ في ظنهم ان البريطانيين والفرنسيين يسيطرون على الأوضاع هناك. ولعل باستطاعة أي مراقب محايد أن يشاهد بوضوح وضع الافارقة السود من مرضٍ وسوء تغذية لولا وجود الاستعمار الفرنسي والبريطاني في افريقيا وان يدرك في الوقت نفسه ان اميركا هي المصدر الوحيد القادر على توفير العون الاقتصادي والتقني اللازمين لانقاذهم من المرض وسوء التغذية. ومع ذلك كان خبراء الدعاية السوفيات واتباعهم المحليون المستجذون يحاولون اقناع اصحاب النشاط السياسي الافارقة بأن عليهم التخلي عن خصوماتهم القبلية من أجل طرد «الاستعمار والرأسمالية».

إذاً يمكن توحيد الافارقة، وأخذ السوفيات يحاولون أن يبرهنوا ذلك. ولكن لا أستطيع القبول

بتأكيد قدرتهم على الاتحاد فقط بوجه عدو مقبوت. كان اليوم الذي قضيته في ادغال شاطئ العاج مع عالم الانسان الالماني الدكتور هانس غروبر كافياً لاقتناعي بأن الأفارقة ضعفاء أمام القيادة «الساحرة» من صنف الدعاة الاصوليين الذين يُشدهون مستمعهم في قلب الجنوب عندنا. فقد قضى البروفسور غروبر قرابة العشرين سنة يراقب بهدوء تصرفات أهل قرى آكان مثلما جاءت جاين غودال بعده بثلاثين سنة تراقب تصرفات قرود الشمپنزي. فقد لاحظ بتدقيق كيف يبرز زعيم في أوقات الشدة ويسير رجال القبيلة خلفه بهدوء دون أن يكون قد ألقى خطاباً ورفع شعارات نارية، وهذا أمر شاهدته بنفسي. ففيما كنا أنا والبروفسور نقترّب من إحدى القرى سائرين وراء رئيس القبيلة ببضع خطوات رأينا القرويين يتبادلون الصياح بشأن قضية قبلية. وما أن شاهدوا رئيسهم حتى توقف صراخهم وانصتوا بهدوء إلى ما أمرهم به.

سألت البروفسور غروبر عما يتمتع به رئيس القبيلة دون أفراد قبيلته فأجاب بأنه يتمتع بسحر الشخصية. وما هو ذلك السحر؟ وهل يستطيع احد أفراد القبيلة العاديين تنميته وانتزاع القيادة؟ أجاب بالنفي لأن القائد يأتي أولاً ثم يأتيه السحر. أي ان القائد ليس قائداً لأن شخصيته ساحرة بل أن شخصيته ساحرة لأنه القائد، هكذا بكل بساطة. أضاف ان الأمر في واقعه ليس بتلك البساطة ذلك انه يشبه حال من جاء أولاً البيضة أم الدجاجة. فمن المعقول إذاً ان يتمكن المرء من تنمية السحر في شخصيته أو ان يُنمى السحر فيها عن طريق العلاقات العامة بابرازه للرأي العام. ولكن لا يمكن حصول ذلك تحت أنوف الاتباع وعليه يجب أن يؤتى من الخارج بالزعيم ذي الشخصية الساحرة المطور تطوراً مصطنعاً.

غادرت افريقيا وجعبي مليئة بمواد وأفكار جديدة بعضها غير كامل النضوج محورها اعتقاد راسخ اننا بحاجة إلى زعيم واحد في افريقيا، أسود كان أم اسمر أم أبيض، قادر على توحيد جميع الافارقة السود حول قضية ايجابية وبناءة، وان علينا أن نؤمن لهم ذلك القائد. نظمت توصياتي في برقية أرسلتها إلى واشنطن يفوق طولها طول البرقية التي بعث بها جورج كِنان من موسكو قبل بضع سنوات.

لم يعد بوسعي ان أتذكر الآن، بعد مرور خمس وثلاثين سنة من الخبرة والنضوج على الآراء الباهرة التي خرجت بها عامي ١٩٥١ و١٩٥٢، لحل ما كان يجول في ذهني آنذاك. هل ما زلت أذكره ان مجموعة الافكار التي عدت بها إلى واشنطن شغلت ثمانية أو عشرة موظفين شهراً ونيماً لتنظيمها في الأطر المعينة، وانها، قبل ان ينسفها كيم روزفلت تضخمت مثل كرة الثلج فصارت مشروعاً اندرج في السجلات السرية لوكالة الاستخبارات المركزية بعنوان: «البحث عن بيلى غراهام مسلم». وبفعل مذكرة صدرت إلى جميع الفروع في الخارج جند رئيس مركز بغداد «داعية تقياً» من العراق وأرسله في جولة تبشيرية أدت إلى اعتقاله ومحاكمته بإعدامه على يد حكومة نوري باشا السعيد الذي اعترض «من حيث المبدأ» على القضية برمتها. جاء اعتراضه هذا في كتاب اعتذار وجهه إلى كيم روزفلت لدى معرفته بأن «الداعية» المسكين كان فعلاً عميلاً لوكالة الاستخبارات المركزية ولم تكن اعترافاته بذلك عبارة عن تبجح أمام مستجوبيه.

كانت رسالة نوري باشا أول ما سمعه كيم عن المشروع فثارت ثائرتة واعتبرني جننت. وعلى الرغم من علمه بأن موظفي مكتب تنسيق السياسات مجازين فقد كان يتوقع مني ما هو أفضل مما صدر عني. وما قاله لي: «انك تعجب بأفكارك من أجل ذاتها وهذه هي مشكلتك. ولكن عليك ان تكتسب عادة التمعن جيداً بأفكارك النيرة وبما ستنتهي إليه». ولما كان كيم من آل روزفلت، الأسرة ذات

التقليد القديم في نوع خاص من الزعامة، فقد فكر بالموضوع الذي لم أكن على دراية به حتى ذاك. وألقى عليّ محاضرة عن ان الزعماء، رغم ما قد يتمتعون به من سحر، يمكن أن يكونوا عملاء لدى اتباعهم وكيف يمكن ان ينتج عن مزيج اعتباطي بين الزعماء والاتباع انفجار مغاير لما كان منشوداً.

على كل حال رأى كيم ان في الفكرة بعض الحسنات وأدرك أيضاً انها اكتسبت قوة اندفاع خاصة بها وقال: «سنضعها الآن على نار خفيفة لبعض الوقت، ولكن لديّ في الوقت نفسه رحلة أخرى لك. فعليك مرافقة كيركباترك وجونستن في جولة على مراكزنا في الخارج. وستكون يدك مليئتين بالعمل بلملمة الركاب الذي سيخلفانه. وعليك أيضاً الاستمرار بالبحث بجميع الوسائل عن ذلك «الساحر» العظيم مع الأخذ في الاعتبار ملاءمتهم للظروف المحلية في الأماكن التي ستزورونها. على كل حال سنبحث في الموضوع بعد عودتك».

كان ليمن كيركباترك رئيس مكتب العمليات الخاصة، والعقيد كيلبورن جونستن رئيس مكتب تنسيق السياسات خلفاً لفرانك وايسنر الذي حل محل آلن دالس نائباً لمدير التخطيط. إذا أصبح كلاهما من «الأركان» ولم يعودا من «الخط» (يعني ذلك بلغة الهندسة الادارية انه لم تعد لأي منهما سلطة الأمر والنهي بل أصبح عملهما اعداد الأوراق السياسية ليسترشد بها رئيسهما آلن دالس). ومع العلم بأن انتقالهما إلى «الأركان» اتخذ الصفة الرسمية فلم يكونا قد اعتادا عليها فكانا ضابطي أركان صلفين.

عجزت آنذاك وما زات عاجزاً عن تحليل شخصية كيركباترك. فمنذ انضمامي إلى وكالة الاستخبارات المركزية أخذت أبذل جهداً خاصاً في انشاء ملفات عن أي شخص فيها قد يكون له أي تأثير في وضعي الحالي أو المستقبلي، وهو شعور اندفاعي غما عندي أيام شغفي بلعب البوكر فاحفظ بدقة تصرفات اللاعبين الآخرين وتحركات أيديهم وقسمات وجوههم التي تدلني عما إذا كانت أوراقهم رابحة أم انهم يخدعون. ولكن جمع المعلومات هذه عن كيرك أعياني ولم أقو على تركيبها بما يسمح باستطلاع طبيعته واستباق تصرفاته. ففي أيام الفتوة عندما كان الفتيان والفتيات يسرقون سيارات ذويهم ويغزلون الفتيات (أو الفتيان) ويجربون التدخين كان كيرك يجمع ما تيسر له من شارات الاستحقاق بغية الصيرورة أصغر شاب تولى قيادة فريق الكشف في روتشستر بولاية نيويورك. وبعد بلوغه مرحلة الرجولة استمر على ما كان عليه من أهلية بالثقة ومن ولاء ورغبة بتقديم العون، والود والتهديب والاقتصاد والشجاعة والنظافة والتقوى وإلى حد ما اللطف والطاعة. فأني موظف يقع في ورطة مع قيادته يستطيع الاعتماد على تأييد كيرك في السراء والضراء، ورغم ذلك تراه يطرد موظفاً تعيساً لمجرد إظهاره بأنه أيدى ما قد يدل على عدم الانصياع للأوامر أو التبرم بها. ثمة مدرسة فكرية تقول بأن كيرك تحول إلى «العلج» الذي هو عليه بعد جولتنا فصار «طموحاً دون شفقة» (حسب قول أحد الثقات) بعد إصابته بداء شلل الأطفال أثناء وجودنا في بانكوك، كي يعوض عن العجز الذي حل به ويبرهن بأنه ما زال نداءً لمنافسه ريتشارد هلمز. والحق يقال إنه كان في طريقه إلى ذلك قبل رحلتنا المشؤومة.

اعتمد كيرك معي أسلوب التعسف المتشدد متعمداً إرباكي أمام موظفي مكتب الخدمات الخاصة في كل مركز زرنائه فقط ليظهر لهم مدى بأسه وسلطانه. ولكنه في الواقع كان غافلاً عما يفعله بي حتى أبدت له اعتراضاً فانقلب صلفه إلى اعتذارات صادقة. أما العقيد جونستن وقد احتفظت بملاحظات عنه تكفي لملء كتاب فلم يكن أقل قسوة ولكن قسوته لم تتخذ صفة التعمد الشخصي. إنه مدمن سابق على الكحول أصيب بنوبة قلبية واحدة على الأقل واعتمد مظهر المشاكس المتسلط الذي ساعده كثيراً في

مركزه كرئيس لمنظمة مليئة (حسب رأيه) بالمختئين. وكان، رغم محاولته إخفاء ذلك، حاد الذكاء يعود صلفه وقسوته إلى تفوقه العقلي.

«بات» جونستن هو ابن هيو جونستن المجدد والمنظم الهام جداً في إدارة الرئيس فرانك روزفلت (أضاف حرف ت على جونسون لإخفاء القربى). تعلم البيروقراطية وهو بعد في حضن أبيه ثم التحق بكلية وست بوينت الحربية حيث أتقن أصول التنظيم العسكري، فأضحى خلال الحرب العالمية الثانية أحد أهم شخصيات برامج التنظيم والإدارة في الجيش الأميركي وألف عدة كتيبات إرشادية بلغة نثرية واضحة خالية من الكليشيهات العسكرية. وكان قبل قيامنا برحلتنا قد قرأ كل الكتب الهامة عن التنظيم والإدارة وحفظها فصار قادراً على تقيؤ محتواها بكشل مفيد ومثير.

هل قلت «بشكل مثير؟» فقد كانت محاضراته الطويلة حول الموضوع التي ألقاها أمام جمهوره المؤلف مني بمفردي ساحرة حتى جعلت كتاب برنارد «مهمات المدير التنفيذي» الممل والقديم المحتوى مقبولا ومشوقا. وتقديراً لاهتمامي بمحاضراته تلك أسبغ عليّ قائمة بأسماء مجموعة من الكتب استنير بها بعد عودتنا إلى واشنطن وقال لي بالنسبة: «أنت متهور مهووس، ولكنك ذكي».

عليّ أن ألفت انتباه القراء إلى أنه لا جُكم بات جونستن ولا قائمة الكتب التي نصحني بقراءتها كانت أول ما سمعت به عن موضوع الإدارة. فقد سبق لي أن ساعدت بيردي سيلفا في وضع الرسوم البيانية أثناء دمج مصلحة مكافحة الجاسوسية بمصلحة الاستخبارات السرية وقبل ظهور كيرك ويات على الساحة. ولكن تبقى البيروقراطية طبقي المفضل على كل ما عداها من تنظيم وإدارة و«التنظيم والإدارة» بالمعنى الخاص الذي أسبغه عليه في تلك الأيام مؤلوه مفهوم الكفاية. فقد سبق لي أن قرأت أعمال ماركس ولينين وماكس فيبر ولودفيك فون ميزه وفريدريك فون هايك إضافة إلى فرانز نويمن وروبرت مايكلز بشكل خاص. ففي كتابه «بيموث» (كيان ضخيم قوي) بين نويمن كيف أفسحت البيروقراطية «كدولة ضمن الدولة» المجال أمام هتلر لبلوغ السلطة. وكذلك أظهرت نظرية مايكلز القائلة «بحدودية سنة حكم القلة» أفكاراً متعددة لم أدرك معناها ساعة قراءتها، وما أن معناها ينجلي في ذهني بعد مقابلاتي لزعماء أفارقة بدأوا يرون البيروقراطية دونهم تنمو وتخرج من قبضتهم.

من مطالعاتي فهمت البيروقراطية على أنها أكثر من نعت استهزائي يصف الإدارة بأنها أنشئت من أجل الإدارة ومن أجل المعاملات الورقية ومن أجل موظفين يبتزون أموال الملكلفين. إنها، حسب تعبري الخاص، عبارة عن منظمة (ليست كل منظمة بيروقراطية) لها صفاتها الخاصة: (١) توزيع المهام حسب مهارات محددة، (٢) وهيكلية لها الصفة الرسمية، (٣) و«تحديد ووصف طبيعة العمل» لكل من أفرادها، (٤) وأنظمة محددة بوضوح تنظم العلاقات بين أفرادها وضمن فرق العمل وداخل الأقسام. فإنشاء بيروقراطية، حسب تعريفي لها (استناداً إلى ماكس فيبر وغيره) لا تزيد كثيراً عن وضع قائمة بكل شيء يجب عمله من أجل تمكين المنظمة من بلوغ غاياتها ثم ادخال تلك العناصر الأربعة بأقل تعقيد ممكن. يبقى أن أهم مميزاتها أن السلطة تترافق مع اللقب ومع وصف الوظيفة، لا مع الشخص، بحيث أن ولاء المرؤوس لرئيسه ليس مرتبطاً باحترامه له كشخص بل بأنه يشغل منصباً معيناً.

ما أسهل التغلب على هذا النظام! ففي أي مجموعة كبيرة من الناس يعملون معاً تنشأ حكماً شبكة من العلاقات الشخصية المتداخلة الخيوط سواء رحبت الإدارة بذلك أم لم ترحب. وقد تستطيع المنظمة البيروقراطية القيام بأعمالها بانتظام عندما لا تتعدى تلك الأعمال الرتابة الروتينية. أما في

الأزمات فتحل العلاقات الشخصية محل رتبة النظام المعمول به . وعليه وتحت اشراف بات اخترعت عبارة «خلق الأزمات» ادراكاً مني بأن التفهم العميق لحركية المنظمات أمر أساسي في تخطيط عمل سياسي احترافي طالما حلمت بإتقانه . فسعيت للتوصل إلى طريقة أرقى من مجرد العثور على عقيد مغفل أرشده خطوة بعد خطوة لتنفيذ انقلاب على الدولة . وخطرت لي وأنا أطبق تعليمات بات على مشاهداتي في افريقيا ان البيروقراطية المتصلبة لا بد أن تكون في أحد مستوياتها من رأسها حتى أسفلها عرضة لانطباق مخططي عليها شرط توفر مجال يسمح بالتحرك من أجل «خلق الأزمات» أو «الامساك بزمام الازمات» .

باستطاعة الشخص الجالس على قمة منظمته والواقف على قنوات حركة المعلومات فيها أن يفعل شبكة العلاقات الشخصية غير الرسمية ساعة يرى في ذلك تلاؤماً مع غاياته - أو بتعبير أوضح وأدق عندما تتوافر فيه مهارات اللعب بالمنظمة حسب رغباته يستطيع استخدام تشابك ما هو رسمي مع ما هو غير رسمي في بنية المنظمة لتحقيق تلك الغايات مهما كان نوعها . ولا ريب في انه سيعتمد على العلاقات الشخصية إذا كانت الأزمة المفتعلة مدروسة باتقان واحكام . كما يستطيع الافادة من الولاء على صعيد شخصي لا على صعيد وظيفي - شرط أن يكون قد ملأ المراكز في المنظمة بحيث يشغل مؤيدوه الشخصيون المراكز الحساسة . وإذا ما قمت أنا بتدريب الموظفين في المراكز الأدنى رتبة ونفوذاً فسيتمددون إلى أدنى لخلق المشاكل وإلى أعلى ليبدأ الشعور بوجودهم فتكون العلاقة بينهم كعلاقة الجذور بالنبتة وهي علاقة معرضة جداً «للتأثيرات الخارجية» - أي اختلاق أزمات خفية لا تطالها المراقبة .

سبق لبات أن لفت انتباهي إلى أن بعضاً مما أوردته أعلاه قد حدث فعلاً لنسل جديد من المهنيين يطلق عليهم اسم مهندسين اداريين . ففي كل بلد زرتة في افريقيا كان الزعيم قد استلم السلطة إثر قطعه وعوداً لم يستطع الايفاء بها واستمر في مركزه بإلقائه اللوم على قوى خارجية حالت دون تحقيقه تلك الوعود، وبزج المشككين به في السجون . إن لاسلوب «اللوم والارهاب» جدواه، لا ينجح إلا بتطبيق ما أسماه مايكلز وغيره «السيطرة البيروقراطية» . وقد حاولت في بعض الصفحات السابقة الايضاح بأن انعدام تلك السيطرة أدى إلى سقوط حسني الزعيم .

خلفاً لمدير الاستخبارات المركزية الجنرال بيدل سميث، لم يكن كيركباتريك (حسب اصرار بات) «رجل التنظيم الأمثل» بل كان «رجل البيروقراطية الأمثل» . أشرق عليّ هذا الادراك بكامل قوته بعد أن عكّرنا المياه على رؤساء فرقنا العاملة في نيودلهي وكلكتا وكاراتشي وبغداد وبيروت ووصلنا إلى استنبول حيث كان فريقنا بعهدة آرثشي .

خلال الاجتماع الأول أفرغ كيرك وبات جعبتيهما عن اندماج مكتب العمليات الخاصة بمكتب تنسيق السياسات في منظمة واحدة بإدارة نائب مدير التخطيط وانهما انتقلا إلى «الأركان» من «الصف» . ثم اخرجنا مخططاتهما التنظيمية وفسرا له كيف يجب عليه ادارة شؤون فريقه . وهنا لمع في ذهني انها لم يظهر أي فضول أصيل عن سبب وجود فرق في تلك الأمكنة بالذات أو بشأن الأوضاع المحلية ومدى تأثيرها في عمليات تلك الفرق، هذا إذا كان ثمة عمليات وامكانات اجرائها . ويبدو انها لم يعتبرا ان لمثل تلك الأشياء علاقة بمهمتهما .

والأدهى من ذلك انها افتتحا عرضهما لآرثشي بمفرده، ولكنها قبل البحث فيه مسبقاً معه على انفراد دعيا كل الموظفين باستثناء السكرتيرات وعرضا التنظيمات التي قرراها أمام الجميع . وتضمنت

تنظيماتها وجود رئيس فريق (آرتشي) ونائب عن مدير مكتب العمليات الخاصة، ونائب عن مدير مكتب تنسيق السياسات ورؤساء لأقسام الاستخبارات ومكافحة الجاسوسية والعمل السياسي والشؤون العمالية والعمليات شبه العسكرية، هذا علماً بأن لدى آرتشي سلطة دمج أو رفع أو تخفيض أو حتى الغاء تلك الاختصاصات كلها حسبما تقتضيه الأوضاع المحلية. أما آرتشي وهو ذلك الرجل الذي يفترض دوماً وجود حسن النية حتى يثبت العكس فسمح بالتمادي في ذلك الاسراف إلى نقطة اللارجوع. وقبل أن يدرك آرتشي بأن بيانهما قد انتهى لتبعه بضع أسئلة مهذبة، كان كيرك قد استدار نحوي وسأل: «هل ذلك واضح بالنسبة إليك يا مستر كويلند؟»

أجبت: «أجل، انه واضح بما فيه الكفاية بالنسبة لي، هذا علماً بأن ما سأكتبه عنكما إيها السيدان يصلح مقالاً لمجلة نيويورك أكثر منه تقريراً سأبعث به إلى كيم. ثم اسألا آرتشي عما إذا كان واضحاً بالنسبة إليه».

جلس آرتشي وقد اعتراه الذهول. ثم فعل شيئاً لم يسبق لي أن شاهدته يصدر عنه. وانفجر غضباً! تاه عن بالي ما قاله لهما وكل ما أذكره انه خاطبهما بكلمات وعبارات امتازت بحسن الاختيار، عندها نهض ضابط برتبة عقيد المفروض فيه الاشراف على العمليات شبه العسكرية وقذف نحو الحائط بالكرسي الذي كان يجلس عليه، فتحطم.

يا له من مشهد! همدت فوراً لهجة بات وتحولت إلى التماس المصالحة. فقد أدرك انه بإشارته للتمييز بين «الأركان» و«الخط» ارتكب هفوة كبيرة. أما كيرك فشعر بأن سلطته تعرضت للتحدي وانه بات مجرد ناظر مهمته السهر على الانضباط حسب أوامر تأتيه من فوق. وحافظ على رباطة جأشه، وبدا عليه الغضب بوضوح جعله إما يتجاهل بات أو لا يسمعه وهو يبدي اعتذاره بعض التراجع فقال بأنهما لم تعد لهما أية «سلطة» بالمعنى المتعارف عليه للكلمة وبأنه يأمل أن يدرك آرتشي ما تنطوي عليه «توصياتهما» من «وزن سلطوي» عندما يقرر «ما إذا كان سيقبل بتلك التوصيات أو يرفضها».

ظننت بأن آرتشي الذي لم يكن على معرفة بلهجة التقرير الذي سأرفعه إلى كيم، قد شعر بأنني تخليت عنه بانزوائي صامتاً فيما كان كيرك يدلي ببلاهااته. على كل حال كان من شأن تحطم الكرسي على الجدار ان خفف التوتر قليلاً وحول اهتمام كيرك نحو محاولة تهدئة العقيد الذي حطم الكرسي ليقول له بأنه سينقله إلى مركز آخر حيث يقدرون مواهبه. ثم تناولنا طعام الغداء والصمت يخيم علينا نظراً لأننا كلنا على درجات مختلفة من الصدمة، كما لم يعدوا ما تبادلناه من كلام عن بعض ما تكلفناه من أدب مع محاولة تلطيفه ببعض النكات والضحك المصطنع.

والغريب اننا بعد مغادرتنا استنبول جرت الأمور على خير بيننا فقد شعر من كل كيرك وبات بالراحة وبالسعادة لانتهاء المهمة وكانا يضحكان فعلاً أثناء رحلتنا بسيارة السفارة من مطار لندن إلى فندق كلاردج حيث جلسا يعدان برقية لمدير الاستخبارات السرية يتضمن اننا جميعاً متعبون جداً من الرحلة وبحاجة إلى العودة بحراً. جاء الجواب ايجاباً فوفرت لنا الباخرة الفخمة «كوين ماري» راحة كنا بأمس الحاجة إليها وكنت في أحسن استمتاعي بها عندما سمعت شاباً من وكالة الاستخبارات المركزية استقل الباخرة من مرفأ ساوث هامبتون، يسأل بات صحة الاشاعة عن حتمية تعيين كيرك مديراً للاستخبارات المركزية. أجاب بات بأن لا مفر من ذلك لأن كيرك مزيج مثالي من القدرة الادارية والعقلانية والصرامة وبأنه لدى بلوغه غايته هذه سيكون أقل «خراثة مما هو عليها».

تجمد الدم في عروقي. فحتمية ارتقاء كيرك إلى التروؤس علينا جميعاً كانت صدمة قوية لي. فهو

سيصبح يوماً مديراً وسيكون مديراً جيداً لأن فهمه لجوهر الأمور محدود جداً. من هنا سيتمكن من ادارة وكالة الاستخبارات المركزية على انها منظمة لا مجرد اسطبل يضم مجموعة من راقصات الباليه - مثلما يتعامل رئيس مستشفى والترريد العسكري مع الاطباء المستقلي الرأي فيه. أما منافسة الرئيسي ذلك هلمز فلديه بعض المعلومات عن الاستخبارات - بما يكفي لجعله رجلاً خطراً - ولكن كيم يُعتبر «مستر نظيف» وهو وان كان يعلم ان الخط المستقيم ليس بالضرورة أقصر مسافة بين نقطتين فهو اسلمها حتى يثبت العكس. إذا انه «رجل البيروقراطية» الأمثل!

غير انه يوجد في الاسطبل راقصة لن يتمكن من قيادتها وهي أنا. عندما اتضحت في ذهني سخافة عملي في وكالة استخبارات مركزية يديرها ليمن كيركباتريك صرت أفكر بأن «المنظمات خلقت للحرقة بها لا لأن أكون فرداً فيها». وحسب ما أوحته لي محاضرات بات سأصبح، أنا، مهندس ادارة! ولما وصلنا واشنطن قضيت اسبوعاً في اعداد تقرير لي لكيم عن الرحلة (وجعلت ما حدث في استنبول نموذجاً عنها)، وأمضيت جلسة أخرى قابلاً بصمت في احدى الزوايا استمع إلى كيم يسرد على بات وكيرك رأيه فيهما، وأعددت ورقة أخرى أوردت فيها أفكار لي عن كيفية البحث عن «أب أبيض كبير» هذا إذا كان بحث كهذا سيجري على الاطلاق، والنظر إليه كقضية تنظيمية (عنيت في الواقع «بيروقراطية» حسب تعريف ماركس وفير ومايكلز، لكنني قلت «تنظيمية» مراعاة لبات وغيره من القراء المحتملين والملمين، بأحدث ما يصدر عن مكتب التنظيم والادارة في الجيش الأميركي).

قوبلت أفكار لي التي ضمنتها تقرير لي الواقع في ثلاثين صفحة بالاستحسان وعلى الأخص فكرة استقالي لاستلام عمل جديد مع شركة بوز-آلن اند هملتون وهي أهم شركة في العالم للاستشارات الادارية. وقد تأمن لي عملي هذا أثناء لقاء طويل على الغداء بيني وبين رئيس الشركة بواسطة مكتب رالف سمايلي في واشنطن وكتاب توصية يشع اطراء بي وقعه فرانك وايسنر. أعجب رالف بأفكاري حول القيادة والبيروقراطية (مستقاة من «القانون الحديدي» لمايكلز المعدل للتلاؤم مع الظروف في افريقيا والشرق الأوسط حسب فهمي لها) وقال بأن أفكار لي تلك قد تساعد إذا ما نجحت مخططاته لإقامة قسم دولي لشركة بوز-آلن اند هملتون.

وهكذا وصلنا إلى مرحلة أخرى من مراحل عملي المتقاطعة، مرحلة تصور المقولة القديمة انه بإمكانك إخراج الشاب من وكالة الاستخبارات المركزية ولكن ليس بإمكانك إخراج وكالة الاستخبارات من الشاب.

الفصل الرابع عشر

مهمة استطلاعية في مصر؟

رواية كوبلاند من الزاوية الأميركية*

استقلت مرتين من عملي في وكالة الاستخبارات المركزية بسبب حاجتي إلى المال ولم ألق ترحيباً لدى عودتي إليها إلا مرة واحدة وكنت قد جمعت من المال ما سمح لي بالعودة إلى ترف العمل في ذلك المكان المدهش. اعتاد أحد زملائي - وكان يعتمد على أبيه الثري لتغطية الفرق بين راتبه ونفقاته - القول بأنه يشعر وكأنه لا يزال طالباً في الجامعة إذ يكتب لأبيه قائلاً: «أبي الحبيب، أرجو أن ترسل لي المزيد من الدراهم كي أبقى في وكالة الاستخبارات المركزية ستة أشهر أخرى». ولما لم يكن لي والد ثري، اضطررت في العام ١٩٥٣ إلى مغادرة الوكالة لستين لأجمع ما كفاني من المال لشراء منزل جميل في ولاية فرجينيا وسيارة ثانية وسترات رياضية من المخازن الأنيقة. بلغ راتبي في شركة بوز- آلن اند همبلتن ضعفي ما كنت أتقاضاه في وكالة الاستخبارات المركزية، ولم يحسبني على ذلك زملائي الأكثر فقراً مني فيها بل حاولوا اقتفاء أثري. وعندما أخذت عطلة من الشركة في العام ١٩٥٥ للانضمام إلى الوكالة من جديد اغتبط الجميع لعودتي.

وعندما تركت الوكالة ثانية عام ١٩٥٧ ارتفع دخلي بعد فترة وجيزة مما حمل مجلات الأعمال الكبرى على إدراج اسمي بين العشرة مستشارين الأعلى راتباً في العالم. وبعدما أصبحت ثرياً بحيث استطيع استئجار جناح في برج واردمن وتوظيف بعض الخدم فيه لم يعد أحد من زملائي السابقين يتكلم معي. ولما غرقت الوكالة في المشاكل بعد عملية «خليج الخنازير» الفاشلة عرضت خدماتي على ريتشارد بيسل الذي حل محل فرانك وايسز في منصب نائب مدير التخطيط ليقال لي بأن نار الثورة ستشتعل فوراً في مباني القيادة بمجرد التفكير بإعادتي إلى الوكالة. ثم تقدمت بعرض من نوع التعاقد للعمل مقابل دولار واحد في السنة، فرفض هو الآخر. ومنذ تلك الأيام وحتى الآن وأنا، حسب تسمية فرانك وايسز، «الخريج الأمين» أقوم بمهمات يجب القيام بها ولا تجرؤ الوكالة على ذلك (هل لاحظتم الفرق)، تارة أحصل على بدل أتعاب ضئيل، وأخرى على مجرد ما دفعته من جيب، وفي أكثر المرات أقدم أتعابي دون مقابل. والواقع أن ولديّ الاثنين أخذوا في السنوات الأخيرة بمولان نشاطاتي غير الرسمية (وغير الموافق عليها بشكل صريح) بواقع بضعة آلاف من الدولارات في السنة وهي مبالغ غير خاضعة للحسم من ضريبة الدخل. وفي الوقت نفسه، وعلى الرغم من أنني ما زلت أنعم بصداقة وثقة بعض الأصدقاء الباقين في الوكالة، أبقى مضطراً لسماع ثروة الباقين الذين استساغوا أفكاري واستنكروا وسائلتي.

سأطلع كل قارئ يتعهد بالكتمان على السرّ الكامن في سيرة حياتي، أو لنقل وراء دوافع تصرفاتي الكيفية. لقد قضيت السنوات الثلاثين الماضية في تتبع وتحسين نظرية نشأت في ذهني من خلال جولتي الأفريقية ومن أحاديثي مع بات جونستن ومن مراقبتي لذلك البيروقراطي الأمثل ليمن

* ملاحظة: جرى استبدال العنوان الأصلي من «بيلي غراهام المسلم» إلى العبارة الواردة أعلاه. ومن ناقل القول إن مايلز كوبلاند ينظر إلى الموضوع من زاوية المخابرات المركزية الأميركية وخطتها الرامية إلى التدخل في شؤون مصر. فاقضى تنبيه القارئ لئلا يأخذ الأمور على علاتها.

كيركباترك. ادعى الرياضي الاغريقي ارخميدس بأنه اذا ما تيسر له نقطة أو مكان ليقف فيه والرافعة المرتبة ترتيباً مناسباً لاستطاع رفع الكرة الأرضية من مكانها. أما نظيرتي فقامت في بدايتها على اختيار زعماء من «البيروقراطيات الرئيسية في العالم الحر» وتهيئة «سحر الشخصية» لهم فيكونوا رافعات صالحة تستطيع السياسة الخارجية الأميركية المتنورة الاستعانة بها لرفع مستوى العالم. وقد قلت في مذكرتي الدوائية قبل جولتي على الزملاء ان من شأن تطبيق نظيرتي بحكمة تمكين وكالة الاستخبارات المركزية، إذا ما أحسنت الاستفادة منها، من تحقيق ما وعد به الرئيس وودرو ولسون «بجعل هذا العالم مكاناً أسلم للديمقراطية» من جهة، وبإزالة ما يجري هنا وهناك من مركات لاسلوب العيش الأميركي، من جهة أخرى. وعلى الرغم من التحسينات التي أدخلت عليها، لم تحقق نظيرتي على مر السنين تقدماً يذكر ولكنها قادني إلى بعض المآزق وكذلك إلى تحصيل بعض المال. إنما الأهم من ذلك كله انها علّمتني الكثير عما لا يمكن الاعتماد عليه من أجل رفع مستوى العالم أو من أجل تخفيف وطأة مشاكله المتنوعة.

الديمقراطية، مثلاً، واحدة من تلك المشاكل. فقد تأتي الديمقراطية الأصيلة - بالمقارنة مع الديمقراطية الزائفة التي يدّعيها الاشتراكيون - نعمة لا إذا انبتت نوعاً معيناً من القيادة، عنيفة في نظيرتي واستطاع هذا النوع الثبات بوجه تقلبات الظروف والضغط. وها قد صار من المقولات الشائعة ان بلوغ السلطة يحتاج إلى مجموعة من الصفات، وان استعمال تلك السلطة لخير الذين منحوها يستلزم مجموعة أخرى. وقد اتضح لي حتى في وقت مبكر كالعام ١٩٥٣ ان الديمقراطية كغاية بحد ذاتها أفادت الغوغائيين الديماغوجيين فاستغلوها لأغراض تناقض غاياتها. يشهد التاريخ الحديث على أن بعضاً من أسوأ طواغيت العالم شقوا طريقهم إلى السلطة عبر انتخابات ديمقراطية. ففي العام ١٩٨٠ مثلاً تبجح روبرت موغابي رئيس زيمبابوي المنتخب ديمقراطياً بأنه يجتذ الديمقراطية لأنها «نظام يسهل اختراقه والتغلب عليه». وتوصل أيضاً أشخاصاً من أقل الناس أهلية وكفاءة وأكثرهم ثروة في التاريخ إلى مراكز رفيعة بفوزهم في انتخابات ديمقراطية لم تكن في واقعها أكثر من مباراة في الشعبية، وما لبثوا ان خربوا مصالح بلدانهم لأنهم لم يتمكنوا إلا من السير وراء جمهورهم على غرار ما كتبه ادموند بورك عن احد قادة الثورة الفرنسية الذي نسب إليه قوله: «إن الرعاع يملأون الطرقات وعلي أن أعرف وجهتهم لأنني قائدهم».

والمهم ان الغاية من ملاحظاتي هذه ليست إلقاء درس في أصول القيادة السياسية. فهذا الكتاب سرد ذاتي لسيرة حياتي أعبر فيه فيما أعبر عما كان يحول في خاطري عندما تخلّيت عن العمل في وكالة الاستخبارات المركزية عام ١٩٥٣، ومن بينها الإشارة إلى مواقع في بعض البيروقراطيات في العالم حيث تُتخذ أكثر المقررات تأثيراً في مصالح الولايات المتحدة. فقد ملأ ضميري آنذاك الأمل بأن أتمكن من التخطيط لأعمال سياسية تدفع ببعض من اختار من الطامعين إلى الاشتراك فيها والاستمرار عليها ثم السير في طرق تؤدي بهم وبنا إلى الازدهار والاستقرار. والواقع انه بصرف النظر عن بعض التسلييات العبثية تركزت كل نشاطاتي خلال الخمس والثلاثين سنة الماضية بشكل ما على الأمل في التعرف إلى أشخاص يشرون بطاقة قيادية من أجل توجيههم نحو بلوغ مستقبلهم الأمثل بالوسائل الديمقراطية، إذا ما توافرت، أو بأي وسيلة أخرى ودون تردد عند عدم توافرها.

وقع اختياري الأول من الناحية الاقليمية على مصر. فقد أبدى رؤسائي المقبلون شركة بوز- آلن آند هملتن ورثيسي آنذاك كيم روزفلت اهتماماً واضحاً ومكشوفاً بها، وكل فريق لأسباب لا صلة لها البتة بأسباب الفريق الآخر ولكن اسبابهم جاءت متضافرة تماماً من وجهة نظري أنا. فقد كانت الشركة

تفاوض المصرف الوطني المصري بشأن إجراء مسح إداري شامل لإدارته ولمختلف ممتلكاته، فيما كان كيم، دون علمه بنشاط الشركة، منشغلاً بالفوضى السياسية في ذلك البلد الذي أصبح مُفضلاً عنده من خلال خبراته إبان الحرب العالمية الثانية.

ودون علمه باهتمام الشركة ورغم توسلي بأن يترك لي أمر الأفكار الخارقة، دخل كيم مكتبه صبيحة أحد الأيام ودعا المسؤولين لاجتماع طارئ أعلن فيه أنه قضى ليلته يتقلب في فراشه ويقلب في عقله بعض الأفكار التي راودته بشأن انقاذ الملك فاروق الذي لا يزال يحظى بعطف الغرب. فكان علينا اقناع «الوزير السمين» حسبما لقبه بعض موظفي دائرة التخطيط في قسم الشرق الأدنى وإفريقيا، أثناء غياب كيم طبعاً، بأنه إذا امتنع عن إجراء تطهيرات بين موظفيه الفاسدين وفي نظام حكمه البالي وعن جعله أقرب إلى مجتمع المساواة، فإن شخصاً آخر سيقوم بذلك.

دونت أفكار كيم هذه بشكل مشروع (أطلقنا عليه رمز ز. س. أي «الوزير السمين») أخذ طريقه الروتينية لموافقة السلطات الأمنية عليه. وسرعان ما سبقتنا أحداث القاهرة في يوم بات يُعرف باسم «سبت مصر الأسود».

ففي أواخر العام ١٩٥١ قررت حكومة ونستون تشرشل التي عادت إلى الحكم بعد أن أضعفت الحكومة العمالية بريطانيا دولياً وداخلياً، قررت معاقبة مصر على نقضها المعاهدتين اللتين سوغتا الوجود البريطاني في منطقة قناة السويس وعلى دعم نقضها هذا بمحاصرة المنطقة بحرب العصابات. ففي كانون الأول (ديسمبر) دمر الجيش البريطاني قرية كان ينطلق منها المقاومون المصريون. وفي أوائل كانون الثاني (يناير) هاجموا مركزين مصريين بالقرب من الاسماعيلية وقتلوا أو أصابوا معظم الذين كانوا فيهما. توترت الأجواء وأحرقت ودمرت الجماهير الهائجة المؤلفة من مسلمين متطرفين كل مباني المدينة ذات الصلة «بالامبريالية البريطانية» - منها فندق شبرد وتورف كلوب وكل مطعم أو بار أو دار للسبينا عرفت بملازمة الجاليات الأجنبية لها.

كل هذا في مصر الصبورة فبات صبرها هذا موضوع انتقادات في معظم العالم العربي. أما الحكومة البريطانية التي استشاط غضبها وقلّت حيلتها فأقسمت على اتخاذ إجراءات إضافية بحق المصريين. وأما وزارة الخارجية الأميركية وقد كدّرها تقصير البريطانيين عن الإدراك بأن «عهد الاستعمار قد ولى»، فأرسلت احتجاجات موزونة للحكومتين البريطانية والمصرية. ورأت وكالة الاستخبارات المركزية فرصتها فقطعنا صلاتنا الرسمية مع الاستخبارات السرية البريطانية، وأخذ مشروع كيم (روزفلت) لانقاذ الملك فاروق «بالثورة السلمية» طريقه إلى التنفيذ فنال موافقة آلن دالس أثناء تناوله الشاي في بيته في ضاحية جورجيتاون بعد ظهر يوم الأحد الذي تلا السبت الأسود وأعلن كيم ذلك في اجتماع المسؤولين في قسمه صباح اليوم التالي.

هل كان متوقعاً أن يرسلني كيم إلى القاهرة للقيام بتلك المهمة؟ لا، لا مجال مطلقاً؛ بل إنه سيقوم بها بنفسه. أما أنا فيؤق بي للابقاء على قوة اندفاع المشروع بعد نجاحه - شرط أن أتخلّى، حسب قول كيم عن «اصراري بعناد» على مغادرة وكالة الاستخبارات المركزية سعياً وراء كسب أكبر. أجبته بأنني سأفكر في الأمر، ولم يكن كيم على علم بالطبع بأنني سأذهب إلى مصر سواء قبل بذلك أم لم يقبل - باعتباري الموظف الذي يتكلم العربية في شركة بوز-آلن أند هملتن.

أثبتت لي إعادة قراءة ملف كيم بأنه على كامل الحق في اصراره على أنه وحده القادر على تحقيق المشروع. ففي الحرب العالمية الثانية قامت علاقة ودية بينه وبين الملك فاروق اثر فترة من التوتر بين

الملك والبريطانيين فرض عليه هؤلاء فيها وتحت التهديد بالسلاح ابعاد العناصر الموالية للامان في حكومته واستبداهم بعناصر من اختيارهم . وفيما الملك يرغى ويزبد في قصره كان كيم يزوره يوميا تقريبا لتطبيب خاطره بالايحاء اليه بقيام حقبة جديدة بعد الحرب تنعم مصر فيها بسيادة حقيقية ويكون هو فيها «أول حاكم لأول مصر حرة منذ ألفي سنة» . وكما ذكرنا كيم في اجتماع الموظفين في مكتبه صباح ذلك الاثنين، فقد ارتاح الملك فاروق لأحدثه وبالتالي هناك مجال واسع للاعتقاد بأن زيارة له من قبل كيم لاعادة الصلة قد تجعله يقبل بتلك الأفكار التي توصل إليها كيم في تلك الليلة البيضاء . وهكذا وخلال أقل من اسبوع كان كيم في طريقه إلى القاهرة .

صحيح أن الملك استقبله بحرارة، وان بشكل ملفت أكثر مما هو مطلوب . لزيارة «تكتسي طابع السرية القصوى» حسب ما ورد في برقية بعث بها كيم بالشيفرة عبر قنوات اتفق عليها مسبقاً . تقدم موظف مصري مهذب إلى الطائرة ورافق كيم عبر دوائر الأمن والجمارك بسرعة قبل السماح لباقي ركاب الطائرة بمغادرتها . وراحت السيارة التي أقلتتها وعليها الشعارات الملكية الواضحة تخترق الشوارع بسرعة وعجلاتها تزعق في الطرقات فتبعثر أمامها السيارات والعربات ويفرّ من أمامها المارة والأولاد الذين اتخذوا الطريق ملعبهم . وقد روعيت واحدة من تعليمات السرية التي طلبها كيم وكانت تغطية نوافذ السيارة بستائر بحيث انه لم يستطع معرفة وجهة رحلته إلا عندما توقفت السيارة في حديقة استراحة الجيزة المطلّة على الأهرام .

بوصوله إلى الاستراحة استعاد كيم من خبايا ذاكرته انطباعاً تكوّن في ذهنه في الأيام التي قضاها في القاهرة إبان الحرب، بأن الملك فاروق ليس من ذوي الأوزان العقلية الثقيلة . وجاءت لقاءاته به على مدى الاسبوعين التاليين تؤكد صحة انطباعه . فقد كان الملك يبدي إدراكاً جلياً للأحداث الجارية في البلاد ولتأثيراتها المحتملة في مستقبله ومستقبل عرشه فيوافق بحماس على اقتراحات كيم العلاجية، ويختفي في اليوم التالي عن الأبصار وقد أهمل اصدار أمر كان بالأمس قد وافق على انه حيوي للخطّة التي عرضها كيم . ثم يعود بعد اسبوع، وفي نزوة آنية من نزواته، فيصدر أمراً آخر يؤدي إلى انهيار الخطّة من أساسها .

استغرقت زيارة كيم للقاهرة قرابة الشهر عاف على أثرها «مشروع ز . س .» حسبما كان عليه في الأصل، وعاد إلى واشنطن مقتنعاً بأن لا مجال للعمل العقلاني في مصر طالما بقي فاروق متربّعاً على العرش، ومصمماً أكثر من أي وقت مضى على «انقاذ مصر من نفسها»، حسب تعبيره . وفي تعلقه بحبال الهواء نفّض كيم أكّداس الغبار عن فكريتي بالبحث عن «بيلي غراهام المسلم» وقرر ارسالي إلى مصر في مهمة استكشاف . أمرني بزيارة القاهرة لإجراء مسح شامل للوضع العام، وباستقصاء مدى أي اضرار تكون قد نجمت عن تصرفات الملك الصببانية، وبالعودة بمخطط جديد . كانت أوامره بمثابة القول «اسبح ما شئت دون أن تبتل» .

ما ان وصلت القاهرة حتى خالفت احدى وصايا الوكالة المقدسة آنذاك إذ قررت القيام بزيارة للسفير الأميركي واطلاعه على حربية ما أنوي عمله والوقوف على رأيه . أما ذريعتي، عندما بلغ واشنطن خبر تمردى هذا، فهي ان السفير جفرسون كافيري أكبر موظفي الخارجية سناً وأشدّهم حكمة وأعلم من أي مستشرق بالشؤون المصرية، كما كان يعاونه في السفارة موظفان لها اتصالات مع المصريين أوسع بكثير مما لمسؤولي الوكالة في القاهرة . فقد قام مساعد الملحق العسكري المقدم دايفيد إيفانز والضابط السياسي (لا ينتمي إلى الوكالة) بيل لايكلانند بأعمال تفخر بها الوكالة كما لو انها هي

التي قامت بها، من حيث المراقبة الذكية للغليان المستتر الذي أقلق كيم روزفلت والمحللين السياسيين في طاقمه في واشنطن. هذا فضلاً عن انها قدما لي العون الذكي علماً بأن من حقها الامتناع من فضولي وتدخلاتي.

وعندما شرعت بالعمل الجدي بحثاً عن زعيم أو قائد، بدأت خارج السفارة مستعيناً بصديقي ناصر الدين النشاشيبي (أو نصري). تعود صداقتنا إلى أيام عملي في دمشق، وهو من الجيل الحادي والثلاثين من سلالة الأمير أحمد ناصر الدين النشاشيبي حارس مساجد القدس والخليل في عهد المماليك. تعرفت إليه في الاردن وهو في العشرينات من العمر، ياور لدى الملك عبدالله واستمر في ذلك المنصب حتى اغتيال الملك في تموز (يوليو) ١٩٥١.

أما الآن وقد أصبح من شخصيات المجتمع السياسي الرفيع في القاهرة فرجوته ان يفسّر لي كيف يمكن لأي قائد يبرز من «الثورة السلمية» التي يتصورها كيم رزفلت تحويل الآمال إلى توقعات، أو أي شيء آخر، رغم ما سيكون عليه من انشغال بكل المكائد التي حاكها كيم مع الملك فاروق.

أوضحت لنصري، ونحن نتناول كأساً من الشراب، رغبتني في ان يكون آخر عمل أقوم به قبل التخلي عن وظيفتي في الحكومة، العثور على منقذ وتدريبه لينطلق من مصر وينشر كلمته بين الأفارقة وربما في العالم الثالث كله. وقلت له: إن المطلوب من الرجل الذي نختاره ألا يكون فقط قادراً على إثارة الآمال بل على تحويلها أيضاً إلى توقعات سليمة وعلى قيادة شعوب العالم المحرومة نحو حياة أفضل ونحو الأمن ونحو «الحرية»، هذا إضافة إلى تحصينهم في وجه أي انبياء زائفين.

في بداية الحديث أعرب نصري بالشكل المألوف عن امتعاضه عن تأييد أميركا لاسرائيل ثم وافق على ان قائداً ذا شخصية ساحرة ربما هو المطلوب لتحويل موجة الكراهية المتنامية لأميركا ليس فقط في العالم العربي بل وفي مجمل غرب آسيا وتوجيهها نحو مستهدف آخر. من هنا فإن شخصاً له صفة دينية ما وقادراً على سحر الجماهير سيكون ذلك الشخص المثالي. ولكن يبقى السؤال هل من الضروري ان تكون حركة دينية موجهة منذ بدايتها ضد شيء ما؟ إذاً، علينا ان نخلق «شيئاً» أشد هولاً وتهديداً من دولة عبرية، علماً بصعوبة التوصل إلى ذلك في حقبة كانت خلالها عبرية اسرائيل أهم مزاياها اطلاقاً.

إذاً، قادني البحث عن عدو مقبول بديلاً عن الولايات المتحدة واسرائيل للقيام بجولة بداتها بزيارة «جحر ميلو» مسجد في المدينة القديمة المشرف على مسجد السلطان حسن بكل جماله ورهبته. وميلو هذا لواطى يوغسلافي، تقي متعبد سلس الحديث، اشتغل نجبراً في الحرب العالمية الثانية لدى اجهزة تجسس متعددة، وضعته المخابرات المصرية في قصر بناه أحد أمناء بيت المال أيام المماليك في القرن الخامس عشر. حولت المخابرات غرف القصر السرية وممراته وأروقته المخفية إلى دار شرقية للتسلية تتلاءم مع كامل نشاطاتها الأخرى الأكثر غرابة ابتداءً بالتهريب وصولاً إلى تخدير وخطف الدبلوماسيين الأجانب. أما الغرف التقليدية فسمحت لميلو بتحويلها إلى ما أسماه «المربع الليلي لكافة المذاهب» حيث يمارس المشعوذون وأصحاب المذاهب العجيبة طقوسهم امام السواح الأجانب، هذا إلى جانب مذاهب أخرى «موقته» يخترعها ميلو بنفسه لتنويع برامج تسلية زبائنه.

وليلة اصطحبت نصري إلى «جحر ميلو» كانت فرقة من الدراويش تقدم الوصلة الرئيسية حول مصطبة أشبه بحلبة المصارعة الواسعة ينيرها ضوء بدر يكتمل جلس حول طاولاتها المرتبة على غرار المربع الليلي سواح يرشفون الشمبانيا المصرية. على ايقاع طبلة ينقرها درويش ضربير راح افراد الفرقة يدورون في حلقة من حلقات الذكر مردّدين عبارة: «اذكروا الله» بغية إثارة نوبة من الشعور الديني.

علّق نصري على المشهد بالقول: إذا قصرت تلك التصرفات عن تحويل الاهتمام من «الظلم المتمثل باقامة اسرائيل» فلن يقدر شيء آخر عليه.

أدركت من خلال شرح قصير همسه نصري في أذني بين وصلتين ان أفراد هذا المذهب يحاولون الانتقال إلى «عالم غير مرئي» بالرقصات التي نراها، ويحررون أنفسهم من الخلافات الدنيوية المعشقة في مصر. استفسرت من نصري عن آرائهم بالتأييد الأميركي لاسرائيل فقال: «لا رأي لديهم، انهم مجانين».

لم يكن منطلق تفكيري «ظاهرة بيبي غراهام المسلم» نزوة للتسلية. فقد خطرت لي وأنا ابن الاباما التي شاهدت فيها وعرفت بعض المبشرين والدعاة المعمدانين وحواة الثعابين، خطرت لي ان ربما، وربما فقط، كان لدى هؤلاء الناس ما هو قابل لأن يُحمل على محمل الجد. فمن المسلم به انه يجب ان يكون للانسان عقل قبل أن يفقده، وكذلك يجب ان يشعر المرء بانتمائه إلى العالم قبل الشعور بالرغبة في الهرب منه. قد استطيع الموافقة على ان هؤلاء الراقصين مجانين حقاً أولعلمهم حمقى. إنما لا بد من وجود فكر متقدم في أصول تلك الحركة جدير بالاهتمام. أكد لي نصري ذلك قائلاً: إن المذهب من الصوفية وكان لاتباعه مجتمعهم ومعابدهم وموقعهم في أواسط العالم الاسلامي. أما الآن فلم يبق لهم صلة بأصولهم القديمة إلا بمقدار ما لحضارة الإنكا من صلة بأهل البيرو المعاصرين.

وهل من ضير في ذلك؟ ولئن لفت نصري انتباهي إلى ان الصراع العربي الاسرائيلي قد حرك الطاقات السياسية الواعية في مجتمع متفكك، كنت في الواقع على بينة، قياساً على ما يجري في أميركا، من أن العقلانية والمنطق ليسا من الضروريات لاجتذاب الاتباع لدعوات دينية هذا في زمن سبق استعمال التلفزيون وسيلة له. فكان لبيبي غراهام أمثال وانداد لا يجتذبون البلهاء والمتخلفين عقلياً فقط بل يعدّون بين اتباعهم أيضاً محامين وأطباء واساتذة جامعات يرغبون بأن «يولدوا من جديد». قلت لنصري: «لا بد ان يكون بين هؤلاء الدراويش من يستعمل عقله».

أجابني: «أجل، انهم موجودون وهم يستغلون الجهلة من الناس».

فعلاً كان بينهم من يستعملون عقولهم ولم يطل بي الأمر حتى اجتمعت بأحدهم. رفض نصري الذهاب إلى ما وراء الكواليس حيث كان الممثلون يعودون إلى رشدتهم، وتقدم مني أحدهم (الواقع انني لم أذكر انني شاهدته بين الراقصين) وسألني بتهذيب وبانكليزية ركيكة إذا كنت أبحث عن المراهض. كنت على وشك اجابته عندما تقدم مني شاب يرتدي مثل ثيابهم، ولكنه أميركي، وقال لي انني شخص غير مرغوب بوجوده في ذلك المكان وان عليّ، أن أبول في مكان آخر، وانصرف بسرعة.

ولما عدت وانضمت إلى نصري ثانية أبدى استغرابه لما اخبرته عن الشاب الأميركي وقال: «ظننت انه لا بد من وجود مدير أعمال مسرحي من نيويورك في هذا المكان». انضم ميلو إلينا وقضينا ما تبقى من السهرة نشرب العرق ونأكل كباباً مقبولاً وحصاً بطحينة. (كانت تلك السهرة بداية لصداقة طويلة مع ميلو استمرت حتى وفاته في أوائل السبعينات وقد قضى السنوات الأخيرة من حياته في الاسكندرية يتقاضى بدل تقاعد شهرياً من وكالة الاستخبارات المركزية).

اصطحبني نصري في الليلة التالية إلى قاعة للمحاضرات بالقرب من جامعة الأزهر حيث استمعنا إلى خطبة نارية ألقاها رجل اسمه حسن الهضيبي سَمّى فيها الأشياء بأسمائها. وكان السيد حسن الهضيبي قد عين حديثاً لرئاسة جمعية الاخوان المسلمين، فامتلات خطبته بالتهجم على تأثير أميركا المفسد في العالم. سبق لي ان استقيت بعض المعلومات عن الاخوان المسلمين أثناء الأسابيع

القليلة التي قضيتها في مكتب شؤون المانيا في مقر قيادة الوكالة في واشنطن. أسس الجمعية الشيخ حسن البنا في أواخر العشرينات لتطهير الاسلام من «المؤثرات الأجنبية». وتسيست الجمعية السرية هذه أثناء الحرب العالمية الثانية بدافع من بعض الامكانات العملية التي قدمها الالمان والايطاليون وعلى الأخص طرد البريطانيين من مصر. حل الشيخ حسن الهضيبي محل الشيخ حسن البنا، وكان خطيباً مفوهاً يتكلم بوتيرة واحدة سرعان ما يسيطر بها على جمهور مستمعيه ليصبحوا آلة طيعة بين يديه. همست في أذن نصري بأنني أود التعرف إليه فظنني أمازحه وقال: «أليس هو من عملاء وكالة الاستخبارات المركزية؟» وما أن انتهى الاجتماع حتى سحبني نصري من مقعدي في مؤخرة القاعة قبل أن يرانا أحد وفي أقل من دقيقة كنا في سيارته المرسيديس في طريقنا إلى قلب القاهرة.

وفيا نحن خارجان من القاعة لمحت الأميركي الذي شاهدته الليلة السابقة عند ميلو، مرتدياً هذه المرة كنزة وفوقها سترة من المخمل المضلع. كان على مسافة العشرين قدماً مني تقريباً، ينظر إليّ بإمعان. رفض نصري ونحن في السيارة ايضاح ما قاله لي عن ان حسن الهضيبي عميل للوكالة. أوصلي إلى فندق سميراميس ومضى في طريقه دون ان يتمنى لي أن أصبح على خير. وعندما وصلت إلى جناحي في الطابق الأخير وجدت ان الشاب الأميركي قد سبقني إليه وجلس أرضاً في وضع يوغا بالقرب من كرسي. أدركت هويته فوراً ولم يتأخر هو بتأكيدهما.

بادرني بالسؤال: ألم يقل لك «فوكوايز» ان تركني وشأني؟ فوكوايز هو الاسم المستعار لكيم روزفلت داخل الوكالة. من البديهي ان هذا الشاب واحد من عملاء كيم الخاصين وكنت قد علمت صدفة بوجوده من سكرتيرة كيم.

سألته بحنق ظاهر: «قل لي بحق جهنم، ماذا تفعل هنا؟» كان حنقي موجهاً بالطبع إلى كيم وليس إلى الشاب المسكين الذي أدركت من حداثة سنه انه لا يشغل مركزاً رفيعاً في الوكالة وان يكن قد توصل بشكل ما إلى مشارف هدف هام، حسبما تبين لي من حديثي معه. لقد عرف الشاب الذي سأسميه روبرت في هذا الكتاب، من أنا لأنه شاهدني أكثر من مرة في مبنى القيادة. ولكنه لم يكن على علم بمهمتي الحالية. كما أبدى تقيداً صارماً بالسرية منعه من الاستفسار، ولكنني اخبرته بذلك.

أخذته الدهشة! ثم أفرغ جعبته. ففيما كنت في مهمة استطلاعية كان كيم يعدّ العدة لانقلاب ما على الملك فاروق على ألا يكون لي فيه دور. واتضح لكل منا نحن الاثنين، روبرت وأنا، ان امامنا وضعاً من تلك الأوضاع حيث حصيلة واحد زائد واحد تأتي أكثر من اثنين، وبالتالي سيكون من المفيد لكل منا تبادل المعلومات سراً. غير أن روبرت تحفظ في التعاون معي حتى سأله عن رتبته.

قال انه في الرتبة السابعة أي انه واحد من الأميركيين القلائل العاملين فعلاً كعملاء (خلفاً للاعتقاد السائد بأن أجهزة التجسس قلما تستخدم مواطنيها عملاء لها) فهو بالتالي أدنى رتبة في هرمية وكالة الاستخبارات المركزية من عاملة على الآلة الكاتبة. فهو إذاً يقوم بمهام من يجب أن يكون في الرتبة ١٣ على الأقل. لا بد ان كيم استغل وضع هذا الشاب الجامعي الذي اعتاد على الراتب المنخفض واستخدمه في ادنى رتبة قبل بها. وبالتالي ما كان عليّ إلا القول له بأنه مُستغل لاكتسابه إلى جانبي.

مرة أخرى اضطررت إلى رفع قبعتي تقديراً لمهارة كيم وحنكته بعد الذي أخبرني به روبرت. ذلك ان كيم بمفرده وعلى الرغم من مراقبة فاروق الدائمة له استطاع - وتحت أنف فاروق - ان يعلم بأنه وان كان من المفروض انها يتعاونان في وضع مخططات «الثورة السلمية» فقد راح الملك فاروق يعمل سراً مع زعماء الاخوان لاحداث انقلاب تسيطر عليه حركة «العودة إلى الله» التي يقودها أصوليون

مسلمون. ظنَّ فاروق، وهو على بعض الحق في ذلك، بأن التشكيك بكونه مسلماً يتقي الله لن يخفف من استعداد الاصوليين القبول بمساعدة مالية ملكية. وظن كيم بدوره، وهو أيضاً على بعض الحق في ما ذهب إليه، ان ذلك التشكيك سيخفف من استعدادهم هذا بما يكفي لانجاح ما أخذ يتبلور في ذهنه من مخطط لمناهضة فاروق بعد قضائه اسبوعاً او اثنين في محاولات ترمي إلى التعاون مع الزير السمين. اقنع كيم الملك فاروق «بشراء» الاخوان بتقديم مبالغ كبيرة من المال إلى حسن الهضيبي. ولم يكن فاروق على علم بأن أموال الرشوة هذه تستخدم لسد نفقات جانبية تستلزمها محاولة اجتذاب الجيش المصري إلى مخطط الاخوان الانقلابي، وبأن تلك الأموال بحد ذاتها أدلة اضافية على مدى فسادة وإلحاده. ذلك انه يحاول رشوة من اختاره الله! ترى إلى أي مدى يصل الفساد؟ لذلك لن يكون لفاروق مكان في النظام الجديد.

باكتمال جميع المعلومات المتوافرة عن الاخوان بتَّ على يقين مما يجول في خاطري: ان الانقلاب الوحيد الذي يمكن أن يكون فعالاً، سواء بالسيطرة على الحكومة أو بتثبيت القبضة على الحكم بعد السيطرة عليه لا يتحقق إلا بتضافر الجهود بين الجيش والاخوان المسلمين. ومع العلم بأنني لم أعط روبرت أكثر من فكرة سطحية عما يجول في خاطري، فقد كان ذلك كافياً للحصول على مساعدته في معرفة الضباط من الرتب المتوسطة والعليا المنخرطين في حركة الاخوان أو المتعاطفين معها. وفي الوقت نفسه طلبت من نصري أن يدلّني على كبار الضباط في الجيش المصري الذي لهم أفضل الحظوظ في الحصول على التأييد الشعبي إذا ما قرر الجيش الاستيلاء على الحكم.

لم يبد نصري ارتياحه لطلبي إلا أنه اعترف بوجود تملل واستياء واسع النطاق في طول البلاد وعرضها وان في نادي الضباط في ضاحية هيليو بوليس القاهرية همساً عن أن رجلاً طيباً وشعبياً على صورة «الأب الصالح» مثل الجنرال محمد نجيب سيلقى الترحيب إذا ما صار الرجل الأول في البلاد بوجود الملك أو بدونه. لم يشأ نصري الافصاح عن أكثر من ذلك وأجابني بأنه لا يعرف ضباطاً كباراً ينتمون إلى حركة الاخوان المسلمين، موضحاً عدم رغبته بالمزيد من الحديث في هذا الموضوع.

لم يكن روبرت في تلك الأثناء عاطلاً عن العمل. فبعد يوم أو اثنين من حديثي مع نصري رافقني في ساعة متأخرة من الليل إلى اجتماع سري جداً عقد في بيت بالقرب من الاهرام وصلناه بعد المرور بالزوارب والأزقة والطرق المتعرجة بحيث يستحيل عليّ العودة إليه بمفردي في وضع النهار. كان هذا الاجتماع الذي انعقد في آذار (مارس) ١٩٥٢ هو عينه الذي أورده مؤلفون مصريون وأوروبيون وأميريكيون بروايات مختلفة تحدثت كلها عن ان كيم روزفلت أطلق خلاله الشرارة التي أدت بعده بأربعة أشهر إلى حصول الانقلاب العسكري. وتصحيحاً لمعلومات محمد حسنين هيكل الذي ينكر عليّ كل ما أقوله، أوكد جازماً ان كيم لم يحضر ذلك الاجتماع ولم يسمع به إلى أن رفعت له تقريراً عنه بعد عودتي إلى واشنطن. واؤكد كذلك ان كلمة انقلاب لم ترد خلال ذلك الاجتماع. كل ما قلته للضباط الثلاثة، ولم أكن أعرف أسماءهم، هو ان حكومتي قلقة من تزايد النقرة في مصر البلد الصديق وانها ترغب بالوقوف على «آراء ضباط يمثلون الجيش المصري بأمانة» حول ما يمكننا عمله، هذا إذا امكنا عمل أي شيء للمساعدة على الحيلولة دون المزيد من تدهور الأوضاع.

إن الملاحظات الهامة الوحيدة التي أثارها كلامي هي تلك المتعلقة بالبلاد مجملها - أكرر القول بأنها لم تكن على صلة بالجيش وحده بل بالبلاد كلها - انها الاستياء الشامل حيال «استمرار الاحتلال البريطاني» والطريقة الصحيحة التي تعالج بها تلك القضية. واؤكد بأنه لم يرد ذكر اسرائيل إلا في سياق النقد العنيف والاستياء العارم اللذين عبر عنهما أحد الضباط حيال الفساد المستشري في الحكومة مما

أدى إلى تكبيل الجيش والحيلولة دون ادائه أداء أفضل في الحرب العربية الاسرائيلية عام ١٩٤٨. وصحيح أيضاً ما جاء من اخبار ان التقرير الذي ورد إلى واشنطن عن ذلك الاجتماع (تقريرى انا لا تقرير كيم - وهو تقرير رفعته إلى كيم وليس صادراً عنه) انطوى على اشارة إلى الضابط الصاغ عبدالمنعم رؤوف الذي لم يكن فقط عضواً في الاخوان المسلمين بل أيضاً عضواً في مجموعة الضباط الأحرار، أي حلقة عبدالناصر الداخلية. هذا الكلام صحيح، ولكنني لم أعلم إلا لاحقاً ان الصاغ عبدالمنعم رؤوف قال لي بعبارات لا مجال لسوء تفسيرها أو لعدم وضوحها بأنني أقدم خدمة جليلة لبلدينا ان أنا أفنعت الحكومة الاميركية بالاقلاع عن التدخل بالشؤون المصرية. ولم أعلم إلا في اليوم التالي وبواسطة ضابط مصري شاب جاءني إلى الفندق بأن «مندوبين» عن مجموعة الضباط الأحرار السرية يسرها الاجتماع إلى السيد روزفلت (رئيسكم) شرط الاتفاق مسبقاً على مكان اللقاء خارج مصر.

في أواخر آذار ١٩٥٢، بعد اسبوع من عودتي إلى واشنطن وقبل أربعة أشهر من الانقلاب الذي أطاح بالملك فاروق، بدأ كيم روزفلت وجمال عبدالناصر بعقد سلسلة من الاجتماعات اعتبرت فيما بعد نماذج لتلك التي تسبق العمليات السياسية من صنف الانقلابات. عقد كيم الاجتماع الأول مع لجنة من الضباط البعيدين بما فيه الكفاية عن لولب حركة الضباط الأحرار بحيث يمكن الاستغناء عنهم إذا دعت الحاجة، علماً انه بالامكان الاعتماد عليهم للدلاء به دون الافصاح عن الاسرار الرئيسية. ثم حصل اجتماعان آخران حضر ثانيهما جمال عبدالناصر بنفسه (يمكن لمحمد حسنين هيكل ان ينكر ذلك ما شاء. ولكن الاجتماع مدعوم بالوثائق والصور). أما أنا فلم أحضر أياً منها وكنت مع روبرت نتنر في الفندق فيما الاجتماع الثالث منعقد. أوردت مجال الاتفاق الواسع الذي تم التوصل إليه بين كيم وعبدالناصر في تقرير وضعته استناداً إلى ما قاله لي كيم منه شفاهة فصار نصاً يُدرس عن التفاهم المتبادل الذي ينبغي ان تقوم عليه أي عملية سياسية تقرر الحكومة الأميركية دعمها.

توصل عبدالناصر وكيم إلى الاتفاق سريعاً حول ثلاثة مواضيع عامة. الأول، هو عدم احتمال قيام الجماهير بثورة بسبب الظروف الاقتصادية المريعة. لقد أوضح كيم هذه النقطة مرات عديدة في وزارة الخارجية مكرراً انه لم تقم في التاريخ أي ثورة هامة لأسباب اقتصادية وان حكومتنا لا تستطيع ارغام أي زعيم على التصرف حسب اهوائنا بمجرد تهديده بقطع المساعدات الاقتصادية. أدرك عبدالناصر ذلك خلال الاجتماع المذكور وجاءت خبرته الشخصية تؤكد له لاحقاً: فكلما ستحاول الحكومة الأميركية معاقبته بحبس صنف هام من المساعدات عنه (القمح مثلاً) سينتهي به الأمر إلى ازدياد مركزه قوة بحيث ينمو شعور الشعب بأن اللوم يقع على الأميركيين وليس عليه لما يعانونه من بؤس.

الموضوع الثاني الذي اتفقا عليه هو ان الاحتمال ضئيل في ان تقوم الجماهير المصرية بأي ثورة. وقد تصورت حركتان ثوريتان آنذاك هما: الاخوان المسلمون والشيوعيون، ان الشعب المصري - ومنهم الفلاحون والعمال والموظفون العاملون في المدن اضافة إلى طبقة المهنيين - أخذ أخيراً يقترب من نقطة الغليان وان ايصاله إليها ممكن باستعمال النداءات المناسبة. لم تنل تلك الفرضية موافقة عبدالناصر الذي قال «تكن مشكلتنا في ان الشعب لا يريد ما يكفيه، وأضاف بأن معظم المصريين عاشوا ألوف السنين على شفير الجوع وباستطاعتهم الاستمرار على ذلك النحو لألف سنة أخرى. وهكذا لا مجال لقيام ثورة «شعبية» أو «ديمقراطية». وتم التفاهم منذ البداية على استلام الجيش المصري لمقاييد الحكم في البلاد على أن يُترك له امر اختيار الموعد والظروف المناسبة التي تضمن له التأييد الشعبي الواعي سياسياً في المدن، وان الريف سيقفني الأثر لاحقاً.

ثالثاً وأخيراً تم الاتفاق على انه في العلاقات المقبلة بين حكومتي البلدين علينا (الأميركيين) تجنب استعمال عبارات مثل «اعادة تثبيت الاجراءات الديمقراطية» و«حكومة تمثيلية حقاً». وفي حال استعمال مثل تلك العبارات يجب أن يأتي ذلك في سياق مراسلات يمكن الافصاح عنها إلى الرأي العام. وتم التفاهم بيننا سراً ان الظروف التي تسبق قيام حكومة ديمقراطية ليست موجودة ولن تتوافر في سنين عديدة. على ان مهمة الحكومة الجديدة ستكون تأمين تلك الظروف.

أدرك عبدالناصر بسرعة توضيح كيم كيف أن الرأي العام الأميركي ورجال الكونغرس وبعض الصحفيين وحتى بعض المسؤولين في وزارة الخارجية وفي بعض الحالات الوزير بنفسه سيبدأون بترديد الشعارات القديمة. وفي الوقت نفسه قبل كيم برأي عبدالناصر القائل بأن أي محاولة سابقة لأوانها باتجاه الديمقراطية ستعيد البلاد إلى الفوضى التي كانت تتخبط فيها: أي الخيار بين مرشحين منهم من تدعمهم الولايات المتحدة ومنهم من يدعمهم البريطانيون يتنافسون مع مرشحين يدعمهم السوفييات، وشعب ريفي (يقترح إذا ما اقترح) حسب الأوامر التي يصدرها إليه كبار ملاكي الأراضي. وأهل المدن الخائبة آمالهم الذين لم يبق لهم أي ملاذ سوى الشغب وسيلة للضغط فينضمون إما إلى الإخوان أو إلى الحزب الشيوعي على ان أيا من الفريقين سيفيد من نشاطهم.

بالمقابل هناك بعض المواضيع التي كان الاتفاق الصريح عليها أكثر صعوبة ولكنها في الوقت نفسه شكلت تفاهماً متبادلاً حول الدوافع الكامنة وراء الانقلاب القادم، وقد أدى البحث فيها إلى ما يمكن اعتباره المبادئ الأساسية لأي مساومة حول العمل السياسي:

ان الاتفاق النهائي يتضمن حكماً اتفاقاً شاملاً على بعض النقاط و«اتفاقاً على الاختلاف» حول نقاط أخرى ويجب أن يكون هناك تفاهم متبادل على تحديد المواضيع التي تقع في الخانة الأولى وأيا يقع في الثانية بحيث يؤدي أي خلاف يتفق الفريقان على انه معد للاستهلاك الشعبي إلى الحاق أدنى نسبة ممكنة من الضرر بالاتفاق الأساسي.

خلال محادثات كيم مع عبدالناصر قبل الانقلاب كان هناك «اتفاق على الاختلاف» انطوى على اتفاق شامل أكثر منه على أي أثر للخلاف: اتفاق على موقف عبدالناصر من اسرائيل. فالسياسيون والمؤلفون والمواطنون العاديون في أي بلد عربي - إضافة إلى معظم الدبلوماسيين الأجانب - يقولون لدبلوماسييننا ان «التصميم على استعادة فلسطين» يشكل الأولوية الأولى لدى مصر. كما ان أكثر مراسلينا الصحفيين تدقيقاً اصرروا طيلة تلك السنوات على ان هزيمة مصر على أيدي اسرائيل عام ١٩٤٨ كانت «اختباراً قاسياً» وان «كراهية اسرائيل» تحولت إلى عنصر هام في تفكير مخططي الثورة المصرية.

كانت قضية الاحتلال البريطاني لمنطقة قناة السويس قضية بالغة الدقة. والواقع ان الشيء الحسي الرئيسي الذي تمخضت عنه محادثات عبدالناصر وكيم روزقلت هو احالة الشعور في الجيش المصري بالاشمئزاز من وضع البريطانيين في مصر ومن جميع المصريين القابلين به. أما بشأن البريطانيين كأفراد فكان لدى المصريين منهم موقف مزدوج تغلب فيه الاعجاب. فقد أحب المصريون الأميركيين واستساغوا مزجنا بين الرفقة والرغبة في المساعدة ولكنهم في الوقت نفسه قدروا البريطانيين واحترموهم. لهذا السبب الحقت معاملة البريطانيين لهم على انهم من طبقة أدنى ذلك الضرر الفادح في العلاقات بين الفريقين.

لدى عودته إلى واشنطن عشية الانقلاب رفع كيم تقريراً إلى وزير الخارجية دين اتشيسون ضمنه النقاط التالية:

(١) ان «الثورة الشعبية» التي تنبأت بها الخارجية وتمناها الشيوعيون والاخوان المسلمون ليست واردة.

(٢) ان لا مجال مطلقاً «لابقاء الجيش بمعزل عنها»، الذي توخاه المخططون في الخارجية الأميركية الذين انزعجوا من تصرفات العسكريين في سوريا، وان الجيش المصري بات على عتبة القيام بانقلاب، شئنا أم أبينا.

(٣) ان للضباط الذين يُحتمل قيامهم بالانقلاب دوافع «عادية» تختلف كلياً عن تلك الدوافع «المنبعة على التصور» التي عزاها اليهم معظم المراقبين الدبلوماسيين. وان من شأن دوافعهم هذه زيادة احتمالات نجاحهم اضافة إلى انها ستجعل منهم مفاوضين أكثر مرونة وعقلانية بعد وصولهم إلى الحكم.

(٤) ان على الحكومة الأميركية القبول بتنحية الملك فاروق وربما القبول أيضاً بالاستغناء عن النظام الملكي، علماً بأنه لا مانع من ابداء اعتراض موزون ارضاء لبسطاء القلوب، اضافة إلى انه من المناسب ان يبدي السفير الأميركي جفرسون كافيري بعض الاهتمام بسلامة الملك فاروق الشخصية.

(٥) ان على حكومتنا، بعد الانقلاب، الامتناع عن بذل أي محاولات إلا المحاولات الكلامية الرمزية لاقتناع زمرة الضباط باجراء انتخابات وبقامة حكومة دستورية وكل ما يتبع ذلك. وان عليها التعاطي مع الحكومة الجديدة (في مصر) من منطلق الادراك بأن المؤسسات الديمقراطية ستبنى من مداميكها الأولى.

(٦) انه على الرغم من كل تلك الاجتماعات التأميرية التي سبقت الانقلاب لا يجوز لأي مسؤول في حكومتنا التفكير بأن الانقلاب هو لمصلحتنا أو من صنعنا. بل يجب اعتباره بصرامة على انه قضية محض داخلية بعيدة عن أي تأثير لنا فيها وان المساعدة الوحيدة التي يمكن ان نقدمها له تكمن في عدم معارضته. أما بشأن ضرورة وجود عدو يُستهاب، فيجب ألا يكون الاسرائيليون ذلك العدو بل طبقات المجتمع المصري العليا - اضافة إلى البريطانيين، شئنا ذلك أم أبينا.

منذ أواسط أيار (مايو) وحتى ٢٣ تموز (يوليو) - يوم الانقلاب - تحملت عبء الأعمال في واشنطن بمفردي. ذلك ان كيم رئيس الفريق المناط به جميع الأحداث ابتداء من كايپ تاون (جنوب افريقيا) حتى نيودلهي، وبالتالي فهو منهمك بمواضيع أخرى. لذلك خصصت كل وقتي للحيلولة دون تأثير وكالة الاستخبارات المركزية ووزارة الخارجية تأثيراً عميقاً بالتقارير المتشائمة الواردة تباعاً من القاهرة. فقد كان روبرت، بطلاقة لسانه بالعربية وبطريقته في البقاء بعيداً عن الأضواء، على اتصال بالضباط الذين التقيناهم في المنزل القريب من الأهرام وبدا من تقاريره إلى مركز الوكالة في القاهرة ان كل شيء يسير حسب الخطة المرسومة. أما رئيس المركز الذي حصر علاقاته بالشخصيات الكبيرة في الحكومة وبين السياسيين، فكان يبعث بتقارير روبرت إلى واشنطن مرفقة بمذكرات تنم عن انطباعاته الشخصية. وفي الواقع ما انفك يؤمن حتى يوم الانقلاب بالذات بأن الملك فاروق لديه اطلاع دائم على نشاطات الضباط الأحرار السرية وبأن الملك سيسلط عليهم سيف نقمته القاطع في اللحظة المناسبة وبأن كل ما ورد في تقارير روبرت انما يؤيد وجهة نظره.

وردنا في ١٦ تموز (يوليو) تقرير من القاهرة انطوى على انتصار تشاؤمي باهر مؤداه ان الملك فاروق عزل أفراد لجنة نادي الضباط الادارية من وظائفهم وهم في أكثرية أعضاء في هيئة الضباط

الأحرار. وجاء في نهاية التقرير عبارة «القاء القبض يتبع قريباً». وبعد يوم أو اثنين تلقى كيم رسالة «شخصية» من روبرت بواسطة إحدى القنوات التي لم يفصح لي كيم عنها حتى يومنا هذا مآلها ان رئيس مركز الوكالة في القاهرة ليس أذكى من حمار وان تصرفات فاروق إزاء البالونات التي يطلقها عبدالناصر تدل بوضوح على ان الملك لم يكن على دراية اطلاقاً بنوايا الضباط الأحرار. غير أن الملك قام بعدة خطوات يُستدل منها انه شعر بأن الجنرال محمد نجيب يبيت شيئاً ما. هذا كل ما أدركه فاروق بشأن الجنرال محمد نجيب، الشخصية المحببة التي اختارها عبدالناصر واجهة لرئاسة الدولة بعد الانقلاب.

وهكذا وفي ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢ حصل الانقلاب دون أي عراقيل على الاطلاق وكان الجنرال محمد نجيب على رأسه، اسماً بالطبع. وخلال الأشهر الستة الأولى من الانقلاب انحصرت جميع العلاقات بجمال عبدالناصر وبمجلس قيادة الثورة وبكبار المسؤولين المدنيين في الحكومة الجديدة بالموظفين الرسميين في السفارة بمن فيهم السفير كافييري بنفسه.

بعد عيد الميلاد عام ١٩٥٢ سألت رالف سميلي، المسؤول في شركة بوز آلن اند هميلتن عما إذا كان عرض الشركة ما زال قائماً. وما أن علمت انه كذلك حتى سطرت كتاباً من نوع «هذه أصعب رسالة حكمت عليّ الظروف ان أسطرها»، وضعتها على مكتب فرانك وايسر أثناء غيابه عنه. وما أن وصلت إلى غرفة كيم لأخبره بما فعلت حتى أخبرني بأنه تلقى مكالمة من فرانك طلب فيها منا الاثنين موافاته فوراً في مكتبه. وفي الطريق (الممر طويل بين مكتب كيم وقاعة الاجتماعات في مكتب فرانك) علمني كيم كيف أتعاطى مع فرانك بقوله: «قل له بأن عقلك وقلبك دائماً مع الوكالة وانك وان استقلت لتحصل المزيد من المال ستبقى «ذلك الخريج المخلص لها».

أحرز الدرس النجاح! إذ قال فرانك: «حسناً، يمكن ان تكون خريجاً مخلصاً. ولكن حسب معلوماتي الموثوقة عن الشركة ستحاول ان تحصل من عملك معها أكثر مما تدفعه لك. وبالتالي لن تسمح لك باستعمال وظيفتك ستاراً. غير انك تستطيع اللقاء مع روبن (الاسم المستعار الذي أطلقته على رئيس مركز الوكالة في القاهرة) في المناسبات الاجتماعية وان تخبره بأي شيء هام أو مثير تصادفه في وظيفتك». ضمّ كيم صوته إلى صوت فرانك مقترحاً بأن عملي أثناء الفترة المتبقية لي في الوكالة يمكن تحديده بشكل يتوافق مع مصلحة الحكومة الأميركية ومصلحة رؤسائي الجدد. أظن بأن القراء سيففرون لي اصراري على التشديد على هذه النقطة، ذلك انني أود التأكيد على أن شركة بوز- آلن اند هميلتن لم تكن على الاطلاق ستاراً لنشاطي، وعلى انني كنت موظفاً بعض الأحيان متطلبات وظيفتي فيعود سببها إلى حماسي للعمل - وكذلك إلى حماس كيم، بالطبع. إن هذا الأمر مهم بالنسبة لي ذلك لأن معظم ما كتب حديثاً من دراسات وتقارير ومقالات عن عهد عبدالناصر أشار إليّ على انني «عميل في وكالة الاستخبارات المركزية» مما سبّب حرجاً شديداً للشركة التي استوظفتني عن حسن وسلامة نية.

الفصل الخامس عشر

شهر العسل الناصري

بعد انقضاء قرابة السنة تماماً على عودتي من مهمتي الاستطلاعية، رجعت إلى القاهرة في آذار (مارس) ١٩٥٣ في مهمة مشتركة بين وكالة الاستخبارات المركزية وشركة بوز- آلن اند هيلتن ليس فيها أي تضارب بين مصالح الفريقين. فمهمتي من حيث الوكالة كانت متابعة المحادثات التي أجراها الملحق العسكري دافيد إيفانز مع زكريا محيي الدين الرئيس الجديد للمخابرات المصرية والأمين الخاص لجمال عبدالناصر حول امكانية قيام وكالة الاستخبارات المركزية بتدريب المخابرات المصرية على أساليب جمع المعلومات ومكافحة الجاسوسية. أما من حيث عملي مع الشركة فكان متابعة ما إذا كان بنك مصر، أي المصرف المركزي، ينوي جدياً تكليفها باجراء مسح عام لجميع نشاطاته ابتداء من مصنع النسيج الذي يملكه في المحلة الكبرى وانتهاء بنشاطه المصرفي، والواقع انني نجحت في المهمتين. فقد قال لي زكريا محيي الدين بأنه يرغب في الحصول على مساعدة مدربين من وكالة الاستخبارات المركزية لاعادة تنظيم المخابرات المصرية، أما أحمد رشدي، رئيس بنك مصر، فأكد لي انه يؤد بالتأكيد ان تؤدي الشركة المهمة التي بحثها سفير مصر في واشنطن مع رالف سمالي بشأن البنك - أضاف وأنا على وشك الخروج من مكتبه ان على وكالة الانماء الدولية تسديد الفواتير.

إن أي دجل قد حصل مرده إلى رغبي السليقية في الدمج بين المهمتين. حسبت انه لو استطعت حمل وكالة الاستخبارات المركزية على اقناع كبار مسؤولي وكالة الانماء الدولية (وكان ذلك امراً غير مستصعب بسبب وجود آلن دالس آنذاك على رأس وكالة الاستخبارات المركزية وجون فوستر دالس وزيراً للخارجية) تكون مخططات مهمتي قد رُسمت في فردوس ضابط الاستخبارات. في ما يخصني شخصياً تؤلف وكالة الاستخبارات غطائي للمهمة المكلف بها من قبل الشركة، وتكون الشركة غطائي للمهمة التي أقوم بها لوكالة الاستخبارات المركزية كأحد خريجيها الأمناء. ولن تكون احدهما مسؤولة عن الأخرى طالما استطعت تأمين لكل منهما حاجتها. في بادئ الأمر لم يكن أحد على علم بمهمتي المزدوجة إلا زكريا محيي الدين. لم يطل الأمر برالف سمالي رئيس مكتب الشركة في واشنطن حتى أدرك حقيقة واقعي ذلك انه لم ير أي سبب آخر لقدرة موظف ثانوي في مكتبه في مصر على الاتصال سريعاً بكبار المسؤولين في الحكومة المصرية. لم ير سمالي أي داع للاعتراض على ذلك باعتبار انه لما كان واضحاً انني شخص مرضي عنه جداً في الدوائر العليا في الحكومة المصرية فقد كنت في وضع مناسب للحصول على عقود مشوقة للشركة.

سرد لي سكرتير زكريا محيي الدين ونحن في المقعد الخلفي في السيارة الفخمة التي أقلتنا للاجتماع به، كيف مثل زكريا ما يتوقعه من تصرف الملك فاروق ان هو علم مسبقاً بالانقلاب وكيف تصرف فعلاً تماماً كما توقع زكريا. عندها أدركت ان زكريا محيي الدين سيكون، أياً كانت وظيفته، الشخصية الأهم في فريق عبدالناصر والأكثر فائدة للفريقين في أي مباحثات تجري بينها.

تسنى لي خلال الاسبوعين اللذين قضيتهما في القاهرة في مهمتي هذه عقد عدة اجتماعات طويلة مع زكريا محيي الدين تبين لي منها انه من حيث النزاهة والذكاء أرفع من كثيرين غيره. وبنهاية اجتماعنا الأخير أعددتنا برنامج للقاءات تعارف غير رسمية ولندوات تضم مصريين وأميركيين من «كبار

البيروقراطيين، ودروس تدريب لأعضاء مجلس قيادة الثورة حول المتطلبات والمفوضيات الأميركية التي ينبغي أخذها في الاعتبار لجهة ما يمكنهم ان يتوقعوه منا.

من المفروض طبعاً ان يوافق كيم روزفلت وجمال عبدالناصر على كل تلك المواضيع في اجتماعهما المقرر عقده في غضون شهر تقريباً. وأثناء الفترة الفاصلة بين اجتماعي بركريا والاجتماع المقرر بين كيم وعبدالناصر طرأ عنصر جديد وهام على ترتيباتنا تمثل بشخص النقيب حسن التهامي. ذلك ان زكريا كان قد وافق على ارسال واحد من الضباط الأحرار يتكلم الانكليزية إلى واشنطن لالقاء نظرة علينا في بلادنا.

وصل التهامي إلى واشنطن في ١٠ نيسان (ابريل) ١٩٥٣ وتبين بعد وصوله انه أغرب ظاهرة بشرية صادفتها في عملي الطويل من التعاطي مع الظواهر البشرية الغربية الأطوار. اتضح لي بعد قضاء يوم واحد معه لماذا اختاره زكريا - أو عبدالناصر - لتلك المهمة. فهو قبل كل شيء وطني متعصب، ومتدين ورج، لا شائبة على نزاهته، إضافة إلى صفات أخرى اعطته المناعة في مواجهة كل المغريات التي كنا على استعداد لتقديمها له. المسكرات؟ لم يسبق له ان مسّها في حياته. النساء؟ في الليلة الثانية التي قضاها في واشنطن دعاه مرافقه إلى مربع ليلى اسمه بلو اينجل (الملاك الأزرق) فما كان منه إلا ان صبّ كأس الكوكاكولا فوق رأس «مضيفة» جاءت تجلس في حضنه. الدراهم؟ في إحدى مراحل اقامته في واشنطن سأله الضابط المسؤول المناوب ليلاً: «هل باستطاعتنا إقراضك بضع مئات من الدولارات لتتمكن من التسلية على طريقتك الخاصة؟» فما كان منه إلا ان سحب مسدساً من وسطه وصوّبه نحو رأس الضابط قائلاً: «بما لي من حصانة دبلوماسية تستطيع نشر دماغك على ذلك الجدار البعيد دون ان اجازى بما يعادل ضبط مخالفة وقوف». وعلى الرغم من انه من النوع الذي كنا نسّميه آنذاك «غمرة» فإنني أقول بفخر اننا أصبحنا بسرعة صديقين حميمين وما زلنا كذلك حتى يومنا هذا رغم الفروقات الحضارية الواسعة بيننا ورغم التباين في نظرتنا إلى الأمور ومع انه كثيراً ما باعدت بيننا السُّبُل.

استغرقت زيارة التهامي لواشنطن اسبوعين قضاها في مختلف مجالات المساعدة الفنية والخدمات التي يمكن ان تقدمها مختلف أجهزة الشرطة في المدن إلى الحكومة المصرية الجديدة: وكالة الاستخبارات المركزية ومكتب التحقيقات الاتحادي ومختلف أجهزة الشرطة الأخرى في المدن. وخلال زيارته تلك قضيت معظم أوقاتي برفقته. وبعد مغادرة الولايات المتحدة رفعت استقالتي رسمياً من الوكالة وقمت بجولة وداعية على الجميع اغرقتنا جميعاً بالدمع، كما سافر كيم إلى القاهرة لاضفاء الصفة الرسمية على الترتيبات مع عبدالناصر الذي كان آنذاك، على صعيد الرسميات نائباً لرئيس مجلس الوزراء ووزيراً للداخلية. أما أنا فقضيت ربيع العام ١٩٥٣ في نيويورك أقوم بمهمات اختارتها لي شركة بوز- آلن اند هميلتن لكي أتعرف بواسطتها على أساليبها في العمل. عدت بعد ذلك إلى واشنطن لبضعة أيام، بوصفي الخريج الأمين، لابداء تعليقاتي وملاحظات على التقرير الذي وضعه كيم عن اجتماعه بعبد الناصر وللتزود ببعض الارشادات والتعليمات، ولحزم امتعتي والسفر إلى القاهرة برفقة زوجتي وولدينا.

حاولت خلال الاسبوع الذي قضيته في واشنطن قبل سفري إلى القاهرة معرفة كيف يمكن توظيف «نجاحنا» في مصر، إذا كان ذلك هكذا، في خدمة أهداف الولايات المتحدة. فقامت بزيارة الأصدقاء في وزارة الخارجية، وتناولت طعام الغداء في غرفة الطعام في مجلس الشيوخ برفقة صديقي القديم وصاحب الفضل عليّ السناتور جون سباركمن السناتور وليم فولبرايت وغيرهما، وقضيت عدة

ساعات مع نائب الرئيس ريتشارد نيكسون - وجدته أوسع تفهماً لمصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط من جميع كبار شخصيات وكالة الاستخبارات المركزية ووزارة الخارجية، باستثناء كيم روزفلت، ولكن بمن فيهم الأخوين دالس. غير أنني لم استطع العثور على أي شخص في أي مكان يقدر على اعطائي جواباً بسيطاً على السؤال التالي: ماذا يترتب علينا فعله بهذا الاتصال الذي تحقق لنا مع الحكومة المصرية الجديدة؟ لنفرض ان بمقدورنا تنويم عبدالناصر مغنطيسياً، فماذا نطلب منه فعله عندما ينام؟

بالطبع جاءني أجوبة ولكنها لم تتجانس مطلقاً مع ما نعلمه عن تطورات دينامية السياسة في الشرق الأوسط آنذاك ومع ما عندنا عنها في تقاريرنا إلى البيت الأبيض وغيره من دوائر الدولة ووكالاتها. بيل بورديت الضابط المسؤول عن مكتب مصر في وزارة الخارجية قال ان هدفنا يجب أن يكون إقناع الحكومة المصرية الجديدة «بالتوصل إلى ترتيب توافقي مع اسرائيل» وباستعمال نفوذها لإقناع حكومات عربية أخرى باقتفاء أثرها. أما مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى بيل راون تري فقال إن عليّ إقناع عبدالناصر «بالتناغم» مع مخططات حلف شمال الأطلسي الدفاعية - وعلى وجه التحديد الاشتراك في مخطط إقليمي دفاعي كان يجري إعداده آنذاك من قبل الاستراتيجيين في وزارتي الخارجية والدفاع. وعندما سألت أعضاء مجلس الشيوخ عما يمكن ان نطلبه منطقياً من حكومة مصرية مستعدة للتعاون أجابني السناتور وليم فولبرايت ان أي شيء قد يطلبه السفير كافيدي من عبدالناصر نيابة عن الحكومة الأميركية سيكون في الواقع الطلب إليه أن يقدم على الانتحار.

دعاني كيم لتناول طعام الغداء في آخر يوم في واشنطن وزودني بالمعلومات عن محصلة رحلة العشرة أيام التي قام بها قبل شهر وزير الخارجية جون فوستر دالس في الشرق الأوسط. وما قاله لي إن ما سيخبرني به: «سري جداً بالطبع ولكن إذا كان «لا بد لك ان تعرف» شيئاً يا فتى فمن الضروري ان تعلم ما استفاه وزير خارجيتنا - من معلومات» - باختصار: لا شيء. فلما كان الوزير على علم مسبق بكل شيء فمن الصعب جداً على أي انسان ان يدخل في ذهنه ولو بالمطرفة والازميل ان لعبد الناصر مشاكله أيضاً. وهكذا أصبح وزيرنا، مثله مثل البراكين وجبال الثلج، ما نسميه: «عامل لا بد من العيش معه». على كل الأحوال بدا أن الجميع يتوقعون مني انجازات عظيمة ليس فقط لكوني خريجاً أميناً بل باعتباري أيضاً أول من حرك مشروع وكالة الاستخبارات المركزية في مصر. من دواعي السرور ان بعض التقدم كان قد تحقق في المجال الشخصي. فقد رتب كيم الأمور بحيث ينتقل جيم انجلبرغر إلى وزارة الخارجية ثم ينتقل إلى القاهرة بصفة ملحق اقتصادي. كما حصل صديقنا القديم فرانك كيرنز على عمل كمراسل متجول لشبكة سي. بي. أس وطلب الآخر تعيينه في القاهرة لاكتمال حلقة التسلية. ولكنه رفض قبول أي مركز رسمي في وكالة الاستخبارات المركزية معرباً عن استعداده في الوقت نفسه للتعاون معي ومع انجلبرغر في تقديم بعض الارشادات المجانية لعبدالناصر في مجال العلاقات العامة («حاولوا حمله على الابتسام أكثر بقليل: «هكذا نصحنا كيم» مقابل القليل من الایماء عن احداث ممكنة الحصول وقد تكون صالحة للتصوير التلفزيوني. وصلنا القاهرة نحن الثلاثة مع عائلتنا في أوقات متقاربة وأخذنا نقوم باتصالاتنا الاجتماعية بشكل يومي إلى محمد حسنين هيكل وغيره بأننا جميعاً «عملاء في وكالة الاستخبارات المركزية» نستعمل شقة فرانك الفخمة في الزمالك (حساب نفقاته أكبر من حساباتنا) مقراً لعملائنا.

بدأ عملي بداية حسنة في القاهرة حيث دبر لي صديقي حسن التهامي دارة جميلة لاقامتي تقع في حي المعادي الفخم كانت سابقاً دارة الجنرال ولسون قائد القوات البريطانية في مصر، يقوم خلفها بيت

الضيوف أقام فيه هو ويقع إلى جانبها بيت آخر أعدّه لضابط وكالة الاستخبارات المركزية الذي سيقوم بالارتباط الرسمي بينه (أي التهامي) وبين فريق الوكالة الآتي إلى مصر. لدارتي حديقة خلفية وحديقة أمامية فيها حوض واسع للسباحة على أحد جنباته سقيفة للاستظلّال تصلح لتناول طعام الفطور صباحاً والشاي بعد الظهر. أما فريق شركة بوز آلن اند هيلتن المؤلف من خمسة رجال فانتقلوا إلى مبنى جديد في غاردن سيتي حيث بدأوا العمل بجِد ونشاط يحاولون ما استطاعوا تفهم تشابك شركات بنك مصر بعضها ببعض. وأما جيم انجلبرغر فكان على أحسن ما يرام من التفاهم مع السفير كافري والضابط السياسي في السفارة الأميركية بيل لايكلمند (دايف إيفانز نقل إلى البنتاغون) هذا واستطاع فرانك كيرنز إذاعة بعض أخباره على الهواء مباشرة فيما أصبحت زوجته غون من أفضل المضيفات في مجتمع الزمالك.

في أول اجتماع لي معه في القاهرة أخبرني انجلبرغر ان الأسئلة التي طرحها قبل مغادرتي واشنطن بأسبوع قد أثارت اهتمام اشخاص متعددين وجعلتهم يدركون لأول مرة بأنه من الصعب عليهم الحكم حكماً مقبولاً على عملية ما إلا إذا كانوا هم والمسؤولون المشرفون عليها قد أدركوا ما هي الغاية المنشودة منها. وأثناء وجودي في مكتبه عرض عليّ انجلبرغر وثيقة تحمل عنواناً يشبه «رهان اميركا في الشرق الأوسط» وطلب إليّ ان أقرأها مثني وثلاثاً حتى ترسخ في ذهني ثم مساعدته في إعادة صياغتها إذا ما تسنى لي الوقت في عملي في الشركة. وقال إنه سينقلها إلى العربية على يد أحد الطلاب الاختصاصيين في وكالة الاستخبارات المركزية، ثم أقوم أنا بنقلها إلى زكريا محيي الدين وأطلب إليه ابداء تعليقاته عليها. بدت لي الوثيقة عادية إلى حد ما علماً بأنها تحمل خاتم «سري جداً». وقال انجلبرغر بأن أنقلها إلى زكريا ليس بوصفي ممثلاً لوكالة الاستخبارات المركزية بل كخدمة شخصية للسفير كافيري باعتبار انني أتصل بزكريا محيي الدين بحكم عملي في الشركة (كان من واجبي الإشارة قبل الآن ان عبدالناصر عين زكريا ضابط ارتباط مع الشركة ليس لأن له أي علاقة رسمية ببنك مصر بل لأنه كمدير المخابرات المسؤول الأمثل لمراقبة فريق من الأجانب سيتعاطون بأحد أهم حقول الدولة حساسية، أي مالياتها). على كل حال رفضت الطلب فقال انجلبرغر: «ان كنت غير مستعد للقيام بخدمات بسيطة كهذه من وقت إلى آخر سترتب علينا ابقاؤك خارج لعبتنا كلياً». فعل ذلك الكلام فعله في نفسي وساندته رغبتني في «الاسهام» التي تتغلب في النهاية. اتصلت بحسن التهامي وتوجهنا نحن الاثنين إلى هليوبوليس (مصر الجديد) وكان زكريا محيي الدين على وشك مغادرة مكتبه بعد ظهر الخميس لقضاء عطلة الاسبوع. الفى محيي الدين نظرة على الورقة، النسخة الانكليزية والنسخة العربية وقال انه سيعرضها على الرئيس، أي عبدالناصر، أثناء السهرة. وانتهى الأمر.

كانت تلك نهاية القضية بشقها المختص بي. ولكن انجلبرغر أخبرني صباح الاثنين التالي ان السفير «كافري» قد استعرضها باختصار مع وزير الخارجية محمود فوزي. فقد وصلت الورقة إلى محمود فوزي عبر قنوات «غير رسمية» وغير دبلوماسية بحيث ان كافري أعرب عن دهشته وعن عدم علمه بها وتنصّل من أي علاقة له بها ومسؤولية عنها وقال للوزير محمود فوزي انه إذا كانت تلك هي السياسة التي تبنتها الحكومة الأميركية فقد حدث ذلك دون علمه بها وكذلك دون موافقته.

في الاسبوع التالي، وفيما كنت ألقى إحدى محاضراتي أمام كبار مدراء شركات بنك مصر لاحظت ان في فناء القاعة رجلاً بلباس ضابط مصري طويل القامة وقوي البنية لا تنمّ تقاسيم وجهه عن أي ابتسامة يتابع بنهم ما أنثره من درر وحكم في الأصول الادارية. إنه عبدالناصر بنفسه! ولما صار وحده يشكل جمهور المستمعين اتخذت موقف الجدية المهنية وتغاضيت عن بعض النكات التي أعدتها ليقاظ

النائمين من المستمعين وحصرت كلامي بالمناشدة «للعمل كفريق». تضمن كلامي أيضاً نقداً لاذعاً لأنظمة الهرمية في الشرق المبنية لخدمة بل ولتشجيع الخصومة بين أقسام المنظمة الواحدة تسهياً لمهمة «الادارة بالتجسس». فكان لأقوالي أثرها في نفس نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية جمال عبدالناصر.

بعد انتهاء المحاضرة تقدمت منه وعرفته بنفسني فأعرب عن تقديره لما سمعه مني وسألني ما إذا كنت مرتبطاً بموعد لوجبة الغداء. أجبته بالنفي فاصطحبني إلى سيارته البويك القديمة وقال للسائق ان يتوجه بنا إلى مكتبه في وزارة الداخلية حيث تناولنا غداء مؤلفاً من الشورباء والسندويشات على طاولة عمله. ومنذ ذلك اليوم وحتى تخلصه من محمد نجيب بعد عدة أشهر كنت أتناول طعام الغداء مع عبدالناصر مرتين أو ثلاث مرات في الاسبوع إما في وزارة الداخلية أو في غرفة الطعام في مقر مجلس قيادة الثورة في الزمالك يرافقنا في معظم الأحيان حسن التهامي، وفي بعضها زكريا محيي الدين أو بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة. وأشدد هنا على ان محمد حسنين هيكل لم يكن معنا مرة واحدة.

قضت اسيرة كوبلاند في القاهرة سنتين سعيدتين هائتين تخللتها بين الحين والحين فترات من النشاط التأمري المحموم والفوضى الدبلوماسية، كانت كلها مهنية في طابعها. وحتى اجتماعي الأول بعبدالناصر كنت منهمكاً بشهادة زملائي في الشركة، بأعمال الادارة العامة الأكثر تحدياً وإثارة من أي أعمال في الهندسة الادارية سبق لي أن قمت بها في أي وقت مضى. فقد كنا في الحقيقة كمن يعمل في أرض بكر نخترق ادغال الفوضى والتقاليد المتحجرة.

أثناء دراستنا اعادة تنظيم دوائر الجمرك مثلاً، والوسائل الآيلة إلى جعل خمسمئة موظف ينجزون العمل الذي كان يقوم به ألفا موظف، قال لنا زكريا محيي الدين بأننا تجاهلنا «ضرورة اجتماعية» موضحاً بأن مدراء الجمارك البريطانيين الذين نظموا دوائر الجمرك قد أبعادوا عن الشارع ألفي مشاغب مُحتمل فيما نحن نحاول اعادة ألف وخمسمئة منهم إلى الطرقات. وأضاف أن الخبراء البريطانيين استطاعوا تعقيد، بل في الواقع تأخير معاملات تخليص البضائع المستوردة، طبعاً ارضاءً لجميع من يهمهم الأمر باستثناء المستوردين والموردين الأجانب وهما دون ريب أقل عناصر العملية أهمية.

نصحنا زكريا بأن «علينا تنظيم أولوياتنا» وبأن الهيئتين الأكثر جدارة بتحسين كفاية الاداء فيها من بين كل الهيئات الحكومية هما المخابرات ووزارة الداخلية، وهما الهيئتان اللتان تشرفان على مَنْ وما يدخل البلاد ويخرج منها وتضبطان ما يجري في داخلها. لم يكن من مجال للتشكيك بأولوياته فعندما تشكلت لجنة من مجلس قيادة الثورة لدراسة تحسين كفاية الدوائر الحكومية تبينت لها جدية البطالة الموروثة من العهد الملكي فأصرت على عدم تسريح مئات الموظفين الفائضين عن الحاجة في وزارة الداخلية. فما كان منه إلا أن جمع هؤلاء الموظفين في مبنى مستقل وأمرهم بنسخ القرآن الكريم نسخة نسخة. نعم، هكذا فعل عندما حل محل عبدالناصر وزيراً للداخلية في أعقاب اعتلاء عبدالناصر إلى مرتبة الرئاسة. في زيارتي الأولى لوزارة الداخلية كان عبدالناصر ممسكاً بناصيتها يعتبرها الأولوية الأولى القادرة في حكومته الجديد على تأمين «قاعدة وقائية مستترة نوعاً ما غايتها وقاية عهد جديد من الاضطرابات العامة التي تتصف بها فترات ما بعد الثورة في أي مكان.

أدى تكليفي بتقديم الاستشارات لتنظيم وزارة الداخلية إلى ضم قوى شركة بوز-آلن اند هملتن إلى قوى وكالة الاستخبارات المركزية فكان عليهما القيام بمشروع لا يخص الوكالة بل حكومة الولايات

المتحدة، باشراف وكالة الانماء الدولية. أما مشاركة الوكالة فيه فليس سببها رغبة الحكومة الأميركية باسباغ صفة السرية عليه بل رغبة الحكومة المصرية. ولعل هذه المرحلة من الكتاب هي المناسبة الملائمة لبدء الملاحظة التالية التي تنطبق على معظم الحالات: وهي أن الحكومة التي تتلقى مساعدة من الولايات المتحدة تتعرض للارباك السياسي الشديد ان هي أفشت ان علاقتها بالحكومة الأميركية حميمة كعلاقة المريض بطبيبه.

إذاً، كانت وزارة الداخلية من نصيبي فيما عالج خبيران القضايا الثانوية كبطاقات الهوية وتسجيل السيارات والآليات وغيرها من الشؤون المشابهة كتحسين خدمات دائرة الهجرة والخدمات الجمركية دون تسريع اي موظف. أما مجال اختصاصي فكان بالطبع دوائر الشرطة. ونظراً لمحدودية خبرتي في هذا الحقل اضطررت للاستعانة برّب عملي الأول، أي وكالة الاستخبارات المركزية. خلال قرابة الشهر بعد اجتماعي بعبدالناصر فصلت كلية الشرطة الخاصة التي أنشأتها قبل استقالي من الوكالة الملازم بات كيلى وهو ضابط لطيف متقدم في السن أحيل حديثاً على التقاعد من كلية الشرطة التابعة لدائرة شرطة نيويورك حيث خدم عدة سنوات رئيساً لقسم حماية الشخصيات الكبيرة أثناء زيارتها لمنهاتن.

أنيطت بي مهمتان: الأولى وضع لوحات بيانية تنظيمية بهرمية المسؤوليات واعداد الدروس في المدرسة الجديدة. أما الثانية فينبغي تنفيذها بالتعاون مع فرانك ديوان وفرانك هوفر عميلي مكتب التحقيق الاتحادي اللذين جاء بهما صديقي القديم أورفال يارغر لادارة مدرسة الشرطة التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية.

جاءت المهمة العملانية الوحيدة التي قمت بها للشرطة بمساعدة بات كيلى عندما صار السير انطوني ايدن بعد بضع سنوات مهووساً بالرئيس المصري جمال عبدالناصر بحيث أصبح وزير خارجيتنا يتوقع ان يواجهه في أي يوم اصراراً بريطانياً على وضع مؤامرة اغتيال. تلقى رئيس مركز القاهرة في تلك الفترة رسالة من آلن دالس بالذات أرسلها بناء على اصرار شقيقه طلب فيها منا البحث عن وسائل اغتيال عبدالناصر إذا ما دعت الحاجة. انطوت الرسالة على لهجة مبطنة تبنىء بأن الأخوين دالس يرحبان بجواب عليها مفاده استحالة الوصول إلى عبدالناصر مع عدم التوضيح بالطبع بأننا نحن وسيلة الحيلولة دون وصول أيدي الاغتيال إليه باعتبار اننا صممنا ترتيبات الحفاظ على سلامته.

لقد حان الوقت أخيراً لاعتراضي بصحة نبذة واحدة من كل الدعاية المعادية لي التي نشرها الشيوعيون في السنوات القليلة الماضية وأخذها عنهم بعض السخفاء من الأميركيين. نعم، لقد تناقشت في ذلك الموضوع بالذات مع الرئيس عبدالناصر بنفسه، كما كان التقرير الممتاز الذي حاز على مكافأة في واشنطن يتضمن الكثير من اقتراحات عبدالناصر.

سألته في سياق تلك المناقشة: «ما قولك بالسم؟ لنفرض انني غافلتك ودسست حبة سم في فنجان قهوتك».

قال: «حَسَن واقف هناك. فإذا غافلتني سيراك هو». قلت: «ربما استطعنا رشوة خادِم ليدسّ لك السم في القهوة قبل الدخول بها عليك؟» أجاب: «يبدو ان شرطيكم النيويوركي قد فكر بذلك. القهوة لا تقتل إلا ذائقها. عندما يسقط الذائق ميتاً، أفلن يرشدنا ذلك إلى مؤامراتكم؟»

وهكذا كانت الأسئلة والأجوبة. تبين بالفعل ان بات قد فكر بكل الاحتمالات. ولكن وضع

عبدالناصر على محك تمثيل عملية اغتياله جعلته (أي بات) يدرك أهمية القضية بمجملها.

وكما قلت سابقاً كل ذلك جرى في وقت لاحق، أما في العام ١٩٥٣ عندما كنا جاهدين للحفاظ على حياته، كان خوفنا الأكبر عليه من قيام ثورة معاكسة على يد الفريق الذي أوصلنا إلى الجيش: الإخوان المسلمون. عبدالناصر يتمتع بالقوة اللازمة لخنقها، ولكن ثمة عائقين في الطريق. الأول انه حمل على محمل الصدق المعلومات المغلوطة التي أوصلناها له قبل الانقلاب ووصوله إلى السلطة عن ان الإخوان المسلمين قد يكونوا حلفاء ذوي شأن. والثاني انه لم يستطع، بعد اكتشافه انهم ليسوا كذلك، الخروج بفكرة لتحبيدهم دون اظهار عهده على ان قمعي أكثر من اللزوم. لقد بسّطت الأمور كثيراً لأنني أردت اظهار النقطة التالية: ان عبدالناصر الجديد، كأبي عهد ثوري آخر، مضطر للمرور بفترة من القمعية الشاملة. ذلك لأن على العهد ان يرسى لنفسه «أساساً قمعياً» قبل مجرد التفكير بإرساء «أساس بناء».

تضمنت البرقية الأولى التي تسلمها رئيس مركز وكالة الاستخبارات المركزية في القاهرة جواباً على تقريره الطويل عن تقدم أعمالنا في وزارة الداخلية الطلب إليه أن يبلغني تنويه الأخوين دالس بنجاحي في مهمتي، ثم ان يرفع تقريراً عن احتمالات اجراء «انتخابات حرة وشريفة وديمقراطية في المستقبل القريب». كانت كل المراسلات التي تلت البرقية تتمحور حول الفرضية بأن الحكومة المنتخبة انتخاباً حراً ومنصفاً في بقعة من بقاع العالم ستكون حكماً مناهضة للاتحاد السوفياتي ومؤيدة للولايات المتحدة حتى ولو كان السوفيات يقدمون لها كل ما تحتاج إليه ولو كنا نحن نقف إلى جانب أعدائها.

بتزايد ضغوط واشنطن علينا طلب مني جيم انجلبرغر ان اساعده في اتخاذ دور «محامي الشيطان» في دراسة للوضع العام في مصر كان قد طلبها منه السفير كافري. وبعد قبول السفير بتوقعاتنا نقاط انطلاق تركت الأمور الباقية لي، أو بالأحرى لي ولحسن التهامي فقضينا الشهرين التاليين أياماً من العمر، ذلك اننا بموافقة عبدالناصر وزكريا محيي الدين، أقوى رجلين في مصر من حيث أمن الدولة، رحنا نتصور خطط انقلاب ضد عبدالناصر. وضعنا أنفسنا في مكان مختلف الشخصيات أو المجموعات المعروفة إما بعداها للنظام الجديد أو باحتمال صيرورتها منافسة له. ولم نرتق فقط إلى مصاف كبار الخبراء العالميين في طرق زعزعة استقرار الحكومات والاطاحة بها بل ربما أصبحنا أكبر الاختصاصيين بذلك. علّمنا تلك الفترة العناصر اللازمة لذلك، فوضعنا قائمة مفصلة بالضروريات الأساسية اللازمة، أوسع بكثير مما كان في ذهن ستيف ميد عندما رافق حسني الزعيم في مشوار بالسيارة في شوارع دمشق يدلّه على الأهداف الواجب السيطرة عليها في ليلة تنفيذ الانقلاب. وبعد ذلك ببضع سنوات عندما جلست مع مجموعة من خبراء المخابرات الأميركيين والبريطانيين نخطط للاطاحة بعبدالناصر جدياً، لم يبد من زملائنا البريطانيين ما دلّ على الادراك بأنهم في حضرة الشخص الوحيد في العالم العليم بالخبرة بطرق تنفيذ ما يهدفون إليه.

لا بد لي الآن من الادلاء باعتراف أشد خطورة من اعترافي السابق: هل تعلمون من كان يُعد الكثير من تصريحات عبدالناصر وسيل الدعاية المعادية للولايات المتحدة المتدفق من إذاعة القاهرة - أقوى وسائل الدعاية في الشرق الأوسط - التي أزعجت الدبلوماسيين المحترفين في وزارة خارجيتنا؟ طبعاً أنتم لا تعلمون اننا كنا نحن نعدّها. ذلك لأننا كنا ندرك مثلنا مثل عبدالناصر نفسه أن قبضة العهد الجديد على البلاد تتوقف على قدرته في الاستمرار بالعداء لأميركا بشكل مقنع وان ليس في مقدور عبدالناصر المخاطرة بمجرد ابداء أي عقلانية في مواقفه حيال سياساتنا المختلفة في الشرق

الأوسط. وحتى لو استطعنا تنويم عبدالناصر مغنطيسياً بحيث يطيع أوامر واشنطن دون تردد، لأحجمنا عن حمله على التصرف تصرفاً نعلم مسبقاً بأنه انتحاري. لذلك ساعدناه في دعايته المعادية لأميركا. ومن ناحية أخرى بذلنا مجهوداً كبيراً لجعل تلك الدعاية تأتي بنتائج عكسية إذ ضمنناها الكثير من السخافات الواضحة مع بقائنا بكامل السيطرة على انتاجها. وذهبنا في اتقاننا لهذه العمليات إلى استقدام پول لاينبارغر، ولعله أقوى الدعائيين «السود» في التاريخ، إلى مصر لتدريب الفريق المصري الأميركي المسؤول عن انتاج الدعايات المذكورة.

لقد كانت مهمتنا، كما ترون، خلق قناة اتصال سرية مصرية أميركية وبعيداً عن البيروقراطية ومنبعة بوجه أي تأثيرات افسادية، والابقاء عليها مفتوحة دون أن يكون لها أي تأثير في ما يمر عبرها. أما هذا الأمر الأخير فهو من اختصاص وزارة خارجيتنا. فإذا ما أدت المراسلات المارة عبر تلك القناة إلى تلاقي الافكار تكون النتيجة طيبة. أما إذا أظهرت تبايناً صادقاً إنما غير قابل للتوفيق، عندئذ لن يكون بطوقنا فعل أي شيء ولن ينبغي علينا فعل أي شيء.

ويترتب عليّ هنا أن أشدد على أن ذلك هو كل ما يمكن للفعل السياسي أن يحققه. إذ لا يمكنه إلا استغلال الحركية السياسية الجارية في حينه الاستغلال الأمثل، علماً بأنه قد يستطيع تعديل اتجاهها أو خلق حركات جديدة في بعض الأحيان. ولكنه لا يمكنه إلا نادراً جداً أحداث تغييرات داخلية في أي بلد باستخدام قوى خارجية - أكان ذلك في مصر أو في كوبا أو في نيكاراغوا كما هي الحال حديثاً. وعندما كنت لا أزال أعمل في الوكالة جرى نقل كل الموظفين الذين خالفوا هذا الرأي إلى وظائف ادارية داخل الوكالة أو انهم طردوا منها. كان آلن دالس منفتحاً على المنطق، أما شقيقه جون فوستر (وزير الخارجية) فبالعكس. ولا شك في أن الوزير لم يكن من قسم الذكاء المتوقد كما كان يتصوره رئيسه، الرئيس ايزنهاور، أو كما تصور هو نفسه. أما عناده فيضرب به المثل وهو الذي أضفى على عبارة «عقل مثل الفخ الفولاذي» معناها الجديد. ولما لم يسبق له أن عايش وتعاطى فعلاً مع زبائنه من العالم الثالث اكتفى بالاقتناع الأعمى بأنه يتمتع بفهم مكيفلي لكل المشاكل الاقليمية في العالم بينما لم تكن آراؤه في نظرنا نحن الذين عملنا على الأرض سواء كنا في وكالة الاستخبارات المركزية أو في وزارة الخارجية إلا أقل بدائية من الترهات التي تلف افكار معظم سياسيي الشرق الأوسط.

قضيت معظم ما تبقى من سنتي خدمتي في القاهرة ومن سنتين أخريين، بعد استقالي من الشركة وعودتي إلى وكالة الاستخبارات المركزية بصفة رئيس لقسم العمل السياسي، في مساعدة كيم روزفلت نللم معاً شظايا الركام. ركام ماذا؟ الركام المتناثر من سياسات الوزير دالس التصادية أكان في مصر أو في بلدان الشرق الأوسط الأخرى. ذلك انه أصرّ على اتباع سياسات واتجاهات كان موظفو الخارجية والوكالة على يقين من انها ستؤدي إلى كوارث. هل حصل الخطأ من قبلنا؟ هل تأخرنا في انذار الوزير دالس وكبار معاونيه وكبار المعجيين به ومؤيديه في البيت الأبيض بأنه يكذّس الاخطاء فوق الاخطاء؟ لقد اخبرناه بكل ذلك وبكل تأكيد. وما على من يشك بقولي هذا إلا أن يتيقن من ذلك بمراجعة المراسلات حول الموضوع التي بات في متناول من يشاء مطالعتها.

أما نحن العاملين ميدانياً فقد تقيّدنا كلياً بأربعة مبادئ اعتبرناه على برائتنا من طرق وأساليب واشنطن بأنها تنطبق على مبادئ المنطق السليم لدى رؤسائنا. لا بد اننا أصبنا - من حيث المبادئ المذكورة وان لم يكن من حيث الطاعة لرؤسائنا - باعتبار انه منذ ذلك الحين وحتى الآن والكوارث تحل بأي عملية تنفذ دون التقيد بها.

سبق أن ذكرت المبدأ الأول: وهو انه اذا اضطرت لتغيير طبيعة او اتجاه حكومة ما عليك ان تفعل ذلك من خلال القوى الموجودة داخل البلاد. بالطبع هناك لازمة لهذا المبدأ وهي انه في غياب تلك القوى - أو حيث لا توجد قوى نائمة يمكن ايقاظها أو تحريكها بدافع من مصالحها وتوجيهها في أقنية تخدم مصالحنا - عليك التخلي عن العمل السياسي واللجوء إلى اسلوب آخر، أو محاولة التكيف مع وضع تشوبه بعض النواقص. ليس هذا المبدأ اكتشافاً جديداً فقد أفصح استراتيجي صيني عن اسمه منذ قرابة الثلاثة آلاف سنة بقوله: إياك الدخول في عراك لا ترى بوضوح طريقك نحو الفوز فيه؛ وإياك السير في عمل ما إلا إذا كنت على بينة من احتمال مقبول لنجاحه. وعليه يأتي دائماً ثمن الاخفاق في حل اشكال في العمل السياسي أعلى من ثمن الابقاء عليه دون حل. أما كلفة التقصير المفصوح فكثيراً ما تكون انتحارية.

المبدأ الثاني: فهو الذي يلاقي العاملون ميدانياً أشد الصعوبة في ادخاله عقول استراتيجي المقاعد المريحة في واشنطن، وهو أن الديمقراطية والانتخابات الحرة في معظم دول العالم الثالث لا تشكل الحل لمشكلات تلك البلدان أنفسهم ولا الحل لمشكلاتنا فيها. ففي أكثر الحالات يفوز في الانتخابات الحرة في البلدان المسماة «نامية» واحد من نوعين من المرشحين: فإما أن يكون سياسياً أو فريقاً سياسياً يضع في رأس أولوياته لدى بلوغه السلطة التوقف عن اجراء اي انتخابات حرة أخرى؛ أو غوغائي قطع على نفسه وعوداً يعلم انه غير قادر على الوفاء بها، يبدأ بعد فوزه بمطالبتنا بأشياء لا نستطيع القيام بها فينحى باللائمة علينا ويتهمنا بأننا وراء تقصيره.

والمبدأ الثالث: هو ان علينا الاعتراف بواقع ملخصه ان الحكومة التي ندفع بها إلى سدة السلطة تضع مصالحها دوماً قبل مصلحتنا. إن أشد الحكومات موالاة لأميركا تمتنع عن السير في خططنا ما لم تخدم تلك الخطط مصالحها قبل مصالحنا وشرط ألا يعرض ذلك قبضتها على بلادها لأي خطر. هذه هي النظرة التي استحال علينا نحن العاملين ميدانياً مع حكومة عبدالناصر اقناع واشنطن بها. فقد كانت الأولوية، كما رأيناها نحن، وجوب ابقاء عبدالناصر على رأس الحكم؛ فهو لا يشكل أي قيمة لنا خارجه هذا إضافة إلى انه لم يكن له أي بديل منظور. ورغم ذلك طُلب إلينا المرة تلو المرة حمله على اتخاذ اجراءات يعلم هو مثلنا بأنها انتحارية. ولدى رفضه طلباتنا جاءتنا التعليمات بالشروع بخطط التخلص منه.

المبدأ الرابع: هو أن علينا الاعتراف بأن القسم الأكبر من عملنا الأفضل مع حكومة نريد بقاءها في السلطة يجب أن يبقى سرياً ليس لأننا بحاجة إلى سرية بل لأن السرية هي رغبة تلك الحكومة. يجب أن نعلم أن القادة في البلدان التي تتلقى أريحيتنا لا يستفيدون كثيراً على الصعيد الشعبي من اعلانهم عن صداقتهم معنا - علماً بأن أكثرهم يسجلون بعض النقاط لصالحهم بتبجحهم بقدرتهم على استغلالنا. باستثناء حالات قليلة جداً لم يجن الزعماء الاقليميون الذين عرف عنهم الولاء لأميركا إلا فقدان نفوذهم أو حياتهم. إلا ان الاسرائيليين يشكلون إلى حد ما شواذ القاعدة، هذا مع العلم بأن هؤلاء لا يتأخرون، بين آن وآخر، عن التبجح بأن نفوذهم عندنا أقوى من نفوذنا عندهم على الرغم من المساعدة الضخمة التي نقدمها لهم. فحسب تعريفنا للعمل السياسي في الأيام الطيبة الغابرة كان تعاطينا به مع جميع الحكومات، باستثناء الحكومة الاسرائيلية، ناجحاً بمقدار ما حافظنا على سرية. أما الاعلان عنه فلا يعني فقط تخريبه بحد ذاته بل جعل تأثيراته عكسية بحيث تصبح كلفتها أكثر من المنافع التي كنا نتوقعها منه.

ولكن المشكل الرئيسي يكمن خارج مثل هذه الاعتبارات ففي سنوات قادمة لا بد أن يكتشف شاب ما في جامعة ما من أبحاثه لاعداد رسالة الدكتوراه أن الصعوبات في العمليات السياسية الأميركية إبان الخمسينات نجمت ليس من عدم قراءة تقاريرنا في واشنطن بمقدار ما نجمت من اننا في الميدان لم نكن على علم بأن لا أحد يقرأها. إن المبادئ التي أشرت إليها موجودة في السجلات. فلما عدت إلى واشنطن وجدت خزانة محفوظات كاملة مليئة ليس فقط بأوراق أشبه بمقالات دراسية تعالج بتوسع تفاصيلها بل بتقارير مفصلة عما كنا نقوم به من أعمال، مما يعني ضمناً اننا كنا نراعي تلك المبادئ بدقة. ومع ذلك لم أعثر على وثيقة واحدة لا في ملفات وزارة الخارجية ولا في ملفات وكالة الاستخبارات المركزية تقول لنا واشنطن فيها بأننا نعمل خارج نطاق التعليمات. وفي الواقع عثرت على تنويهن موجّهين لي شخصياً مما يعني بوضوح ان واشنطن اعتبرتنا نعمل فعلاً ضمن نطاق التعليمات وانها أثنت بذلك صراحة على «استراتيجيتي» في التعاطي مع حكومة عبدالناصر.

وهكذا تابعنا العمل بثقة عمياء بأننا متقيدون بالحدود المرسومة مع واشنطن بينما كان واقع الحال اننا زججنا عبدالناصر في المأزق تلو المأزق ثم استحال عليه وعلينا الخروج منها. ومما زاد في سوء الوضع ان الزوار الوافدين علينا من واشنطن يغادروننا مقتنعين بما شرحناه لهم في القاهرة ويرجعون إلى واشنطن فقط للعودة إلى ما كانوا عليه من آراء انعزالية. وثابتت وزارة الخارجية تطالب عبدالناصر باتباع سياسات تؤدي به إلى الانتحار السياسي، ورحنا نحن في القاهرة نتنبأ بدقة بما ستكون ردة فعله على طلباتنا، حتى اننا تنبأنا كيف أن تصرفات عبدالناصر والاستراتيجيات الأخذة بالتكون حولها ستبقيه أمامنا بخطوة في اللعبة طالما بقي جون فوستر دالس وزيراً للخارجية.

لم يتمكن الوزير دالس من فهم المبدأ الأول القائل بأنه: «من النادر ان تفوز بلعبة دون معرفتك باشتراكك فيها». هذا فضلاً عن ان الاستراتيجية المضمونة النجاح قد تصل إلى نهاية مأساوية إن هي أغفلت التغيرات الجذرية الجارية على رقعة اللعبة ذاتها. كان عبدالناصر يقول: «إنني لا أقوم بالعمل بل أرد عليه». دعونا من الكلام بالعموميات فواقع الأمر ان موقفه هذا سهل عليّ مهمتي.

نعم، نعم، ثمة اجراء واحد اتخذته عبدالناصر وقصرنا أنا وكيم روزفلت عن التنبؤ به. فعندما أعلن وزير الخارجية دالس اننا لن نساعد عبدالناصر في بناء السد العالي، دُعيانا إلى اجتماع عقد في وزارة الخارجية للمساعدة في استقرار ما ستكون ردة فعله. طُرحت آراء كثيرة ولكن رئيسنا المحبب فرانك وايسنر انفرد بذكر احتمال تأميم عبدالناصر لشركة قناة السويس. دسنا أنا وكيم على رجل فرانك تحت الطاولة (اننا نحبه ولم ترق لنا رؤيته يجعل من نفسه موضوع سخريه أمام الحاضرين) ولكنه ثابر في اصراره على رأيه فيما أخذ كبار مسؤولي الخارجية يشرحون له بحنو أبوي أسباب استحالة أو قلة احتمال اقدام عبدالناصر على اتخاذ مثل ذلك الاجراء.

ولكن الرئيس عبدالناصر أمم شركة قناة السويس كما يعلم الجميع (لم يؤمم القناة نفسها كما يُظن خطأ بل أمم الشركة) فدعانا فرانك إلى مكتبه ليشتت بنا وقال: «أرجو أن تجلبا معكما الملاحظات التي دوّنتماها عن الاجتماع في وزارة الخارجية».

دخلنا عليه فإذا به في نشوة الظفر وكأنه يقول: «ألم أحذركم؟» ولكن مظهره تبدل عندما عجز عن العثور بين أوراقه على ما يدعم نبوءته. قال بصوت عال: «ألا تذكران؟ قلت مرتين أو ثلاث مرات ان عبدالناصر قد يلجأ إلى تأميم شركة القناة».

نظر كيم إليّ ونظرت إليه، ثم قال: «لست أذكر، يا فرانك، انك تفوهت بشيء من هذا القبيل. أتذكر انت يا مايلز؟»

قلت لكيم: «لم اسمع ذلك منه». ثم توجهت إلى فرانك بالسؤال: «هل انت متأكد من انك فكّرت بذلك دون التفوه به؟ فلو نطقت بها لكانت نبوءة خارقة، ولكن...»

ما انفك فرانك يصرّ على قوله: «انكما تعلمان بأنني قلتها» وما انفكنا أنا وكيم نردد وقد علت مظاهر الدهشة وجهينا بأننا لم نسمعه. كانت لعبة قدرة كثيراً ما رددناها بندم خصوصاً وان فرانك انتحر بعد مرور أقل من سنة على فشل عملياته المفضلة: ثورة هنغاريا. وهنا أود أن أسجل للتاريخ ان فرانك وايسز الذي يجهل معظم الأميركيين من هو، رجل عظيم كبير القلب ومن أفضل المدراء الذين اشتغلت معهم. فيه قال ستيوارت آلسوپ انه: «مات ضحية الحرب كممثل ميتة أي جندي في ساحة القتال»، وهو لعمرى، قول يشهد على صحته كل أصدقاء فرانك ومن تعاون معه.

الفصل السادس عشر

العمل السياسي في الخفاء. هل هو شأن جدّي؟

سبق لفرانك وايسر ان قال لي بأنني سألقى الترحيب دوماً في وكالة الاستخبارات المركزية وبأن فيها عملاً جاهزاً بانتظاري متى شئت العودة إليها. وعليه، عندما انقضت مدة تعاقدتي مع شركة بوز- آلن اند هملتن في مصر في تموز (يوليو) ١٩٥٥ راجعت حسابي في المصرف وتأكدت من أن فيه ما يكفي لشراء بيت جديد في فرجينيا إضافة إلى سيارتين، فكتبت رسالة استقالي ثم وجهتها إلى رئيسي جيم آلن رئيس الشركة الذي أجابني برسالة جاء فيها تماماً ما سبق لفرانك ان قاله لي عندما استقلت من الوكالة قبل سنتين (أي انه يرحب بعودتي إلى الشركة في أي وقت أشاء) مضيفاً بأنه سيحيلني على الاستيداع إذا ما شئت ذلك بحيث لا أعتبر مستقلاً. وهذا يعني انني ما زلت معتبراً في عطلة بالنسبة إلى الشركة، إلا إذا كان أحد الكتبة في مكاتبها في شيكاغو أو في واشنطن قد قرّر شطب اسمي.

قضيت في القاهرة وقتاً ممتعاً جداً، وعندما استعيد ذكرياتي بين تموز ١٩٥٣ وتموز ١٩٥٥ أدركت انها كانت فترة هامة جداً أفادت حكومتنا وأصدقائي المصريين والشركة، كما جنيت منها منفعة كبيرة. وكم أتمنى لو استطعت القول عينه في السنتين التاليتين. صحيح أنني أول من سُمي اختصاصياً بالعمل السياسي في الوكالة وأول رئيس لوحدة مؤلفة من خمسة رجال اسمها أركان العمل السياسي. وصحيح أن للوظيفة وللقبها رنة مطربة على الغلاف الورقي لكتاب حيث نبذة عن الكتاب و/أو المؤلف. ولكن ما أعطيته فعلاً هو عبارة عن كيس فارغ أمسك به. وبعد أن بدأ الفريق بالعمل المفيد اضطرت أن أقضي معظم أوقاتي وعلى مدى سنتين في محاولات دائمة لتلافي عمليات العمل السياسي تقوم بها داخل الأقسام الإقليمية وحدات تتجاهل وجودي.

لكن دعونا نعالج الأهم أولاً. لم يمض يوم واحد على استقرارتي في عملي الجديد حتى أدركت ان لا أحد من رؤسائي المباشرين - لا آلن دالس ولا حتى كيم روزفلت - كانوا على علم دقيق بما هو عملي بالضبط. ولدى استفساري طالعني كل منهم بجواب مبني على ما قاله الرئيس ترومن وهو يوقع قرار مجلس الأمن القومي رقم ٢/١٠ الذي أخبر به لوكالة الاستخبارات ان تتوسع مهمتها من وكالة لجمع المعلومات والاستخبارات لتشمل «مكافحة الأعمال الشريرة التي يقوم بها السوفييات في الخفاء» بأي وسيلة ممكنة. فالسوفييات يحاربوننا بالحيل القذرة. إذاً علينا محاربتهم بسلاحهم. ولكن أفلا يعني ذلك بأننا قد انحدرنا إلى مستواهم؟ وإذا استعملنا الحيل القذرة لمجرد أنهم يستعملونها، أفلا نكون قد مائلناهم سوءاً؟ أسئلة قد يطرحها اليوم المهتمون بالفضائل والأخلاق ولكنها افتقرت إلى من يطرحها آنذاك.

اسمحوا لي ان أطلب المَعذرة منكم، يا معشر الشباب الذين تعدون رسائل لشهادات الدكتوراه، إذا بدا ما أقوله مفاخرة. فالمواد التي باتت في متناول أيديكم بفضل قانون حرية المعلومات تتيح لكم التيقن من انني كنت أول من اقترح في رسائل رسمية انه لا يجوز لأي ذراع من أذرع الحكومة الاميركية، سواء كانت وكالة الاستخبارات المركزية أو غيرها، لا يجوز لها الخروج على العالم بالحيل القذرة لمجرد ان السوفييات يلجأون إليها. في ورقة مؤلفة من عشر صفحات حول طبيعة الصراع

الأميركي السوفيياتي - حسبما رأيته - قلت بأن علينا أولاً أن نحدّد بدقة الضرر الذي ينوي السوفييات إلحاقه بنا ولأية غاية، وإن نقوم بأي عمل يحول دون تحقيقهم مآربهم، أكان نظيفاً أو قذراً، والمضي في السعي لتحقيق غاياتنا.

وانني وإن كنت أول من وضع ذلك في رسائل وأوراق رسمية فأرائي هذه لم تكن من بنات أفكاري، بل يعود معظمها إلى هاري روزتسكي كما يعود الفضل بتوضيحها إلى ريتشرد بيسل وهو استاذ في الاقتصاد بعث به إلينا البيت الأبيض حيث كان يعمل مستشاراً في تنفيذ مشروع مارشال. بعد اسبوع من انضمامه إلى الوكالة رأى فيه كيم روزقلت حليفاً محتملاً. لم يكن ريتشرد يعرف الكثير عما اسميناه «العقلية المستهدفة» ولكنه وافق معنا على أن تفهمها ضروري قبل وضع الخطط اللازمة لعمليات مخبرانية ضد أصحابها. ضمنت ما سمعته من هاري روزتسكي إلى ما استقيته من ريتشرد بيسل أثناء تناولنا الغداء معاً بضع مرات وتوجهت نحو البنتاغون ووزارة الخارجية ومواقع صنع القرار الأخرى للتعرف إلى أفكار الاختصاصيين فيها بشأن ما سيواجهنا في تصدينا للسوفييات.

وسرعان ما تعلمت من جولاتي درساً بات مذكاً يلزمي كأحدى الحقائق البديهية: أن البيروقراطي، تعريفاً، شخص يفصل المشاكل حسب قياس الحل وليس العكس. ماذا يحاول السوفييات أن يفعلوه بنا، وكيف نستطيع إيقافهم؟ كل وحدة من وحدات الحكومة تجيب عن هذا السؤال بالطريقة التي تخدم غاياتها وهكذا تنبت «لعبة» جديدة. انني اسمي ذلك «اللعبة البيروقراطية» وأصنّفها إلى جانب «اللعبة المحلية الداخلية» المتفرعة من «اللعبة الدولية». أما مكوناتها الضرورية فهي:

■ أن غاية كل لاعب (أي كل وحدة داخل البيروقراطية) تحقيق موقع مسيطر على رقعة اللعبة، موقع يمكنه من تحديد الشكل بمجمله بطريقة تعطيه الدور الأول في العثور على حل له.

■ أن الاستراتيجية الرابحة تقوم بكليتها تقريباً على بناء امبراطورية أي جمع عدد أكبر من الموظفين برتب عالية والقاب لاثقة بها والتمركز في أبنية جديدة فخمة، والحصول على ميزانيات أكبر من ميزانيات اللاعبين الآخرين.

■ أن الحل المتفق عليه للمشاكل بمجمله بين اللاعبين المتنافسين ليس نتيجة التعاون لبلوغ غاية مشتركة بمقدار ما هو عملية توافق بين أدوار مختلف اللاعبين كل لمصلحته.

■ أن طبيعة «الحل» (إذا جاز حقاً تسميته كذلك) وما يشدد عليه تحدداهما الوحدة التي تمكنت من استخلاص أضخم ميزانية ممكنة من الكونغرس مع كل متممات تلك الميزانية.

إنني أتحدث هنا عن اللعبة كما رأيته في العام ١٩٥٣. ومذ ذاك توالى أدمغة أكثر معرفة من دماغي على وصف الصراعات والتنافسات البيروقراطية داخل الحكومة، وكلها في النهاية تتوافق مع أكثرية الآراء التي أبديتها منذ نيف وثلاثين عاماً: «إن ما يُعتبر في حكومتنا على أنه سياسة الدفاع القومية» ليست حلاً مدروساً بدقة وتجرد لمشاكل أمن بلادنا بقدر ما هي تسويات توافقية بين البنتاغون ووزارة الخارجية وغيرها من وزارات الدولة ووكالاتها فيما يتخذ الرجل المقيم في البيت الأبيض دور الحكم بين اللاعبين. في العام ١٩٥٣ كان المقيم في البيت الأبيض الجنرال دوايت أيزنهاور، العسكري الذي بلغ الشهرة كقائد للقوات التي هزمت ألمانيا النازية. فبالنسبة إليه كانت الرئاسة آخر مرحلة في مهنته العسكرية. وبالتالي كان البنتاغون دوماً الفائز باللعبة.

لاحظت ان اللعبات الشخصية تسبب أعلى درجة من الوهن والارهاق في وزارة الخارجية . فأفراد السلك الخارجي المحترفون ، وهم العمود الفقري للوزارة، يعتبرون أنفسهم دبلوماسيين مهنيين فقط . ولما كنت قد قضيت الشطر الأعظم من السنوات الست الماضية في بلدان الشرق الأوسط حيث العادات وطرق التفكير والقيم الأخلاقية تختلف عنها عندنا، دأبت على القول بأننا لن نستطيع تحقيق الحد الأدنى من أهداف سياستنا الخارجية في افريقيا وآسيا وأميركا الجنوبية إلا من خلال الدبلوماسيين وضباط المخابرات الذين، حسب قول آرثي روزفلت لاحقاً، قد درسوا لغة وحضارة ومجتمع شعوب أخرى بحيث يتعلمون التفكير مثلهم ورؤية العالم مثلما يرونه . ولكن لم يكن عليهم ان يهتموا بتلك الأمور في أيام الوزير دالس . لقد حاول اختصاصيو الأقاليم في وكالة الاستخبارات المركزية العمل مع الدبلوماسيين الأميركيين المحترفين على أساس وحدة القضية ولكن هؤلاء يعتبرون أن السلك الذي ينتمون إليه سلك متفوق عناصره مختارة من ذوي الاختصاصات الشاملة الذين يعتبرون أنفسهم في بيوتهم أكانوا في كابول أو في باريس، لكنهم في كلا المكانين أشبه بالسمة خارج الماء . من بين اللاعبين الأربعة في اللعبة البيروقراطية الذين زرتهم استعداداً لعملي كرئيس لأركان العمل السياسي وجدت السلك الدبلوماسي أقل الأربعة ادراكاً للأخطار المحيطة بسلامتنا القومية والتي علينا مواجهتها .

لم يكن ثمة حاجة لخبر في تحليل المؤسسات من شركة بوز- آلن اند هملتن للتوقع بأننا سنكون في معركة دائمة مع الدبلوماسيين المحترفين: فهم لا يحبوننا ويغتazon من تطفلنا على طبقتهم المختارة . ولما كنا نخشى وراء السفارات والمفوضيات والقنصليات في الخارج أصرّ الدبلوماسيون دائماً على الإشارة إلينا بطريقة خاصة تدل على أي شخص يعرف شيئاً عن أجهزة الموظفين إلى «أن هؤلاء ليسوا منا»، وهي عبارة درجوا على استعمالها ليفسروا للأغراب سبب وجودنا معهم . فإن كانوا يمتقوننا في الحالات العادية فقد كانوا بالتأكيد يكرهوننا عندما كان جون فوستر دالس وزيراً للخارجية وأخوه آلن رئيسنا والمدافع عنا . وفي أيام الوزير دالس، وباستثناء بعض الحالات الفردية، تخلّى موظفو الخارجية الدبلوماسيون عن أي ادعاء بالاختصاص بالشؤون الإقليمية مكتفين بوضع مسودات التحالفات والمعاهدات .

إن ما رآه هؤلاء الاختصاصيون الانعزاليون ونصف المنبوذين هو استراتيجية سوفياتية غايتها حرماننا من مقومات حياتنا . كانت تلك الاستراتيجية، من حيث مقومات الايديولوجية الماركسية، دفاعية في أسسها . ولم تكن غايتها السيطرة على العالم بل الحيلولة دون سيطرة «الامبريالية والرأسمالية» عليه إذا تعذر ذلك على الشيوعية السوفياتية . لم يكن تفكير اللينينيين الجدد في موسكو من باب حسابان التمني حقيقة، بل آمنوا حقاً بأن الاقتصاد في الغرب يقوم على «استغلال» العالم الثالث، فظنوا أنهم إذا ما استطاعوا بشكل ما حرمان حلفائنا الأوروبيين من الوصول إلى المواد الأولية ومصادر الطاقة من افريقيا والشرق الأوسط تنهار «امبريالتنا الاقتصادية» . وأطلعني رجال مخابرات سلاح الطيران على ما اعتبرته براهين قاطعة عن أن حرمان أوروبا الغربية من بعض المواد الأولية التي كانت تستوردها آنذاك من بلد واحد في جنوب افريقيا يؤدي إلى توقف صناعاتها خلال أقل من شهر . من السهل إذاً تصور ما قد يحدث لتحالفات أميركا العسكرية مع دول أوروبا الغربية لو صارت تعتمد على سخاء السوفيات . واتفق ان الاتحاد السوفياتي كان قادراً على التقدم لإمداد الأوروبيين بأي مواد أولية يحتاجونها، بما في ذلك النفط، بعد توقف ورودها من افريقيا والشرق الأوسط .

عدت من جولتي على البيروقراطيات المعنية بسياستنا الخارجية لأجد ان مهمتي قُدت لي . فقد حرك كيم روزفلت فريقي أثناء غيابي وطلب من مساعدي الأول، وهو شاب ذكي وخلق يحمل شهادة

دكتوراه اسمه بوب ماندلستام، القيام بأي عمل له صفة العمل السياسي كي لا يلاحظ فرانك وايسنر ركوداً في نشاط وحدتنا فيسرق منا غرف مكاتبنا ويجردنا من الميزانية المخصصة لنا. وسرعان ما أطلق بوب لمخيلته العنان وراح يعمل لتطبيق بعض الأفكار التي رعاها منذ أيام الجامعة.

بدأ العمل بتفعيل ما أسماه «السحر في الطبقات الراقية» وهي نظرية من النشاط السياسي تقوم على دراسة مفصلة عن أن الزعماء العالميين يتخذون قراراتهم على انها موحى بها إلهياً بطريقة أو بأخرى. فقد بعث إلينا رئيس وحدتنا العاملة في كابول بتقرير موثوق عن ان السياسيين الافغان يلجأون في حل بعض المضكلات المستعصية إلى صراع الديوك داخل مجلس النواب. بمعنى ان كلاً من فريقى النزاع يلقي بديك في قاعة المجلس فيتقاتل الديكان حتى ينفق أحدهما. عندئذ يرفع الرئيس ما تبقى من الديك الفائز ويعلن نهاية النزاع السياسي. وبالفعل استشار بوب أحد مدربي مصارعة الديوك في المكسيك، ولكن كيم أوقف المشروع قبل توسعه معتبراً، بكل أسف، انه يجب تعريف رؤسائنا تدريجياً بتلك الأساليب المستوردة وبما ستمخض عنه مخيلاتنا في المستقبل. هذا إضافة إلى ان استغلال خرافات وتطيرات الشعوب الآسيوية والافريقية من شأنه اثارة مشاعر الليبراليين بيننا فيتهموننا «بالعنصرية».

ولما طلع بوب بفكرة زرع المنجمين لدى بعض الزعماء في بلدان أخرى لم تلق فكرته معارضة تذكر. بل حصل فوراً على تأييد من كيم وعمل الاثنان على تذليل مقاومة فرانك وايسنر مذكرين إياه بما لبعض منجمي جورجيتاون من نفوذ في الحياة الاجتماعية في واشنطن. فقد كان بعض سيدات المجتمع الراقي في العاصمة يستشن منجميهن بأسماء المدعويين إلى حفلاتهن، كما انه من المعلوم ان بعض رجال الكونغرس - لن أذكر أسماءهم - اعتمدوا على نصائح شخص ظريف في جورجيتاون مُلقَّب بـ «الجد موسى» الذي يعتمد بدوره على تعاويذ السحر والشعوذة التي لَقَّته اياها وكالة الاستخبارات المركزية.

ثم كان شيء اسمه حركة التسليح الاخلاقي وهي حركة سياسية دينية تضم أشخاصاً من مختلف الأديان أسسها أحمق أبله اسمه فرانك بُوخمان، وتزعم بأن غايتها تعميق روحانية حياة أعضائها وتحملهم بالتالي على التصرف بمسؤولية وإيثار وتسامح في المجتمع. استرعى المستوى الاجتماعي الذي انتشرت فيه تلك الحركة انتباه واهتمام بوب، ذلك انها استهدفت بشكل يكاد يكون حصرياً القادة والزعماء كما ان مطبوعاتها موجهة إلى هؤلاء. باختصار، انها لأمر رهيب.

تحرك برنامج التدريب على التنجيم ببطء في بادىء الأمر ولم تظهر منه أي نتائج تذكر إلى ان زرعتا قارئاً للغيب إلى جانب نكروما رئيس جمهورية غانا فأقنعه بضرورة القيام بزيارة رسمية إلى الصين الشيوعية وهكذا كان نكروما خارج البلاد عندما قام صديقنا الجنرال آرثر انكراه بحركته الانقلابية وأظهر البرنامج فائدته أيضاً بعد بضعة أشهر على ذلك عندما برَّجنا جهاز كمبيوتر أقنعت استقراءاته لمستقبل الرئيس الاندونيزي أحمد سوركانو باتخاذ اجراءات مختلفة تلاءمت مع أغراضنا. وأمنت لنا ترتيباتنا مع حركة التسليح الاخلاقي قنوات سرية مفيدة تنفذ عبرها ليس فقط إلى أفكار زعماء في افريقيا وآسيا بل وإلى افكار زعماء في أوروبا أيضاً. وفيما كان بوب يجري ترتيبات مماثلة مع حركة «الوجوديين الكونيين» التي أسسها الأهل الآخررون هوبارد، كاتب قصص الخرافات العلمية، كنا في طريقنا نحو بلوغ قدرة في العمل السياسي يستحيل معها إلى مهزلة «العمل السري» المفضوح والبالغ النفقات والقليل المردود الذي أخذت تقوم به وكالة الاستخبارات المركزية بعد أن استلمها وليم كايسي.

أما أنتم أيها المشككون من القراء، ويا مَنْ تظنون أن كلامي هذا مزاح، فانبذوا تلك الأفكار من

عقولكم . في سنوات الخمسينات أدرك بعض منا على الأقل ان معظم التحركات الجارية على رقعة اللعبة الدولية، وان معظم التحركات في الألعاب الداخلية الدافعة إليها تأثرت بالخرافات التقليدية أكثر منها بالمنطق المكيافيللي . وهل يستطيع أحد المناقشة اليوم في أن تأثير رئيس أركان البيت الأبيض الأفطس دونالد ريغن في أفكار الرئيس رونالد ريغن يتساوى مع تأثير العرافة المكتومة الاسم التي تستشيرها زوجة الرئيس ريغن؟ وكي أتقي الكلام المبطن بشأن هذه المهزلة الأخيرة، أشعر بوجوب القول هنا بأن القدماء منا الذين لا يزالون يتذكرون الأيام الطيبة، أيام فرانك وايسزوكيم روزفلت ودس فيتزجيرالد وفرانك لندساي وآرتشي روزفلت وإيامي أنا، يعتقدون بأن تقهقر فعالية وكالة الاستخبارات المركزية بدأ يوم أخذ مدراؤها يفكرون تفكيراً «عملياً» أي العمل انطلاقاً من الفرضية بأن شعوب العالم الأخرى تفكر على طريقة رجال الأعمال الأميركيين القائمة على الوقائع والأرقام فقط . تنفسنا الصعداء عندما شاع الخبر بأن رئيسنا يستشير منجماً عوضاً عن استشارة وزير الخارجية أو مستشار الأمن القومي .

قمنا أنا وبوب وبعض الباحثين بجولة فيما بعد على أقسام الأقاليم ورؤساء مكاتبها وطرحنا عليهم الاسئلة التالية : «ماذا يمكن أن يلحق الضرر بالمصالح الأميركية مما يجري في منطقتكم؟ لماذا؟ وكيف يمكننا تعديل الوضع؟ غطينا الأرض كلها من افغانستان إلى البانيا والجزائر واليمن ويوغسلافيا وزامبيا . ولم نكن في الواقع نبحث عن كل ما نستطيع العثور عليه من المشاكل، بل من أخطار واضحة المعالم يمكن استعمالها مشاريع استرشادية نختبر بها أصول العمل السياسي المتواضعة التي تصورناها آنذاك» .

سُئِلنا مثلاً : «لماذا لا تجربون الاتحاد السوفياتي؟»

أجبنا : «علينا أن نتعلم السير قبل الركض» .

أما الجواب الأكثر تردداً على أسئلتنا فكان البلد الفلاني لا يقدر الاسلوب الغربي للديمقراطية حق قدره، فهو لا يجري «انتخابات حرة» في مواعيد منتظمة، أو ان الأفكار الغربية المتصلة «بحقوق الانسان» لم تصبح بعد جزءاً من الحضارة المحلية . أما ردة فعلنا على تلك الأجوبة فكانت، «حسناً»، ولكن كيف يلحق ذلك الأمر الضرر بمصالحنا؟ بالفعل وجدنا حالتين أو ثلاثاً حيث الانتخابات الحرة إلى درجة معقولة تشكل مبدءاً مقبولاً في المجتمع من جهة وخطراً حقيقياً على مصالحنا، ذلك لأن الشعوب لمقتها أميركا، تقترح باستمرار إلى جانب المرشحين الذين يتعهدون بالحق الضرر بمصالحنا أينما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . ففي بلدان كهذه من الصعب أن يكون من مصلحتنا الحماس لتشجيع «حرية التعبير» كما نفهمها ونتقبلها في بلادنا .

وورد علينا أيضاً طراز آخر من الأجوبة ان دلّ على شيء فعلى داء «الزبائية» الذي يصيب الكثيرين من خبرائنا الاقليميين . فمثلاً يعود إلى واشنطن في اجازة سنوية مسؤول عن مكتب اقليمي أو رئيس فرع في بلد ما ويخبرنا بأن «الفلانيين يقاتلون العلانيين وان شرارة الحرب العالمية الثالثة ستطلق من ذلك البلد بالذات!» . وأمام مثل تلك الأقوال لم يكن بوسعنا سوى التثاؤب ثم القول، بأن علينا وضع تلك الشرارات جانباً نظراً لكثرة ما بين ايدينا من قضايا، إلى ان تكون قد أصبحت تشكل خطر حريق داهم . وكان الواقع البسيط، ولا يزال، أن من جميع الحروب المحلية التي اندلعت بعد نهاية الحرب العالمية الثانية لم يكن منها واحدة حسبنا انها قد تسبب حرباً عالمية ثالثة استناداً إلى طبيعة خلافاتنا مع السوفيات . وعندما رفعنا تقاريرنا - حسبما رأينا - إلى وزارة الخارجية ووزارة الدفاع والبيت الأبيض، توجهت إلينا الاتهامات بأننا معتدون بأنفسنا، وتقصنا سعة المخيلة، وقصيرو النظر أو مجرد

رسالة ركي بطرس

جَهْلَة. (أثارت الأوضاع على رقعة الألعاب الدولية، وما تزال، آراء متصلة مبنية على معلومات ضئيلة، أكثر تصلباً مما يُسمح به في أي مجال آخر من مجالات النشاط البشري).

غير أننا نتمتع بتفوق على متهمينا: فنحن نعلم ما نتحدث عنه فيما هم لا يعلمون. استخباراتنا الممتازة تنبئنا بأن الاستراتيجية السوفياتية موجهة إلى نقاط الضعف في الغرب ولا تقوم على نقاط القوة السوفياتية معتبرة أن أكثر نقاط الضعف قابلية للاستغلال هي الدول التي يحكمها قوم فاسدون مستبدون يستمدون قوتهم من معرفتهم من أين تؤكل الكتف. إن الدول التي حددتها مجموعتي الصغيرة على أنها خليقة بأولوية الاستهداف هي بلدان في إفريقيا وآسيا وأميركا الجنوبية يحكمها زعماء موالون لأميركا تجعلهم تصرفاتهم فريسة سهلة لعمليات الاستخبارات السوفياتية. عجزنا عن اقناع أي إدارة جمهورية بأن هؤلاء الزعماء يشكلون لنا أرباكاً باهظاً - فضلاً عن كونهم أهدافاً سهلة المئال للعمل السياسي السوفياتي بحيث يصعب إعطاؤهم أي مناعة ضد الانقلابات - علماً بأن البعض منهم يصلحون أهدافاً لتدريبنا باعتبار أن بعض أعضاء الكونغرس لم يسبق لهم أن سمعوا بهم قط.

منذ ذلك الوقت (١٩٥٥) وحتى اليوم صدر عشرات من الكتب عن «أخطاء» خفية ارتكبتها وكالة الاستخبارات المركزية. كل تلك العمليات كانت شبه عسكرية ومن النوع الذي كرهناه نحن قدماء الخبراء في العمل السياسي، الخفي منه والعلني. تعطي تلك الكتب انطباعاً بأنها تشمل مجمل مجهودات الوكالة خلال السنوات الأربعين الماضية. أما الواقع فهو أنها لا تشكل كلها سوى جزء يسير مما فعلته الوكالة لبقاء العالم مكاناً آمناً للمصالح الأميركية وللحيلولة دون اشتعال حرب عالمية ثالثة. لم تلق أي عملية أرشدها فريقي الصغير أو العمليات الأخرى التي أجريت على غرارها أي تغطية اعلامية. وعلى الرغم من أنها لم تكلف مبالغ كبيرة كغيرها (لسنا بحاجة إلى جنود وأسلحة ودعم لوجستي) فقد جاءت نتائجها الصافية أعمق بكثير واستمرت مدة أطول فضلاً عن أنها لم تحدث أي أرباك بسبب تسرب أخبارها في الصحف.

في هذه الأيام، عندما أظهر في مقابلات تلفزيونية أو اشترك في ندوات يناقش فيها موضوع الوكالة أراي الوحيد الذي يصر على التأكيد بأن التركيز هو على ما نقرأه في الصحف عن عمليات الوكالة يتطرق بالتحديد إلى عمليات مكشوفة وليس إلى عمليات خفية وأضيف بأن للوكالة من النجاح أضعاف ما عليها من تقصيرات ولكن أخبار النجاح لا ترد مطلقاً في الصحف. بالطبع قوبلت، وتُقابل، أقوالي هذه دائماً بالقهقهة الصاخبة وبالتحدي التالي: «حسناً، هل تفضل وتخبّرنا عن نجاح واحد لا غير؟ فأجيب: «هنا يكمن السر. نجاحاتي الخفية ليست مُعدة للإعلان كتلك التي يكتب عنها المحررون. إنها خفية، خفية، وهذا ما يحول دون وقوفكم عليها وانني لست على وشك اطلاعكم عليها». لا داعي للقول بأن هذا الجواب قلماً يقنع أحداً. إلا أن الادلاء به يبعث في نفسي الكثير من الرضا والارتياح.

قفز كتابي حول أصول الجاسوسية الحديثة (نشر في بريطانيا تحت عنوان: «عالم الجاسوسية الحقيقي» وفي الولايات المتحدة تحت عنوان: «من دون عباءة أو خنجر» إلى لائحة الكتب الأكثر مبيعاً بسبب ما نشر عنه من مراجعات وصفته على أنه «خليط بارع من الخداع والتحريف» و«نتاج من التلفيق الهزلي الصاخب». فصرت ادعى للاشتراك في مختلف أنواع الندوات اليسارية المعقودة بالوكالة وفي كل منها ترد أسماء ثلاث عشرة دولة اتهمت الوكالة بإجراء عمليات فيها تتصف بالأخلاقية وبالأخطاء الفادحة وبإلحاق الأذى بالمصالح «الحقيقية» للولايات المتحدة. أما البلدان الثلاثة عشر

الدائمة الذكر فهي : «بورما والصين والفيليبين وكوبا واندونيسيا والتبت وسنغفورة والبرازيل وتشيلي والكونغو واليونان وايران وغواتيمالا . لقد ارتكبت الوكالة بعض الهفوات في تلك البلدان وغيرها ولكنها حازت في الوقت نفسه على تنويهات بأعمالها فيها جميعاً باستثناء الصين وكوبا . ولما كانت التنويهات التي تشير إلى النجاحات لم تصل أخبارها إلى الصحف مطلقاً ولا هي بلغت مسامع لجان المراقبة في الكونغرس .

غير أن ما لفت انتباهي هو ان السرية التي درجنا عليها كانت بعيدة عن الكمال . ومع الوقت وتخفيض القيود على موظفي الوكالة الذين صاروا أدباء ومؤلفين حصل تسرب لا بأس به من المعلومات . بعد أن ألهمت مجموعة أركان العمل السياسي جذوة النشاط فيها من جديد نجحت الوكالة في أكثر من مئة عملية سياسية خفية داخل أكثر من ثلاثين دولة . وعلى الرغم من ذلك ثابر اعداء الوكالة على تجاهل كل النجاحات تجاهلاً تاماً رغم علمهم بها .

وكي لا أكون مجحفاً بحق أولئك أبناء (كذا وكذا) اعترف بأن القضية قد تكون قضية تعريف . فبالنسبة اليهم تنطبق عبارة «العمل السياسي الخفي» فقط على تلك العمليات التي أربكت الوكالة خارج الولايات المتحدة وداخلها وتلك العمليات هي : (١) إما شبه عسكرية أو متصلة بالأعمال العسكرية كتلك التي في فيتنام وافغانستان واميركا الوسطى ، الخ . (٢) أو ممولة من قبل الوكالة او عبر قنواتها وان تكن في معظم الحالات ليست بادارتها . (٣) نفذت في معظمها على أيدي متعاقدين (أي غير محترفين) أو عسكريين بدعم من الجيش أو سلاح البحرية أو سلاح الطيران . (٤) انها ليست «خفية» مطلقاً أي انها نالت تغطية صحفية واسعة .

أما نحن في دائرة أركاننا الصغيرة فنعرّف «العمل السياسي» على انه واحد أو أكثر من أنواع العمليات التالية :

«اللوبي» :

رتبنا في البلدان المستهدفة مصالح صناعية وتجارية اقنعناها بتنظيم وسائل غير علنية للضغط على حكوماتها ووفرنا التدريب اللازم لموظفي فروع العلاقات العامة فيها على غرار ما تفعله عندنا لجان العمل السياسية التابعة لحكومات بلدان أجنبية (مثل اسرائيل واليونان وبريطانيا وغيرها) مع بعد التعديلات لتتلاءم مع الأوضاع المحلية في تلك البلدان . كان بعض ما دعونا إليه وعلمناه قانونياً كلياً وفوق الطاولة ، وبعضه مختلفاً عن ذلك . أما نسبة ما هو قانوني منها إلى ما هو غير قانوني فتقارب مع النسبة المقابلة عند اللجان الأجنبية العاملة عندنا .

المستشارون الأميركيون :

لم أدرك قبل انتهاء دورة الستين التي قضيتها في مصر بين عامي ١٩٥٣ و ١٩٥٥ وانخراطي في أصول العمل السياسي خلالها ، مدى ما بلغته عملياتنا تلك من الصيرورة نموذجاً يحتذى في أصول ذلك العمل . فقد تيسر لي الوصول الفوري إلى أهم أعضاء مجلس قيادة الثورة . وعندما غادرت مصر كان لنا فيها خبراء اميركيون دائمون يعملون في دوائر الشرطة والأمن العام والمخابرات . وكان لنا أيضاً على أساس تعاقد مؤقت خبراء مثل پول لاينبارغر يعاونون وزير الاعلام والرئيس عبدالناصر نفسه في أصول اصدار الصحافة والاذاعة اخبار وتعليقات تبدو في ظاهرها مؤيدة للسوفييات ولكنها تلحق بالحقيقة بالسوفييات وبالشيوعية من الضرر أكثر مما تسديه إليهم من خدمات ، إضافة إلى اخبار

وتعليقات تبدو في ظاهرها مناهضة للولايات المتحدة وتسدي لنا في الواقع من المنافع أكثر مما تلحقه بنا من أذى. أما الخبير شيرمن كنت، وكان آنذاك رئيس مكتب الوكالة المختص بشؤون التقديرات القومية، فقد أعطى المخابرات والبحاثين في مصر دروساً قيمة في أصول تحرير خلاصات يومية بسيطة وملينة بالوقائع التي يحتاجها الرئيس عبدالناصر فعلاً، عوضاً عن تلك الترهات التي كانت تملأ بريدته اليومي. وعبر وسائل الاتصال هذه وغيرها أقمنا علاقة وثيقة مع نظام عبدالناصر الثوري مكنتنا من تفهم دوافعه العامة ونواياها المحددة بحيث نستطيع التنبؤ بتحركاته والتكلم معه مباشرة في أي وقت تدعو الحاجة إلى اقناعه بالعدول عن اجراءات اعتبرناها مضرّة بمصالحنا المشتركة. على كل حال لم يكن لنا ان نقنع عبدالناصر بعدم القيام بأعمال تعود بوضوح بالنفع على بلاده وحدها دون العودة بالنفع علينا.

مستشارون آخرون غير مصريين:

بدأنا نشكك في المراحل الأولى من علاقاتنا معه بأن عبدالناصر يستعين بخبراء غير الذين نوفرهم له، أي ان ثقته بنا هي دون المئة بالمئة. (لماذا شرع حسن التهامي إذا يأخذ دروساً لتحسين لغته الألمانية؟) تأكدت شكوكنا عندما أخبر العقيد السابق في فرقة أس. اس الألمانية أوتو شكورزني مسؤول الوكالة في مدريد بأن الملحق العسكري في السفارة المصرية هناك اتصل به طالباً منه المساعدة في تجنيد ضباط المان قد يرون في مصر نجباً مناسباً لهم يقيهم مطاردي النازيين السابقين. فهل باستطاعة الوكالة تقديم العون؟ اننا بالطبع قادرين. وبمساعدة أوتو المذكور اختار ضابط الوكالة الذي يتعاون مع الجنرال راينهارد غيلن في بولاخ [مركز المخابرات الألمانية الغربية بالقرب من ميونيخ] بعض الجنرالات والعقلاء وغيرهم من الضباط الالمان البلهاء بحيث يمكن الاعتماد عليهم لتخريب الجيش المصري إلى درجة لا يعود يعرف معها طريقه من القاهرة إلى الاسماعيلية ناهيك عن قتال البريطانيين هناك.

لفكرة زرع المان متهمين بجرائم الحرب لدى حكومات شرق أوسطية حسنة عديدة. ذلك انهم ضد الاميركيين كما هم ضد السوفييات فضلاً عن كونهم غالباً معادين للسامية أي ضد اسرائيل. والواقع ان أكثرهم كانوا ضد العرب أيضاً ولكنهم يتمتعون بمقدار من الذكاء لاخفاء ذلك. المهم انهم كلهم انتهازيون نفيعون على استعداد لخدمة من يدفع لهم لذلك كانوا على استعداد كامل لتقديم أي معلومات أردنا وصولها إلى أربابهم الشرق أوسطيين. كان من الطبيعي ان نواجه بعض الصعوبة في الحصول على موافقة لمشاريع تتضمن استعمال النازيين أو النازيين السابقين ولكن الصعوبات اضمحلت عندما اعترف اصدقاؤنا في الموساد في اسرائيل بأنهم يستخدمون النازيين السابقين في بعض اغراضهم المشينة وللغايات عينها التي استسغنا نحن استعمالهم لأجلها.

مستشارون محليون:

لعل أفضل طريقة للتأثير في موقف رئيس الدولة في أي بلد، ومنها بلدنا، هي عبر أشخاص من مجتمعه ومن جنسيته ودينه وأصوله الاثنية له ثقة شخصية بهم. ركّز «بوب» في عملياته تلك على اشخاص من ضمن هذه التصنيفات في استعانتهم بالمنجمين وقارئ الكفّ ومستقرئي الأرقام والسحرة ومستحضري الأرواح والمؤولين وغيرهم من المشعوذين. وجدنا اننا لم نحتاج، إلا في حالة واحدة أو اثنتين، إلى «زرع» مشعوذين أتينا بهم من خارج بطانة الأشخاص المستهدفين ودربناهم على طريقتنا. لقد دلّنا استعراض سريع للحكومات التي اخترناها اهداءاً لنا أن الزعماء المحليين الذين يعتمدون إلى حدّ ما على المشعوذين هم أكثر عدداً من الذين لا يعتمدون عليهم. ولما كان المشعوذون في خوف دائم

من التودية بزبائنهم في الاتجاه المغلوط (انهم مشعوذون لكنهم ليسوا بلهاء) فقد أسعدهم الحصول على مساعدتنا. فيها يستطيعون استبدال ابهامهم بمادة صلبة، وبهم نستطيع تلقيم اهدافنا معلومات تبدو وكأنها نزلت عليهم من مصادر فوقية.

لعل الرئيس عبدالناصر هو وحده بين رؤساء الدول في افريقيا وآسيا الذي لم يعر المشعوذين اهتماماً كبيراً. ولكنه كان يستمع باهتمام إلى مساعديه وأصدقائه المقربين الذين يرتاح إلى مجالستهم بعد يوم طويل من العمل المضني. وكان من بين هؤلاء مثلاً صديقه الأقرب محمد حسنين هيكل الذي باستطاعته ايصال «الكلمة» الاميركية له بوضوح واقناع أقوى بكثير مما استطاعه أي من النكرات الذين شغلوا منصب سفير الولايات المتحدة إبان السنوات الأخيرة من حياته. وكثيراً ما قلنا مازحين بأن الولايات المتحدة ليست بحاجة إلى سفير لها في واشنطن طالما بقي محمد حسنين هيكل إلى جانب عبدالناصر يجتمع به ساعة أو اثنتين في الاسبوع يتلو على مسامعه ما أرسلته واشنطن إلى رئيس مجموعة وكالة الاستخبارات المركزية في القاهرة. من الصعب تسمية محمد حسنين هيكل «عميل لوكالة الاستخبارات». ولكن المعلومات التي كان يقدمها لعبدالناصر لخدمة أغراضه خدمت في الوقت نفسه أغراضنا.

عملاء ذوو نفوذ:

تشمل هذه العبارة في أي بلد مختلف أصناف ذوي الأهداف والرغبات الشخصية التي تتلاءم تلاؤماً مناسباً مع ما نبتغيه والذين يمكنهم، بقليل من التشجيع والتأييد، التحول إلى أشخاص أكثر تأثيراً وفعالية مما كانوا عليه أثناء وقبل المساعدة والتشجيع. كما يوجد في أي بلد مستهدف أشخاص مستقلون بعملهم قادرون على نفعنا إذا ما تركوا يتصرفون حسب معرفتهم، ويشعرون بالاهانة إذا ما عرضنا عليهم بدلاً عن خدماتهم أو إذا ما لمحننا لهم بأن ما قالوه لنا أو فعلوه أفادنا بمقدار ما أفاد القضية المحلية التي يعتنقون. هؤلاء يجب أن ندعهم وشأنهم. ولكن يوجد في أي بلد أذهان متوقدة بحاجة إلى توجيه وتأييد ولا يهمها من أين يأتيانها. في أيامي كان على رئيس الفريق في البلد المعني اكتشاف الأفضل من بين هؤلاء الناس أكانوا في الحكومة أو خارجها (في وسائل الاعلام أو الجامعات أو المؤسسات الدينية أو في أي مكان قد يكون منبراً لهم) ووضع ترتيبات رسمية معهم لتبادل الأفكار وتقديم المساعدات المالية وغيرها، وفي حالات قليلة جداً تقديم مكافأة مقابل الخدمة المسداة.

المساعدات المالية للصحف واتحادات العمال والحركات السياسية والمرشحين:

فخلاقاً للاتهامات التي تساق ضدنا منذ بضع سنوات، اننا لا نثلي على الصحف ما نريدها ان تنشر ولا نوجه اتصالات العمال في كيفية استعمال قوتها ونفوذها ولا تصدر تعليمات صريحة للحركات السياسية وقادتها بما عليها قوله أو فعله. عوضاً عن ذلك اخترنا من بين هؤلاء مَنْ تصرفوا ويتصرفون بطرق تتلاءم مع غاياتنا وقدمنا لهم الدعم اللازم كي يستمروا في سلوك نهجهم. وفي سنوات لاحقة صارت عمليات وكالة الاستخبارات المركزية ضد حكومة الهندي في تشيلي مثلاً ممتازاً يُدرس في الصفوف. فقد اتهمنا «بشراء» الصحف واتحادات العمال. ولكننا لم نفعل. جلّ ما فعلناه اننا قدمنا للصحف الورق الذي حرمتهم الحكومة منه، وأمنا لاتحادات العمال طعاماً مجانياً بعد ان أقفلت الحكومة مخازن تموينهم. يخطئ خطأ فادحاً كل من يظن بأننا قدّمنا لهم ما حسن قدرتهم في ما كانوا يفعلون للاطاحة بحكومة سلفاتور الهندي.

الاقناع :

في بداية عهد الوكالة استعملنا كلمة ارهاب دون ارباك . فالارهاب عوضاً عن الاغتيال هو ما لجأنا إليه عندما رغبتنا في ثني أي مجموعة أو دولة عن الاتيان بأي عمل من شأنه تعريض مصالحنا المشروعة للخطر . وجاء حصول أي قتل أو تشويه صدفة غير مقصودة . ثم أخذنا نستبدل كلمة الارهاب بكلمة «الاقناع» الأكثر لطفاً خصوصاً بعد أن تفوق خصومنا علينا في استعمال الارهاب وسيلة للعمل السياسي ، واكتشف اختصاصيوننا في شؤون الدعاية ان ما تحمله كلمة «ارهاب» من معان اضافية تصلح في حربنا ضد الجاسوسية . ومنذ ذلك الاكتشاف صار فريقنا يقنع والفريق الآخر يرهب . أما التعبير اللطيف والراقي «مقاتلو الحرية» (المقاتلون في سبيل الحرية) فلم يظهر إلى الوجود إلا بعد مرور بضع سنوات على ذلك .

تعني كلمة «الارهاب» لأي اختصاصي بالدعاية أي عمل ينطوي على العنف وتنطبق عليه التحديدين التاليين : (١) انحراف عن الاعراف المقبولة عموماً في الأعمال الحربية و (٢) شرط أن يكون الفريق الآخر هو الذي انحرف عن تلك الاعراف . أما بالنسبة لمخططي العمل السياسي أو لمحلي المخابرات فالارهاب عمل يُقصد منه تخويف العدو وردعه عن القيام بنشاط معين أو استفزازه للقيام بعمل لا عقلائي يخدم اغراضنا الاستراتيجية . مثلاً على ذلك ما اتخذناه من اجراءات في أوروبا المحتلة ابان الحرب العالمية الثانية حيال المتعاونين مع الالمان من فرنسيين وهولنديين وبلجيكيين . فقد أثنت الناس عن مجرد التفكير بالتعاون معهم . وإبان الانتداب البريطاني لفلسطين استعمل الصهاينة ، أي عصابات شتيرن والإرغون الارهاب لتدمير معنويات البريطانيين ولإثارة المعارضة في بريطانيا مما أدى في النهاية إلى خروجهم من فلسطين . لم تلجأ وكالة الاستخبارات إلى هذا الاسلوب إلا نادراً منذ العام ١٩٥٥ وحتى مغادرتي الوكالة وشروعي بالعمل الفردي المستقل . وقد استعملته بفعالية كلما أرادت إثارة دولة بوليسية ما لضرب شعبها بطريقة تبرز طبيعتها المتعسفة فتسهل لنا عملنا في انشاء حركات مقاومة .

قدرات الملاذ الأخير :

استعيد من وقت إلى آخر ذكريات أعمالي الماضية عليّ أجمع مواداً أولف منها حكايات أوروبا لأحفادي قبل الرقاد فأجد نفسي بين انقلابات وتزوير انتخابات وأشكال أكثر عنفاً من تبديل أنظمة الحكم وغير ذلك من نشاطات لجأنا إليها من وقت إلى آخر . إنها في الواقع مواد القصص البوليسية وحكايات الجاسوسية وروايات شد الأعصاب التي نشاهدها على شاشة التلفزيون - ناهيك عما يرويه كتاب يساريون من دعاية مناهضة للوكالة وجدت طريقها إلى الصحفيين الفضوليين ، هذا فضلاً عن نتائج تحقيقات لجان الكونغرس . أما المواد المسلية والمثيرة مثل خبر بعنوان : «رجل عض كلباً» تقرأه في الجريدة فتحظى باهتمام أكبر بكثير من الاخبار العادية التي نطالعها كل يوم . وعلى الرغم مما عندي من ذكريات محبة عن الانقلابات والأعمال الجريئة التي كان لي ضلع فيها فلنأني استعيدها في تخيلتي وكأنها حكايات من الطفولة . على كل حال احتفظنا حتى آخر يوم لي في الوكالة بقدرات على تنفيذ عمليات الملاذ الأخير فكنت ألقى بانتظام دروساً في قسم التدريب على كيفية تخطيط وتنفيذ تلك العمليات .

ماذا فعلنا إذا بكل ذلك التطوير للوسائل والأساليب ؟ أما الجواب فهو اننا سجّلنا خلال السنوات العشر أو الخمس عشرة الأخيرة النجاح تلو النجاح . وأعتقد بأنه من الانصاف القول ان جميع

العمليات التي نفذتها الوكالة بالأساليب والوسائل الواردة جاءت ناجحة برمتها. ولهذا السبب عينه لم تحصل على اعتراف بها داخل الوكالة وخارجها، في حين ان كوارثنا العديدة حصلت على الشهرة والتمجيد في الداخل وعلى الانتشار الاعلامي الواسع في الخارج. وباعتبارنا نعمل في الخفاء كنا نتمنى عدم الحصول على الشهرة والتمجيد، ونسعد بالحصول على الميزانية اللازمة وعلى الترقيات المستحقة.

إن العمليات التي شرعنا بها بين عامي ١٩٥٥ و ١٩٥٧ تُعامل حتى اليوم على انها سرية ولكنني استطيع أن أبوح بكل ما يستأهل البوح به في بضع جمل قصيرة انما لن أفعل ذلك قبل نثر بعض الحكم. إن العمل السياسي الذي يتميز بالكمال هو تعريفاً عمل لا يتخلله الحُدث. ذلك لأن لا شيء يحدث خلاله. إنه ترتيب مستمر وليس عملية متسلسلة كما انه ليس سلسلة من الأعمال تبدأ من نقطة انطلاق وتصل إلى نهاية. إن العمليات التي وصفتها أعلاه تحت عنوان: «قدرات الملاذ الأخير» قد تكون شواذاً عن القاعدة ولكنها (تعريفاً أيضاً) لن تكون مطلقاً كاملة الصفات.

قلت سابقاً ان العمل الأول الذي قام به أركان العمل السياسي كان وضع قائمة بأسماء الدول حيث توجد مواد أو مواقع ضرورية كلياً لبقائنا ورفاهيتنا كالمواد الأولية وأماكن تصلح لإقامة مواقع عسكرية أو بحرية ملائمة في حال قيام حرب أو مناطق يسهل اجتيازها لتقصير طرق تنقل الجيوش والامدادات. أذكر ان القائمة شملت بعضاً وثلاثين دولة ومنطقة (حسبنا ما يسمى العالم العربي منطقة جغرافية واحدة) تتناسب مع حاجتنا.

خلال السنتين اللتين قضيتهما بالعمل الجدي كاختصاصي بالعمل السياسي أرسلت الوكالة إلى الخارج أكثر من فئة من مختلف الاختصاصات ودربت عدداً مائتاً، أو أكثر، من المحليين الكفوئين في البلدان المستهدفة. وقع الاختيار عليهم أولاً لأنهم أظهروا مواهب واضحة في مجالات عملهم وثانياً، ثانياً فقط، باعتبار انهم قد يكونوا في المستقبل عملاء يمكن الاتكال عليهم. وفي الوقت نفسه اتخذ رؤساء مراكزنا في تلك البلدان اجراءات مفيدة للفريقين مع الشرطة المحلية ودوائر الأمن وبعض الصحف والمجلات المختارة والاتحادات العمالية والمنظمات الدينية وغيرها من المنظمات وأبقوا تلك الاجراءات سرية ليس لوجود أي عنصر غير قانوني أو لا أخلاقي في النشاطات التي نؤيدها بل لالتصاق وصمة بقبول المساعدات المالية من مصادر أجنبية.

كم أتمنى لو استطعت القول بأن الأوضاع لم تفلت من ايدينا قبل مغادرتي الوكالة. فالواقع المؤسف هو أن زمام الأمور أفلت في العالم كله وبات على الوكالة القيام بأعمال تفوق مجرد ضبط الأوضاع في البلدان التي توجد فيها مواد حيوية من أجل سلامتنا ورفاهيتنا. في الوكالة نفسها ظهر الميل البيروقراطي الطبيعي باتجاه التوسع. فراح رؤساء الأقسام يقيمون لها فروعاً في بلدان لم تكن بحاجة إلى تغطيتها. ولدى وصول رؤساء الفروع إلى مراكز عملهم الجديدة لم يكتفوا بفرك الأكف والانتظار بل راحوا يعملون بجهد واجتهاد لإقناع أنفسهم ولاقناعنا في واشنطن بأن المناطق التي عينوا فيها بؤرة للعمل السياسي الذي إذا لم يوضع له حد سيتفشى إلى البلدان المجاورة الواردة على قائمتنا.

ليس هذا جزءاً من تفسير أسباب نمو وكالة الاستخبارات المركزية من وحدة حكومية سهلة الادارة تقدم خدمات لا تقدر بثمن، إلى امبراطورية واسعة أصبحت بفعل ضخامتها وتعدد نشاطاتها هدفاً للاستخبارات السوفياتية أولاً ثم «لبلهائها النافعين» من الأدباء والمفكرين الأميركيين وأخيراً لأعضاء الكونغرس وغيرهم ممن لهم الحق المشروع بالاهتمام ببعض نشاطاتها. ويصرف النظر عن:

مَن هو المسؤول، الوكالة نفسها أم أعداؤها، فإنه لمن الواضح للفرد وللجميع ان الوكالة وما استحالته إليه في أواخر الثمانينات تختلف كلياً عن ذلك القسم من المؤسسة المتقنة المركبة بحكمة وذكاء الذي كان لي فيه دور في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات. لقد استمر هذا القسم بالذات يعمل بنجاح حتى انتهى أمره في الهجمة والحملة على الوكالة في السبعينات. إن جميع الذين يشاطرونني ذكرياتي عن وكالة الاستخبارات المركزية ونشاطاتها الأولى حسب ارشادات مجلس الأمن القومي المختلفة سيوافقون على أن بذور انهيارها لم يزرعها أركان العمل السياسي الاصيليون.

الفصل السابع عشر

ايران وغواتيمالا : ١٩٥٣

سيّدة القطط وشركة الفاكهة المتحدة

فيما كنت أستعد في أوائل ١٩٥٣ للشروع بعملي الجديد مستشاراً ادارياً في مصر ساد سكوت مستغرب في الأقسام التي تتعاطى مع الشؤون المصرية في وكالة الاستخبارات المركزية. وفجأة لم يعد بالامكان الاتصال بـ كيم روزفلت أو بفرانك وايسنر أو بالّن دالس للبحث بقضايا تلك المنطقة من العالم التي شغلت لعدة أشهر المرتبة الأولى من اهتمامهم. وفي صبيحة أحد الأيام دعاني كيم إلى مكتبه ليسر السبب في أذني. يبدو أنه خلال الأسابيع القليلة السابقة قام نقاش حاد على مستوى سياسي مرتفع بين الحكومتين البريطانية والأميركية حول ما يجب فعله بشأن امكانية قيام ذلك المخادع العجوز محمد مصدق، رئيس وزراء ايران، بانقلاب على الشاه ويتأميم شركة النفط البريطانية الايرانية، والتحول بالتالي إلى عقبة في وجه مخططات الوزير دالس بإقامة «الحزام الشمالي» لاحتباط مخططات السوفيات التوسعية.

بعد تبادل التحيات قال كيم: «يؤسفني ان أؤخر سفرك إلى مصر، فالحاجة تدعو لأن تقوم ببعض الاستكشافات». كان عليّ ان أذهب إلى ايران للحصول على اجوبة عن أربعة أو خمسة أسئلة يمكن اختصارها بسؤال واحد: هل نستطيع ان نلّنا القيام بعمل سياسي لدعم الشاه ولتشويه سمعة مصدق ومنع مؤيديه من القيام بما خشيت وزارتا الخارجية البريطانية والأميركية من قيامهم به؟ جاءت تحرياتي حول أسئلة كيم بأجوبة اعتبرها موثوقة. نعم، نحن بحاجة إلى عمل سياسي غير عادي في ايران لحماية المصالح الأميركية والبريطانية هناك. أما الغاية من العمل السياسي فيجب أن تكون ازاحة مصدق من الحكم وجعله أضحوكة بين الناس، وزجّ كبار مؤيديه في السجون واعطاء الشاه أي مساعدة قد يحتاج إليها للانطلاق ببرنامج علاقات عامة يظهر للشعب الايراني دقة المآزق الذي مروا به وخطورته، وكم كان حظهم كبيراً لخروجهم منه.

لا بد لي من كلمة عن المصادر التي استندت إليها لتأمين الاجوبة عن أسئلة كيم. بدأت تحرياتي في مكتب ايران في وكالة الاستخبارات وريديف في وزارة الخارجية حيث حصلت على نتائج ممتازة، ذلك ان أكثرية الموظفين في كليهما سبق لهم ان خدموا في ايران ويعرفون جيداً. وفي ايران نفسها وجدت أن كبار المسؤولين في السفارة وفي مركز الوكالة اختصاصيون ذو كفاءة بشؤون المنطقة وأوضاعها، لا مجرد دبلوماسيين محترفين يعدون الأيام التي تفصلهم عن الانتقال إلى مركز أعلى في دولة ما من دول أوروبا الغربية. فكان هناك السفير هندرسون وهو صديق شخصي لآلن دالس وكيم روزفلت والأب الروحي لجميع قدماء الموظفين الذين اشتغلوا في بلدان الشرق الأوسط. وتعرفت على أربعة من كبار موظفي السفارة النظاميين يتقنون الكلام بالفارسية، يتحلون بالشجاعة الكافية لينزلوا إلى الشوارع ويتحسسوا بمشاعر مختلف طبقات المجتمع حيال الأوضاع.

رئيس مكتب الوكالة في طهران رجل شغل جده لآبيه منصب وزير الدفاع في فرنسا مرة واحدة، وجده لأمه منصب وزير الدفاع في ايطاليا مرة واحدة أيضاً. أما هو فضايط مخبرات ممتاز يتقن اللغات الثلاث. ونائبه (أستطيع الكشف عن هويته باعتبار انه أمارط اللثام عنها منذ سنوات عديدة): جون

واللر، الذي مضى يترقى حتى بلغ منصب مفتش عام الوكالة قبيل تقاعده وفي الوقت الذي مسّت حاجة الوكالة إلى مفتش عام أي عندما كان السناتور فرانك تشيرتش وغيره في أوج حملتهم المسعورة على الوكالة - أمّن لي هؤلاء جميعاً الزاد الكافي للجاجة عن كل أسئلة كيم ومنها آخرها: إذا ما أيدنا انقلاباً شبيهاً بذاك الذي ساعدت في التحريض عليه في دمشق، فلإي أين تراه يؤدي بنا؟ بكلام آخر هل تنجح العملية وماذا سيترتب عليها؟ أجبت بنعم، انها ستنتجح وستكون نتيجتها ملائمة لنا عن الأميركيين وللبريطانيين وللإيرانيين كذلك، شرط ان يكون الشاه حكيماً وحذراً في تثبيت موقفه المستعاد والا تصعد خمرة التفاؤل إلى رأسه.

وعند عودي إلى واشنطن أراد مني كيم اسداء أي نصيحة يمكنني اسداؤها عن كيفية اجراء الانقلاب - إن كان سيحدث انقلاب حقاً للحصول على بعض المساعدة في الاجابة عن هذا السؤال اتصلت بما يسميه موظفو قسم ايران «وكالة الاستخبارات المركزية الحقيقية» أو «وكالة الاستخبارات داخل وكالة الاستخبارات» وهي وحدة صغيرة ترأسها زوجة موظف الاتصالات اللاسلكية الملقبة «سيدة القطط». أظن بأنني أول من كتب عنها وعن وحدتها ليس فقط لقلة عدد الذين يعلمون بوجودها إن داخل أو خارج الوكالة، بل ربما لأن لها وسائلها الخاصة في التعاطي مع من يختلس النظر تحت خبائها.

أطلعني كيم على وجود سيدة القطط فيما كنت على وشك السفر إلى طهران وحذرتني من الاقتراب منها. ولكنه بدل رأيه عندما تذكر بأنها هي وحدها على اتصال بمجد «بالقطط» وهم مجموعة من المرتدين الأميركيين المتحدرين من أصل إيراني (فرس، بلوخيون، أكراد، تركمان، الخ). جاءوا بحثاً عن عمل مع المقاولين الأميركيين، اضافة إلى «عمالقة الزركانة» وهم مجموعة من الرباعين الذين تدعو الحاجة إليهم في قيادة المظاهرات المأجورة والسيطرة عليها - كما حدث مرة عندما كانت الجماهير تنادي «يعيش مصدق والموت للشاه» فحولوا النداءات إلى «الموت لمصدق. يعيش الشاه». وأخبرني كيم ان من مواهبها الشخصية القدرة على التظاهر بأن السكر يتعنتها في حين تكون صاحبة وصافية الذهن، أو انها تجهل الفارسية واللهجات الايرانية الأخرى علماً بأنها نشأت وترعرعت في تبريز وتتقنها كلها مثل أهل البلاد.

لاحظت عندما رأيته للمرة الأولى ان شكلها يوحي بما ليست عليه، ذلك انها وقد تجاوزت الأربعين تبدو في العشرينات من عمرها وعلى نوع مستغرب من الجاذب. لا بد انها أدركت ان الإيرانيين يعتبرون النساء اللواتي يتمتعن بجاذب جنسي خاليات من العقل، فجعلت تسريحة شعرها الاسود الطويل كعكة تلفها في مؤخرة رأسها واختارت نظارة غليظة الاطار واعتمدت الثياب السوداء، ولم تنس مطلقاً ارتداء الشادور خارج البيت تستر به وجهها. مظهرها العام يوحي بأنها من الإيرانيات المطالبات بحقوق المرأة سبق لها أن قضت سنة في كلية الاقتصاد في لندن.

بيتها كوخ قريب من السفارة الأميركية «يشكل جزءاً من ملابسها» حسب وصف كيم وهو في الواقع كذلك. انه يعج بالقطط والأطفال الصاخبين، منه تنبعث أقرف الروائح وفيه يعلو الصراخ حتى ليكاد يستحيل تبادل الأحاديث العادية. «الملائكة الصغار»، كما تسميهم يلعبون في الغرفة المجاورة لعبة الطبيب. وفجأة انبعث زعيق جمد الدم في عروقي علقت عليه سيدة القطط قائلة: «لا بد ان ضجيج الأطفال يرتفع كثيراً في بعض الأحيان، فلا تأبه بهم». ولما هدا الصراخ والزعيق وحلّ السكوت في البيت، قالت: «من الأفضل ان أرى ما هم عليه». أما ما كانوا عليه فكان انهم قطعوا هرة

حية بالمنشار إلى قطعتين. ذلك ما شاهدته بأم العين عندما خرج كبيرهم وهو في قرابة العاشرة من العمر يحمل بكل يد نصف الهرة المنشورة. اشعلت السيدة سيجارة وقالت له بهدوء: «أرمها خارجاً، أفلست ترى أننا نحاول التحدث كأشخاص متمدينين؟»

حصل ذلك الاجتماع صبيحة اليوم الثالث لوصولي طهران، أي بعد عثورها علي ذلك انها لو لم تعثر علي لما استطعت العثور عليها لأن أحداً في السفارة لم يجرؤ على الاعتراف بأنه يعرفها ناهيك عن ارشادي إلى منزلها. عندما علمت هي بوجودي، ولعل ذلك صدفة بواسطة زوجها، أرسلت لي سيارة الأسرة، تلك الفولكسفاغن المهلهلة التي أقلتني إلى بيتها حيث تناولنا قداً من الشاي المنعنع وشاهدت ضحية لعبة «الجراح البيطري». ثم قمنا بجولة في المدينة، فإذا بها تعرف كل شارع وطريق وزاروب وزقاق وزاوية ومنعطف فيها.

قضيت صبيحة ذلك النهار أتعرف بمساعدتها طبعاً إلى الأهداف الواجب التحكم بها على كل من يقوم بانقلاب (كالإذاعة والمحطات الكهربائية الرئيسية ونقاط التحكم الأساسية في شبكة الهاتف، ومنزل رئيس الوزراء مصدق ومنازل غيره من الشخصيات الواردة أسماؤهم في قائمة المطلوبين، الخ). ثم أخذت أرسم الطرق التي ستسلكها قطعان المتظاهرين والتقاطعات حيث يحدث ازدحام السير والمخارج التي تلجأ إليها الشرطة عندما تدعو الحاجة إلى السيطرة على جمهور الرعاع المتظاهرين.

استغرقت استطلاعاتي هذه طيلة قبل الظهر وعند الساعة الواحدة قالت كاثي (كاثرين لا أعرف ماذا هو اسمها الحقيقي): «حان وقت الغداء». قادنا سائق سيارتها إلى نسخة فارسية عن المطاعم التي يرتادها سائقو الشاحنات في أميركا. كان المطعم مليئاً «بالقطط البشرية» التي أشرت إليها في فقرة أعلاه. قالت كاثي: «هؤلاء محترفون وليسوا مسيئين إطلاقاً وسيكون العم كيم بحاجة إليهم مهما كان نوع الانقلاب الذي يخامره». تبين لي من حديثي العابر مع البعض منهم أن جمع جمهور يكفي للقيام بانقلاب مؤيد للشاه ليس قضية صعبة وإن «القوى القومية» التي يكثر التخوف منها لن تشكل عائقاً في طريق الانقلاب. واستطعت كذلك تكوين صورة لا بأس بها عن «الشعب» الإيراني وعن شعوره تجاه الشاه ومصدق وشركات النفط الأجنبية. ولما عدت إلى واشنطن كان التقرير الذي رفعته إلى كيم كل ما احتاج إليه لاقتناع الأخوين دالس بوجوب الاقدام على «عملية اجاكس» اضافة إلى الارشادات الأولية لطرق تنفيذها.

لا بد لي هنا من تصحيح بعض ما ورد في الكثير من الكتب والمقالات التي اعتبرتني «العبقريّة الكامنة وراء عملية اجاكس» أو «الدماغ الذي يحرك كيرمت (كيم) روزقلت أو ما قاله البعض بطرق مختلفة من ان العملية ما كانت لتنجح «لولا التخطيط والاعداد الممتازين» اللذين قمت بهما: بعد نجاح العملية ببضعة أيام قال الشاه وهو يتبادل الأنخاب مع كيم في القصر الشاهاني: «انني مدين بعروشي إلى الله وإلى شعبي وإلى جيشي وإليك وبالطبع إلى مساعدك المستر الذي لن أذكر اسمه». وعندما علّق الرئيس ايزنهاور وسام الأمن القومي على صدر كيم، قال الأخير بتواضعه المميز: «الحق انني لا استحق ذلك. نحن مدينون إلى أحد مساعدي الذي يفضل عدم ذكر اسمه».

الواقع ان الفضل كله يعود إلى كيم في صيرورة عملية اجاكس نموذجاً حياً لعملية العمل السياسي الكاملة. فقد استعملت عناصر من داخل البلاد وفعلت مشاعر وقوى محلية لاستنهاضها. تضمنت العملية السيطرة على الجيش واعادة توجيه استهدافاته بشكل أكثر فعالية من أي عمل آخر قمت به، واقامة توازن بالغ الاتفاق بين القوة العسكرية وبين التأييد الشعبي. والواقع ان جميع الاجراءات الروتينية قد اتخذت حسب الخطط المرسومة (الاستيلاء على الاذاعة وقطع الاتصالات

الهاتفية، الخ.) ولكن العملية سارت بسلاسة لم تكن لتستدعي تلك الاجراءات ومع ذلك كله كلفت الشعب الأميركي أقل من مليون دولار علماً بأنه رُصد لها ثلاثة ملايين. يبقى الأهم من ذلك كله انها نجحت على المدى البعيد مثلما نجحت على المدى القريب. فقد بقي الشاه على عرشه عشرين سنة أخرى استمتع خلالها شعبه ببجوبة لم يشهدها من قبل - مع الاعتراف بالطبع بأن الشعب تحمل الاحباطات والتوترات مثله مثل أي شعب آخر يسير نحو التعصرون بسرعة تفوق ما تقوى التقاليد استيعابه. انتهى كل ذلك بعدما تحولت الحكومة الأميركية إلى سياسات تشبه جداً ما دعا إليه المفكرون اليساريون وما قاومناه في العام ١٩٥٣.

لماذا إذاً استيائي واستياء المهنيين الآخرين من وكالة الاستخبارات المركزية رغم كل ما حققته من نجاح؟ المؤسف ان الموظفين الجدد، والموظفين القدامى الذين أعيد تدريبهم لا بد تعلموا شيئاً أو اثنين مما تعلموه في غرف الدراسة عن وكالة الاستخبارات. ولكن السادة رؤساءنا لم يتعلموا شيئاً بل فاتتهم كل مفاصلها. لقد كانت في الواقع الفصل الأخير في حكاية المدنية كما عرفناها، وفي الوقت نفسه الفصل الأول في حكاية وكالة استخبارات مركزية مُعسكرة التنظيم وبيروقراطية الغايات لا أشعر بأن لي فيها مكاناً فقد راحت تنافس البنتاغون من حيث ضخامة الحجم وعدد الموظفين وضخالة كفاءتهم المهنية أدى ذلك إلى استقالة كيم روزفلت واستقالتي أنا وإلى اتكال الحكومة الأميركية على قوى خارج الوكالة لتحقيق ما ظننا ان ارشادات مجلس الأمن القومي ترمي إليه.

من «اجاكس» إلى لعبة غواتيمالا

الواقع هو ان ما جاء في أعقاب عملية اجاكس، وليس العملية بحد ذاتها، هو الذي خيب آمالنا نحن الاثنين. وبالتحديد كانت عملية غواتيمالا هي السبب، وبالتحديد أكثر هو ان كبار مسؤولي الدولة وكبار العاملين في الوكالة من ذوي التوجهات العسكرية الطابع اعتبروا عملية اجاكس على انها جاءت بالسوابق لنجاح عملية غواتيمالا. وإذا كانت اجاكس قد تلاءمت مع جميع مواصفات عملية تحرك سياسي مثالية، فقد تلاءمت عملية غواتيمالا مع جميع مواصفات بنائي الامبراطوريات داخل وكالة الاستخبارات المركزية نفسها وفوقها كذلك. وليس في اذهان هؤلاء البنائين سوى اعتبارات «لعبتهم» الداخلية والبيروقراطية.

دعوني أوضح الموضوع على النحو التالي: كانت وكالة الاستخبارات المركزية يوم ولدت في مخيلة مؤسسيها منظمة تشبه جداً الاوركسترا السمفونية أو فريق كرة القدم حيث لكل واحد من أفرادها الكفاءة الرفيعة في اختصاصه كما انه يسعى باستمرار لبذل أفضل مجهوده لها وضمناها - تماماً مثل المسؤولين عن مكتب ايران في واشنطن والمسؤولين في سفارتنا في طهران وقد زرت الفريقين، كما مر معنا، قبل الشروع بعملية اجاكس. ولكن تحولنا سريعاً إلى البيروقراطية (وقد أدركت الآن ان هذا أمر محتوم) حيث أضحي موظفونا يتنافسون فيما بينهم على المراكز داخل الوكالة. انعكس مختلف «الألعاب الشخصية» داخل اللعبة البيروقراطية التي راحت الوكالة تنافس فيها سائر الوكالات الحكومية للحصول على ميزانيات أضخم وعدد أكبر من الموظفين والمزيد من التقدير على الصعيد الوطني. لقد حملتنا طموحاتنا البيروقراطية إلى تلك المجالات عينها التي ينبغي على أي وكالة استخبارات تحاشيها إن هي أرادت الحفاظ على طبيعتها.

لن أحمل القراء وزر حكاية أخرى من حكايات عملية غواتيمالا التي نشر منها الكثير من عشرات الكتب والمقالات منها ما فيه بعض الصحة ومنها ما يفتقر إليها. بل أكتفي بالقول بأنني وطني الشعور والولاء مئة بالمئة وبأنني رأسمالي مئة بالمئة وبأنني أؤمن بأسلوب الحياة الأميركي

وبأسلوب الديمقراطية الأميركية - لنفسي وللأميركيين وان كنت أشكك بملاءمته للحضارات العديدة التي تعاملت معها. ومع ذلك وبمثل هذا الموقف الايديولوجي، وعلى الرغم من عدم علاقتي بعملية غواتيمالا فإنني اعتبرها اهانة وطنية كان من شأنها في نهاية المطاف، وان لم يكن بشكل فوري آنذاك عام ١٩٥٥، إنزال السخط على وكالة الاستخبارات المركزية وعلى المسؤولين عن اتخاذ القرارات واصدار الأوامر فيها.

إلا أنني لم أر أي دليل يشير إلى ان الذين شغلوا مناصب القيادة فيها سعوا للبروز أو كانوا غير شرفاء بأي شكل من الأشكال. ولكن الأسوأ من ذلك انهم برهنوا عن بلاهة - أو ان سذاجة تصرفهم في مناصب تستدعي منتهى الميكافيلية والحذاقة كانت بمثابة البلاهة.

ولكن إليكم بعض ما عثرت عليه بشأن عملية غواتيمالا:

أولاً - انها نتيجة تحريض الوكالة من قبل شركة يوناتيد فروت وهي شركة رفضت شركة بوز آلن اند هملتن المختصة بالاستشارات الادارية التعامل معها. وقد دلت تحريات بوز آلن الأولية ان كبار المدراء التنفيذيين في شركة يوناتيد فروت كانوا ليعتبروا من طراز قديم لا يصلح اشراكهم في روايات تشارلز ديكنز، وعلى انخفاض في مستوى الذكاء لا يقوون معه على فهم توصيات بوز آلن لو انها قدمت لهم. في الواقع ان قول مهاجمي وكالة الاستخبارات المركزية بأن مسؤولي شركة يوناتيد فروت «تستغل السكان المحليين» قول ملطف جداً ذلك أن الشركة خربت بيوت الأهالي ودمرت اقتصاد غواتيمالا. وبالمقارنة معهم يبدو مدراء شركة النفط البريطانية الايرانية كأنهم خريجو كليات ادارة الأعمال في جامعة هارفرد أو ستانفورد.

ثانياً - اعتمد مدراء الشركة في تعاطيهم مع حكومة غواتيمالا ليس فقط على التعسف بل اعتمدوه مقروناً بانعدام الشرف. سبق ان صفحت عن بعض التجاوزات الرأسمالية ولكن مدراء شركة يوناتيد فروت على درجة من انعدام الشرف المفضوح الذي لا يطاق بحيث ان الأكاذيب التي اختلقوها ونقلوها للمسؤولين في غواتيمالا (ولم يكن هؤلاء من خلاصة النزاهة) هي في الواقع عبارة عن مجموعة اهانات وشتائم لا يحتملها أحد. فعندما استمكت حكومة غواتيمالا، مثلاً، مساحات واسعة من أراضي الشركة التي لم تكن (الشركة) في وارد استعمالها، عرضت الحكومة ثمناً لها المبلغ الذي أوردته الشركة رسمياً في سجلاتها ولكن الشركة طالبت بضعفيه متذرة بكل صفاقة انها أوردت ذلك الثمن فقط «لاغراض ضرائبية» وانه اسلوب معترف به في كل مكان لتفادي دفع الضرائب «حتى في البلدان المتقدمة».

ثالثاً - كانت الشركة أحد زبائن مكتب محاماة سليفن اند كرومويل الذي يملكه الاخوان دالس، كما كان لكل واحد تقريباً من كبار موظفي الحكومة الأميركية الذين لهم أي صلة بعملية غواتيمالا علاقة مالية بالشركة - ومنهم مساعد وزير الخارجية لشؤون الدول الأميركية، ومدير شؤون الأمن في وزارة الخارجية، ووزير التجارة وحتى نائب وزير التجارة وحتى نائب وزير الخارجية الجنرال بيدل سميث الذي صار فيما بعد أحد أعضاء مجلس ادارة الشركة مما ساعد الذين يهاجمون الوكالة على القول بأن تعيينه في المجلس كان مكافأة له على الخدمات التي قدّمها للشركة من أجل انجاح عملية غواتيمالا. ولكن الصدمة التي جاءتني من ذلك ان أحداً من هؤلاء السادة الكرام لم يفقه مدى تأثير علاقاته تلك في جعل العملية هدفاً لدعاية المخابرات السوفياتية، والحكومة الأميركية ووكالة الاستخبارات هدفاً لهجمات «الأغبياء المفيدون» من بين المفكرين الأميركيين، وفي إثارة عداوة الأذكىاء

والوطنيين من الأميركيين الذين بدأ الشك يرقى إلى قلوبهم حول «المستوى الاخلاقي الرفيع» الذي ما انفك وزير خارجيتنا الوريث يدّعي انه يمتلكه.

رابعاً - فيما نستعيد ذكريات تلك العملية بعد مرور أكثر من ثلاثين سنة عليها نرى انها كانت شبه عسكرية من الصنف الذي لم يكن لوكالة الاستخبارات شأن في التدخل بها، عملية كان لا بد من ان تقودنا إلى «عمليات مكشوفة - مخفية» قادتنا بعد ثلاثين سنة إلى نيكاراغوا وتضمنت خرقاً لكل مبادئ العمل الخفي، حتى إلى وقت عملية اجاكس. ولكن عندما تورّطت وكالة الاستخبارات المركزية في حرب كوريا وبعدها في فيتنام جاء أجلها. وراحت تعتمد على مهووسين من البنتاغون يتصرفون على هواهم. لا شك انهم مقاتلون ممتازون في الحروب السرية غير المعلنة. ولكن تلك الحروب تُخاض ضد حكومة أو ضد قواتها العسكرية بقوى من خارج البلاد، وغرضها في الأصل دحر العدو لا إزالة زبائنه أو تحويله إلى قيمة مفيدة.

• ملاحظة: تجدر الإشارة إلى ان المقصود بتسمية «حزب الله» في ايران آنذاك هي منظمة «فدائيان اسلام» بقيادة صفوي وزعامة آية الله السيّد أبو القاسم الكاشاني، والتي وقفت إلى جانب حكومة الدكتور محمد مُصَدِّق.

الفصل الثامن عشر

رقعة اللعبة على ضفاف النيل

مصر والولايات المتحدة

أوردتُ في صفحات سابقة كيف يلعب الزعماء والفاعلون في مجتمع ما ثلاث لعبات في آن معاً (اللعبة الشخصية، واللعبة المحلية واللعبة الدولية - ولعبة رابعة في بعض الأحيان هي اللعبة البيروقراطية)، وكيف يمكن لشخص ذكي أو لوكالة أو لحزب سياسي أو حتى دولة تتحلّى بالذكاء أن ينغمس الواحد منهم في تداخلات اللعبة ويلتصق بمصدر النشاط وينتهي إلى الكارثة المحتومة.

لنأخذ مثلاً رئيس أي شركة كبرى يبشر بإجراءات في الشركة تترك انطباعاً طيباً في نفوس المساهمين خلال السنة الجارية، علماً بأنه يعرف أن إجراءاته تلك ستؤدي إلى مشاكل هامة بعد عشر سنوات - وبعد عشر سنوات نراه يستمتع بدفع أشعة الشمس بالقرب من حوض السباحة في حديقة بيته بينما يشقى شخص آخر وراء مكتبه السابق في مواجهة المساهمين. ولننظر أيضاً إلى هؤلاء القادة السوفييات، وهم ليسوا بأغبياء، فقد تأكدوا منذ زمن بعيد من أن الشيوعية لا تؤدي إلى الغاية المنشودة، ومع ذلك فهم لا يستطيعون التخلص منها لأنها هي التي أوصلتهم إلى مراكزهم ومناصبهم ولأنهم سيسقطون ضحايا اللعبة البيروقراطية إن هم لم يتمسكوا ويستمرروا بها. ولننظر كذلك إلى رئيس الجمهورية في الولايات المتحدة الذي أعطانا الازدهار بإغراقنا في ديون تكاد لا تحصىها الأرقام ونال هو الشعبية العارمة، هذا مع علمه بأن رئيساً ما في المستقبل، غيره هو، سيشفى سعيًا لتسديد تلك الديون.

دعونا نلقي نظرة من هنا على العوامل التي سارت بوكالة الاستخبارات المركزية في انزلاقها نحو الهاوية. بدأت الوكالة العمل في أيام رئاسة هاري ترومن ومهمتها انبأؤه بما يجب أن يعرفه من أجل حل مشاكل البلاد على رقعة اللعبة الدولية. ولكن الرئيس ترومن، ذلك الرجل البسيط و«انموذج الأميركي العادي»، لم يكن ضليعاً في الشؤون الدولية، فكان على وكالة الاستخبارات ليس فقط إرشاده إلى وسائل حل مشاكله بل أيضاً تعريفه بتلك المشاكل، اعتبر الرئيس أن السوفييات مصممون على غزو العالم وأنهم ينوون تحقيق نواياهم بأساليب تتعارض مع اتفاقيات جنيف. لذلك أجاز سلسلة من التوجيهات صدرت عن مجلس الأمن القومي وخولت وكالة الاستخبارات المركزية، وهي أصلاً هيئة لجمع المعلومات، بالتمدد إلى مجال العمليات الخفية الشبيهة بما اعتبره (عن حق) الأسلوب الذي يستعمله السوفييات ضدنا.

ثم جاءت أزمة كوريا وحربها التي أدخلت إلى الوكالة أشخاصاً ذوي صفة شبه عسكرية. وتلتها عملية اجاكس وعملية غواتيمالا فكانت بداية النهاية. والأسوأ من ذلك أننا بدأنا نأتي إلى سدة الحكم برؤساء اعتبروا بأنهم يعرفون ما هي المشاكل التي تواجههم، أو ابتهجوا بالحصول على تفسيرات لها ليس من خلال أسرار الاستخبارات بل على أيدي اختصاصيين في العثور على حلول. إن الذين قرأوا بإمعان ما كتبه حتى الآن يدركون أن الأشخاص والمنظمات المختصين بالعثور على الحلول ينزعون إلى العثور على مشاكل جديدة وإلى إعادة تعريف المشاكل القائمة كي يطبقوا عليها ما لديهم من حلول.

لم يمض وقت طويل حتى صارت الوكالة تمّد البيت الأبيض بالمعلومات التي يطلبها، لا بتلك التي يحتاجها. بكلام آخر راحت الوكالة تتحرّى عدد الفرق العسكرية وتغرس الدبابيس الملونة في الخرائط وتجمع من المعلومات ما اعتبر البيت الأبيض أنه بحاجة إليها استعداداً لدرء حروب لم يكن السوفييات يواردها خوفاً أو شئها والأسوأ من ذلك أن البيت الأبيض اندفع في إجراءاته هذه دون تفهم ولو بدني للاستراتيجية التي اختارها السوفييات لأنفسهم. وقاموا بممارستها، فاستحال عمل الوكالة في

أواخر الخمسينات جمعاً لمعلومات تتلاءم مع استراتيجيات افترض مخططونا العسكريون مسبقاً بأن السوفيات قد تبناها. طبعاً كان هؤلاء المخططون أشد الناس نفوذاً في الحكومة الأميركية لأن ميزانية البنتاغون أضخم من ميزانية أي وزارة أو هيئة في الدولة فكان بالتالي على أهل البنتاغون تبرير ضخامتها. لم يتوقف فرع وكالة الاستخبارات المركزية المختص بروسيا السوفياتية عن الاتيان بمعلومات ممتازة تشير إلى ان الاستراتيجيين السوفيات حصروا تفكيرهم آنذاك بنوع من الحرب الباردة لا صلة لها بحرب نووية ولا بحرب تقليدية. ووجدت تلك المعلومات طريقها من سلة البريد الوارد إلى المسؤولين المختصين إلى سلة البريد الخارج دون ان تثير ولو شرارة اهتمام واحدة.

تحولت وكالة الاستخبارات المركزية إلى وكالة تنعم بميزانية كبيرة باتت الحلول فيها تأتي في المرتبة الأولى. فأخذت على عاتقها عدة عمليات شبه عسكرية وجب ان تكون من مسؤولية البنتاغون. ثم راحت تقوم بعمليات عسكرية في جوهرها - كغيرها من العمليات العسكرية - تتطلب اعداداً كبيرة من الرجال وكميات ضخمة من المعدات ومبالغ طائلة من الأموال. وأخيراً أخذت تبحث عن مشاكل لا تستدعي الكثير من الذكاء إنما تستوجب حلولاً باهظة التكاليف، أملاها عليها أحد عباقرتها دك بيسل. فرضيته الأساسية قامت على ان جمع المعلومات بالوسائل التقنية اللابشرية يأتي بمعلومات واقعية دقيقة، بينما تشوب بواطن الضعف البشري المعلومات التي يجنيها الجواسيس العاديون. قلنا له: حسناً، اننا نعلم كل شيء عن الجواسيس ولنا بحاجة لأن نخبرنا بنقاط ضعفهم. ولكن معدائك التقنية لا تستطيع قراءة الافكار ولا تستطيع ان تخبرنا بشيء عن الدوافع والنوايا والشخصية (هنا تدخل اللعبة الشخصية) والعوامل الأخرى ذات التأثير في رسم الخطط والسياسات. وعندما تحلل، ابتداء من الحاضر ورجوعاً إلى الماضي، المعلومات الواقعية الواردة من أجهزتك التقنية فإنك ترتكب خطأ الافتراض بأن العقلية التي رسمت تلك الخطط والسياسات إنما هي مثل عقليتنا نحن الأميركيين، فلا يسعك إذاً بالوسائل التقنية اكتساب تفهم للخصائص الحضارية التي تؤثر في القرار الذي يحاول الشخص المستهدف اتخاذه.

ما زلت أذكر بوضوح إلام تحولت وكالة الاستخبارات المركزية خلال الفترة الواقعية بين ١٩٥٥ و١٩٥٧، وكيف أخذ يدب في نفوس رؤساء المكاتب الاقليمية والعاملين في المواقع والمحطات خارج البلاد الشعور بأننا مواطنون من الدرجة الثانية. فاتني أن أذكر انه حدث آنذاك فرار جاسوس إلى المعسكر الآخر ونجحت إحدى عمليات الاختراق في مجال الاستخبارات. دُعينا إلى مكتب المدير لاجتماعات دامت يومين، فكانت وكالة الاستخبارات التي شاهدناها قبيل عيد الميلاد لعام ١٩٥٦ مختلفة كلياً عن تلك التي أسسناها قبل عشر سنوات. وبالمقارنة مثلاً، كان آلن دالس بالنسبة إلى دك بيسل مثل طبيب الضاحية بالنسبة إلى بحاث في علوم الطب، علماً بأن لكل منهما بالطبع سيئاته وحسناته. ولكونها مصدر الإلهام الأولين في الوكالة كان ينبغي أن يشكلاً فريقاً عظيماً لو تعاونوا سوية ولكنها عملاً في اتجاهين مختلفين. وفي أواخر الخمسينات اندفعت الوكالة تعمل في كل الاتجاهات من طائرات التجسس و«الارهاب الجراحي» والعقاقير والجيش الخاصة و«البنى الداعمة» وغيرها، فباتت بنظر ريتشارد هلمز، رئيس مكتب العمليات الخاصة، خارجة عن كل سيطرة واشراف.

قضيت أنا أيضاً السنتين الأخيرتين من خدمتي في الوكالة في ما يصعب وصفه بعمل الاستخبارات التقليدي. ولانعدام توافر ما هو أفضل شرعنا أنا وكيم روزفلت نعمل في ما أسميناه الدبلوماسية الخفية، أي مناورات دبلوماسية وراء الكواليس لم نكن لنقوى على القيام بها لولا وجود جون فوستر على رأس وزارة الخارجية وأخيه آلن على رأس وكالة الاستخبارات المركزية. إسمياً، كنت أنا رئيس وحدة أركان العمل السياسي وتحملت مسؤوليات عملي بكامل جدتها. ودأبت لدى عودتي من مصر على قضاء معظم أوقاتي في نشاطات الأركان التي سبق أن وصفتها: (١) تحديد أمكنة من العالم فيها أخطار تهدد سلامة الولايات المتحدة ولا يمكن إبطال مفعولها إلا بالعمل السياسي حسب

تعريفي له، (٢) ثم استنباط أشد الوسائل فعالية وأرخصها ثمناً للقيام بالعمليات اللازمة. وعندما رُقي فرانك وابسنر إلى رتبة نائب المدير لشؤون التخطيط، حلّ محله دزموند فيتزجيرالد وهو من بقايا مكتب الخدمات الاستراتيجية قضى كل سني خدمته في الشرق الأقصى. كان دزموند بهي الطلعة وجنتلمان من الطبقة الرفيعة لا يثق «بالوسيلة» ويعرف محدودياته كما انه بحاجة إلى أحد لمراقبة منطقة لا يعرف هو عنها شيئاً ويراقب كذلك مسؤول الوكالة في تلك المنطقة أي كيم روزفلت.

هكذا صارت تُحال على أكثر فأكثر عمليات سياسية خاصة من الدبلوماسية الخفية المتعلقة بالشرق الأوسط، أو هكذا ظن الأخوان دالس. عندما تطل مشكلة في المنطقة يفكر الاثنان فوراً بكيم روزفلت ونادراً ما فكراً بأي دبلوماسي محترف علماً بأن في وزارة الخارجية عدة لجان تتعاطى مع مختلف أزمات ومشاكل الشرق الأوسط. وكان كيم يحضر معظم الاجتماعات وادعى أنا إلى بعضها. أما إذا كان لا بد لأحد ان يتوجه إلى ايران أو إلى مصر أو الاردن أو المملكة العربية السعودية ليقابل الشاه أو عبدالناصر أو الملك حسين أو الملك سعود فلا يخطر ببال الاخوين دالس إلا كيم أو أنا وفي بعض الحالات كلانا معاً وفي حالات أخرى نذهب برفقة بعض المحترفين المرموقين مثل افريل هاريمان أو روبرت اندرسون أو أرك جونستن.

نما هذا التقليد من أيام غرفة الالعاب التي ساعدت في انشائها وكانت آنذاك فكرة طيبة. ويبدو لي الآن، بعد مرور وقت طويل على انشائها أنها لم تحقق من أحلامنا بمقدار ما توقعناه. ومع ذلك أبرزت على رقعة الالعاب بعض الحالات التي تحتاج إلى إعادة النظر فيها. غير اننا أخفقنا في المكان الذي كان ينبغي لنا النجاح فيه: التشديد على ما يتخذ على رقعة الالعاب الدولية من قرارات تؤثر تأثيراً عميقاً في المصالح الأميركية في الخارج إنما يتخذها لاعبون يعتبرون ان المصالح الأميركية تأتي في المرتبة الثانية بعد مصالحهم، والتشديد أيضاً على انه عند تضارب مصالح اللاعبين الأجانب مع مصالحنا يجب أن تتحمل المصالح الأميركية إلى حد ما تبعه ذلك التضارب. فاللاعب، أياً كان، يعطي الأولوية لمصلحة بلاده أولاً وبأقصر قدر مستطاع. وعبارة «أقصى القدر المستطاع» هذه هي ما يضعه نصب عينيه أي خبير في العمل السياسي يُطلب إليه التعاطي مع قضية اللعبة الدولية. إننا نحاول في تعاطينا مع اللاعبين الآخرين، الاصدقاء منهم والأخصام، ان نخفض إلى الحد الأدنى مقدار ما يمكن ان يولوه من أولوية لمصالحهم على حساب مصالحنا. وعليه يجب ألا تصدمنا أو تدهشنا محاولاتهم الحصول على أقصى ما يستطيعون من منافع على حساب مصالحنا عندما لا تكون مصالح الفريقين متطابقة. ففي اللعبة الدولية يكثر الكلام عن «تطابق المصالح» ولكن دبلوماسيينا المحترفين، العلنيين منهم والمستترين، أعلم من أن يشاطروا جون فوستر دالس تبرمه من رفض الدول الأخرى القبول بمبدأ ان كل ما هو مفيد لأميركا مفيد حكماً للعالم كله.

لم يخالفني أصدقاؤني البريطانيون الرأي حول هذا الموضوع ولكن معرفتهم بعلاقتي بالرئيس المصري جمال عبدالناصر عكّرت الأجواء بيننا. لذلك أرى من المناسب في هذا المجال الخوض في احد أوجه «التجربة الناصرية» التي لا تزال مجهولة عندهم: انه الدور الذي قامت به وكالة الاستخبارات المركزية في قضية السويس والخلاف الذي نشأ بينها وبين الحكومة البريطانية، كما وبينها وبين الحكومة الأميركية. لقد ناقشت هذا الموضوع مراراً حتى لتكاد تتقرز نفسي لذكره. ولما كنت أكتب للتاريخ (فهذا نوع من السيرة الذاتية أدونها) سأطرح مفهومي لدور وكالة الاستخبارات المركزية في تلك القضية علماً بأننا، نحن العاملين في المواقع، ظننا أن عملنا يتطابق مع مصالح السياسة الأميركية، في حين كان يخالفها في بعض الأوقات. وأود هنا أن ألفت الانتباه إلى انني لست في معرض الدفاع عن ذلك المفهوم (علماً بأنني أظن ان التاريخ قد برهن على صحته)، فأنا هنا أطلع القراء على مضمونه.

● لننظر أولاً إلى رقعة اللعبة. في عدد من الاعتبارات الهامة اختلفت رقعة اللعبة الدولية التي حسبنا اننا نلعب عليها عن تلك التي حسب البريطانيون اننا كلانا نلعب عليها. فمع التزامنا التزاماً لا رجوع عنه بتأييد اسرائيل، كنا على بينة تامة أيضاً بما سيكلفنا ذلك من عدااء عربي ومن خطر على مصدر هام للنفط. ومع العلم بأننا نحاول احلال السلام بين العرب واسرائيل، كانت الغاية الأهم من ذلك إرضاء الرأي العام عندنا مع ما يتضمنه ذلك من ادراك تام ان استمرار حال العدااء أمر كتبت علينا معاشته. وفيما كانت كلمات ونستون تشرشل عن الامبراطورية لا تزال في آذان البريطانيين كنا قد أصبحنا متعاطفين علناً مع الحركات القومية، إذ اعترف وزير خارجيتنا علناً باعتقاده بأن سياسات بريطانيا «الاستعمارية» تحد من حرية التحرك الأميركي وبانه يحاول إبعاد حكومتنا عن تلك السياسات.

لم نحمل على محمل الجد كلام تشرشل وايدن من ان عبدالناصر قد «أطبق بكلتا يديه» على شريان حياة الامبراطورية وان القضية باتت قضية موت أو حياة الامبراطورية البريطانية، كلام راح الاثنان يلقياه علينا نحن الأميركيين بروح أبوة متعالية وكأننا زمرة من الأولاد المعاقين. فقد بدا لنا ان حبل حياة الامبراطورية (ترعة السويس) ليس تحت رحمة عبدالناصر، بل على العكس فإن دوافعه لابقاء حبل الحياة هذا مفتوحاً باتت أقوى من ذي قبل.

● ثانياً: كان هناك عبدالناصر نفسه. عندما فكرنا ببيلي غراهام مسلم، تصورناه لمثل رقعة اللعب هذه، فكان جمال عبدالناصر أقرب شبيه معقول به. ذلك اننا لم نلاحظ في لعبتنا مكاناً للدمى أمثال نوري باشا السعيد وغيره ممن جعلهم البريطانيون على رقعة لعبتهم. فقد ابتغينا زعيماً في مصر، زعيماً تتناسق آراؤه إلى حد ما مع آرائنا ومع آراء شعبه أيضاً ليتمكن من البقاء والاستمرار زعيماً محبوباً. واعتبرنا انه إذا كان لا بد له من صب عداائه على شيء (وكان لا بد له من ذلك حسب المبدأ القائل بأن تأليب الاتباع ضد شيء أسهل من جمعهم لتأييد شيء) وبالتالي فضلنا ان يوجه عدااءه نحو «الاستعمار» على أن يوجهه ضد اسرائيل. ورأينا ان لا بأس حتى في ان يتخذ موقفاً عدائياً من أميركا نفسها شرط ألا يرتد موقفه هذا بالضرر علينا وان يكون له مئة منفعة صريحة. يبقى ان أهم ما ابتغيناه منه أن يكون زعيماً شعبياً قوياً له من الجرأة ما يمكنه، عند توافر الفرص النفسية المناسبة من اتخاذ قرارات صعبة، علماً بأنني أعود وأشدّد هنا على وجوب ان تكون قراراته تلك ملائمة لمصالح مصر والولايات المتحدة معاً.

● ثالثاً: كان على الرقعة أيضاً لعبة اسرائيل. ففي شباط (فبراير) ١٩٥٥ شنّ الاسرائيليون غارة على غزة ذهب ضحيتها أكثر من ثلاثين قتيلًا. وقد وجدنا فيها رغم وحشيتها انها من وجهة نظر الاسرائيليين انطباقاً تاماً مع أصول اللعب. ذلك انهم لما فقدوا كل أمل بقبول عبدالناصر بعقد صفقة سلام معهم حسب شروطهم رأوا من الأفضل ان يكون «عبدالناصر» الذي يريدونه معهم على رقعة اللعب الدولية عدواً عنيداً عوضاً عن عدو معتدل قد يتمكن يوماً من اغراء الأميركيين باعتداله وعقلانيته. والواقع ان عدااء عبدالناصر قبل الغارة على غزة انصب على الاستعمار البريطاني (لاحظوا الفرق: العدو هو الاستعمار، بريطانيا) كما كان اهتمامه بالصراع العربي الاسرائيلي محدوداً. حسب اعتقادنا. ولكن الغارة سببت سلسلة من الأحداث كان واحد منها نقلة على رقعة اللعب صبّت في مصلحة اسرائيل وقربت أزمة السويس، ان الاسرائيليين ماهرون في تخطيط نقلاتهم على رقعة اللعبة الدولية.

● رابعاً: كان هناك بعد الغارة نقلات ونقلات مضادة. من الواضح ان الغارة قضت على أي ميل لدى عبدالناصر نحو مسامرة مخططات وزير الخارجية دالس لاقامة ترتيبات دفاعية اقليمية (وحولت إلى مهزلة حججنا أمام عبدالناصر بأن عدوه الحقيقي هو روسيا السوفياتية وليست اسرائيل)، وأثارت عاصفة من المطالبات المصرية بالحصول على اسلحة أميركية ارفقت بتهديدات واضحة من قبله بأنه

سيتحول إلى الاتحاد السوفياتي إذا ما تعذر عليه الحصول عليها. وكانت النقلة التي غيرت طبيعة اللعبة بأكملها حصوله على الأسلحة السوفياتية وإعلانه عن ذلك في أيلول (سبتمبر) ١٩٥٥. وفيما مضينا في وكالة الاستخبارات المركزية نصرّ على زملائنا في الخارجية بأن عبدالناصر سيتخذ تلك الخطوة، فقط لأننا كلاعبين ينبغي علينا الاعتراف بأن أياً منا كان ليتخذها لو وجد نفسه في موقف كموقفه، استمرت وزارة خارجيتنا هي الأخرى في اصرارها على انه يخادع. على كل الأحوال، وبناءً على أمر من الاخوين دالس ذهبنا أنا وكيم روزفلت إلى مصر لاقناع عبدالناصر بأن علينا نحن الفريقين الافادة من شعبيته الكبيرة المفاجئة للمغامرة باتخاذ قرار بغيض: أي تحريك مخطط يؤدي إلى عقد اتفاقية سلام مع اسرائيل.

● خامساً: الوزير دالس قصير النظر وقليل العقل. فقد غبنا عن ذاكرته كلياً! لم يكن قد مضى يوم كامل على وصولنا أنا وكيم إلى القاهرة، وفي أعقاب حصولنا على موافقة عبدالناصر على «القرار البغيض»، أصدرت وزارة الخارجية بياناً صحفياً بأن مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط جورج آلن سيتوجه إلى القاهرة ليلعب عبدالناصر «انذاراً». لم يكن من الصعب على أحد (وعلىنا بشكل خاص) ادراك ما حمل عبدالناصر على ان يرمي في سلة المهملات نص الخطاب الذي «أعدده» له لاعلان خبر صفقة الأسلحة السوفياتية، ويستبدله بخطاب غير معتدل حسب المقاييس الغربية. ومنذ ذلك اليوم أخذت العلاقات تنتقل من سيء إلى أسوأ فبعدالناصر يتخذ اجراءات نعتبرها نحن منطبعة مع أصول اللعب بينما يتخذ الوزير دالس، الذي أصبح في موقع المبادرة، اجراءات وخطوات لا تعطي عبدالناصر أي مجال إلا مجال التصعيد باتخاذ الاجراءات المعاكسة التي توقعنا منه اتخاذها.

● سادساً: جاء تراجعنا عن عرضنا السابق بتمويل مشروع سد أسوان. أدركنا تماماً، نحن رجال وكالة المخابرات المركزية ضرورة سحب عرضنا بتمويل مشروع السد العالي: فأعضاء مجلسي الكونغرس من الولايات الجنوبية خافوا من ان يمكن المشروع المصريين من زرع مساحات اضافية قطناً؛ أما الأعضاء الذين يمثلون الولايات الغربية فغاضبهم ان ننظر بعين الرضا إلى بناء سدّ في مصر بينما لا يحصلون هم على الأموال اللازمة لبناء سدود في ولاياتهم. كما كان هناك احتمال أن يؤدي الإصرار على منح مصر قرضاً إلى تعريض كل مشروع اقامة وكالة الانماء الدولية للخطر. وفي احدي الامسيات، بعد انصراف الموظفين إلى بيوتهم، جلس جون فوستر دالس وويل راون تري الذي حل محل جورج آلن في منصب مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط، جلسا حتى ساعة متأخرة من الليل يكتبان توضيحاً لسبب سحب القرض غايته الهاب مشاعر عبدالناصر، والله أدرى ما السبب؟! أما نحن في الوكالة فلم تكن لنا أي علاقة بالتوضيح المذكور. وعندما سأل آلن دالس كيم روزفلت عن رأيه به كان غضب كيم منه يعادل ثورة جمال عبدالناصر، علماً بأن كيم مارس من ضبط النفس مقداراً يفوق بقليل ما مارسه عبدالناصر. أقلقنا ردة فعل كيم آلن دالس فما كان منه إلا أن أخذنا أنا وفرانك وايسنر وكيم إلى وزارة الخارجية حيث جلسنا حول طاولة نحاول ان نتنبأ بردة فعل عبدالناصر. كان رأيي ورأي كيم وكذلك رأي بعض الزملاء في الخارجية ان ردة فعله مهما تكن لن تكون في صالح ما أسميناه بسخرية «قضية السلم في الشرق الأوسط». ولكننا لم نتقدم بأي مقترحات محددة - باستثناء ما أوردته في فصل سابق عن تطرق فرانك وايسنر إلى احتمال قيام عبدالناصر بتأميم شركة قناة السويس فأسكتناه أنا وكيم.

● سابعاً: كان على الرقعة أيضاً السخط البريطاني على تأميم عبد الناصر لشركة قناة السويس. فعند الاعلان عن التأميم أطبق البريطانيون فوراً على المبادرات. جاريناهم في لعبتهم على الرغم من معرفتنا من ان الاستخبارات البريطانية على ما هي عليه من تفوق في مناطق الشرق الأوسط الأخرى لم تكن على علم بكل ما يجري داخل حكومة عبدالناصر وبالوضع العام في مصر. في احد الاجتماعات

التي عقدتها برفقة بعض زملائي في وكالة الاستخبارات المركزية مع ضباط من المخابرات البريطانية قبل قرابة الشهر من الهجوم البريطاني الفرنسي الاسرائيلي على مصر (العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦) للبحث في ما يجب ان نفعله بشأن عبدالناصر، عرض عليّ أحد الضباط البريطانيين وثيقة سرية جداً تبين تنظيم المخابرات المصرية. ظننت في بادئ الأمر انه يمازحني! ذلك لأنها الترجمة الانكليزية للتنظيم الهرمي الذي أعدده بمساعدة زملائي في شركة بوز آلن أند هملتن. ويبدو ان نظائرتنا البريطانيين كانوا في جهل تام حيال ما كان يفعله فريق وكالتنا في مصر طيلة الستين المنصرمتين.

كان أكثر ما أزعجنا عدم تصرف البريطانيين تصرف اللاعبيين المتمرسين ذوي الأعصاب الهادئة. فكل ما قاله لنا زملاؤنا في المخابرات البريطانية والخارجية البريطانية لا يمت بأي صلة إلى أي ضباط أو مدنيين مصريين يمكنهم تشكيل حكومة إذا ما أزيل عبدالناصر من الحكم، أو إلى الوضع العام في مصر. ولم تكن أقوالهم أكثر من افتراضات وتكهنات، كما بدا انهم لم يكتثروا لأكثر من الاطاحة بعبدالناصر، بصرف النظر عن النتائج، بغية البرهان للعالم أن مغروراً برز حديثاً مثله لا يستطيع التباهي بالدوس على ذنب الأسد البريطاني دون عقاب. إن موقفهم هذا أشبه بموقف بطل من أبطال الشطرنج العالميين حاول تحطيم الطاولة لأن مبتدئاً في اللعبة استطاع زجه في موقف حرج.

إذاً، ماذا كان يترتب علينا فعله؟ من المهم ادراك بأنه فيما كانت واشنطن تجاري لندن في الارغاء والازباد، وفيما طرأت بين آن وآخر في ذهن الرئيس ايزنهاور نفسه فكرة «الاطاحة بعبدالناصر» كنا نحن العاملين على الأرض على اتصال حميم بذكريا محيي الدين وغيره من كبار المسؤولين المصريين بشأن حسنات وسيئات التأميم (كما لو كنا زواراً متجردين قادمين من كوكب آخر)، نصفق للحسنات وننبه بحزم من السيئات. وكانت حجتنا مع عبدالناصر بكل بساطة على النحو التالي: «حسناً، لقد كسبت هذه الجولة، ولكن وقبل ان تأتي جولة أخرى لا تستطيع كسبها، لماذا لا تستغل الفورة المؤيدة لك حالياً لاتخاذ اجراء خليق برجل دولة باتجاه تحقيق السلام في المنطقة كلها؟» وافق! بدأ بالاعلان (بمصادقية لم ترض وكالة الاستخبارات المركزية وحدها، بل كذلك وزارة الخارجية التي ما انفكت حتى اعلانه تهزأ بالموضوع) عن انه سيبقى ترعة السويس مفتوحة للملاحة، وسيدفع التعويضات اللازمة لمالكي الشركة السابقين وسيراعى كل القضايا الأخرى التي اعتبرها محامونا حداً أدنى لتصفية النزاعات القانونية التي نجمت عن التأميم.

دعا عبدالناصر مندوبين عن الدول التي درجت سفنها على استعمال قناة السويس للبحث في ظلاماتهم. وتبين ان ليس لهم اي ظلمات مشروعة. وعندما استقال المرشدون البحريون الأوروبيون استقالة جماعية، حل محلهم مرشدون مصريون وأمنوا الملاحة عبر القنال (الممر البحري) وحازوا رضا الجميع. والأهم من ذلك كله ان عبدالناصر أبلغ الرئيس ايزنهاور بأنه على استعداد، بعد هدوء الضجة القائمة حول قناة السويس، للاستماع باهتمام إلى أي اقتراح قد يتقدم به ايزنهاور لوضع برنامج عملي قابل للتطبيق من أجل تخفيض التوتر العربي الاسرائيلي «على السكة المؤدية إلى سلام دائم». وجدنا في ذلك كله ما يرضينا. أما البريطانيون فلم يرضوا عن شيء معتبرين ان قناة السويس هي «قناتهم» وانتهى الأمر.

زُود العاملون منا مع عبدالناصر بتعليمات واضحة جداً بأن مهمتنا الأولى هي المحافظة على بقائه في السلطة. وعلى الرغم من كل سلبياته لم ير وزير الخارجية دالس أي سبب يحول دون ذلك. فهو محام قضى كل حياته المهنية في معالجة قضايا ذات صلة بالقانون الدولي، وعليه لم يرَ ان لبريطانيا أي قضية من الناحية القانونية. فالرئيس عبدالناصر لا يستطيع تأميم القناة ذلك انها دون أدنى مجال للشك جزء من أرض الدولة المصرية فلا مجال إذاً لتأميمها، كما انه تصرف من ضمن حقوقه في تأميم شركة القناة وهي شركة مسجلة في مصر حسب نصوص القانون المصري دون غيره، مهما أراد السير انطوني

ايدن وصف اجراء عبدالناصر بالخدعة القانونية. فالقضية بالنسبة للمحامي دالس قضية قانون، والقانون هو القانون. إضافة إلى ذلك، فقد سبق ان تقبلنا برضا عدة تأميمات أخرى، وان كانت أقل رهجة من الناحية السياسية، وكلها مشابهة لقضية تأميم شركة القناة واقتصر اصرارنا على تأمين التعويض المناسب أو الوعد المقبول به سواء كان موضوع التأميم شركة أو مؤسسة أو أي شيء آخر لم يستعمل ضدنا.

● وأخيراً: كان هناك لعبتنا نحن. فحسب أصول لعبة العمل السياسي الخفي التي أضحيها نؤمن بها إيماناً ثابتاً لم يكن في الهجوم البريطاني الفرنسي الاسرائيلي على مصر أي بصيص من المنطق بل كان اسوأ عمل يمكن القيام به خصوصاً وان تنفيذه جاء ساذجاً جاعلاً من مساندة وكالة الاستخبارات المركزية الحالية لثوار الكونترا تبدو بالمقارنة ذكية جداً هل يصعب على أحد تصور نتائج التشارك مع اسرائيل العدو المقيت ليس عند العرب وحدهم وكذلك في العالم الاسلامي كله؟ تصوروا ان الفرنسيين والبريطانيون دخلوا ساحة القتال «للفصل بين الفريقين المتنازعين» أي بين مصر واسرائيل، ليقولوا لهما بالتراجع عشرة أميال عن قناة السويس بينما كان الاسرائيليون لا يزالون على أربعين ميلاً عنها. أفلا يستطيع الاسرائيليون تفسير ذلك الأمر على انه يعني السماح لهم بالتقدم ثلاثين ميلاً باتجاهها! القضية كلها غباء، بل غباء مطبق.

استمر كبار المسؤولين في وزارتي الخارجية والدفاع في بريطانيا بالاصرار على انه لو قمنا بتأخير فرض الانسحاب على غزاة مصر أربعاً وعشرين ساعة فقط لسقط حكم عبدالناصر. في الواقع دهشنا لذلك الكلام الفارغ الذي لا تؤيده أي معلومات استخباراتية. فلم يكن لدينا أي معلومات تشير إلى امكانية صحته، وإذا كان لدى البريطانيين من معلومات حوله فلم يطلعونا عليها، إضافة إلى ذلك لم يتمكن أي منهم من افادتنا عما سنحصل عليه من المنافع لو انه سقط فعلاً.

ولننظر الآن إلى ما حدث فعلاً. فبدلاً من ابقاء قناة السويس مفتوحة أمام الملاحة البحرية أدت العملية إلى إقفالها وهو أمر يستطيع التنبؤ به أسخف محلل استخباراتي سواء كان اميركياً أو بريطانياً. قطعت مصر وسوريا والمملكة العربية السعودية علاقاتها الدبلوماسية ببريطانيا وفرنسا والاردن والعراق علاقاتها الدبلوماسية بفرنسا وحدها، ولكن علاقاتها ببريطانيا تعرضت لتوتر شديد مهد الطريق لانقلاب عسكري في العراق بعد قرابة الستين، مما أدى إلى سقوط حلف بغداد. أما على الصعيد الدولي فقد انصب على بريطانيا وفرنسا ليس فقط لوم روسيا السوفياتية والصين الشيوعية بل وكذلك لوم بعض دول (الكومنولث) - رابطة الشعوب البريطانية مثل كندا وباكستان والهند وسيلان. وظننا بأن أصدقاءنا البريطانيين قد تعلموا الدرس.

أكثرهم لم يستفد من الدرس شيئاً وعزوا فشلهم إلى الضغوط الأميركية ولا يزالون يصرون حتى اليوم بأننا تخلينا عنهم في وقت حاجتهم إلينا، رافضين التصديق بأننا كأمركيين، على الرغم من اننا عملنا بصلة وثيقة مع جمال عبدالناصر منذ أن بدأ يفكر بالقيام بثورته وحتى وفاته المبكرة، تفهمنا خلفية أزمة السويس تفهماً فاق ادراكهم لها. لم يبالوا مطلقاً بأن التاريخ أظهر خطأهم. لعلنا كنا آنذاك أمام «حماقة تاريخية» قامت على افكار تثبت مسبقاً مع تجاهل تام لكل الاشارات المعاكسة. ولكنني فكّرت آنذاك، وما زلت، بأن البريطانيين يزدهرون في الحماقة ويؤمنون أوضاعهم بطريقة ما.

نعم. هكذا سنفعل، ذلك ان خبرة البشرية الطويلة تشير إلى ان الانسان يسيء العمل في مهنة الحكم والحكومة أكثر منه في أي مجال آخر تقريباً من مجالات النشاط البشري. إن في هذه الحكمة ما ينطبق على الحكومة في أميركا أكثر منه في بريطانيا، لا سيما في ما يختص باللعبة الدولية. ولكننا نحن أيضاً نؤمن أوضاعنا في النهاية بشكل ما، لنعود ونخربط الأمور من جديد. اتضح بعد انقشاع غبار قضية السويس اننا سجلنا بعض التقدم الآني على رقعة اللعبة الدولية. ولم يخف على أحد أن

عبدالناصر خرج من أزمة السويس أقوى مما كان عليه وأكثر شعبية في مصر وفي الشرق الأوسط كله . ومع ذلك تعمد، عبر سفيرنا في القاهرة ريموند هير، تقديم الشكر لما أسدته له الولايات المتحدة من مساعدة إبان الغزو الثلاثي، وذكر السفير في الوقت نفسه بالوعد الذي قطعه له سابقاً «بعمل شيء ما» من أجل تخفيض التوترات مع إسرائيل». وأعرب زعماء العالم العربي الآخرون عن تقديرهم «لوقوفنا بوجه إسرائيل وحلفائها»، ومنهم نوري باشا السعيد الذي لا يزال الكثيرون من البريطانيين يصرون حتى اليوم بأنه آيد الهجوم الثلاثي وهو الذي قال لسفيرنا في بغداد: «إن الهجوم الثلاثي عبارة عن مغامرة جنونية» كانت لتشكل له أرباكاً جدياً لو أنها نجحت. وقد أخبرني موظفون في الأمم المتحدة أثق بكلامهم ان وفوداً من العالم الثالث صارت تلاقى مندوبينا في الهيئة الدولية بابتسامة، وهو أمر استصعب تصديقه في بادئ الأمر. ومع الأسف لم يدم الأمر طويلاً ذلك لأن اقتراح سفيرنا في القاهرة «بوجوب استغلال الفرصة المؤاتية لتثبيت موقع قوي لنا»، ذلك الاقتراح ترجم في واشنطن بشيء سمي «مبدأ أيزنهاور».

صحيح، مبدأ أيزنهاور! هذا الذي أعلن عنه بالادراك الدقيق للتوقيت الذي اشتهر به وزير خارجيتنا جون فوستر دالس وكان تعهداً بأن تقدم الولايات المتحدة قواتها المسلحة من أجل الدفاع عن أي حكومة في الشرق الأوسط «تتعرض لخطر العدوان المسلح المكشوف من قبل أي دولة واقعة تحت سيطرة الشيوعية الدولية». ففي ذلك الوقت لم يكن في الشرق الأوسط كله دولة واحدة واقعة تحت سيطرة الشيوعية الدولية، ولا أي دولة مُهددة بعدوان شيوعي. بل على العكس من ذلك كان السوفيات يعرضون السلاح والمساعدات الاقتصادية والدعم السياسي لأي دولة في الشرق الأوسط تقبل بذلك. فكان من شأن مبدأ أيزنهاور إثارة غضب تلك الدول العربية عينا التي كنا نحاول استمالتها بواسطة حملات عملنا السياسي، ومن جهة أخرى تنشيط ميول الفساد الأخلاقي لدى المرتزقة السياسيين العاملين لحسابنا.

وهنا ينبغي ان أكرر ما سبق ان كتبت مرات عديدة مثلاً عما قاله لي مرة عبدالناصر: «ان عبقريتكم أنتم الأميركيين تكمن في انكم لا تأتون مطلقاً بأعمال غبية واضحة، بل فقط بأعمال غبية تجعلنا نفكر باحتمال وجود أشياء فاتنا الانتباه إليها». وأضاف بأنه يعتبر مبدأ أيزنهاور «احد أكثر الأخطاء حنكة يمكن لدبلوماسي من دولة عظمى ارتكابها». كنت شاباً آنذاك وأعرف البلدان الأخرى معرفة أوثق من معرفتي لبلادي. وقد احتجت لعدد أكبر من سنوات الخبرة في واشنطن لأدرك ان الكثير من «تحركاتنا الغبية»، إذا كانت كذلك، اتخذت لأسباب وجيهة جداً وليس من قبل اناس أغبياء. كان ذلك الدرس نقطة تحول في حياتي وأحد حقائق الحياة التي عدلت بموجبها لعبتي الشخصية.

الفصل التاسع عشر

مايلز كوپلاند وشركاه

هل يبحثون عن الحقيقة

جاءت نقطة التحول في حياتي وأنا في أواسط الثلاثينات من العمر يوم أدركت ألا أحمل على محمل الحقيقة والواقع كل ما يتلفظ به الناطقون باسم حكومتنا بغية إرضاء الرأي العام، وأن ما يقولونه لا يعكس بالضرورة جوهر ما يفكرون به في أعماق نفوسهم، وأن ذلك ليس نفاقاً بل انعكاساً لحاجة السلطة التنفيذية إلى تعديل إجراءاتها من أجل مجاراة ما يفرضه الكونغرس عليها ولكن دون كشف أوراقها أمام اللاعبين الأجانب.

احتجت إلى سنة أو اثنتين في العمل في واشنطن لأتعليم أن أي حكومة ديمقراطية، عندنا أو في الخارج، تضطر في بعض الأحيان إلى الخلط بين «الملح» و«المهم» (تعلمت خلال الحرب العالمية الثانية أن الاثنين قليلاً ما يتطابقان) وأن الضغوط الداخلية قد تحملها على التصرف بشكل يبدو متهوراً للمراقب العادي. وسرعان ما خرجت بالنظرية التالية: يوجد في عقل الأمة الباطن شيء من البراغماتية الباردة التي تتحكم بها «المؤسسة». والمؤسسة هذه، أو سمها ما شئت تستغل الأخطاء والانتكاسات القصيرة الأجل وتحوّلها على المدى البعيد إلى انتصارات.

في بحثي عن الحقيقة وراء تصرفات حكومتنا حتى العام ١٩٥٧ خطر لي أن أنقب حول موضوع التعثر الظاهري بطرح السؤالين: «إلى أين نحن متوجهون حقاً؟» و«هل ثمة كسب لنا هناك؟» كنت في وضع سمح لي أن أعلم بعدم وجود مخطط شامل أو عبقرى استراتيجي يعمل وراء الستار في توجيه تصرفاتنا إضافة إلى عدم وجود أي استراتيجية مرسومة بوضوح - باستثناء مهازل مثل مبدأ ايزنهاور ومنمّيات مشابهة طبخت تلبية لأغراض الحرب النفسية. إننا كان في أعماق ذلك كله مهارة خارقة في تخفيض الخسائر وزيادة المكاسب إلى أقصى الحدود الممكنة بحيث نخرج في النهاية رابحين. لقد نجحت ديمقراطيتنا في تأدية اغراضها لأنها أوصلت إلى مواقع القيادة أشخاصاً يحسنون التكلم بلسانين.

رأى جيم انجلبرغر (ايخ) كل ذلك بوضوح أكثر مني وكان قد سبق له أن عمل في فريقي للعمل السياسي في مصر عام ١٩٥٥، حيث كتبنا معاً تقريراً عنوانه: «مشاكل القوى التي تواجه حكومة ثورية». وبعد ترجمته إلى العربية واطلاع زكريا محيي الدين عليه وقرلنا بعض الارشادات لتثبيت ثورة عبدالناصر. ووضعنا في اعقاب قضية السويس تقريراً مشابهاً اقترحنا فيه على الحكومة الأميركية خطوات واجراءات وتوصيات تستطيع الاستعانة بها لتثبيت ما أصابنا من مغنم من جراء وقوفنا بوجه الغزو البريطاني الفرنسي الاسرائيلي. لست أدري مطلقاً إذا كان أحد قد اطلع عليه باستثناء أفراد فريقنا، ولكنه فتح أمامي آفاقاً واسعة. ورحنا أنا وآيخ نبحث جدياً عما إذا كان ثمة اسلوب ما في الأعمال الجنونية التي ترتكبها حكومتنا وكلها بالطبع تسير في اتجاه معاكس لما ورد في تقريرنا من توصيات، فعثرنا على القليل من الجنون وعلى الكثير من الأساليب.

ركزنا على ما اعتبرناه أكثر الأفكار جنونية، أي انشاء ما سُمي «لجنة مستعملي قناة السويس»، وجوهر هذه الفكرة أن يقوم جمهور من الوجهاء بزيارة القاهرة ليوضحوا لعبدالناصر أن تأميم القناة مرفوض عند دول العالم الأخرى، وأن عليه بعد انتهاء تسليته بالموضوع إعادة القناة إلى رجال راشدين يعرفون ادارة أمور كهذه. رأينا أنا وآيخ في تلك الفكرة مجالات واسعة لمسرحيات هزلية ساخرة (وكنا

ومعنا كيم روزفلت قد عفا محاولة العثور على شيء منطقي واحد في تلك الفوضى) فاندفعنا بكل حماس لاستغلالها فيما انهمك كيم بأعمال خفية حقاً. وتمكن فعلاً من اقناع آلن دالس ثم أخيه جون فوستر بإيفاد روبرت اندرسون (الملقب بوب الشريف) المقرب من الرئيس ايزنهاور للتهويل على العاهل السعودي بقطع عائدات النفط عنه ان هو توانى عن الانضمام إلى جبهة مناوئة لعبدالنصر تشمل المنطقة كلها. كما أرسل كيم صديقنا القديم ويلبور «بيل» ايقلاند للتأكد من تفاهم بوب الشريف مع الملك سعود.

لا ريب في ان اختيار هذين الرجلين كان بحد ذاته ضرباً من العبقرية النادرة. ذلك ان بوب الشريف لم يكن من أحذق محترفي الدبلوماسية المرموقين، فهو وان كان مترفعاً عن الصغائر، على استعداد لأن يقول لجليسه أن يرمي نفسه في البحر إذا كان في ذلك ارضاء لمرشده الرئيس ايزنهاور. وسبق لـ كيم روزفلت أن عرّف بيل ايقلاند على انه محترف ينزع إلى مخالطة الشخصيات المرموقة الأخرى الأقل منه ذكاء ولا يتوانى من جهة أخرى عن خربطة مجهودات تلك الشخصيات اذا كان في ذلك ما تنشرح له صدور المسؤولين عن ملفه الشخصي في واشنطن. أما اندرسون (بوب الشريف) فيحسن الكلام كأي مؤمن مفوه بقضية فضلاً عن ان لا مجال مطلقاً للتشكيك في انه لا يستطيع التفاهم أبداً مع أشخاص ينتمون إلى حضارات أخرى. وهكذا، ويتضافر مجهودات ذينك الشخصين لن يحصل أي سوء تفاهم أو أي غموض. وعليه عندما قال اندرسون للملك سعود ما معناه ان الولايات المتحدة ستوقف عن شراء النفط السعودي إذا توانت السعودية عن الاشتراك في حملة مناهضة لعبدالنصر ظن الملك ان أذنيه تخدعانه وسأل اندرسون بماذا سيستعوض الأميركيون عن النفط السعودي؟ فأجابه اندرسون: «بالطاقة النووية» وزكى ايقلاند قول اندرسون.

لم أقف مطلقاً على نوايا كيم آنذاك، إنما على ما علمته انه تلقى برقية بعد عودة الشخصيتين المذكورتين إلى واشنطن تفيد بأن الزيارة كانت ناجحة. بعد ذلك شبكنا كيم، آيخ وأنا، في سلسلة الاجتماعات التي أتيت على ذكرها في الفصل السابق، وفي محاولات متقطعة للتعاطف مع الحركة المناهضة لعبدالنصر التي درجت في تلك الحقبة. وتضمنت حملاتها فيما تضمنت مساعدات مالية للأردن، وتعاوناً مع البريطانيين للاتاحة بالحكومة السورية، وتقوية سبل الاتصال بعبدالنصر حتى يكون هناك حركة انقاذ مؤيدة له في حال فشل محاولات حكومتنا الرامية إلى الاطاحة به. غير ان جمعية مستخدمي قناة السويس ظلت ما ظنناه أنا وآيخ (ثم انضم كيم إلينا) أملنا الأكبر.

المفروض باختصار ان تكون تلك الجمعية منظمة مؤلفة من الدول الغربية التي تستخدم القناة، مهمتها ادارة الممر البحري وتأمين المرشدين والخدمات وتحصيل الاتاوات واعطاء مصر «حصتها العادلة» منها. أرسلت الدعوات إلى من يلزم للحضور إلى لندن يوم ١٩ أيلول (سبتمبر) ومنها كتاب إلى عبدالنصر يعبر عن الأمل بتعاونه. وفي خطاب ألقاه في حفل تخريج ضباط في سلاح الطيران المصري أعلن عبدالنصر عن نيته تشكيل «جمعية لمستخدمي» ميناء لندن من مختلف الجنسيات مهمتها السيطرة والاشراف على الميناء وأضاف بأنه ينوي أيضاً ارسال كتاب إلى وزير الخارجية الأميركي جون فوستر دالس يطلب فيه تعاونه معه. أما ما حصل في أعقاب ذلك فالكل يعرفه.

قبل لي عن وجود «محضر مباحثات» في الملفات السرية التي أفصح عنها الآن. كتبته فور عودتي من رحلة سريعة لزيارة زكريا محيي الدين في القاهرة بعيد عودة آيخ إلى واشنطن. وحسبما أذكر قدمت لمحيي الدين آنذاك رواية معدلة عما قاله آيخ لي ولكيم روزفلت. ثم سألته رأيه من فكرة براءة خطرت ببال آيخ وهو في طريق عودته من لندن إلى واشنطن، وهي انشاء منظومة نقل مشتركة تسهم بملكيتها شركات النفط ودول الشرق الأوسط العاملة في انتاج أو نقل النفط؟ أي كونسورتيوم يتألف من الحكومات وصناعة النفط يملك ويدير خطوط أنابيب النفط وقناة السويس على غرار طريقة ادارة خطوط السكك الحديدية في الولايات المتحدة.

كان ذلك قبل بضعة أشهر من العدوان الثلاثي على السويس، لذلك ليس من الصعب ادراك بأن محضري هذا وجميع الأوراق الأخرى المتصلة بالموضوع قبع في درج مكتب آلن دالس ولم يقرأه أحد. وبعد أقل من اسبوع على تراجع قوات الغزو الثلاثي عن منطقة السويس عاد آلن إلى المحضر واستمسك به خشبة خلاص وحيدة في متناوله. أعدت كتابته مراراً بالتعاون مع آيخ لتنسيقه مع ملاحظات كان فرانك وايسنر وغيره قد دونوها في الهوامش ثم أخذنا النص النهائي إلى مساعد وزير الخارجية آنذاك هيربرت هوفر الابن الذي قال: «انه حري بالتفكير به». وعليه أجاز لكل منا، آيخ وأنا القيام بزيارة نيويورك وشيكاغو وسان فرانسيسكو لمناقشة الفكرة مع المسؤولين التنفيذيين في شركات النفط الذين تعرفنا إليهم خلال اجتماعات ما سمي لجنة الطوارئ لقضايا الشرق الأوسط» التي حضرناها في الأشهر السابقة.

لم يعر أي من هؤلاء اهتماماً يذكر بفكرة منظومة النقل المشتركة، ولكنهم اهتموا بالدراسة المضنية التي انطوت الفكرة عليها، فعرضت ثلاث من الشركات الخمس التي زرناها (ستاندرد أويل - في نيو جرزي - وسوكوني موبيل، وغولف، وتكساس وستاندرد أويل أوف كاليفورنيا) عرضت علينا وظائف فيها وقالت الشركتان الباقيتان بأنهما على استعداد للتعاقد معنا بصفة خبراء شرط ان نؤمن زبائن آخرين. وبعد اسبوعين من تلك المحادثات اضافة إلى دراسات قمنا بها، على حساب عملنا في الوكالة بالطبع، صعدت خمرة الثقة بالنفس إلى رأس كل منا. وفي أعقاب حديث أجريناه مع كيم الذي تلقت ثقته بالوكالة لطمة قوية أثناء جلسة بينه وبين آلن وفرانك ورئيس قسم الشرق الأقصى حول عملية اقترح القيام بها في اندونيسيا، قررنا اعتماد مخطط للأجل الطويل نقبل أنا وآيخ بموجبه عرضاً تقدمت به شركة غولف أويل لنعمل معها بصفة مستشارين على ان ينضم كيم إلينا بعد استقراره. وفي غضون اسبوع كنا قد تعاقدنا ليس فقط مع شركة غولف بل وكذلك مع أحد أكبر المصارف العلمية واحدى اضخم شركات الطيران، شرط ابقاء تعاقدنا معها سراً لأن مراسلينا فيهما لا يرتاحون له لاقطنا بوكالة الاستخبارات المركزية. وكان دخلنا من عقودنا تلك يربو على ثلاثة أضعاف راتبنا من الحكومة.

أسباب متعددة حملتنا على القبول بصفة الاستشارية في شركة غولف، منها ان مقرها يقع في مدينة بيتسبورغ في ولاية پنسيلفانيا حيث ولد آيخ وترعرع، وانه لا يوجد في الشركة خبرة مثل خبرتي، وهي الوحيدة التي ليس فيها خبراء في الشؤون الاقليمية. فهي تحصل على معلوماتها الاقليمية من شركة بريتش بتروليوم، شريكها في شركة نفط الكويت التي تمدها بنصائح أبوية لا قيمة واقعية لها. ولا بد ان المدراء التنفيذيين في الشركة البريطانية اعتبروا شركاءهم الأميركيين أبناء عم ريفيين يجب ألا يتعدى دورهم تكديس الأرباح على ان يتركوا شؤون الشرق الأوسط لخبرة البريطانيين.

قد يكون التنفيذيون في غولف أبناء عم ريفيين ولكنهم زبائن ممتازون عند عميلين عتيقين من عملاء وكالة الاستخبارات المركزية لما يمكنها تقديمه لهم من معلومات. فهم يجهلون شؤون الشرق الأوسط وحضاراته الغريبة عنا ويدركون جهلهم هذا فضلاً عن كونهم أذكاء. رالف رودز، نائب الرئيس التنفيذي هو الذي اكتشف النفط في الكويت ولم يسبق ان اكتشف من النفط في العالم أحد أكثر منه. إنه لا يعرف الكويت ولا الشرق الأوسط ولكنه على درجة من الذكاء تكفي لتقدير الخبرة لدى مشاهدتها. أما رئيس الشركة بيل وايتفورد فمعروف بأنه أقسى وأنشط وأكثر التنفيذيين أهلية وعدوانية في صناعة النفط ان لم يكن في الصناعة الأميركية اطلاقاً. وهناك أيضاً دايفيد پروكتر، رئيس مجلس ادارة غولد وهو أشبه برئيس قبيلة هادىء الطبع يتمتع بحكمة وطول اناة وكان قد تجاوز سن الشباب رأينا فيه امكان التقدير بأن شخصين نشيطين مثلنا يحتاجان إلى عطلة قصيرة بين الحين والآخر.

وثمة الشركة عينها التي كانت قيمة موجوداتها عام ١٩٤٦ تقدر بسبعمة واثنين وعشرين مليون دولار وارتفعت إلى أكثر من ثلاثة مليارات ونصف المليار دولار خلال احدى عشرة سنة، فيما بلغ دخلها

خلال الفترة نفسها ستة أضعاف ما كان عليه . وأهم ما عرفناه عنها ان ثلثي دخلها يأتي من عملياتها خارج الولايات المتحدة: من الكويت موقع أهم مخزونات النفطية، وان كلفة انتاج البرميل الواحد أقل من ١٠ سنتات فيما تباع البرميل بدولار و٨٥ سنتاً. أبناء عم ريفيون حقاً! على الرغم من بعد تفكيري عن التجارة أدركت ان هؤلاء الرجال الثلاثة هم أكثر من مجرد مدراء في حانوت قروي . وخطري، لما كانوا رجال أعمال من أعلى المستويات، بأنهم لا شك يقدرون أهمية المعلومات التي تنقصهم ويمكن لشركة مثل «شركة كويلاند آند آينجلبرغر»، كما سمينا شركتنا، ان توفرها لهم.

وأخيراً أحببنا مهمتنا. فبدلاً من العمل لدى شركة أخرى من شركات النفط العالمية ذات المصالح في دول متعددة، انحصرت مهامنا في دولة واحدة في الشرق الأوسط هي الكويت. في الواقع لم تكن مهمتنا مراقبة الكويت بمقدار ما كانت مراقبة جميع تطورات الشرق الأوسط التي قد تؤثر في مصالح شركة نفط الكويت التي تملك غولف نصفها - ومن تلك التطورات تقلبات قلق الاسرة الحاكمة في الكويت من التطورات السياسية في العراق ومصر اللتين ما انفك قادتهما عن التفكير بخطط يقدمون هم فيها ذكاءهم بينما تقدم الكويت الأموال.

لست أظن، رغم الفاصل الزمني بين يومنا هذا والأعوام من ١٩٥٧ حتى ١٩٦٠ أن أحداً استطاع القيام بعمل دقيق ومجدي كالذي قمنا به أنا وآيخ. لقد اشتغلت بعد تلك الفترة مع شركات النفط السبع الكبرى باستثناء شركتي تكساس وبريتش پتروليوم، وثلاث من كبريات شركات النفط المستقلة واستحققت كل فلس جنيته منها. وللقرءاء الذين يطمحون ان يصبحوا مستشارين كباراً أقول: إن أقل الشركات حاجة إليكم هي الشركات الأقرب إلى التعاقد معكم. وهذا القول قابل للانطباق على الزبائن الذين تعاملوا معنا آنذاك - مصرف ضخيم، وشركة طيران عالمية ثم شركة من كبريات شركات البناء، وقد قمنا لصالحها ببعض التجسس الصناعي - وكانت كلها بمنتهى الرضا من خدماتنا طيلة فترة شراكتنا أنا وآيخ.

بيروت في صيف ١٩٥٧

وفي أواسط تموز (يوليو) ١٩٥٧ وصلنا بيروت واستقرينا في منازل مريحة وفتحنا مكاتبنا بلصق مكاتب شركة التابلاين المشرفة على ادارة انابيب النفط الممتد من الظهران في المملكة العربية السعودية إلى صيدا في لبنان، لحساب شركة النفط العربية الأمريكية (أرامكو) التي تملكها أربع من شركات النفط الكبرى السبع، أي موبيل وستاندرد نيو جيرزي وتكساكو وستاندرد كاليفورنيا. وبفضل زميلنا القديم في وكالة الاستخبارات المركزية جيم انغلتن، أخذنا نقيم الحفلات وصرنا خلال ستة أشهر نعرف بأننا نقيم أسخى الحفلات في بيروت.

لا بد لي هنا من بعض التوضيح للحفلات التي أقمناها بتمويل من قبل انغلتن. فهذا الرجل هو الشخص الوحيد في اسرة المخابرات في كل من واشنطن ولندن الذي كان متيقناً من ان هـ. آ. ر. (كيم) فيلبي هو عميل لدى الاستخبارات السوفياتية وسبق له ان قال ذلك لفيلبي نفسه في احد مطاعم جورجيتاون فأجابه فيلبي ضاحكاً: «لن يصدقك أحد» غير ان جيم انغلتن قال لي، دون أن يضحك، ان عليّ، ولو لمرة واحدة التخلي عن شعوري بالثقة بالناس وانضم إلى عدد صغير من المسؤولين في وكالة الاستخبارات المركزية الذين يؤمنون بإمكانية انتهاء فيلبي إلى الاستخبارات السوفياتية. وأضاف مقترحاً أن أراقب فيلبي (الذي سبق ان استقر في بيروت قبلنا ببضعة أشهر) وانه سيتكفل بدفع كل النفقات - نفقات الحفلات نظراً لأن عملي في مكافحة الجاسوسية هذا سيكون تحت غطاء الاتصالات والعلاقات الاجتماعية.

ما كاد يمر اسبوع أو اثنان على وجودنا في بيروت، ولم يكن قد تسنى لنا بعد مجرد التفكير بـ كيم

فيلبي حتى جاء هو لمقابلتي. كنا قد دعونا بعض الأصدقاء القدامى من أيام دمشق، ومنهم سام بوب بروار مراسل صحيفة نيويورك تايمز وزوجته اليانور عندما دخل فيلبي علينا برفقتها. تعرفت إليه وأحببته عندما التقينا عام ١٩٤٢ وكان يدرّس في فرع الاستخبارات العسكرية البريطانية آنذاك، وجاء في زيارة للولايات المتحدة ليساعد في تدريب الموظفين الجدد في مكتب الخدمات الاستراتيجية. وتكررت لقاءاتنا في واشنطن في مناسبات اجتماعية ومهنية. عندما دخل علينا في بيروت برفقة سام وزوجته قابلناه بالترحاب خصوصاً وأن زوجتي لورين وهي اختصاصية بالتنقيب عن الآثار اندهلت لرؤيته لأن أباه ساينت جون فيلبي كان يعيش مع زوجته البدوية في المملكة العربية السعودية. ومذ ذاك أخذنا ندعوه باستمرار طالما وكالة الاستخبارات المركزية تسدّد فواتير الحفلات.

لقد استحققت كل فلس دفعه لي جيم انغلتن. فقد رتبت مثلاً تعاوناً مع أحد كبار ضباط الأمن العام اللبناني لمساعدتي في بعض أعمال التجسس كوضع فيلبي قيد المراقبة ورصد تحركاته. ودلّني المعلومات التي زودني بها أن فيلبي لا يزال على عادته القديمة في التخلص من المراقبة. وجاءني من صديقي في الأمن العام أن فيلبي شوهد في بعض أغرب أحياء بيروت، الحي الأرمني القريب من طريق الشام حيث تبين فيما بعد أن له هناك شقة في أعلى طبقة من إحدى البنايات يرسل منها اشارات بالضوء الأسود إلى موظف إشارة في الاستخبارات السوفياتية يطل عليه من آلاف النوافذ الواقعة على خط بصره.

وأخيراً عرفت بعلاقاته الغرامية بإيليانور زوجة سام بروار واستنتجت بأن محركاته الخفية كانت في خدمة تلك العلاقات. بعد زواج فيلبي وإيليانور بلغت انغلتن جزيل شكري لتكاليف الحفلات (إذ لم أعد بحاجة إلى من يسدّدها عني) وقلت له بأن فيلبي وزوجته من الزوار الجديرين بالدعوة وبأن مراقبتي له ليست سوى إضاعة للوقت. ومع ذلك أصر انغلتن على متابعتها، كما استمر آل فيلبي يترددون على آل كويلاند أن في المنزل أو في القارب حتى فرّ كيم فيلبي إلى الاتحاد السوفياتي في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٣، وأرسل في طلب زوجته.

أما أحداث الشرق الأوسط التي اعتبرنا أنا وآيخ قد تؤثر في أوضاع الكويت وفي قلق الأسرة الحاكمة فكانت لحسن الحظ الأكثر تطابقاً مع كفاءاتنا: أنها التأثيرات الجانبية للعبة هذا القرن المشارفة على بدايتها حيث جلس كيم روزفلت في جهة يقابله جمال عبدالناصر في الجهة الثانية. لا بد لي هنا من التشديد على أنني رغم ابقائي في وكالة الاستخبارات المركزية على علم تام باستمرار علاقاتي الطيبة مع عبدالناصر وبعض أفراد حكومته، لم يكن لي وصول إلى معلومات عما تفعله حكومتنا في مكافحته باستثناء ما استقيته من ملاحظاتي ومن زملاء سابقين في الوكالة اختاروا إثباتي على بعض المعلومات رغم معرفتهم بأنني اعتبر العمليات المناهضة له خطأ ما بعده خطأ. وطيلة أيام أزمة لبنان في العام ١٩٥٨ تابعت تزويد رئيس مجموعة الوكالة في بيروت بكامل المعلومات عن اتصالاتي بالمصريين ولم أشعر من الناحية الثانية بأي موجب لتبليغه أي معلومات عنهم اعلم بأنها قد تكون مفيدة للوكالة في عملياتها المناهضة لعبدالناصر، حتى أن بعض أصدقائي المصريين اتهموني باللعب على الحبلين، لكنني لم أفعل. وتأكيداً لذلك أقول بأن كيم روزفلت هو الشخص الوحيد الذي تلقى تقارير شركتنا، وأنني في موقع استطيع التأكيد منه بأن كيم تعاطى مع تلك التقارير بأقصى الحرص على سربيتها. وبعد قرابة السنة استقال كيم من الوكالة، لا لينضم إلى شركتنا، بل ليتبوأ منصب نائب رئيس شركة غولف أويل (أي انه عاد وأصبح «رئيسنا» ثانية) واستأنف علاقاته الودية مع جمال عبدالناصر. لم ينتح كيم جانب عبدالناصر في خلافه المستمر مع حكومة الولايات المتحدة بل تعامل معه كصديق حول الحيلولة دون استمرار انزلاقه نحو الهاوية.

أظن انه كان باستطاعتي البقاء بعيداً عن اصدقائي في الوكالة لولا شيء واحد هو شعوري

بالحنين إليها! فقد كنا نسبح في الأموال ونعيش كالأمركيين الأثرياء خارج بلدهم (بيوت فخمة والكثير من الخدم، الخ.) نعاشر طبقة رجال الأعمال الأثرياء في بيروت، ومع ذلك افتقدت اصدقائي واجتذبتني مركز الوكالة كما يجتذب الفراشة نور السراج. إضافة إلى ذلك كانت المباراة القائمة مع عبدالناصر قد قاربت درجة الغليان عندما فصلت الوكالة إلى فريقها في بيروت عدداً من الأصدقاء القدماء من مختلف مراكز الشرق الأوسط الأخرى وكذلك من واشنطن وبينهم بعض «الشباب اللامعين» المنتمين إلى أركان العمل السياسي الذي لم يكن قد مضى وقت طويل على استقالي منه.

وما زاد في حنيني بروز الخلافات بين الوحدات ذات الاختصاص بحيث وجدت نفسي أقوم بدور الأب الروحي فأستمع إلى تدمير مختلف الفرقاء وأقف بالطبع على معلومات عما يجري في عالم التآمر والخداع والعمليات المخفية. أما رئيس فرع بيروت وهو عادة صديق مقرب فقد اعتبرني خصماً له. ورغبة مني في اظهار حسن النية تجاهه درجت على زيارته أكثر من مرة في الاسبوع لأشير عليه كيف يدير وحدته. قد يظن المرء بأنه قدّر حسن نيتي ومساعدتي حق قدرها، لا، بل قال لي: بألا أتدخل بشؤون لا تعنيني. وما أن أخرج من مكتبه حتى راح يرسل البرقيات راجياً ومستعظفاً ريتشارد هيلمز إبعادي عنه. ولكن لا يمر وقت طويل حتى ترده برقية من الأخوين دالس يطلبان إليه فيها «الوقوف على رأي كوبلاند وآيخلبرغر حول الوضع» فيقفز عن مقعده ليرتطم رأسه بالسقف. لم يفهم المسكين أبداً انني ما كنت أقصد إلا مساعدته.

أحجمتُ حتى الآن عن ذكر بعض الأسماء ولكن لما كان رئيس الفرع هذا قد انتقل إلى العالم الآخر بات باستطاعتي المخاطرة بإغضاب جماعة الأمن في الوكالة. إنه غصن زغبى الأمريكى اللبناي الأصل، رجل ممتاز بكل معنى الكلمة إضافة إلى تفوقه المهني. لم تكن عداوته الحقيقية موجهة لي بقدر ما كانت موجهة لأحد الأصدقاء القدامى في الوكالة. أنه ويلبور ايقلاند. مسكين ويلبور فقد استهلكت المسكرات طاقاته وتصحّ فيه مقولة «انه عدو نفسه اللدود». كان لقاؤنا الأول به أنا وآيخ في العام ١٩٥٤ في القاهرة حيث جاء برفقة العقيد آل غيرهارت لاقناع الرئيس جمال عبدالناصر بأن عدوه الحقيقي هو الاتحاد السوفياتي وليس اسرائيل، رغم كل الشواهد المناقضة لذلك. ما ان شاهده آنذاك حتى احببته، على العكس من آيخ، لأنه أخبرني في الدقائق الأولى للقاءنا بعدم اقتناعه بالمهمة وبأن «جون فوستر» ألحقه بالعقيد للتأكد من تبليغ الرسالة لعبد الناصر «بشكل له رنة الواقعية» وكانت آنذاك كلمة «واقعية» لا تعني شيئاً لمن يتلفظ بها بل يُترك تفسيرها لمن يسمعها. كما ان ذكره اسم «جون فوستر» هكذا جعلني اعتبره من الشلة لأن كيم روزفلت هو الوحيد في الوكالة الذي يسمح لنفسه بالإشارة إلى وزير الخارجية باسمه الأول.

تطابقت آراء باقي أفراد فريق الوكالة في القاهرة مع رأي آيخ، وبعد اجتماع سريع معهم (كنت آنذاك كما تذكر «خريجاً وفيّاً» أما آيخ فمن أهل البيت) وأجمع الرأي على اللجوء إلى خطة قديمة متبعة في الوكالة في معاملة الزوار الذين نريدهم أن يشعروا انهم منا دون أن نعتبرهم منا حقيقة. أما الخطة فهي ألا نخبرهم بشيء ذي قيمة إنما بشرح مستفيض أي ما كثر دون أن يدل وبتكتم شديد مصطنع. ولما كان ويلبور من شلة الذين تعرفون ماذا، أكل الطعم...؟

اكتسب ويلبور تقدير كيم خلال الفترة الفاصلة بين زيارته الأولى للقاهرة وانتقاله إلى بيروت ليساعد غصن زغبى، أوليعرقل له عمله، حسب الظروف يوماً بيوم. فقد صار صلة الوصل بين كيم ونظرائنا البريطانيين حول قضية السويس، ينقل إليهم ما كثر دون أن يدل ويأتينا بمثيله من عندهم وما كنت لآتي على ذكر خلافه مع غصن لو لم يكن من النوع الذي يكثر حصوله في عالم الدبلوماسيين والجواسيس وأصحاب المقامات الرفيعة من تهريج لا يحصل فعلاً في الوكالة وان ملأ أفلام التلفزيون عنها.

انتخابات عام ١٩٥٧ في لبنان

كان التدخل في الانتخابات اللبنانية عام ١٩٥٧ احدى العمليات التي شرعت بها الوكالة من ضمن محاولاتها لمكافحة نفوذ عبدالناصر الآخذ بالتوسع نتيجة لمبدأ ايزنهاور. بل يجوز القول الوقوف بوجه تدخل سوريا ومصر فيها، حفاظاً على مصالحنا ومصالح لبنان ومصلحة «العالم الحر» بكامله. ولأسباب فأتتني آنذا، وأنا على يقين من انها ستفوتني الآن لو حاولت البحث عنها والتدقيق في موجباتها كان للوزير «جون فوستر» ولسفيرنا في بيروت دونالد هيث ولغصن زغبى مرشح كل واحد منهم من المرشحين الطيبين انما لكل منهم نقطة ضعفه.

أبدى ويلبور مهارة فائقة ليس فقط في افساد محاولات السفير هيث الرامية إلى الالتفاف على أوامر الوزير دالس التي تقفز فوق السفير والسفارة بل كذلك في تضليل الشخصيات القادمة من واشنطن بين الحين والحين للتيقن من حسن تنفيذ الوكالة والمسؤولين في السفارة والأشخاص «غير الرسميين» للتعليمات المتصلة بالترويج لمبدأ ايزنهاور. وعلى الرغم من كفاحه المستمر ضد مسؤولي الوكالة في بيروت والاداريين في واشنطن بشأن الاسراف في النفقات حافظ على علاقات طيبة مع الأخوين «آلن» و«جون فوستر» مستمراً في دوره داخل اوركسترا كيم روزفلت الموجهة ضد عبد الناصر. من هنا ما زلت اعتبر الفترة بين عامي ١٩٥٧ و١٩٦٠ على انها حقبة ويلبور ايقلاند في السياسة العربية الاميركية.

ما انفك الرئيس جمال عبدالناصر طيلة السنوات التي تلت تأليف «شركة كويلاوند آند آيغلبرغر» مباشرة، يسجل الانتصار تلو الانتصار فيما كانت الوكالة ووزارة الخارجية تنهزم أمامه مع الاصرار على احراز النصر النهائي - نصر على عبدالناصر وليس على القوى الوطنية المناهضة لاسرائيل ولكل ما هو اميركي والتي استساغ الوزير دالس تسميتها «الشيوعية الدولية». إن متابعة اللعبة عن كثب أشبه بمحاولة حسم النقاش بين ولدين حول من بدأ الشجار بينهما، فكل منهما يقول: «بدأ الشجار عندما ردّ لي لكمي». فالرئيس عبدالناصر قال ان حصوله على الاسلحة السوفياتية عام ١٩٥٥ مجرد جواب على رفضنا امداده بها يوم كانت طائرات اسرائيل تنز على علو منخفض فوق القاهرة خارقة جدار الصوت فتحطم زجاج نوافذ الفنادق. أما نحن فادعينا بأن الحركة الأولى في اللعبة كانت صفقة الأسلحة السوفياتية وان سحبنا عرض المساعدة في بناء السدّ العالي (الذي اعتبر عبدالناصر الاعلان عنه في الصحف إهانة) كان «ردة فعلنا» عليها. وكوّرت السبحة: تأمين ترعة السويس، فالعدوان البريطاني الفرنسي الاسرائيلي على مصر ثم مبدأ أيزنهاور.

على الرغم من انعدام الخبرة الاختصاصية في اعلان المبدأ المذكور، ظن البعض منا ان بالامكان استعماله غطاء لبعض التحركات الرامية إلى متابعة النقاط التي كسبناها لدى عبدالناصر عند معارضتنا للعدوان الثلاثي على مصر. لكن للوزير دالس رأياً آخر. فقد سارع إلى الاعتراف بأنه تعاطف سرياً مع البريطانيين ولم يسكتة عن المجاهرة بذلك إلا معارضة الرئيس ايزنهاور للهجوم في خطاب ألقاه. ثم جاء حبس شحنات القمح عن مصر وكذلك المساعدات المالية فيما كانت تصارع لاجلاء غبار حرب السويس، فاستغل عبدالناصر كل ذلك أحسن استغلال في حملاته الدعائية وفي عملياته الخفية في مختلف الدول العربية. لقد حاول مرتين الاطاحة بالحكم في الاردن وفشل، وفشلت الوكالة في محاولتين لقلب النظام في سوريا. أما الفرق فكان ان عبدالناصر سوى أموره مع الملك حسين، بينما استمرينا نضغط على سوريا حتى فقدنا آخر أمل لنا فيها. في ذلك الوقت دأبت الولايات المتحدة على تقديم المساعدات للدول العربية الصديقة فيما راح السوفيات يقدمون المساعدات العسكرية لدول غير صديقة لنا وان لم تكن بالضرورة صديقة لهم. أدرك اختصاصيو الوكالة بالشؤون السوفياتية ذلك الواقع فيما أحجم الاخوان دالس عن ادراكه. فبالنسبة إليهما كل دولة مناهضة لأميركا هي حكماً دولة شيوعية.

يؤسفني ان ليس في حوزتي نسخ عن جميع التقارير التي بعثنا بها إلى شركة غولف أويل في بيتسبورغ خلال تلك الفترة وما زلت أذكر ان رؤساءنا هناك سرّوا للطريقة التي ابقينا فيها على حصة غولف من الأرباح على مستواها. فقد كانت نظرتنا إلى مهمتنا انها لم تكن فقط ارشاد الشركة ولا الكويّتين إلى ما يجب ان يخشوه بل وكذلك ما يجب ألا يخشوه. ومن خلال عملنا هذا تعلمنا درساً جديداً بشأن العمل الاستشاري.

طلب منا رئيس شركة غولف بيل وايتفورد ألا نحاول تسويق المبالغ التي نتقاضاها بالاكثار من التقارير عن كل ما نشاهده. وقال: «ليس لدينا الوقت الكافي هنا للقراءة». وصدف ان سكرتيرته سرّبت لنا انه بعد اجتماع لمجلس الادارة سأل رالف رودز، وهو أهم صلة لنا بالشركة، «لماذا ندفع الرواتب لهذين الرجلين؟» جاء استفهامه هذا بعد مرور شهر على بدئنا بارسال رسائل إلى الشركة نقول فيها ان لا تطورات جديدة. عند تبليغنا رسالة السكرتيرة عمدنا إلى استعمال طريقة الوكالة القديمة: «قل لهم ما كثر وقل دلالة، وأحطه بهالة من السرية والتكتم». رأينا في غمرة تسطير التقارير للشركة أن لا بأس من ادخال بعض الظرف فيها إضافة إلى بلاغتنا وسعة اطلاعنا فاعتمدنا اسلوباً في التقارير جعلهم «يشعرون» حقاً باجواء الشرق الأوسط حيث مصدر معظم مداخلهم.

اتبعنا الطريقة عينها مع شركة الطيران والمصرف المتعاملين معنا وفي غضون سنة ارتفع عدد زبائننا إلى سبعة. ثم استقال كيم روزفلت من وكالة الاستخبارات المركزية وانضم إلى شركة غولف أويل برتبة نائب الرئيس المختص بالعلاقات مع الحكومات الأجنبية مستقراً في مكتب فخم في واشنطن. لم يطل الأمر كثيراً حتى بعث إلينا بكتاب مطلعته: «هذه أصعب رسالة أكتبها على الإطلاق» وانتقل من تلك العبارة إلى الاعتذار عن الاجراء الذي اتخذ مُصراً على ان وجوده داخل شركة غولف أويل فيه فائدة لنا جميعاً. وبلهجة أكثر جدية بلغنا انه ذلك الحين فصاعداً علينا ارسال جميع التقارير إليه لا إلى رالف رودز. ففعلنا وإذا به بعد فترة وجيزة يجني الدولارات السمينه، حسب علم رودز. أما نحن فكنا نستلم حصتنا دون تحصيلها بعرق الجبين فيما الشركة تجهل ما نرسله إليها عبر مكتب كيم في واشنطن.

أحدث انتقال كيم من الوكالة إلى الشركة تغيرات في حياة كل منا (أنا وآيخ). فبانقله إلى مكتب في واشنطن يليق بشخصية نفطية رفيعة المقام استطاع بسهولة الحفاظ على علاقات اجتماعية ودية مع كبار المسؤولين في وكالة الاستخبارات المركزية لقرب المسافة بينه وبينهم. قبلنا بحماس ان يحل كيم محلنا في عقدنا مع الشركة من جهة ومع الوكالة من جهة أخرى حسب ترتيب اعتبرته ملائماً ولم يعتبره آيخ إلا مجرد نافع. وأخذ آيخ يتلصق بالعمل ويشكك في هويته الضارة ويشكو من أزمات منتصف الحياة ويعبر عن حاجته إلى الاسراف في المجون، فأدركت ان نهاية شركتنا قد دنت. وفي نهاية العام ١٩٥٩ فسخت شركة غولف عقدها مع «شركة كويلاند آند آيملبرغر» بينما استمرت أنا أعمل لدى زبائننا الآخرين وطلق آيخ زوجته واستقر في باريس. ومع ان شركة غولف وكيم استغنت عن خدمات آيخ استمرت أبعث بالتقارير إلى غولف عبر مكتب كيم في واشنطن مع الاحتفاظ بعلاقاتي بالزبائن الخمسة أو الستة الآخرين. تمكنت بذلك التدبير من تفادي مشاكل التمويل ومن الحفاظ على مظاهر العلاقات الطيبة مع أصدقائي القدامى في الوكالة علماً بأنه عندما يبعث كيم بتقاريره إليهم يشير إلى انها تأتيه «من مصادر عليمة جداً وموثوقة جداً».

منذ العام ١٩٦٠ وحتى وفاة عبدالناصر في العام ١٩٧٠ كانت أهميتي الأساسية لشركة غولف وزبائني الباقين وللوكالة ولكيم وحتى لنفسي، استمرار علاقتي بأصدقائي في مصر. وقرابة منتصف أحداث العام ١٩٥٨ في لبنان بعث زكريا محيي الدين بأحد كبار ضباطه إلى بيروت للاتصال بي وبسفير مصر فيها عبدالحميد غالب، فيما راح غصن زغبى و«قيادته الاقليمية» يجيشون طابوراً من منتجي

الأفلام والدعائين ومهندسي الصوت والصيادلة المختصين بعقاقير التأثيرات النفسية وتشكيلة من الاختصاصيين المختلفين الذين يحسنون العربية والكردية والأرمنية وغيرها من اللغات المحكية في المنطقة. وهكذا، وفيما كان سادتنا الحكام في واشنطن يتشدقون بالمواقف ويلقون باللائمة على «الشيوعية الدولية» بوصفها سبب كل علل العالم، دأب الاختصاصيون بالعمل السياسي بلملمة ما أمكن من الحطام للحفاظ على التوازن بين فريقَي الحرب المصطنعة في حقيقتها. ولا وجوب للقول بأن التقارير عن اجتماعات متعددة ضمت زغبى وكبار أعضاء فريقه والسفير المصري ومبعوث زكريا محيى الدين وحضرتها أنا أيضاً في منزل أحد وجهاء بيروت إبان احتدام أحداث لبنان عام ١٩٥٨ - لا وجوب للقول بأنها أرسلت بالطريقة الروتينية إلى مقر الوكالة في واشنطن بحيث لا يطلع عليها من هم أرقى رتبة من الضابط المختص بشؤون المنطقة.

من هنا يجوز تشبيه ما تسميه الحكومة الأميركية فِرَق عملها الفعلي بالسماك السابح بهدوء في الأعماق غير آبه بالانواء المزججة فوق سطح الماء، إذ ما انفكت تلك الفرق تخرج من هزيمة لتغوص في أوحال معركة خاسرة آملة في نهاية المطاف بتحقيق الظفر الأخير. أما «فريقي المصري»، كما كان يسمي الزغبى جهدي المتواضع فشهد قيام الوحدة التي هندسها عبدالناصر بين مصر وسوريا، وتعايش مع تفككها واستمر حياً إبان ضلوع عبدالناصر في قضية اليمن وفشله في محاولتي انقلاب في الأردن، ثمّاً كما بقي «فريق دالس» على قيد الحياة رغم عدد من النكسات ابتداء بقلب نظام الحكم الموالي للغرب في العراق وانتهاءً بفرض عبدالناصر الحصار على ميناء العقبة واجبار قوات الأمم المتحدة على الخروج من سيناء. لقد كان لعبدالناصر صراعه مع موقف الحكومة الأميركية المؤيد لإسرائيل ومع اصرار دالس على البحث عن وجود «الشيوعية الدولية» وراء كل شيء، بينما كان ينبغي عليه الإدراك أن ما يحصل إنما هو بدافع القومية الوطنية لا بفعل الشيوعية الدولية. أما نحن الأميركيين فقد انشغلنا بتزايد قوة اندفاع عبدالناصر واصراره على قضم أكثر مما يتسع له فوه.

الفصل العشرون

عبد الناصر ونقطة الارجوع

عدت إلى القاهرة لأجد ان سياسات «مصر أولاً» التي اتبعها زكريا محيي الدين تحتضر وعلى وشك ان تنبثق عنها حقبة من اللعب السياسي أكثر إثارة من أي حقبة أخرى عايشتها في حياتي. ففي آخر محاولة لاقتناع عبدالناصر باتباع سياسة «مصر أولاً» طلب زكريا محيي الدين من رجل الدولة والممول الأميركي الشهير روبرت أندرسون (بوب الشريف) اختيار فريق من أصحاب الملايين الأميركيين من أصدقاء الرئيس جونسون واصطحبهم إلى مصر ليشاهدوا بأنفسهم ما يقوم به من أعمال، بغية إثارة اهتمام الرئيس الأميركي وإدارته «بالعجلة التي تحاول التوقف عن الصرير». وفي أوائل العام ١٩٦٧ رافق سفير مصر في واشنطن محمد حبيب عدداً من أثرياء ولاية تكساس في زيارة لمصر للتعرف إلى الرئيس عبدالناصر وللحصول على انطباع مقبول عن الاقتصاد المصري والعودة به إلى الرئيس جونسون. نجحت الزيارة ولكن ومن أجل تدعيم حسن الانطباع كان على زكريا محيي الدين تقليص الجيش وتسريح موظفي الحكومة الفائضين عن الحاجة وإعادة الصناعات المؤممة إلى القطاع الخاص. رضي الشعب المصري بالتقشف المفروض، ولكن المساعدات الأميركية الإضافية لا توازي ما طلبه زكريا محيي الدين من توضيحات تقشفية جديدة.

أخيراً تسنى للمسؤولين في سفارتنا في القاهرة ما يفرزون فيه اسنانهم: تزايد التملل في صفوف الشعب! ونتج عن ذلك تزايد الرضا في واشنطن عن سياسات زكريا محيي الدين «المؤيدة لأميركا». في الوقت نفسه أخذنا ندرك ان الاسرائيليين لم يكن فقط بمقدورهم التعاطي مع اعدائهم، بل انهم يكرهون قيام منافسين لهم. فما أن شعروا بوجود بوادر تعاطف في واشنطن مع سياسات زكريا محيي الدين حتى كتب الفشل لحكومة عبدالناصر.

أخذت الأحداث تتوالى وراح الاسرائيليون يستجلون النقطة بعد النقطة على استاذ اللعبة، الرئيس عبدالناصر، يستدرجونه من فخ إلى آخر مسددين له الضربة تلو الضربة بين الفخ والفخ، فيما هو يزداد شعبية ويحول الهزيمة إلى فوز مهيب، وهو فوز يخدم مصالحهم أكثر من خدمته مصالحه.

باختصار مُبَسَّط جداً، بدأت الحكاية بخطوات من جانب زكريا محيي الدين. ويبدو ان الخطوة الأولى كانت تقريراً سرّبه الاسرائيليون إلى السفير المصري في بروكسل لخصوا فيه تصريحاً لمندوب أميركي أدلى به في أحد اجتماعات حلف شمال الأطلسي وجاء فيه ان محاولات الحكومة الأميركية «العمل مع العرب» لوضع خطط من أجل الدفاع عن الشرق الأوسط، أخفقت بسبب «تقاعسهم عن التعاون» معها ضد الدعاية المعادية لأميركا الصادرة عن اذاعات القاهرة من جهة، وتعاضم الصداقة المصرية السوفياتية من جهة أخرى. وانتهى التقرير إلى التأكيد بأن الولايات المتحدة شرعت فعلاً بوضع خطط للدفاع عن مصالحها في الشرق الأوسط قوامها تركيا واسرائيل.

أعقب ذلك سلسلة من الغارات الاسرائيلية الخاطفة على سوريا والأردن ادّعى الاسرائيليون بأن غايتها «الاقتصاص» من الهجمات الفلسطينية على اسرائيل. ولما عجز عبدالناصر عن الحصول على أي معلومات ثابتة عن النشاط الفلسطيني في تلك الحقبة، رأى ان تصرف اسرائيل جزء من الاستعدادات لاقامة «محور اسرائيلي تركي». (لا أستطيع توضيح العلاقة. كل ما أعلمه، حسبما قاله حسن التهامي آنذاك انه يرى العلاقة وأقنعني بأن عبدالناصر يراها أيضاً). وعندما دمرت غارة اسرائيلية قرية السموع

السورية* أعلن الاسرائيليون بأن الغارة لم تكن لمجرد العقاب بل لتدمير قاعدة شرع السوريين بينائها لتقوم منها قوات نظامية سورية بهجمات تخريبية على اسرائيل. وبعد غارة مشابهة على قرية سورية أخرى ألح رئيس وزراء اسرائيل ليفي اشكول إلى ان الاسطول الاميركي السادس يرسو على مقربة من الشواطئ لدعم اسرائيل في حال قرر السوريون ان الوقت حان لقيام حرب فاصلة ضد اسرائيل، وانطلقت الخدعة، واعتبر السوريون ان الوقت قد حان فعلاً.

أخذ الاسرائيليون يتبعون الاستفزاز بالاستفزاز في حملة مقرونة ببرنامج حاذق من المعلومات التضليلية اتخذ منحنيين: حمل الأول عبدالناصر على الاعتقاد بأن اسرائيل على وشك شن هجوم واسع على سوريا هدفه الاظهار ان مصر لا تقوى على مساعدتها؛ وحمل العالم على تصور العكس أي ان عبدالناصر يُعد لمهاجمة اسرائيل. ثم جاءت أكثر الحركات دهاءً. ففي رسائل عسكرية سرية مكتوبة بالشفيرة تبادلتها الاسرائيليون فيما بينهم وهم على ثقة تامة بأن السوفييات سيلتقطونها ويحلون رموزها، أوهموا العالم بأنهم يخادعون. وعليه انبأ السوفييات عبدالناصر، تماماً كما خطط الاسرائيليون، ان باستطاعته التصرف باطمئنان بالظهور بمظهر القوة في عمل ما يظهر للمعجبين به من مؤيديه العرب بأنه «بطل وحامي الحمى».

كان عبدالناصر في تلك الأثناء لا يزال في وضع من الارتباك الشديد (وأظن بأنه أدرك ان الاسرائيليين قد فاقوه حنكة) حمله على الاعتقاد بأن أقل وسائل «عرض العضلات والقوة» كلفة وأسهلها المطالبة باجلاء قوات الأمم المتحدة عن الحدود المصرية الاسرائيلية في منطقة البحر الأحمر وإحلال قوات مصرية محلها. لا ريب في ان طلباً كهذا في مثل تلك الظروف مدعاة لاستهجان شديد. ولكن الأمين العام للأمم المتحدة يوثانت فاجأ الجميع، ومنهم عبدالناصر، بالاستجابة للطلب. وهكذا تحول عبدالناصر إلى أسير طلبه، ولم يعد في وسعه التراجع عنه دون تحمل خسارة معنوية فادحة، كما لم يبق امامه سوى حركة واحدة يقوى عليها: فحاصر مضائق تيران وحرم الاسرائيليين من الوصول إلى ايلات مينائهم الوحيد على البحر الأحمر. ومما زاد الوضع سوءاً ان تصرفاته تلك قوبلت بالترحيب العارم في الدول العربية وعلى رأسها سوريا. فألقى خطاباً لا بد لأي زعيم عربي أن يلقي مثله في ظروف مماثلة، تضمن عبارات مثل «نحن على استعداد لمجابهة اسرائيل...» و«نحن نقرر الزمان والمكان، لا اسرائيل». كلام حماسي ينطوي على التهور، إنما استساغه مستمعوه العرب واغتبط له زعماء اسرائيل إذ كانوا بانتظار مثل تلك الفرصة.

أما بخصوص ما حدث في أعقاب ذلك فإنني أتكلم من خلال خبرتي الشخصية. فقبل يومين من استغلال الاسرائيليين للفرصة التي قُدمت لهم على طبق من فضة قال وزير خارجية مصر للموظف في السفارة الأميركية ريتشارد پاركر ان عبدالناصر عني كل كلمة تفوه بها وانه من الأفضل ان تحاول حكومتنا البحث عن وسيلة «لنزع فتيل الوضع المتفجر». بطريقي إلى بيروت صباح اليوم التالي مررت بذكرى محيى الدين وسمعت منه قولاً مماثلاً. وفوق ذلك قال لي ان الأثير ازدحم بالبرقيات المتبادلة أثناء الليل بين القاهرة وواشنطن وان الولايات المتحدة ستقوم بكل ما في وسعها من أجل السلام. وأضاف زكريا، وهو نائب رئيس الجمهورية والشخصية الثانية في مصر بأنه سيجتمع إلى نائب الرئيس الأميركي هيوبرت همفري على متن طراد أميركي في البحر الأبيض المتوسط، وسيوصلون إلى اتفاق ما، أي اتفاق، يمكن مصر من الاستجابة إلى رغبة الرأي العام العالمي وسحب قواتها من المنطقة العازلة ثم يدعو عبدالناصر قوات الأمم المتحدة للعودة إلى مواقعها. وأنهى زكريا كلامه بالقول: «وهكذا ينتهي كل شيء».

* إذا كان المقصود بلفظة Samu قرية السموع في منطقة الخليل الجنوبية، فإن اسرائيل شنت هجومها على القرية المذكورة بتاريخ ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٦. ولا توجد قرية سورية بهذا الاسم. هناك خطأ او التباس. ربما كانت سَمُخ هي المقصودة.

أجبتة قائلاً: «يا زكريا، من المفروض ان استقل الطائرة ظهراً إلى بيروت، كما ان الطائرة المتوجهة إلى لندن تطلع في نفس الوقت تقريباً. وبعد سماعي ما قلته لي سأركب الطائرة الثانية لأبتعد إلى أقصى ما يمكن عن الشرق الأوسط. فالإسرائيليون ليسوا مجانين ليفوتوا على أنفسهم الفرصة التي منحهم إياها جمال (الرئيس عبدالناصر). لقد قضوا سنوات في انتظارها مع علمهم التام بأنها قد لا تُتاح لهم ثانية». وبالفعل توجهت إلى لندن. وفيما كان زكريا يحزم حقائبه راجياً الاجتماع بنائب الرئيس همفري، ضرب الإسرائيليون ضربتهم ودمروا أسلحة طيران مصر وسوريا والأردن وقتلوا ألفاً من جنود الدول الثلاث (ولم يفقدوا إلا أقل من سبعمئة قتيل) واحتلوا بعضاً من أراضيها ولا يزالون (باستثناء سيناء التي أعادوها لمصر في أعقاب اتفاق عقده مع السادات خليفة عبدالناصر).

هل انتهى جمال عبدالناصر؟ كلا! مساء ٩ حزيران (يونيو)، أي بعد يوم واحد من قبوله وقف إطلاق النار ألقى عبدالناصر خطبة فعل الندامة فأبكت الأمة بأسرها معلناً استقالته، دون سابق بحث في الأمر مع أي من وزرائه، وتعيين زكريا محيي الدين رئيساً للبلاد. وصلت القاهرة في اليوم التالي وقيل لي ان الصمت والجمود سادا مصر كلها فيما كانت مكبرات الصوت تنقل خطبته والجهاهير مستمرة على الأرصفة تستمع بوجوم، ولولا صوته لكان يُسمع رنين سقوط دبوس على الأرض. وما ان انتهى من إلقاء خطبته حتى انفتحت أبواب الجحيم فراحت زمامير السيارات تزعق والجهاهير تجهش بالبكاء وانضم المشاة في الشوارع بعضهم إلى بعض كأنهم في مظاهرة نظمت مسبقاً يهتفون: «جمال، جمال»، بصوت واحد شقَّ عنان السماء.

أخبرني حسن التهامي الذي أقلني بالسيارة من المطار ان عبدالناصر لم يخبر أحداً ممن كانوا في منزله بمضمون الخطاب ولم يستثن أحداً حتى أقرب الناس إليه مثل عبدالحكيم عامر ومحمد حسنين هيكل، علماً بأن ترتيبات كثيرة قد اتخذت مثل تركيب مكبرات الصوت واحتياطات أمنية أشارت كلها إلى ترقب شيء هام. أخذت البرقيات تنهال على القاهرة من جميع أنحاء العالم العربي تناشد عبدالناصر البقاء في منصبه و«الثأر لذلك اليوم!» فقبل الرئيس جمال عبدالناصر المناشدات «ونزل عند إرادة الشعب» فارتاح العرب وكذلك إسرائيل (وهي بحاجة إلى عبدالناصر العدو لا إلى زكريا محيي الدين المعتدل).

كان ذلك درساً لن أنساه تكونت خطوطه الكبرى في ذهني من الاذاعات والصحف التي اطلعت عليها في لندن. وصلت القاهرة في ١٠ حزيران (يونيو) وعلمت من حسن التهامي ان امتعتي قد نقلت من شقتي إلى جناح في الطابق العاشر من فندق هيلتون حيث أقمت لستين متتاليتين. أمضيت اليومين التاليين لوصولي بأصدقائي المصريين القدامى الذين استطعت العثور عليهم (لم أتمكن من الاجتماع إلى زكريا) وبأصدقائي في ما تبقى من سفارتنا وبمختلف المراسلين البريطانيين والأميركيين الذين تجمعوا في الفندق. قضيت يومين في اعداد تقرير لزيائتي ثم سافرت إلى باريس ومنها إلى واشنطن حيث اطلعتني اصدقائي في وكالة الاستخبارات المركزية ان الوكالة تتبعت تطور الأحداث منذ البداية وأنهم رأوا بوضوح أكثر مني ان «تصرفات زكريا محيي الدين الموالية لأميركا» لم تُحمل على محمل الجد في وزارة الخارجية وفي البيت الأبيض.

عدت بعد اسبوعين إلى القاهرة لأجد ان اصدقائي المصريين تعلموا الدرس جيداً. فبعد الحكيم عامر، رئيس أركان الجيش المصري وصديق عبدالناصر الحميم، قابع في بيته يلحق جراحه ويستعين بتدخين الحشيش. وزكريا محيي الدين استقال من رئاسة الوزارة للمرة الثانية وراح يولي اهتمامه لمزرعته في المحلة الكبرى. وحل محمد حسنين هيكل محل عبدالحكيم عامر في صداقة عبدالناصر وصار صلة الوصل بين عبدالناصر وبقايا سفارتنا التي تحولت بعد قطع العلاقات الدبلوماسية إلى فرع المصالح الأميركية في السفارة السويسرية، وكذلك رفيقي الدائم في كل زيارتي لعبدالناصر في اجتماعي الأول به

بعد الحرب استقبلني عبدالناصر بحرارة، خصوصاً بعد أن أعربت له عن اعتقادي ان بإمكان مصر الاستمرار في علاقات مع الغرب مفيدة للفريقين عبر المضي في حسن علاقات عملية بحثة لا سياسية، مع المؤسسات التجارية الأميركية، ومن ضمن ما يراه ضرورياً لما يعتبره «مصالح أميركا السياسية».

من دون أي تفسير لكيف وأين ومتى حصل ذلك، قال لي انه سمع لتوه كلاماً مشابهاً من فم صديقنا المشترك روبرت اندرسون (بوب الشريف). حملني ذلك الاجتماع على إعادة النظر كلياً في عملي الاستشاري. فاجتمعت في اليوم التالي بممثل شركة ستاندرد أويل أوف انديانا في مصر، وبممثل شركة طيران بان أميركان الذي عيّني مستشاراً لقاء دفع فواتيري في فندق هيلتون. ثم ذهبت إلى بيروت حيث انتدبت مستشاراً لشركتين للكمبيوتر والاليكترونيات ولشركة بناء كبرى وعدتها جميعاً بحسن المعاملة في مصر والمملكة العربية السعودية.

وكان باستطاعتي تقديم المزيد من الوعود ذلك ان تقاريري لزبائني الأوائل وتوقعاتي الدقيقة عن حرب الأيام الستة وتأثيراتها المتوقعة في سير أعمالهم ساهمت كثيراً في زيادة الطلب على خدماتي. أما الخطوط العريضة التي اعتمدتها في خدماتي فكانت محصورة في النقاط الخمس التالية:

- - إن الغاية، من حيث مصلحة زبون بمفرده، تقديم ادارته المركزية بالمعلومات اللازمة لتتخذ الادارة القرارات الصحيحة بشأن امكانية استمرارها في العمل المربح من جهة والضامن لسلامة موظفيها من جهة أخرى في البلدان التي لها فيها توظيفات مالية.
- - اننا في جميع الحالات نجمع المعلومات في البلد المعني نفسه وليس عنه وبوسائل مشروعة وعلنية.

● - إننا نستقي معلوماتنا الأساسية (بالمقارنة مع «معلومات عامة» - شائعات وثرثرة صالونات، الخ.) من الآراء العلمية والتقديرات العقلانية لدى المسؤولين في الشركة التي تتعاطى معنا. ذلك اننا نجري بانتظام دقيق مقابلات مع جميع موظفيها الذين سبق ان تأكدنا من سلامة معلوماتهم وصدقها، والقادرين على تفسير الأحداث المحلية في ضوء الحضارة المحلية.

● - استطعت في نهاية الأمر اقناع زبائني الكبار (أهمهم شركات النفط) بأن موظفي مكاتبهم المختصة بالعلاقة مع الحكومات يجب أن يكونوا ممن يحسنون اللغتين ويشعرون بدقائق الحضارة المحلية وقادرين أيضاً على إقامة علاقات طيبة مع الشرطة ودوائر الأمن بغية الحصول على معلومات ذات طبيعة عامة. إن أهميتي كمستشار نابعة من انني أجمع المعلومات من جميع المكاتب المختصة بالعلاقات بالحكومات وأصهرها معاً ثم أعدّ التقارير لكل زبون حسب حاجته.

● - عندما أصبحت جهودي الاقليمية معروفة (لست اعتمد السرية بنشاطها) تحولت مكاتب العلاقات الحكومية هذه ومكاتبني في بيروت والقاهرة إلى ملققي لجميع أصناف مروّجي الاشاعات، ومخططي المؤامرات، وبائعي المعلومات، ودعاة القضايا المختلفة - اضافة إلى عملاء السفارات (ومنها سفارتنا) وعملاء الحكومة المحليين. واتبعتنا في مكاتبني الطريقة الكلاسيكية لتحليل المعلومات: لا تسئل عن «ماذا» انما سئل عن «لماذا». قد تأتيك المعلومات من نوع رديء ولكن مجموع الحقائق، وأنصاف الحقائق، والأكاذيب المقصودة لخدمة أغراض شخصية، يكمل الأحجية التي تشكل التفهم.

إن النجاح الذي لقيته عائد إلى القدرة على تقبل المتناقضات وإلى نوع من المهارة في مساعدة زبائني على التكيف معها بإبعاد مصالحهم عن سياسات حكومتنا دون التنكر لها. علي المستشار السياسي ان يكون حاذقاً في تفهم وتقدير ماهية ومدى أصالة المشاعر المعادية لأميركا وقادراً على مقاومة اغراء التعاطف معها. قد يكون الشعور بالكراهية الذي يكنّه الكثيرون من الأجانب لنا صادقا. ولكن لا بد من دوام التذكير بأن هؤلاء الأجانب أنفسهم ينقلون عنا أزياءنا وشاهدون أفلامنا ويستمعون إلى أغانيها، ويُعجبون سراً بفوزنا في مختلف المجالات. فالأميركي الذي يكثر من التمثل بأهل البلد الذي

يقيم فيه يجعل من نفسه أضحوكة بين أهل البلد. والشعوب المتتمية إلى حضارات أخرى تحب الأميركيين الذين يحبونها ولكنها تشكك بالأميركيين الذين يحاولون الهبوط إلى مستواها (أو الارتقاء إليه). إن آرتشي روزفلت، وهو من أرباب الذين يحسنون التفاهم مع شعوب تنتمي إلى حضارات أخرى يتعمد الكلام بأقصى لكنة أميركية في نطقه بالعربية حفاظاً على التقيد بهذه القاعدة.

عودة إلى القواعد ... لمراقبة أوضاع بلادي

بدأت أدرك خلال فترة ما بعد حرب الأيام الستة ان الخبرة والمعرفة المكتسبين من العمل السياسي الخفي الناجح لازمتان في مجالات واسعة من النشاطات بين حكومة وحكومة خارج نطاق الدبلوماسية التقليدية وفن سياسة الدولة. فمنذ أواخر الستينات وحتى تقاعدي «الأخير» اشتركت في قرابة العشرة أو أكثر من الأعمال السياسية الخفية واستطعت حمل حكومات متنوعة على احترام اتفاقات عقدتها مع زبائني وكان بإمكانها لولاى نقضها، وحلحلت عدة عقد مستعصية في مفاوضات هامة، عقد عائدة إلى سوء تفاهم سياسي (أو عائدة في بعض الحالات إلى ادراك سياسي واضح وصحيح). وتابعت كذلك اخطاء الحكومة الأميركية على رقعة اللعبة الدولية (وفي حالات عديدة بموافقة ضمنية ومساعدة خفية من قبل وكالة الاستخبارات) من أجل بلوغ معادلات تمكن زبائني من الحصول على عقود مربحة أو من الاستمرار في أعمالهم بموجب العقود المبرمة معهم.

بعد القيام بتلك المهمات وغيرها عرض عليّ مصرف تجاري بريطاني العمل معه في العام ١٩٧٤ لاختطاره بتوقعاتي عن موعد استقالة الرئيس نيكسون في أعقاب فضيحة ووترغيت، وكان غرض المصرف معرفة متى يشتري أو يبيع الذهب في أسواق المال العالية. فانتقلت إلى شقة في برج واردمن في واشنطن واستمر أبنائي، بعد انتهاء والعقد مع المصرف، بتسديد بدل إقامتي فيها حيث رحلت أراقب السياسة داخل الولايات المتحدة. وهكذا صار لي، إذا جاز التعبير، مقعد داخلي فيما استفاق ضمير الأمة بعد حرب فيتنام. كان من شأن تدمير ادارة نيكسون إسالة لعاب «الصحفيين المنقيين» الذين أخذوا يعدون العدة للتحقيق في أوضاع وكالة الاستخبارات المركزية والشركات الكبرى متعددة الجنسيات ومختلف المجموعات والأفراد المؤيدين للشعور الوطني القديم الطراز. وكان ثمة ما يحمل على الاعتقاد بأن الاستخبارات السوفياتية أخذت تعتمد على «مناهضة مناهضة الشيوعية» كما درجت في الولايات المتحدة في الثلاثينات أقل من اعتمادها على الشيوعية التقليدية. فمناهضة مناهضة الشيوعية معروفون باليمينيين السذج، أو «البلهاء النافعين». ولكنهم ييغضون ويخافون القلة المدركة التي قد يحملها الرأي العام على محمل الجدية.

قبل طرده من وظيفته زارني جيم أنغلتن ليريني رزمة من وثائق الكرملين المترجمة التي أعطاها له عملاء من الموساد. ومع الأخذ في الاعتبار ان الاسرائيليين ادخلوا عليها بعض التعديلات وهي في طريقها بين موسكو وواشنطن فقد تبين من الوثائق ان ما يعدّه السوفيات من حملات لا علاقة له مطلقاً بوسائل الدفاع التي يخطط لها استراتيجيونا العسكريون. أخبرني جيم انه ناقش محتويات تلك الوثائق مع مرتدّ سوفياتي انتقل حديثاً إلى الغرب أخبره بأن المخابرات السوفياتية اكتشفت في أعقاب تردّي الوضع في فيتنام شعور الأميركيين بعقدة الذنب فقررت الالتقاء بكامل ثقل حربها النفسية وراء تركية ذلك الشعور ليس بواسطة قنوات دعايتها العادية بل بتدبير احداث في مختلف أنحاء العالم يتهاافت عليها اليساريون في وسائل اعلامنا ويسيتون تفسيرها. وأشار المرتدّ السوفياتي إلى ان المخابرات السوفياتية اختارت تشيلي والفيليبين وكوريا الجنوبية وزائير أهدافاً مفضلة ليس لأن الأوضاع فيها سيئة في أعين السوفيات أو في أعيننا، بل لأن أحداثاً تثار فيها ستكون مشاهد تلفزيونية أشد اثاراً لمخيلة الرأي العام الأميركي وأكثر إسالة للعاب الاعلاميين.

ولكن السوفيات وجدوا داخل الولايات المتحدة أكثر المواضيع قابلية للاستقلال. ففي

السبعينات كانت الخلافات حول مواضيع داخلية محددة مثل الخلاف بين مؤيدي الإجهاض ومعارضيه موضوعاً هاماً بالنسبة للاستراتيجية السوفياتية باعتبار انه يحول طاقات الأميركيين في خلافاتهم الداخلية عن الاهتمام بالمصلحة الوطنية العامة. ورأى السوفيات في الأقليات الأثنية عنصراً هاماً يخدم استراتيجيتهم: اليونانيون الأمريكيون للوقوف في وجه أي خطة دفاعية يتصورها البنتاغون تنطوي على التعاون مع تركيا، واليهود الأمريكيون لزعزعة العلاقات الأميركية العربية، والعرب الأمريكيون للوقوف في وجه أي مخطط يرمي للحفاظ على سلامة مصادر امدادنا بنفط الشرق الأوسط وقد يشتمل على تعاون مع إسرائيل. إن مجموع الضغوط التي تسببها تلك القضايا إضافة إلى ضغوط أخرى ناجمة عن مواضيع تخريبية الطابع، تشكل عبئاً على أمننا القومي أشد تأثيراً من أي شيء استطاع السوفيات تحقيقه بوسائلهم الذاتية. لقد سعى السوفيات لجعل أميركا بلداً يضطر فيه الزعماء السياسيون إلى اكتساب تأييد ليس ٥١ بالمئة من المقترعين بل خمساً وعشرين مرة اثنين بالمئة زائد واحد بالمئة، ويكون هذا الواحد بالمئة من المقترعين بانتظار الفرصة التي تسمح له بترجيح كفة الفريق الذي يقدم له السعر الأعلى. فمن مصلحة السوفيات ان نهنك «باللغة المحلية» حيث «يتنافس أفرقاء متعددون ويسعى كل لتأمين مصلحته الخاصة، بشكل ينعكس على تحركاتنا على رقعة اللعبة الدولية. كانت تلك الحقبة في برج واردمن المناسبة الأولى خلال خمسة وعشرين عاماً التي أتيح لي فيها مراقبة بلادي من المنظار المهني فصرت أرى زعماءها منشغلين بالقضايا المحلية والداخلية بحيث لم يكن بمقدورهم الانضواء تحت لواء سياسة يدعمها الحزبان لرسم وتنفيذ «سياسة خارجية خارجية» [عن حق وحقيق وبكل معنى الكلمة] تخدم مصالح البلاد بأجملها.

ربما كان كبير أبنائي، مايلز الثالث، يفكر بالتخلي يوماً عن هوليود ليصبح ويدعم منها وزيراً للخارجية. ولعله من أجل ذلك جاءني باقتراح يرمي من ورائه إلى توسيع آفاقه في المستقبل. والاقتراح بسيط خلاصته تكريس مواهبى الفذة لمراقبة أوضاع بلادي وتصور ما تستطيع المخابرات السوفياتية انجازها داخل الولايات المتحدة بلجوئها إلى الأساليب التي تستخدمها وكالة الاستخبارات المركزية على مسرح سياستنا الداخلية. وقال انه لا يريد الحصول على آراء رجال الاستخبارات المهنيين بل يود الحصول على فكرة عن الأخطار المحدقة بأميركا كما يتصورها هو والأميركيون الاقحاح مثله. وعليه، وبالتعاون مع فيرونك رود من السكرتيرة الخاصة سابقاً للوزير السابق هنري كيسنجر، وضعنا ورقة عمل بعنوان: اثنا عشرة طريقة لتدمير أميركا». ولما كانت فيرونك قد انضمت إلى مكنتي بعد استقالتها من خدمة كيسنجر، كلفتها باجراء مقابلات مع عدد من المواطنين الراسخين في عييتهم والوقوف على آرائهم واقتراحاتهم. جاء ما كتبه خلاصة لأجماع آرائهم مثيراً للاهتمام لسبيين: الأول، تبيان ان ما نفعله ببلدنا يكاد يتطابق مع ما كان السوفيات يودون فعله لو لم نسبقهم إليه. والثاني، انه أظهر بشكل مذهل المواقف الفكرية التي كان من شأنها تكريس رونالد ريغن أكثر رؤساء هذه البلاد شعبية في القرن العشرين.

أما بالنسبة لي شخصاً فقد فعلَ الدرس في نفسي ما فتح عيني إلى ان اليمينيين الأمريكيين المتطرفين، شأنهم شأن أمثالهم البريطانيين، ينون آراء بالغة التشدد استناداً إلى معلومات بالغة الضحالة. اعتقدت قبل ذينك الاكتشافين ان الذين يرسمون لنا مثالياتنا ليسوا منقسمين بين اليسار واليمين أو او بينهم «الحماة» من جهة و«الصقور» من جهة، بقدر ما هم إما براغماتيون (ذرائعون) عمليون يصرون على وجوب وجود فكرة واضحة عن نتائج أي عمل قبل الإقدام عليه، أو مثاليون يؤمنون بوجوب القيام «بالعمل الصحيح» مهما كانت نتائجه. وظننت أيضاً اننا نحن اليمينيين دائماً براغماتيون وان المثاليين حكماً يساريون. إلا انه تبين لي كذلك ان نسبة الاقتناع إلى المعرفة لدى المفكرين اليمينيين متقاربة جداً مع مثيلتها لدى نظرائهم اليساريين وان اليمينيين أكثر مثالية من اليساريين وانهم يعدلون المعلومات لتناسب مع آرائهم بدلاً من اعتماد العكس.

تبادر لي فجأة ان موافقتي على الأفكار الواردة في ورقة «الاثنتي عشرة طريقة لتدمير أميركا» انما هي منبثقة من آراء لا تستند إلى معلومات. فأقربائي في السياسة على حق انما لعدة اسباب مغلوبة كما انهم اتخذوا لأنفسهم أدواراً لم أقوَ على القبول بها، فقد اعتبروا أنفسهم «قلقة» في حين كلمة «دفاع» تفي بالغرض، وصرت كلما أصغيت إلى تكرار آرائهم أخال نفسي أسمع صوت البعض والكراهية الوارد في العهد القديم المناقض للقيم الواردة في الأناجيل التي جعلتها جزءاً من طريقتي في الحياة. وشعرت بأن أي تحرك قد نقوم به على رقعة اللعبة الدولية وفي ذهنتنا كلمات سفر تثنية الاشتراع الواردة في الاصحاحين السادس والسابع [الشهادات الفرائض والأحكام والوصايا التي أوصى بها الرب] سيؤدي بنا إلى صعوبات لن تقوى دولة بقوة دولتنا على معالجتها وتخطيها.

وفيمما كنت انهي سنواتي الثماني من مراقبة ادارتي كارتر وريغن ضم أبنائي وغيرهم من كبار العاملين في صناعة السينما والتسجيل الموسيقى جهدهم وقدموا تبرعات لعدد من المؤسسات الخيرية تتكلم باسم «الأميركيين الأميركيين» أي تلك الاقلية التي تدين بالولاء لبلد واحد هو الولايات المتحدة ولا توزع ولاءها بين الولايات المتحدة وایرلندا أو بينها وبين اليونان أو بينها وبين اسرائيل. جاء آخر تبرعاتهم حمولة طائرة من المواد الغذائية والطبية لبلد في شرق افريقيا حيث يموت آلاف الناس جوعاً. رافقت الطائرة بطلب من مرسلها وزرت مخيماً رأيت فيه الألوف ممددين على الأرض لا يقوون على الوقوف من هزالهم. بعد جولتي تلك تحدثت إلى أحد كبار موظفي حكومة ذلك البلد واستخلصت من كلامه ما يلي:

(١) - انه يعتبر الألوف المرتحمين أرضاً «أفقين» والذين يستطيعون الوقوف على اقدامهم واستعمال البنادق «عموديين».

(٢) - إذا انخفض عدد سكان افريقيا بقراة الستة ملايين شخص لن يكون ذلك بمثابة كارثة عالية أو فكرة سيئة؛

(٣) - الملح من خلال ملاحظات أخرى إلى ان حكومته مدينة بعرفان الجميل إلى السوفيات أكثر منها إلى الأميركيين والأوروبيين الغربيين، لأن السوفيات يقدمون السلاح «للعموديين» القادرين على تأييد حكومة تعمل «من أجل مصلحة الشعب كله»، بينما لا نقدم نحن الغربيين سوى الأطعمة التي لا تشفي بل تطيل أمد البؤس والشقاء الذي يعيشه «الافقيون» الذين لا خير يرجى منهم. من هنا رأيت ان لا بد لي من التفكير ثانية بمضامين مفهوم «نحن - هم» الوارد تكراراً في العهد القديم من الكتاب المقدس (التوراة).

هذا الكتاب
ملك الأستاذ الدكتور
رمزي زكي بطرس

نظرية مكافحة الكارثة

و «بيت النمل»

بعد انقضاء قرابة الاسبوع على اتخاذي قراراً بتأليف هذا الكتاب رنّ جرس الهاتف في منزلي في لندن ووجدت على الطرف الآخر من الخط صديقاً حميماً هو نائب الرئيس المختص بالعمليات في أوروبا في إحدى شركات النفط التي تعاملت معي سابقاً. طلب مني بصوت لا يخلو من التوتر موافاته إلى بيته القريب من بيتي وقال انه بحاجة إلى خدمة شخصية هامة. طالعني في غرفة المكتبة عنده رئيس دائرة أمن الشركة القادم من نيويورك ومحامي الشركة في لندن ورجل متوسط في السن يرتدي بدلة رمادية لم يعرفني به أحد. أما موضوع الخدمة المطلوبة فهو اختفاء كليمتين، ابنة صديقي «بوب» (اسم مستعار) وعمرها خمسة وعشرون عاماً وقد مضى على اختفائها ليلتان.

الوقائع المتوافرة بسيطة. غادرت الفتاة منزل أبيها عند الساعة التاسعة مساءً يوم الأحد فيما كان أبوها يستضيف زهاء عشرين مدعواً لوليمة عشاء درج على اقامتها كل شهر تقريباً. لم تخبر أحداً بسبب خروجها في برد تلك الليلة الممطرة. انقضى منتصف الليل ولم تعد فقلق أبوها. وخلال مكالمة هاتفية دورية درج أبوها على اجرائها في منتصف ليل كل يوم أحد مع رئيس الشركة «جون» (اسم مستعار) في نيويورك، جاء على ذكر اختفائها فأبدي جون اهتماماً غير عادي بالموضوع ووجه إلى بوب اسئلة لها مغايزها عن عاداتها الشخصية، مصراً عليه الاتصال بمسؤول أمن الشركة في نيويورك اذا تخلفت عن العودة عند الساعة التاسعة من صباح الاثنين. وهكذا فعل بوب فاستقل مسؤول الأمن طائرة الشركة وتوجه إلى لندن.

سألت: ما المطلوب مني، فأجابني المسؤول: «العثور على الفتاة دون الاستعانة بشرطة لندن». ولما نظرت إلى بوب مومناً بالرفض قال: «لست أدري منك بسبب عدم معالجة هذه القضية على انها عائلية بل على انها تخص الشركة. ومن ضمن الخدمة الشخصية التي أرجوها منك ضم جهلك بالموضوع إلى جهلي به وساعدني للعثور على ابنتي علماً بأن الشركة ستدفع بدل أتعابك مهما بلغ». وهنا انحلت عقدة لسان المسؤول عن أمن الشركة فقال انه استقال من مكتب التحقيقات الاتحادي وانضم فوراً إلى ملاك أمن الشركة ليجد أن رؤساء الجدد يتابعون عن كثب قضايا الارهاب الدولي عموماً واحتمال خطف مدراء الشركات خصوصاً. أضاف: «ليس من المفروض ان اطلعك على ان في مكتب التحقيقات ملفاً خاصاً بكليمتين وفيه انها شوهدت أخيراً برفقة بعض الأشخاص المشبوهين جداً. استنتجت فوراً بأن هؤلاء ينتمون إلى هيئة تسمى «اللجنة البريطانية العربية لتفاهم أفضل» كنت على علم بأن كليمتين تحضر اجتماعاتها.

قبلت المهمة وقمت برفقة مسؤول الأمن في الشركة واسمه الحقيقي جيري كوالسكي ومعنا بوب وصديقي قائد شرطة المنطقة نبحث عنها في المحلة فلم نعثر عليها. عدنا إلى بيت بوب لاستجماع أفكارنا وخلال الحديث أخبرني بوب ان ابنته تلتقى فعلاً بمن قد يبدو للنيويوركيين «أشخاصاً مشبوهين جداً». أصر بوب على ان كليمتين «فتاة أميركية عادية» لا علاقة لها بالسياسة وان كانت لها

أراؤها بشأن الصراع العربي الاسرائيلي . فقد تعلمت في مدرسة في بيروت وما يزال رفاقها السابقون في المدرسة يتصلون بها من وقت إلى آخر، وبعضهم فلسطينيون . التفت بوب إليّ قائلاً : إننا إذا لم نعثر على أي دليل في لندن ينبغي أن أذهب إلى نيويورك للوقوف من جون على سبب الاهتمام الذي أبداه مساء الأحد الأسبق أثناء مكالمتهما الهاتفية . هنا فقط تكلم صاحب البدلة الرمادية . انه المشرف على «المشاريع الخاصة» في الشركة وهو مخول بتغطية كافة نفقاتي إضافة إلى بدل اتعاب يكفي للتعويض عن تنازلي للقبول بمهمة ليست لمن هم في سني وفي مركزي الاجتماعي .

ولما كنت قد باشرت بوضع هذا الكتاب وانهمكت في الاطلاع على مشاكل الارهاب الدولي ومتابعتها بصفتي خريجا وفيما من وكالة الاستخبارات المركزية ، وجدت في الخدمة الشخصية المطلوبة مني فرصة لا يجوز تفويتها مطلقاً . قضيت اسبوعاً في لندن أتنقل بين أصدقائي في مختلف دوائر التحري والأمن ومكافحة الجاسوسية أجمع المعلومات حول نشاطات الفلسطينيين في لندن من خطف واستقطاب مؤيدين وتحويل أموال وتعاون مع الجيش الجمهوري الايرلندي وغيرها . ثم توجهت إلى نيويورك وواشنطن فوجدت في الأولى ان السلطات تنظر إلى النشاطات التي قد تشير إلى أسباب اختفاء كليمتين على انها مواضيع تستدعي اتخاذ اجراءات وقائية دون أي اشارة إلى الفلسطينيين أو أي مجموعات أخرى قد تحظى بعطف ما داخل دول نفطية . أما في واشنطن فوجدت ان مكافحة الارهاب باتت صناعة نامية ومتوسعة يحدد فيها السياسيون الأهداف ويقوم مدعو الاختصاص بها بلملمة الحطام . لم ترشدني مقابلاتي في المدينتين إلى أي دليل يقودني إلى كليمتين وإلى سبب اختفائها، ولكنها انارت بصيرتي حيال ملابسات اختفائها والجو المبني على الافتراضات والتكهنات الذي تحاول فيه الحكومة الأميركية التعاطي مع موضوع الارهاب الدولي .

لن أحاول وصف متاهات التعاطي هذا بل سأعلق فقط على كيف قادني البحث عن كليمتين للوصول إلى نظرية «مكافحة الكارثة» كما يفهمها أي مقامر يعرف كيف يتجنب الدخول في طريق مسدود . فالطريق الذي بدأ صباح يوم ممطر في منزل بوب في لندن لم يلبث ان تشعب منه طريقان ثم أربعة ثم ستة عشر وهكذا حتى صار ككرة الثلج ممتداً إلى بعض أقطار أوروبا وأفريقيا والشرق الأوسط فخرج على أكثر من مئة دبلوماسي ووكالة استخبارات ودائرة شرطة، وأدى إلى اكتشاف عشرات الارهابيين غير المعروفين سابقاً والمجموعات السياسية السرية من جنسيات مختلفة، دون اكرات يذكر باختفاء كليمتين، علماً بأن صدفة غريبة أدت إلى العثور عليها .

أمسك كاوالسكي بطرف الخيط الذي أدى إلى العثور على كليمتين بأن ركب رقماً هاتفياً مغلوطاً . ولما كان ذلك الرقم سرياً غير مدرج في الدليل اعتبر المتكلم على الطرف الآخر منه ان باستطاعته الحديث ببعض الحرية باعتبار ان الرقم ليس معروفاً إلا لدى شلة معينة وذكر شيئاً عن «فتاة اميركية مفقودة» . تلك هي الصدفة التي أدت إلى التحركات التي أوردت ذكرها أعلاه وإلى العثور على كليمتين . ومن خلال تأملي في كل ما جرى قلبت نظرية الكارثة رأساً على عقب وأسميتها «مكافحة الكارثة» .

اتبعت طريقة بسيطة أدت بي إلى تطوير نظرية «مكافحة الكارثة» رسمت على ورقة ما بُذل من جهد في البحث عن كليمتين على شكل شجرة عائلة جاعلاً الغاية الأساسية محل الجذع ونتائجها محل الفروع التي يشكل كل منها غاية جديدة تسبب نتائج جديدة فانهتيت إلى فروع وأغصان متشابكة لا تعني شيئاً سوى الدلالة على اندفاع من أجل غاية واحدة، وعلى وجود الكثير من الطرق المسدودة والمنطلقات المغلوطة . وتبين من خلال ذلك كله ان معظم المشتركين في هذا الجهد شاح نظرهم عن غاية بحثهم الأساسية أو انهم اثناء بحثهم ألهتهم قضايا لا علاقة لها بموضوع نشاطهم فغاصوا فيها لبلوغ نهاياتها وكشف غموضها . ورسمت على ورقة شفافة كل ما استطعت اعتباره ذا صلة واضحة

بموضوع البحث وطبقت الورقة الثانية على الأولى فتعرفت إلى مواطن النقص وبذا اكتشفت ما اسميته «النمط» أي الطريقة التي يتبعها فريق من الناس يعملون معا في مهمة رسمية أو يتمون إلى حضارات مشتركة ولهم حوافز مشتركة، في مواجهة تحد واضح المعالم. ففريق كهذا يبدأ بالبحث عن قضية واحدة أو بالعمل على مسألة محددة ثم يوسع بحثه محددًا تصنيف القضية ويتوسع بتفسيرها ثم تندفع وحداته المختلفة في اتجاهات متعددة وتبقى الغاية المشتركة سليمة.

اللاعب الأهم على رقعة اللعبة الدولية

كان من دواعي اعترازي بالطبع ان يضعني زملائي في مصاف ألبرت اينشتاين وغيره من العباقرة. ولكنني اعترف بتواضع كلي ان نظرية مكافحة الكارثة ليست سوى اظهار صلة العلوم النظرية الصرفة بالعلوم التطبيقية في مجال التحقيقات والتحريات. ولكن فلننظر فيها، إلى جانب ما قلته في فصول سابقة عن مستويات اللعبة وعن تفاعل الدوافع الشخصية في نفس أي لاعب بمفرده، وننظر عبر ذلك إلى تصرفات اللاعب الأهم على رقعة اللعبة الدولية، أي الحكومة الاميركية.

لنأخذ مثلاً مجلس الأمن القومي. فهو يتألف من رئيس الجمهورية ونائبه ووزير الخارجية والدفاع ورئيس أركان القوات العسكرية ومدير الاستخبارات. من المفروض ان يلتزم المجلس اسبوعياً لدراسة «تنسيق السياسات الداخلية والخارجية والعسكرية المتصلة بالأمن القومي». ومن المفروض ان يكون موضوع البحث ما يقدمه شخص لقبه الرسمي «مساعد الرئيس» ولكنه يُعرف عموماً على انه مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي. والمفروض في هذا الأخير ودائره المؤلفه من أكثر من أربعين موظفاً جمع كل المعلومات الواردة إلى البيت الأبيض عبر وكالة الاستخبارات المركزية وغيرها من الوكالات وتصنيفها في أبوابها وتحويلها إلى تقارير تحدد بدقة ووضوح الأخطار على الأمن القومي في حقبة معينة.

من حيث المبدأ، لا بأس في تركيبة كهذه. ولكن توضيحاً لنظرية مكافحة الكارثة دعونا ننظر في «أسوأ سيناريو ممكن تصوره»، ألا وهو: ادارة الرئيس ريغن. فمن بين مستشاريه للشؤون الدولية: وزير الخارجية المشهود له بالذكاء الحاد والكفاءة الرفيعة مع الافتقار الكلي إلى أي خبرة في التعاطي مع الأجانب والحكومات الأجنبية، وينقصه فوق ذلك «التحسس» بأي حضارة غير الحضارة الأميركية، اضافة إلى انه يتحول إلى العاطفية بعيداً عن المنطق لدى مواجهته اشخاصاً لا يقدرّون ويحترمون «القيم الأميركية» مثله. ومن بينهم أيضاً مدير وكالة الاستخبارات المركزية وهو رجل يتحلى بمستوى رفيع من الحكمة والكفاءة، ولكنه لم يبرهن عنها في مجال جمع وتحليل المعلومات بل في مجال ادارة حملة ريغن الانتخابية. وبرهن المستشار الثالث الهام في سبحة المستشارين، وقد قضى بعض الوقت في العمل في حقل الأمن القومي واكتسب خبرة ضئيلة فيه، برهن ان المعرفة الضئيلة مجلبة للمخاطر.

يتبين مما أوردته ان تركيبة الاستخبارات والأمن القومي في أيام ريغن لم تكن مثالية، وان سابقتها أفضل منها وان تلك التي تنتظم في عهد الرئيس جورج بوش قد تكون أفضل بكثير. ولكن من طبيعة الأمور ان أي منظومة مناط بها تحليل وتلخيص المعلومات ووضعها على مكتب رئيس الولايات المتحدة معرضة لتأثيرات قوى الفساد والإفساد وبالتالي ليست مثالية. ففي اعتقادي انه لو حاول السيد لي اياكوكا ادارة شركة كرايزلر استناداً إلى معلومات هزيلة كالتى يتلقاها رئيس الولايات المتحدة لأفلست كرايزلر خلال سنة أو أقل.

ولكن الولايات المتحدة ليست على أبواب الافلاس، او نستطيع على الأقل القول بأن احتمال هزيمتها في اللعبة الدولية أدنى بكثير مما تشير إليه المعلومات الموثوقة. وهذا ما ينقلني إلى نظريتي: «مكافحة الكارثة». وإلى ما اسميناه في وكالة الاستخبارات المركزية القديمة «بيت النمل». يقول المؤمنون بالكوارث ان خفقان جناحي فراشة قد يثير تياراً خافئاً يؤثر تأثيراً محدوداً جداً في اتجاه مجرى هوائي أقوى وان مجموع تلك التحولات قد يحدث اعصاراً في بقعة كانت لتبقى هادئة لولا ذلك

الخفقان. كما ان مجنوناً يطلق النار على سياسي محلي في بلد مغمور فتتوالى الأحداث وتؤدي إلى نشوب الحرب العالمية الثالثة. أما نظرية مكافحة الكارثة فأقول فيها بأن في المستويات الوسطى من موظفي وزارة الخارجية ووزارة الدفاع ووكالة الاستخبارات المركزية والبيت الأبيض إدراك أبكم وصلب مجند بطريقة ما وراء غاية مشتركة دون أن يكون الموظفون المشار إليهم على معرفة بتلك الغاية، أو معرفة بعضهم البعض. فمن دون جَلْبَة يحول هؤلاء برتابة دؤوبة جبال رؤسائهم التكتيكية إلى كومات استراتيجية صغيرة يدفعون بها بهدوء الصفحات الداخلية في صحفنا. كان جيم آنغلتون الخبير بمكافحة الجاسوسية يقول لنا: إن النملة الواحدة خالية من أي ذكاء ولكن لبيت النمل، كمجموعة، ذكاء جماعياً مذهلاً. هكذا يبدو حال «غملاتنا» أي مجتمع الاستخبارات الأميركي الذي لا يعرف افراده بعضهم بعضاً كما انهم ليسوا على دراية حتى بوجوده. فنظرة تفحص دقيقة على كوارث كانت محتملة الحصول ونزع فتيلها بحيث كادت لا تستأهل الاعلان عنها تبين ان كبار صانعي القرارات عندنا يرسمون السياسات التي تنتهي إلينا (كقولهم «اننا لا نفاوض الارهابيين») ولكنهم لا يحددون المنحى الذي تتخذه سياساتهم تلك.

سأعطيكم على ذلك مثلاً. فبعد اختطاف سفينة السياح «اكيلى لاورو» قرر كبار مستشاري الرئيس ريغن الرد المناسب: قصف الجهة المفترض ان تكون وراء الاختطاف أي حكومة العقيد معمر القذافي في ليبيا. وهذا ما فعلته اميركا. كانت غارتنا غلطة وعلى الرغم من إنكار البعض ذلك، فقد اعتبرها المهنيون في دوائر استخباراتنا وفي الخارجية خطأ فادحاً. ولكن الرئيس ريغن وجورج شولتز وكاسبر واينبرغر ووليم كايسى وغيرهم من كبار رجال دولتنا صفقوا للغارة على ليبيا على انها نجاح باهر وتبجحوا بأنها اسكتت القذافي وأوقفت الارهاب الدولي ولو مؤقتاً. لا شك في انكم تذكرون الحكاية ونفي وزير الخارجية شولتز ان يكون هدفها قتل القذافي والتخلص منه، علماً بأنه أضاف وعلى وجهه ابتسامة مأكرة بأنه لو مات القذافي فلن تتساقط دموع ممثل الحكومة الأميركية في المؤتمر).

لا ريب في انكم تتصورون ان الحكومة الأميركية تصرفت بعد الغارة كما لو انها حلت العضلة فعلاً. فلو ان كبار المسؤولين عندنا آمنوا حقاً بما هناؤا أنفسهم عليه، أفلا يخلدون إلى الاسترخاء وتخفيض ميزانية مكافحة الارهاب؟ أو لا يعيدون زوجات دبلوماسيينا إلى ازواجهن في العواصم التي اعتبروها معرضة للارهاب أكثر من غيرها؟ لا، على العكس، فقد تعززت الاجراءات الأمنية حول بعثاتنا الدبلوماسية في الخارج وأعيد إلى الولايات المتحدة زوجات وأولاد الدبلوماسيين في أكثر من عشر بعثات، وزيدت ميزانية مكافحة الارهاب بأكثر من ستة مليارات دولار اضافية.

وخلال السنة التي تلت الغارة على ليبيا تضاعف عدد المحاولات الارهابية ولكن قضي على أكثرها قبل تنفيذها. حصل ذلك أثر زيادة اليقظة في منظومتنا الأمنية وباستبدال من عيّنوا أنفسهم «خبراء مستشارين للبيت الأبيض بشؤون الارهاب الدولي» بمهنيين اصيلين. بعد الغارة على ليبيا سيطر ضباط سوفيات صغار على مقدرات ادارة القذافي وأدخلوا التحسينات على نشاطات ارهابية حسب ارشادات الخبراء السوفيات. إلا ان «غملات» وكالة الاستخبارات المركزية احترقوا بصمت خلايا تدريب الارهابيين الأخذة بالنشوء خارج ليبيا، وحولوهم إلى مقاتلة بعضهم البعض. جرى كل ذلك فيما كان كبار المسؤولين في حكومتنا، بمن فيهم المسؤول الأول عن الدائرة المختصة بذلك، غافلين تماماً. هذه هي النقطة التي أردت بلوغها، أي انه فيما قامت «النملات» بمهمتها كانت هي الأخرى تبدو جاهلة بأن عملها انما يتناقض مع الاعتقاد بأن الغارة كانت ناجحة.

اني أو من بفعالية حكومتنا على وجه العموم وبقدراتها الداخلية على انقاذ نفسها من نفسها، وان كنت أرتاب في بعض الأحيان بحسن قيادتها - لا أعني القادة أنفسهم بل منظومة القيادة في أي دولة ديمقراطية. فهناك قدرتنا على انجاح سياسة خاطئة بمجرد الالتقاء بثقلنا خلفها. لقد أخطأنا مرات عديدة

في الماضي ، ولكن ثمة دلائل تشير إلى احتمال فقداننا ما نحتاج إليه لتركيز قوانا وطاقاتنا لمواجهة القوى التي تحاول تدميرها . إضافة إلى ذلك ثمة ما يحمل على التشكيك في ان قوتنا ليست من الصنف المناسب لمواجهة اخطار وشيكة ، كقوة الاسد أو الفيل إذا هاجمت أياً منها أسراب من النحل السام . قد نستطيع منازلة دولة عظمى في حرب تبدأ غداً وقد نظفر فيها . ولكن وحتى مع مساعدة الاسرائيليين - بل وعلى الاخص بمساعدة الاسرائيليين ! - لن نتمكن من هزيمة الايرانيين و «العرب» والعالم الاسلامي او العالم الثالث كله ان هو قرر التحول ضدنا . لدينا ما يحملنا على الاعتقاد بأن الاستراتيجيين السوفيات يدركون هذا الامر تماماً وبأن الحرب العالمية الثالثة التي يتصورونها ستكون مواجهة بيننا وبين قوى غير محددة الشكل في العالم الثالث يدعي فيها السوفيات موقف الحياد . ومع استمرار تفاؤلي بمستقبلنا نستطيع الاشارة إلى عدة وسائل تمكّنتنا من تحسين أوضاعنا ، علماً بأنني مررت بها ضمناً في الفصول السابقة . فمن حيث انني اؤمن بما عندي من خبرة أقول ان «العمل السياسي الخفي» الذي نجحت فيه بشكل فريد مكن في بعض الحالات أمن الولايات المتحدة من تجنب اخطار جدية ، وساعد في أحيان أخرى زبائني التجاريين على البقاء المربح في أمكنة كانوا لولا مهارتي ليطردوا منها . وأستطيع القول بأن نشاطاتي لم تربك زبائني ولا بلدي ولم تربكني .

أما الذين يقولون بوجوب منع العمل السياسي الخفي فإنهم يريدون التخلي عن الحل قبل ادراك ماهية المشكلة ادراكاً كاملاً . فالزعماء الذين لا يهتمون إلا للنتائج والذين كتب علينا الاعتماد عليهم يبدأون مناقشة المشكلة من نهايتها . فقد يقررون ان من الأفضل ترك المشاكل دون حل على المخاطرة بحلول قد تخلق المزيد من المشاكل . أما إذا قرروا ان المشاكل جدية إلى حد يتحتم معه ايجاد الحل ، فعليهم النظر في كل الحلول الممكنة . وإذا ما وجدوا حلاً أخرى أشد فعالية وأقل كلفة وأخف خطراً ، فمن واجبهم اللجوء إليها . وإذا ما رأوا ان لا وسيلة أخرى فعليهم التسليم بأن لا حول ولا قوة إلا بالسماح بالعمل السياسي الخفي . وهنا لا يكون التساؤل «عما إذا وجب القيام به» ، بل : «كيف يُنفذ» .

الفصل الثاني والعشرون

كلمة ختامية في السيرة الذاتية

أرى الآن وقد تجاوزت الخامسة والسبعين ان السنوات ما بين ١٩٨١ و ١٩٨٧ أجدى سني حياتي. صحيح ان أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات من العمر غالباً ما تكون سنوات رائعة في حياة الانسان، ولكن للشيخوخة بهاؤها ورونقها. واني لأفضل أواخر الستينات وأوائل السبعينات عليها ما دام الانسان ينعم بصحة العقل والجسد. فحذار من كلام عجوز يقول العكس. ففي هذه الفترة تكون قد حققت من الحياة ما تيسر لك تحقيقه من نجاح، وبت في وضع يسمح لك بتقييم انجازاتك أو سقطاتك ويؤهلك لادراك ما فاتك ادراكه من عملك يوم كنت غارقاً في محاولة انجازه وقد بدا لك في حينه انه يؤدي إلى كارثة محتومة. ومن المفروض بك وقد بلغت الخامسة والستين ان تكون قد جمعت ثروة - هذا ان كنت قد أدركت في شبابك «ان المستقبل هو من نصيب الذين يخططون له»، وتذكرت أيضاً ان الماضي كان المستقبل في ما سبقه من أيام.

كان العام ما بين تموز (يوليو) ١٩٨٠ والشهر عيْنه من العام التالي من أعظم سني حياتي. فبعد حفلة شيقة أقامها الاصدقاء في ١٦ تموز ١٩٨٠ احتفالاً بعيد ميلادي السابع والستين قضيت ما تبقى من ذلك الصيف أجوب جنوب البلاد داعياً لتسمية جورج بوش مرشحاً عن الحزب الجمهوري لانتخابات الرئاسة. ولما فاز رونلد ريغن بالتسمية حولت نشاطي نحوحث الناس على انتخابه رئيساً. وأسست بالتعاون مع بعض الزملاء القدامى في وكالة الاستخبارات المركزية «عصبة بوش» ليكون نائب الرئيس الأفضل معرفة بأحداث العالم شهدته الولايات المتحدة في تاريخها. ومن أجل ذلك أقمت حفلات ولقاءات متعددة في منزلي أولها وليمة صباحية على شرف جورج بوش وزوجته يوم تنصيب ريغن في كانون الثاني (يناير) ١٩٨٠، وكنت في المساء بين ضيوف الشرف في الحفلة الرسمية لمناسبة التنصيب. وهكذا انتهت عليّ بين شهري كانون الثاني (يناير) وآذار (مارس) ١٩٨٠ الاتصالات من زبائني القدماء في شركات النفط والطيران والمصارف لتنويرهم عما تحبىء لهم الأيام في عهد ريغن، ببدايات اتعاب مضاعفة.

أردت من الكلام عن نشاطي هذا الاشارة إلى انني واجهت صعوبة في الفترة الأولى من عهد ريغن التي لولاها لما اكتملت هذه السيرة الذاتية. غير انني استطعت وصف السنوات السبع التي تلتها واختتمت بها نشاطي في مجال العمل السياسي الخفي بأنها «سنوات هامة». ذلك انه عندما أخذت ادارة ريغن تعين الهواة في المراكز الحساسة في مجال السياسة الخارجية - مهندس صناعي عمل في حقل التفاوض مع الاتحادات العمالية صار وزيراً للخارجية، ومدير تنفيذي في شركة بناء أصبح وزيراً للدفاع، والمشرف على حملة ريغن الانتخابية استحال مديراً لوكالة الاستخبارات المركزية، ومحام من كاليفورنيا أصبح رئيس أركان مجلس الأمن القومي - عند ذاك أخذت الشركات الأميركية ذات المصالح المنتشرة في انحاء مختلفة من العالم تتكلم أكثر فأكثر على سياساتها الخارجية الخاصة بها. وفي اعتقادي ان تضاؤل المسؤولية الحكومية عن مجريات الأمور على رقعة اللعبة الدولية هو من الأسباب التي حملت الشركات على الاقتراع إلى جانب ريغن. أفلم نسمع تكراراً في خطبهم المؤيدة لريغن «ان الحكومة الأقل تدخلاً هي الحكومة الأفضل حكماً؟»

غير ان أعداء «التدخل الحكومي الواسع» ومنهم الرئيس ريغن بنفسه، تجاهلوا ظاهرة جديدة أخذت بالتنامي داخل الادارة الجديدة. لقد عوض الهواة عن جهلهم بحماسهم، ولعل بعض السبب في ذلك انهم لم يولوا خشونة اللعبة التي دخلوها فجأة ما تستدعيه عن اهتمام. فلا ريب في ان الجميع يذكر كيف فوجئنا جميعاً بكوكبات من اللوبيين ينزلون عليهم من كل اتجاه مدعين العلم والخبرة في

مختلف أوجه ومجالات السياسة الخارجية، وهم في الحقيقة لا يعرفون شيئاً يُذكر عما يدعون، بل جل ما يتحلّون به مقدرة على اجترار الكلام المتلائم مع الآراء التي كونها مسبقاً كبار مساعدي ريغن المشار إليهم. لذا باتوا يظهرون في ندوات تلفزيونية على أنهم «مستشارون في البيت الأبيض». وراحت هوة العداء تتوسع بين هؤلاء المتطفلين وما أنشأوه من «معاهد»، ومن هنا تضخمت بدلات اتعابهم لقاء الاستشارات الموثوقة المرفوعة إلى الشركات الخاصة.

وما أن تركزت إدارة ريغن في مواقعها واطمأنت إليها حتى قررت أن باستطاعتها التخلي عن خدماتي، مما يدل على أنها نسيت تماماً الثمن الباهظ الذي اضطرت إدارة كارتر قبلها دفعه لارتكابها الخطأ عينه. ومع ذلك لم أجد نفسي عاطلاً عن العمل إذ أن الشركات الأميركية الكبرى العاملة على مستويات عالمية أخذت تخفف من اظهار اميركيته وتسمي نفسها «متعددة الجنسيات» للابتعاد عن الحكومة الأميركية وسياساتها الخارجية، معتمدة أكثر فأكثر على أساليبها الخاصة في جمع المعلومات وفي توفير أمنها.

وسرعان ما أصبحنا نعيش في عالمين مختلفين أدركهما بعضنا، داخل الحكومة وخارجها، عندما أعلن الرئيس الجديد بعد تنصيبه بأيام معدودة أن الارهابيين الذين يخالفون «أصول السلوك الدولي» سينالون «عقاباً سريعاً وفعالاً». وما عتم حتى أخذ ريغن يشكل اللجان الحكومية المختلفة بغية تجميع امكانيات الأمة «لخوض حرب ضد الارهاب» مومتاً بوضوح إلى وزارتي الخارجية والدفاع وإلى وكالة الاستخبارات المركزية وإلى مكتب التحقيقات الاتحادي ومصلحة الاستخبارات في وزارة الخزانة: «إن الحرب» سيكون النهج الأساسي في السياسة الخارجية حتى اشعار آخر. فكان في وزارة الخارجية «مكتب مكافحة الارهاب» وعلى رأسه السفير انثوني كوايتن، وهو دبلوماسي محترف له من الحكمة ما جعله يدرك بأن لا هو ولا أي شخص آخر في الخارجية يمتلك معلومات تذكر عن الموضوع. ولم يطل الأمر حتى تألفت اعداد من اللجان ومن «فرق العمل» ومهمتها الترويج لاهتمام الادارة بالقضية أكثر من اهتمامها بحلها - «مركز مكافحة الارهاب» أقيم داخل وكالة الاستخبارات، و«فريق الدعم في الحالات الطارئة»، داخل الوكالة أيضاً، و«قيادة العمليات الخاصة المشتركة» في وزارة الدفاع، وقوات «دلتا» في الجيش، وسواها من القوات الخاصة للتدخل والانتشار السريع، وما هذا إلا غيض من فيض.

فما حول معظم تلك البدع العديد من الطفيليين الذين يدعون لنفسهم الخبرة في موضوع الارهاب، علماً بأنه لم يتسن إلا لقلة ضئيلة منهم أي خبرة مباشرة بالارهاب أو الارهابيين أو بالظروف التي سببت قيام الارهاب والارهابيين.

ما أن مرّ عامان أو ثلاثة أعوام على وجود إدارة ريغن في الحكم إلا وكانت واشنطن مغمورة بفيضان من المعلومات المغلوطة والمسدوسة حول الارهاب، والارهاب في المدن، والارهاب الدولي والارهاب الحكومي، وما يسمى بـ «الارهاب المؤسسي». وقد أثارت هذه الضجة اهتمام السوفييات، ذلك أن الحكومة الأميركية كانت غارقة في الحيرة عينها التي تخدم أرغض لينيني موسكو الآخذين بالنمو حول غورباتشوف. فقد أوضح هؤلاء بطرق مكشوفة لا حاجة معها إلى التجسس والاستخبارات أن الولايات المتحدة، حسب تصورهم للحرب العالمية الثالثة ستجد نفسها مضطرة للخوض في حالات تشعر فيها بأن عليها القيام بدور دولة قوية، بينما يرى العالم كله أنها مجردة من كل قوة. وبوجود إدارة ريغن في الحكم كان في متناول اليد صنف جديد كلياً من «البلهاء المفيدون».

وأثناء انشغال واشنطن الرسمية بالتعاريف والصلاحيات القانونية والأولويات والتساؤل عما إذا كان السوفييات وراء أكثر أعمال الارهاب الدولي أو كلها، كانت شركات النفط والطيران والمصارف الدولية وشركات البناء الكبرى تعمل مع حكومات بلدان فيها أهم ما يستهدفه الارهابيون في مجالات

الخطف والتعدي على الأفراد والتخريب وأساليب الارهاب الأخرى. ومع هذا كان الجهد بعيداً عن الأضواء والضجيج وفعالاً رغم ابتعاده على قدر الامكان عن الحكومة الأميركية وان كان بيت النمل قد قدم لنا مساعدات دون أن يدري بها. ومن ناحية ومع كل ما خربه الأميرال تيرنر في وكالة الاستخبارات أيام ادارة الرئيس كارتير، أبقى فيها على نواة صلبة من الاختصاصيين الكفوئين لغوياً كل بشؤون الاقليم المخصص له الذين استمروا على اتصال بين الحين والحين. ومنذ ذلك الوقت وحتى اليوم لم يحصل في أي من الشركات التي استعانت بخبرتي وخبرة أمثالي، خطف مسؤول أو عمل تخريبي في منشأتها أو خطف طائرة تابعة لها.

وفيما أنا أكتب هذه الصفحات ينهمك الرئيس بزياراته الوداعية في واشنطن ويعمل الرئيس المنتخب جورج بوش ومعاونوه المرحليون استعداداً لدخول البيت الأبيض. ويخامرني الرجاء بأن يتحلى الرئيس بوش، وهو الذي رأى العالم بعيني رجل الأعمال، بالعقلانية الكافية لأن يتركه وشأنه ضمن ما يكفي من حدود. وأرجو كذلك ان يُعين في مراكز السياسة الخارجية العليا رجالاً ناضجين يدركون معنى المسؤولية وأعباءها ويتحاشون ارتكاب الأخطاء أكثر مما يصرون على فعل ما يرونه صواباً. ففي الشؤون الدولية، وان لم يكن بالضرورة في الشؤون الداخلية أيضاً، يصح قول ادموند بيرك بأن قيمة الحكومة ترتفع بانخفاض ما تبديه من حماس.

ترى لماذا، بعد ان يكون الرئيس ومستشاروه قد قرأوا وهضموا كل ما كتبت، لماذا يلزموني الشعور بأن تصرفات الحكومة الأميركية حيال قضايا الأمن القومي ستستمر كما لو التزمت حبل الصمت؟ ولما كان هذا الكتاب سيرة ذاتية، ظننت من الأفضل اختتامه بالاجابة عن سؤال حول سيرتي كلها.

كيف أرى موقعي في هذا العالم اللامثالي الذي تخيلته؟

الحياة لعبة وسجال

منذ سنوات عديدة طلب إليّ وجيه من أصدقائي مساعدته في كتابة بضع مئات من الكلمات ليلقيها في ندوة موضوعها «بهذا أوّمن». ومع علمي بأنه التزم في حياته مبادئ ثابتة وصارمة (مثلاً: «النزاهة هي في العادة أفضل سياسة يتبعها المرء، إلا ان لهذه القاعدة حالات شاذة») فقد تعذر عليه التعبير عنها، كما انني لم أتمكن من مساعدته. وعندما صدر الكتاب أخيراً، تضمن أقوالاً لأكثر من أربعين شخصية من بريطانيين وأميركيين، لم يستطع فيها أي منهم الاسهام بأكثر من إشارة إلى المبادئ التي وجهت حياة كل منهم. أما أنا فلم أواجه تلك الصعوبة لأنني أنظر إلى الحياة على انها لعبة.

لا بد لي هنا أن أقصّ عليكم حكاية عن ابنتي ليني حدثت عندما كانت في السابعة أو الثامنة من العمر. بدأت الحكاية عندما دخلت ليني قفص العصافير في حديقة منزلها في بيروت ووجدت ببغاءها «أوسكار» ميتاً. علا صراخها ونحيبها وراحت تلطم الجدران برأسها حتى قمت لأستدعي طبيباً يهدى نوبتها الهيستيرية بالمسكنات.

ولكن خطرت لي فكرة أفضل. أخذتها من يدها الصغيرة وذهبت بها إلى الشرفة المطلّة على البحر وجلسنا على الأرجوحة. بصوت ملؤه الحنان حاولت ان أضع الكارثة في اطارها الصحيح فبدأت بالقول: «اسمعي يا ليني، ليست هذه نهاية العالم فأشياء كهذه تحدث لنا أيضاً لأن الموت من حقائق الحياة. دعيني أقول لك ما سنفعله سادع هاغوب النجار يصنع له نعشاً صغيراً تفرشه أملك بقطعة من الحرير ثم ندعو الكاهن الأب بيار ليتلو صلاة قصيرة ثم نضع اوسكار في النعش، وندعو كل أصدقائك إلى حفلة وداعه يكون فيها الثلجات والمنعشات والحلوى وكل توابعها ونضع النعش وفيه اوسكار الصغير في أحد قواربك الصغيرة ونقف عند الشاطئ نغني ونلوح له فيما القارب يتبعد في البحر. سيكون ذلك ماتم كماتم أبطال الفايكنغ القدماء».

كان اعجابي ببلاغي قد تملك مني فيما لبني تستوعب كل كلمة أتفوه بها عندما سمعنا صوتاً غريباً خافتاً ينبعث من القفص. نهضنا عن الأرجوحة وتوجهنا إلى مصدر الصوت الأخذ بالارتفاع فوجدنا أوسكار واقفاً على أرجوحته ينقر ريشه. وقفنا مشدوهين لبضع ثوان ثم نظرت لبني إليّ وقالت بحماس: «دعنا نقتله».

هل أدركتم ما أحاول قوله؟ فلو نظر الناس نظرة دراية حقاً إلى الأمور لرأوا في كل قضية تواجههم وصلة في لعبة الحياة، ولبات الكوارث قابلة للاحتمال، بل ونوعاً من المتعة. ففي آذار (مارس) ١٩٨٦ تعرضت لحادث سير خطير ولم يبق سالماً إلا القليل من عظام جسدي، ف قضيت ستة أشهر في المستشفى معظمها في آلام مبرحة. ولكنني في الواقع استمتعت بها. وكان ذلك الحادث والاستشفاء الذي تبعه خبرة جديدة في حياتي قضيت الكثير من وقتي في المستشفى أفكر بالاسلوب الذي سأكتب عنه به.

* * *

ملأت الصفحات السابقة كلها بالحديث عن «الألعاب» و«خطط الألعاب»، الخ. حتى ان البعض منكم الذين بلغوا هذه الصفحة سئموا منه. وغايتي من كل ذلك الوصول إلى النقطة التالية، في سيرتي الذاتية: وجدت انكم اذا كنتم ترون الحياة على انها «لعبة» - وهي تعبير استعمله بالمعنى الذي يستعمله الاستراتيجيون العسكريون والسياسيون والتجارىون وليس بمعنى اللهو والمجون - فإن في ذلك فوائد عديدة، منها القدرة على الاقتداء بالقول «دع الأمور تسير في أعتها...» فلا تدع السعيدة منها تملكك على أجنحة الخفة وفقدان الصواب، ولا السيئة منها تسحقك. ففي مقال كتبتة مرة لاحدي المجلات بعنوان: «هل ثمة حياة بعد الولادة» قلت اننا جميعاً نولد جميعاً نموت (البعض يبكرون كثيراً) ويتخلل هذين الحدثين الكثير من الأفعال منها الجيد ومنها السيء ولكننا نحاول تغليب الجيد على السيء. يبقى المهم هو اننا نعمل ما يستهويننا عمله وان حياتنا تكون جيدة بمقدار ما نستطيع المعادلة بين «المتع» و«القيم». (بمعنى «له مغزى» و«دلالة».

وما هو «القيم»؟ يعود أمر تعريفه إلى كل امرئ بمفرده، ولكن إذا جاز لي استعارة بعض كلمات السير نورمن انغل الذي قضيت بين يديه بضعة أشهر في نيويورك في أواخر الثلاثينات، أقول ما يلي: ان القيم التي تتوقف عليها صفة مجتمعنا تتأثر بالقوى العاطفية أكثر من القوى العقلانية وقد تكون تلك القوى عمياء وباطلة كما قد تكون خيرة. وكان السير نورمن يصّر على ان بمقدور كل فرد بمقدار قليل من ترويض النفس ضبط القوى اللاعقلانية الموجودة في كل واحد منا. لقد غابت عن ذاكرتي رتبة التدريب الذاتي الذي اقترحه، ولكنني اتبعت اسلوباً شخصياً أوصي به من يشاء: ان مجرد الادراك بأن «الحياة لعبة» هو بحد ذاته تدريب كاف.

تصرّ زوجتي على القول بأن وصف الحياة أو أي شيء آخر بأنه لعبة انما هو انتقاص من قيمة الحياة. ولكن الخطأ الذي ترتكبه في ذلك هو اعتبارها كلمة «لعبة» تعني ذلك اللهو الذي مارسه في صباها أيام الدراسة. فقد ثارت ثائرتها عندما وصفت الأشهر الستة التي قضيتها في المستشفى بأنها «فترة من الخبرة الممتعة». ومن أجل تنوير قراء مثلها يعتبرون ان كلمة «لعبة» تعني كرة القدم أو كرة السلة أشدد على القول بأنني أكتب حصراً عن الألعاب «الجدية» [او السجال] التي كتب عنها عالم الرياضيات الشهير جون فون نويمين والعالم الاقتصادي الذائع الصيت أوسكار مورغنشتيرن في كتابها القيم «نظرية الألعاب وصلتها بالتصرف الاقتصادي» وتلك التي كتبت عنها في كتابي القيم المتبع في معهد وكالة الاستخبارات المركزية وعنوانه «ألعاب دون رياضيات لمختلف ضباط الاستخبارات». ان النظرة إلى الحياة على انها لعبة لا تنطوي على أي انتقاص؛ انها تجعل المرء يرى الأمور في نصابها الحقيقي، من حيث «الحصول على أقصى المنفعة» و«تحمل أدنى الخسائر» حسب قول فون نويمين ومورغنشتيرن. وهي

في الوقت نفسه توفر المعايير التي تحدد ما هو الأقصى وما هو الأدنى.
فكّروا في ذلك. ان مجرد التأمل به يجعل منكم أناساً أفضل حتى ولو لم تدركوا الغاية «المفتاح» أو
(اللغز) التي حاولت اظهارها منذ الصفحة الأولى من هذا الكتاب.

المحتويات

الصفحة	
٥	كلمة الناشر:
	من «لعبة الأمم» إلى «اللاعب واللعبة»
٧	الفصل الأول:
	البداية في ولاية ألاباما
١٣	الفصل الثاني:
	المدرسة، فرق موسيقى الجاز والجيش الأميركي
١٨	الفصل الثالث:
	واشنطن في الحرب
٢٦	الفصل الرابع:
	لندن في الحرب
٣١	الفصل الخامس:
	الاستعداد لعملية أوغورلورد
٣٦	الفصل السادس:
	جهاز مكافحة التجسس
٤١	الفصل السابع:
	الطريق إلى باريس والدخول إلى باريس
٥١	الفصل الثامن:
	باريس والألمان: العثور على راينارد غيهلن
٥٩	الفصل التاسع:
	مجدداً في واشنطن: اللعبة وصناعة القرار
٦٦	الفصل العاشر:
	وكالة الاستخبارات المركزية الجديدة والعالم
٧٥	الفصل الحادي عشر:
	تجربة في سوريا: ١٩٤٧ - ١٩٥٠
٩١	الفصل الثاني عشر:
	واشنطن والحيل القذرة
١٠٦	الفصل الثالث عشر:
	وكالة الاستخبارات المركزية: منظمة أم بيروقراتية

١١٦	الفصل الرابع عشر:
	مهمة استطلاعية في مصر
١٢٨	الفصل الخامس عشر:
	شهر العسل الناصري
١٣٩	الفصل السادس عشر:
	العمل السياسي في الخفاء: هل هو شأن جدّي؟
١٥١	الفصل السابع عشر:
	إيران وغواتيمالا: ١٩٥٣
١٥٧	الفصل الثامن عشر:
	رقعة اللعبة على ضفاف النيل
١٦٥	الفصل التاسع عشر:
	كوبلاند وشركاه: هل يبحثون عن الحقيقة؟
١٧٤	الفصل العشرون:
	عبد الناصر ونقطة اللأرجوع
١٨١	الفصل الحادي والعشرون:
	نظرية مكافحة الكارثة و«بيت النمل»
١٨٦	الفصل الثاني والعشرون:
	كلمة ختامية في السيرة الذاتية

مَن هو اللاعب؟ ما هي اللعبة؟

إلى القارى العربى

هذا الكتاب عن «اللاعب واللعبة» جدير بالقراءة ويستحق الاطلاع عليه. إن مؤلفه قد وضعه في صيغة الاعترافات المدروسة بعناية فائقة لكي يتحدث عن دوره كعميل سياسي في ممارسة لعبة المخابرات انطلاقاً من مقولة محدّدة درجت بعض الأوساط على تسميتها بـ «لعبة الأمم».

ويحتل الشرق الأوسط مكانة بارزة ومحورية في تحركات اللاعبين وممارسة أطراف اللعبة و «قواعدها» على رقعة بلدانه بغية السيطرة على مقدراته والهيمنة على موارده والتحكم بمصائر شعوبه بغية تأمين مصالح الدولة التي تدير اللعبة وتسعى للاحتفاظ بمناطق النفوذ.

هناك لاعبون كبار وصغار، مقامرون ومغامرون ومأجورون مسخرون لخدمة أغراض اللعبة الكبرى التي تجري ممارستها تحت ستار «العمل السياسي الخفي» دون التورّع عن اللجوء إلى شتى أنواع الحيل القذرة والأساليب المبطنة بقصد إدارة اللعبة وإضفاء صفة البراءة والسجل العلني على مضامينها.

هذا الكتاب لا ينحصر في خانة الاعترافات التي يبوح بها لاعب متقاعد، بل يتعدّاها إلى الكشف عن أساليب «العمل السياسي» في التلاعب بمقدرات الشعوب ومصائر البلدان المتطلّعة نحو الاستقلال والتحرّر والتقدّم.

فاللاعبون الصغار يبدون، بمنظار اللاعبين الكبار، مجرد بيادق على رقعة شطرنج اللعبة ودمى في السجال وأحجار تحت رحمة النر وحظوظه.

